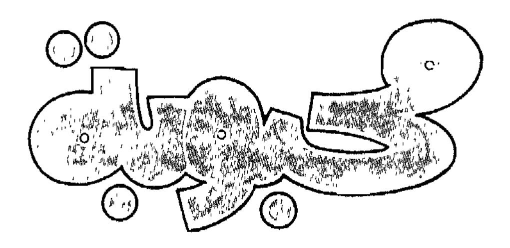

منتدى مكتبة الاسكندرية
من روائع الأدب الأمريكي المعاصر
توني موريسون
القصة الحائزة على جائزة
بوليتزر عام
١٩٨٨
ترجمة وتقديم
د. أمين العيوطي
Bibliotheca Alexandrina
0004869

من روائع الأدب الأمريكي المعاصر

توني موريسون



ترجمة وتقديم

د. أمين العيوطي

الطبعـة الأولـى
١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

تصميم الغلاف :
فرج حسن

مقدمــة

العمل الذى بين يدى القارىء كتبته روائية زنجية ـ أمريكية معاصرة ، هى تونى موريسون . ولدت فى ١٨ فبراير ١٩٣١ فى لورين بأوهايو لأب عامل كان يشتغل فى ثلاثة أماكن مختلفة فى نفس الوقت ليعول أسرته . كان واحدا ممن هربوا من مناخ العبودية العنصرى فى الجنوب الأمريكى ، ليستقر فى أوهايو حيث نشأت موريسون نشأة فقيرة وسط ظروف الكساد الاقتصادى الذى أصاب أوروبا وأمريكا فى أواخر عشرينات القرن الماضى وأوائل ثلاثينات القرن الحالى .

غير أن هذه النشأة مكنتها من استيعاب التراث الزنجى فى مجال الموسيقى والخرافات والأساطير والمناخ الثقافى لعائلتها . كان جدها يعزف الكمان ، وأمها تغنى فى جوقة المرتلين بالكنيسة وتفك رموز الأحلام . وكان تبادل الحكايات أمرا مشتركا يتبادله رجال الأسرة ونساؤها ، خاصة حكايات الأشباح والأرواح . كان هذا المناخ الأسرى ، كما سنتبين من خلال هذه الدراسة ، عاملا شديد الأهمية فى تكوينها فنيا وفى تشكيل فنيات العمل لديها ، تماما مثلما أثرت فيها قراءتها لعيون الأدب الانجليزى والفرنسى والروسى وهى بعد فى سن المراهقة .

أنهت موريسون دراستها الثانوية بتفوق ، والتحقت بجامعة

هوارد حيث حصلت على درجة الليسانس فى ١٩٥٣ ، وعلى درجة الماجستير من جامعة كورنيل فى ١٩٥٥ ، ثم عملت مدرسة لغة بجامعة تكساس الجنوبية ، ثم بجامعة هوارد الجامعة الأم التى تخرجت منها ، بين ١٩٥٥- ١٩٦٤ . وبينما كانت تعمل تزوجت من هارولد موريسون ، وهو مهندس معمارى من جامايكا ، ورزقت منه بطفلين قبل طلاقها منه فى عام ١٩٦٤ ، حين اتجهت إلى العمل محررة ، ثم كبيرة محررات ، فى دار راندوم للنشر حتى الآن ، وإن عملت فى هذه الأثناء فى جامعات ييل ونيوهيفن وكونتيكت محاضرة زائرة .

وقد صدرت لها عدة أعمال روائية . كان أولها **أزرق عين** التى صدرت عن دار هولت راينهارت ، نيويورك ، ١٩٧٠ ، وأعيد إصدارها عن دار نشر تشاتو دونيدس ، لندن ١٩٨٠ . ثم صدرت روايتها الثانية **سولا** فى نيويورك ولندن فى آن واحد ، ١٩٧٤ . وقد تكون شهرتها قد تحققت بهذين العملين ، لكنها تأكدت بصدور عملها الروائى الثالث **أغنية سليمان** التى صدرت فى نيويورك ولندن أيضا فى آن واحد فى عام ١٩٧٨ ، وهو العمل الذى نالت عنه جائزتين إحداهما من الأكاديمية الأمريكية فى عام ١٩٧٩ ، وهو ما أتاح لها تعيينها فى مجلس الرئيس كارتر القومى للفنون والآداب ، كما أتاح لها انتخابها عضوا فى الأكاديمية الأمريكية ومعهد الفنون . ولم تلبث أن أصدرت عملين روائيين بعد ذلك : **طفل القطران** ، ١٩٨١ ، **ومحبوبة** ، ١٩٨٧ . وعلى الرغم من أنها لم تكن تميل إلى الكتابة للمسرح ، وتفضل أن تكون الراوية التى تنسج خيوط كل عملها الروائى دون تدخل

من مخرج أو مصمم ديكور أو ملحن أو ممثل، إلا أنها كتبت للمسرح مسرحية واحدة هى **إيميت الحالمة** التى عرضت لأول مرة فى ١٩٨٦ . وبهذا تصبح موريسون، كما تقول نيللى م . ماكاى، أغزر الكاتبات الزنجيات ـ الأمريكيات إنتاجا .

ولعل موريسون هى الكاتبة الزنجية ـ الأمريكية الوحيدة التى تصدرت صورتها غلاف مجلة «نيوزويك»، وهو مالم يحدث لكاتب زنجى ـ أمريكى أو كاتبة زنجية ـ أمريكية، وعزز هذا وضع الكاتبات الزنجيات فى الأدب العالمى، وكسب لهن شهرة عالمية بحيث قال عنها أحد النقاد البيض، ايرل فريدريك، «إذا كان هناك أى أمل فى أن يستطيع كاتب زنجى معاصر أن يحقق، بالشكل الذى يرضى البيض، لا مجرد مزيج كاف غير قابل للدحض من الشكل الزنجى والمحتوى الإنسانى . . فلابد أن هذا منوط بتونى موريسون . » وقد وصلت رواياتها اليوم إلى قاعات الدراسة والبحث فى مقررات الدراسات الإفريقية ـ الأمريكية، الأدب الأمريكى، والدراسات النسائية . كما ترجمت أعمالها إلى اللغات الألمانية والأسبانية والفرنسية والفنلندية والإيطالية، وها هى تترجم الآن إلى العربية .

الموضوع الأساسى فى كتاباتها

فى كل رواياتها تستكشف موريسون الصراع بين الفرد والمجتمع، سواء كان هذا المجتمع مجتمع البيض أم مجتمع الزنوج . الموضوع الأساسى فى كل أعمالها الروائية هو عدم

التوافق الذى تحفل به هذه الأعمال فى تصويرها للعلاقات بين البيض والزنوج أو بين الزنوج والزنوج على حد سواء . فهى تتناول إرث الإنسان الإفريقى ـ الأمريكى الذى ما أن تتضاءل علاقته بالجنوب الأمريكى الريفى على امتداد الزمن والأجيال حتى تتبلور معالم تجربته : تجربة غربته عن نفسه ، بل حتى عن أطفاله ذاتهم ، فى ظل العبودية المدمرة لكل المعانى الإنسانية ، وتجربة الغربة مع الآخرين والتقوقع داخل الذات بعد أن ينجح فى شراء حريته أو الهرب أو التحرر . وربما كانت **محبوبة** من بين كل أعمالها هى التى تتناول هذه العلاقة التاريخية بين البيض والزنوج بشكل أكثر خصوصية .

فى **محبوبة** يتبلور هذا الموضوع من خلال تصوير الصراع بين الزنوج والبيض . البيض هم الذين يطرحون سيث أرضا ليرضعوا حليبها ، ثم يجلدونها ليرتسم الجلد شجرة عذاب على ظهرها إلى الأبد ، ويعلقون جثة بول ف . على الأشجار بلا قدمين أو رأس ، ويحرقون سيكسو قبل أن يطلقوا عليه النار ، وقبل هذا وذاك يسخرون العبيد لفلاحة الأرض ويؤجرون عملهم للآخرين ويبيعونهم ويشكلون عصابات الكلوكس كلان لإعدامهم دون محاكمة ، ويؤجرون النساء الزنجيات لراغبى المتعة . صحيح أن هناك من بينهم فئة أكثر رحمة ، ولكنها ليست رحمة بلا ثمن . فإذا كان مستر جارنر يوافق على أن يشترى هال حرية أمه بعمله أيام الآحاد لمدة خمس سنوات ، فليس هذا إلا لأن الأم قد أصبحت غير ذات نفع بعد أن كسرت حرقفتها ، ثم لأنه ضمن أن الزوجين الشابين هال وسيث سوف يوفران له نسلا بلا مقابل . وإذا كان

آل بودوين يوفرون سبل الحياة للهاربين من الجنوب فليس ذلك إلا لأنهم «يكرهون العبودية أكثر من كراهيتهم للعبيد» ، كما تقول كلمات الرواية .

والزنوج ثلاثة أجيال : جيل الجدة بيبى سجز التى تمثل الرابطة بين أفريقيا وتجربة العبودية فى الجنوب الأمريكى ، وجيل الأبناء الذين لاتعرف عنهم الجدة شيئا بعد أن بيعوا صغارا ولم يبق منهم إلا هال - وهو نفس الجيل الذى يضم سيث وسيكسو وآل بول الثلاثة ، وجيل الأحفاد الذى يضم أطفال سيث الأربعة الذين تقدم سيث على ذبح واحدة منهم لتشترى حرية الآخرين ، فلا يبقى منه إلا دنفر وشبح أختها الذبيحة «محبوبة» التى تتمثل بشرا لتطارد ضمير سيث . وهنا تدخل تجربة الغربة مع الآخرين الذين يرفضون جريمة سيث ، فتعيش معزولة مع من بقى لها لا تتصل بأحد ولايتصل بها أحد ، حتى تتقبل دنفر على تحطيم هذا الحاجز فيسعى الجميع الى تخليص سيث وخلاصها والتئام شملها أخيرا مع العالم .

هاتان التجربتان تصبان أولا وأخيرا فى إحدى الأفكار الأساسية فى الرواية وهى فكرة الشر . ومن الواضح أن تونى موريسون منبهرة بالشر بنفس القدر الذى ننبهر به نحن : الشر فى أعماق الإنسان الذى يستفز نوعا من الشر الميتافيزيقى الماكر الخبيث الذى يتمثل بشرا سويا فى واحدة من أكثر شخصيات الرواية إبهارا . هى «محبوبة» التى تعود إلى الوجود امرأة رائعة جذابة أخاذة إنما ينطوى قلبها على التنكيل بالآخرين والثأر لنفسها . هو شر ينبعث فى المقام الأول من نفوس البيض

فى قدرتها على الإيذاء والتدمير، واستفزاز الشر فى النفس الزنجية بحيث تعود بالجميع إلى عصر الغاب. فالبيض، كما تقول بيبى سجز، هم الشر.

خصوصية الرواية

ولعلنا نتبين من هذا أننا نتحرك فى هذه الرواية على أكثر من مستوى، ووسط أكثر من دائرة. أصغر الدوائر تضم الشخصيات التى نعيش تجربتها ومأساتها، والتى تتحرك فيها الأجيال الثلاثة؛ الدائرة الأكبر هى دائرة المجمتع الزنجى التى تفرض تجربة الغربة حين تتفجر ينابيع الشر فى نفس واحدة منهن وهى نفس الدائرة التى تمثل التأثير الشافى والالتئام فى النسيج الاجتماعى فى النهاية؛ الدائرة الواسعة هى دائرة البيض التى تحيط بالدائرتين إحاطة السوار بالمعصم وتحكم سيطرتها وانطباقها بتعصبهم العرقى؛ الدائرة الأكثر اتساعا هى دائرة الطبيعة التى تلوذ بها بيبى سجز لتثير فى الناس المحبة، وتلوذ بها دنفر فى وحدتها لتلتمس الأنس والصحبة فتمثل أثرا شافيا من كل الآلام، والتى يصاحب ازدهارها رحلة بول د فى طريقه إلى الحرية؛ والدائرة الأوسع دائرة العالم الميتافيزيقى الذى تفد منه «محبوبة» وتصفه لنا وتتغنى به. ولعل معايشة الشخصيات لهذه العوالم هو مايضفى عليها صفة أسطورية. لكن هذا لايعنى، كما لاحظ الكثيرون من النقاد، أن تونى موريسون تضفى على شخصياتها حياة تتجاوز زمانها ومكانها. فنحن لايمكننا أن نتخيلها تعيش خارج هذه البيئات حين نصل إلى أعماق وجودها

لنرى الدوافع التى تحرك سيث الى الحب أو تحرك فيها عدوانيتها . فالتجربة على المستوى الطبيعى والميتافيزيقى لا تجنح بنا الى عالم من الرومانسية والوهم بقدر ماتحملنا الي عالم الرؤيا التى تعيش فى عينى الكاتبة. فآلام هؤلاء الناس ومتطلباتهم من الحياة مألوفة لدينا حتى أننا لانستطيع أن ننكر عليهم مأساتهم . فهى تجربة لاتقتصر على زمانهم ومكانهم ، بل تمس آلامنا المترعة بكل ضحكاتهم وسخريتهم ومأساتهم وقدرتهم على الصمود الإنسانى الهائل وعلى تحمل المصير الإنسانى وتشوف المستقبل . هذا هو مايخلق من البشر العاديين أسطورة .

وفى سبيل تصوير هذا تلتمس موريسون أسلوبا فنيا شديد الخصوصية والتميز . ففى ردها على محاولة ديفيد م . هيتون تشبيهها بجيمس جويس ووليام فوكنر فى استكشافها للمكان ، سواء كان هذا المكان دبلن جويس أو أكسفورد فوكنر ، تقول ، «إننى أحاول أن أكون شيئا ربما وجد عنه تعبيرا كاملا فقط فى الموسيقى السوداء ... وكتابة الرواية وسيلة لاحتواء هذا الشىء .» إن موسيقى الجاز ، كما تقول ، «تبقى المستمع دائما على حافة ، لاتصل به الى نهاية . فليست هناك نغمة نهائية مغلقة ، بل نغمة ممتدة بلا نهاية . ولما كانت هذه الموسيقى لم تعد زنجية خالصة ، فلابد أن يأخذ مكانها شىء آخر . » والرواية الزنجية ـ الأمريكية هى هذا الشكل . بل ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذا الرقص الشعائرى أيضا ، ذلك الرقص الذى تقوده بيبى سجز وسط الأشجار فترجع الأشجار دبيب أقدام الراقصين وهديرها ،

وتتساقط له أوراق أشجار الكستناء كأنها رؤى تتساقط في نفوس الراقصين لتجمعهم في وحدة واحدة .

ولانعني بهذا مجرد استخدام أغاني العمل في المزارع التي يتغنى بها بول د ، أو أغاني المهد التي تتغنى بها الفتاة البيضاء المهجنة ، أو الأغاني الروحية التي تتغنى بها «محبوبة» ، أو الرقص الشعائرى الذى يدوى فى جنبات الغابة الزنجية ـ الأمريكية السوداء ، بقدر مانعني استخدام الأسلوب الذى تجتمع فيه وحدة المغني ـ الأغنية ـ المتسمعين ، أو وحدة الصوت ـ النص ـ الجمهور ، ووحدة الراقصين فى إيقاع هادر واحد يضمهم جميعا ، حيث تصبح الوحدة مشاركة جماعية أشبه بوحدة منصة المسرح والصالة ، وهي وحدة لم يسبق أحد موريسون إليها فى محاولة تحقيقها فى الشكل الروائي على الإطلاق . ربما حاول هذا توماس هاردى أو جورج اليوت من خلال استخدامهما للجوقة التى تردد ضمير المجتمع . لكن المحاولة هنا تكتسب أبعادا أوسع بكثير ، إذ تخلق من الرواية والمستمع وحدة واحدة . ولم يحدث هذا عفويا ، بل كان هدفا من الأهداف الواعية التى تحاول موريسون تحقيقها فى الشكل الروائى . فهو أثر من آثار التراث الزنجى الثقافى الذى ورثته عن أسرتها ، وشكل من أشكال السرد الذى درجت عليه عائلتها وأفرادها يتبادلون الحكايات واحدا بعد الآخر والجميع يستمعون . ولهذا تتعدد الأصوات الراوية فى «محبوبة» . هذا أحد الملامح الفنية البارزة فى الرواية . فليس صوت موريسون هو الصوت الوحيد الذى نسمعه . هناك صوت سيث ، وصوت دنفر ، وصوت بول د . وصوت ستامب بيد ،

وصوت «محبوبة» طبعا ؛ وهناك المونولوجات الداخلية الكاشفة، بحيث يتوحد العالم الذاتى والعالم الموضوعى أيضا فى وحدة واحدة. فطريقة السرد توحى بوجود مستمع مشارك لا قارىء متباعد منعزل. فالكاتبة تعتمد فى النهاية شكلا تراثيا شعبيا فى سرد حكايتها.

لغة خاصة

ولاينعكس هذا الأسلوب التراثى على تعدد صوت الراوية فحسب، بل ينعكس على لغة السرد التى تحاكى اللغة الانجليزية كما ينطقها الزنوج، ولغة الحوار كما يتكلمونها، وهى لغة تعتمد نغمتها على اللهجة وإيقاعها لتعبر لا عن مجرد مجتمع وإنما عن إرث وتراث. هى لغة بها من البساطة والقدرة والإحكام والبعد عن الجمل الزخرفية بقدر مابها من ألفة نغمة الحوار وشاعريته. فهى لغة مشحونة فى الحالين، فى السرد والحوار، بظلال نطق الزنوج للكلمات، وظلال نطق كل شخصية على حدة، بنفس القدر الذى تشحن بها موريسون النجوى الذاتية بشكل يقرب الشخصية من ذهن القارىء وقلبه، ووعيها بما تفعله يجد صداه فيما تقوله.

«أن نجعل القصة تبدو شفهية، بلا جهد، منطوقة. أن نجعل القارىء **يشعر** بشخصية الراوية دون أن يحددها، أو أن يسمعه أو يسمعها وهى أو وهو يتجول، وأن نجعل القارىء يعمل مع المؤلف فى بناء الكتاب. هذا هو الشىء المهم.»

نحن إذن أمام محاولة جادة وواعية وعميقة لتحديث الأصالة -

وهى محاولة لاتنعكس على الأسلوب فحسب بل على الشكل الروائى أيضا . فالقارىء لايبدأ هنا من التدرج الروائى المألوف الذى يبدأ من البدايات الأولى للحدث ويتسلسل فى خط زمنى مستقيم ، بل يبدأ شأنه شأن التراجيديات الاغريقية ، من بداية نهاية الحدث ، حين يجد القارىء نفسه مستغرقا فجأة فى حدث مثير ، هو فى «**محبوبة**» عبث الشبح أو الروح بأثاث البيت وأهله وإطاحته بكل شىء . ولايستفز هذا فيه الفضول ، بقدر مايثير اهتمامه بالغموض وهو يجد نفسه وسط شخصيات تعقدت حياتها ، وتعقد تاريخها الشخصى بحيث أوشكت جميعا على الهرب أو الموت أو الانهيار أو الجنون . فهو شكل يعتمد على تقديم شخصيات يقوم تكوينها على تركيب نفسى غامض ، ويحرص على تقديم شخصيات باهرة فى حد ذاتها ، ترتبط صفاتها بتاريخها الشخصى والجماعى ، وعند كل منعطف من حياتها تبرز حقائق تحدد نموها وتطورها . وهو مايجعل القارىء مشغولا لابالقصة ، كما تقول مارجريت ب . ويلكرسن ، ولكن بالطريقة التى حدثت بها الأشياء ، ولماذا حدثت بهذا الشكل . أى أنها تثير اهتمامه لا بالقصة وإنما بالحبكة .

والبداية من نهاية الحدث تحتم بالضرورة خطة زمنية محددة . فالأحداث تندفع بنا الى الأمام لكى ترجع بنا الى الخلف . فتفسير الدوافع والأحداث يكمن فى الماضى . ليس هناك تصوير للواقع حسب الترتيب الزمنى أو الحبكة المتتابعة . هناك هذه الحركة الدائمة إلى الأمام والى الخلف . فالقارىء لايتسلسل به الزمن ، بل يعيش الحاضر ليعود إلى الماضى ثم ليرتد ثانية إلى اللحظة

الحاضرة. بهذا يتكامل الحاضر والماضى، فيصبح الحاضر امتدادا لا ينفصل للماضى. وهذا التداخل يتأكد فى «**محبوبة**» لا من خلال رحلة الهروب الى الأمام من الجنوب إلى الشمال، أو رحلة الهروب إلى المستقبل مع العودة الدائمة الى الماضى فحسب، بل يتأكد أيضا من خلال ارتباط عالم الواقع بعالم الفانتازيا الذى يغشى الحاضر فى هذا الاتصال الدائم بين عالم المادة وعالم الروح. فمواقف الشخصيات، كما تقول ويلكرسن، ومعتقداتها وأوهامها ومخاوفها مرتبطة بماض محير، والنظر الى الوراء يكشف بالتدريج، كما يخلق الغموض والتوتر فى الحبكة.

وليست هذه وسيلة موريسون الفنية الوحيدة لتصوير وحدة الزمن. بل إننا نتبينها أيضا على مستوى اللغة فى استخدامها للأزمنة، بحيث يتداخل الزمن الماضى مع الزمن المضارع بشكل عضوى غير مغلق، يعكس تداخل الزمنين واستمراريتهما. وهو أسلوب فى الروى لايكشف مرة واحدة عن هذه اللوحة الهائلة من الشخصيات والأحداث والمصائر، لكنه يكشف بالتدريج وكأنه يزيح الستار شيئا فشيئا عن ماضيها وحاضرها ومصيرها، بحيث لاتتكشف لنا أجزاء اللوحة كاملة إلا عندما نصل الى النهاية فقط.

وفى هذا تختلف روايات موريسون عن الشكل التقليدى الذى يقوم على تطور الحدث فى خط مستقيم، وعلى افتراض قارىء يقرأ قراءة متأنية متصلة، كما تختلف عن الرواية الحديثة التى تقوم على التقطيع والتجزىء. فمع روايتها يجد القارىء نفسه مع محاولة لتحرير الرواية من إسار الواقعية ومن الحداثة معا،

وإحلال الحس التاريخى بأصل الرواية الذى يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ ، كما تقول سوزان ويليس . إنه يضرب فى الحقيقة بجذوره فى أعماق ثقافة أفريقيا أو بما أسمته موريسون « الصفات الزنجية التى تفوق الوصف . » فرواياتها ، فى التحليل الأخير ، تضرب بجذورها فى الحكمة الإفريقية والحس الجمالى الافريقى اللذين ورثتهما فى دمها ، واللذين مازال يخاطبان عقلها ووجدانها إلى اليوم .

موقع أعمالها

وروايات موريسون فى الحقيقة تأتى تتويجا لكل المحاولات التى سبقتها أو ماتزال تعاصرها بحيث يمكن اعتبارها نموذجا متكاملا لهذه المحاولات . فالحقيقة أنه على الرغم من أن الكاتبات الزنجيات ـ الأمريكيات استغرقن زمنا للتمكن من الشكل الروائى ، إلا أنهن ، كما تقول نيللى مكاى ، فيما بين ١٩٥٩ ـ ١٩٦٤ دفعن الى المطابع بما لايقل عن تسع وخمسين رواية ، وقد تضاعف هذا العدد منذ ذلك الحين . وقد أسهمت موريسون بصفتها محررة فى دار راندوم فى نشر العديد من الروايات الزنجية ـ الأمريكية لأنجيلا ديفيس ، تونى كيد بامبارار ، هنرى ديماس ، جيل جونز بصفتهم وصفتهن « زنوجا يتحدثون إلى زنوج .. »

ولعل الصفة المشتركة بين موريسون وبين غيرها من الكاتبات الزنجيات ـ الأمريكيات يكمن فيما تقوله سوزان ويليس : « لاأحد يستطيع أن يقرأ رواية كتبتها تونى موريسون أو أليس ووكر أو

بولا مارشال دون أن يواجه التاريخ ويشعر بتأثيره ويمر بتجربة التغيرات التي فعلها التاريخ » فالكاتبات الزنجيات- الأمريكيات يرين الثقافة والفن مرادفين للتاريخ. وفيما بينهن يشكلن مجموعة من الكتابات مكرسة لاستعادة ثقافة الإفريقي- الأمريكي من لغة وأغان ورقص وحكايات، وكل الممارسات التي شكلت حياة الزنوج اليومية لربط هذه الثقافة بثقافة الإفريقي- الأمريكي في الثمانينات من القرن العشرين. مثل هذا الاستدعاء للتاريخ نلمسه في شخصية بيبي سجز وسيث وبول د. في « محبوبة ». كلها صور تتضمن إعادة بناء الشخصية الفردية في علاقتها بالقوى التاريخية التي شكلت هجرات الجنس الزنجي خلال عدة أجيال من أفريقيا إلى الجنوب الأمريكي ثم إلى الشمال الأمريكي. هي رحلة توجزها حياة بيبي سجز في الباخرة التي حملتها الى الجنوب حين كانت عرضة لاغتصاب البحارة والتخلص من أطفالها منهم، الى الجنوب حيث يبيع البيض أطفالها ويكسرون حرقفتها، الى الشمال حيث تجد الحرية والاستقرار أخيرا، وهي رحلة تفصِّلها رحلة معاناة سيث من الجنوب إلى الشمال حيث يلاحقها الجنوب ويقضي إلى الأبد على استقرارها وأمنها؛ وهي رحلة هرب بول د. وربما تتخذ هذه الرحلة أشكالا أخرى في كتابات روائيات زنجيات- أمريكيات أخريات، مثلما يفعل جرانج كوبلاند في رحلته من الشمال الى الجنوب في رواية أليس ووكر، **حياة جرانج كوبلاند**، بدافع التعرف على ماضي جنسه في الجنوب؛ أو رحلات ايفي جونسون في رواية بولا مارشال، **الفتاة السمراء، الأحجار السمراء**، الى البحر الكاريبي لتقيم جسرا الى ماضي قومها. في هذه الأمثلة وغيرها يحكي التاريخ

الشخصى تاريخ الزنوج الأمريكيين من الأسر والعبودية الى الحرية التى يلاحقهم فيها الماضى.

لم ينشأ هذا الاتجاه فى كتابات الروائيات الزنجيات-الأمريكيات من فراغ. فقد كان وراءه ما أسمى بنهضة الإفريقيين-الأمريكيين فى عشرينات القرن الحالى، حين ظهر نشاطهم الخلاق فى مناطق عديدة من الموسيقى والشعر والدراما والرواية. ففى ذلك العقد ظهر ما يقرب من أربع وعشرين رواية، بحيث أطلق بعض النقاد على هذه الفترة «النهضة الزنجية» بصفتها تعبيرا ذاتيا عرقيا داخل إطار الثقافة الأمريكية التعددية، مما دفع الكثير من الكتاب البيض الى تبنى هذه النهضة والى حفز الصحف الى أن تكرس أعدادا كاملة للأدب الزنجى، وأن ترصد جوائز لأفضل رواية يكتبها زنجى عن حياة الزنوج الأمريكيين.

عن هذه الفترة يقول أمريتجيت سنج إن هارلم، حيث يعيش بسطاء الزنوج، ارتبطت بهذه الحركة الزنجية الجديدة بحيث أطلق على هذه الحركة أيضا «نهضة هارلم» التى قامت على الوعى بتعقد القوى الاجتماعية والثقافية التى تؤثر فى الحركة الزنجية الجديدة. ولعل فى هذا ما يفسر النبرة الشعبية فى الأدب الزنجى-الأمريكى الحديث. غير أن الحركة سرعان ماأمتدت لتشمل مدناً أخرى مثل واشنطن وشيكاغو ولوس أنجيلس فى مجالات الشعر والدراما والفن التشكيلى من رسم ونحت. وتألفت الجمعيات الأدبية فى بوسطن وفيلادلفيا. وانتشرت الصحافة الأدبية الزنجية، فبرزت كثير من أسماء الشعراء والكتاب الذين أسهموا

إسهامات رئيسية فى «النهضة الزنجية» أو «نهضة هارلم» التى غدت تعبيرا عن ظهور الفنون بين الملونين فى طول أمريكا وعرضها .

كانت دعوة هذه النهضة ألا تستعبد الثقافة الأنجلوسكسونية الزنوج الذين يتمتعون بالضرورة بوعى مزدوج لتجنب الازدواجية فى الروح والفكر والمثل العليا ، والى إيجاد رابطة بين ما حل بهم من قهر مشترك ولغة تعبر عنهم . بل لقد ربطت هذه الحركة بين نفسها وبين حركات التعبير الشعبى الوليدة فى الهند والصين ومصر وايرلندا وروسيا وبوهيميا وفلسطين والمكسيك . وكانت أهم ملامحها أن تكون واعية بعرقها بدون نعرة ، وأن تعرض حياة الزنوج وفكرهم اللذين يثيران الخيال ويتحديان التعصبات الثقافية ، وأن ترتكز الى التقاليد الزنجية والفنون الشعبية لتطور أدبها وفنها وموسيقاها . وبهذا كانت الحركة حركة فلسفية جمالية قبل أن تكون حركة سياسية . فلم تنظر الى وجود تعارض بين «أمريكى» و «زنجى» ، بل نظرت إلى نفسها على أنها فرصة لإثراء الثقافتين من خلال التبادل الثقافى بينهما .

ويواصل أمريتجيت قوله ،إن الحركة كانت تنشد فى المقام الأول تحويل التجربة الزنجية ـ الأمريكية بكل ثرائها وتنوعها وحدتها وعذابها الى مادة للفن والأدب . أما الدرس الذى كان يمكن للفنان الزنجى أن يتعلمه من الفن الإفريقى فهو درس النظام والأسلوب والتحكم والتقنية ، بحيث يصبح الفن الزنجى ـ الأمريكى دليلا على التنوع العرقى فى أمريكا . كان هذا الاتجاه يتبناه واحد من أهم منظرى الحركة وهو ألن لوك . وربما كان من أهم

أهداف الحركة هو الاهتمام بالجاز الإفريقى والفن والنحت الإفريقيين وقيم مجتمع ما قبل الصناعة .

غير أن هذه النهضة سرعان ماإصطدمت باتجاه الحركات الفنية الأوروبية الى التركيز على الجانب البدائى من الحياة الإفريقية ، واعتبار الزنجى مزيجا من الوحشية والهمجية يقف ضد صرامة النظام الأوروبى ، وعادت الى الوجود فكرة المتوحش النبيل الرومانسية ، ابن الطبيعية غير الملوث ، التلقائى ، الخالى من الهموم الذى يتمتع بحرية جنسية وبالبساطة الغريزية والحيوية والانغماس فى الملذات . ووجد هذا التصور صدى لدى كثير من الكتاب الأمريكيين أمثال يوجين أونيل ، جرترود شتاين ، وشيروود أندرسن الذين رأوا فى بدائية الزنجى خصائص تعتبر حصناً ضد التوحيد المتزايد لشخصيات البشر . وشجع هذا الاتجاه بعض الكتاب الزنوج۔ الأمريكيين الجنوبيين الذين راحوا يركزون على الزنجى البسيط ولهجته والجوانب الأخاذة فى الحياة الزنجية . غير أن تصويرالزنجى بهذه الصورة جعل من العسير أن تتطور « نهضة هارلم » الى حركة أدبية زنجية . وضاعف من هذه الصعوبة طلب الناشرين البيض لمثل هذه الأعمال بصفتها تتفق ورؤية القارىء الأمريكى للشخصية الزنجية ، وإعراضهم عن الأعمال التى لاتساير هذا الاتجاه مما دفع الكثير من كتاب هارلم الى مسايرة هذا الاتجاه .

وعلى الرغم من أن حركة العشرينات فشلت فى خلق حركة أدبية زنجية ۔ أمريكية إلا أنها أثارت الكثير من الجدل فيما بعد حول الجوانب الثقافية والفنية للأدب الزنجى ۔ الأمريكى ، وخاصة

فى الستينات والسبعينات . ولعل أهم ماتعلمه كتاب هذه الفترة من أخطاء «نهضة هارلم» هو إدراكهم للمخاطر التى تصاحب توجيه دوافعهم الفنية الى احتياجات جمهور القراء البيض . فقد كان ممن تأثروا بالجوانب الايجابية فى هذه الحركة ليوبولد سنجور من السنغال ، وايميه سيزير من جزر المارتينيك ، وبعض المثقفين الإفريقيين الذين استمدوا إلهامهم من الدعوة الى القومية الزنجية مثل سيمبين عثمان وعثمان سوسى ، والكاتب الإفريقى الجنوبى بيتر ابراهامز .

بل إن الحركة قد أرست قواعد فنية خاصة بالتذوق الفنى والفن ، كما حظيت قوالب التعبير العرقية باهتمام نقدى مما ساعد على إرساء كثير من التصورات اللاحقة لدى الكتاب الزنوج - الإفريقيين أنفسهم . ولعل أبرز ماتعلموه فيما بعد ، وهو مانادى به لانجستون هيوز بعد فشل الحركة ، ألا يتوجهوا الى الإرث الإفريقى كنقطة انطلاق تختلف عن نقطة انطلاق الكتاب البيض . فالحياة الزنجية - الأمريكية ذاتها حافلة بالكثير من الموضوعات تكفى لأن تزود الفنان الزنجى بأعمال إبداعية تمتد على طول حياته . لكن الكاتب الزنجى يستطيع أن يضفى على هذه الموضوعات «شخصيته العرقية ، إرثه من الإيقاع والحرارة وحسه الفكاهى المتضارب الذى يصبح فى أغلب الأحوال ، كما فى الأغانى الزنجية الحزينة ، ضحكا ساخرا يمتزج بالدموع .»

كانت هذه دعوة لأن يعكس الفنان الزنجى - الأمريكى خلفيته العرقية وبيئته الأمريكية فى آن واحد . فتلقفتها أجيال الكتاب الزنوج - الأمريكيين فى الستينات والسبعينات ليضيفوا إليها

ويعمقوها ويخلقوا بذلك أدبا متميزا فى شخصيته، متفردا فى طبيعته، وهو مانلمسه فى العمل الذى بين يدى القارىء الآن وفى نكهته الخاصة للكاتبة الزنجية- الأمريكية المتميزة تونى موريسون.

[سأدعو الذى ليس شعبى شعبى
والتى ليست محبوبة محبوبة]

رسالة بولس الرسول
إلى أهل رومية ٩ : ٢٥

١

كان البيت رقم ١٢٤ مليئا بالحقد . مليئا بغل طفل.. كانت النساء فى البيت يعرفن ذلك وكذلك الأطفال . لسنين ظل كل واحد منهم يصبر على الحقد بطريقته الخاصة ، ولكن ماأن حل ١٨٧٣ حتى كانت سيث وابنتها دنفر ضحيتيه الوحيدتين .فقد ماتت الجدة ، بيبى سجز ، وهرب الابنان ، هوارد وبجلر ، عندما بلغا الثالثة عشرة - ما أن تناثرت إحدى المرايا شظايا بمجرد النظر إليها (كانت تلك إشارة الخطر بالنسبة لبجلر) ؛ وماأن ظهرت بصمات يدين دقيقتين فى الكعكة (وكانت تلك هى النهاية بالنسبة لهوارد) . لم ينتظر أى من الولدين حتى يرى أكثر ؛ غلاية أخرى مليئة بالبازلاء يتصاعد منها الدخان فى كومة على الأرضية ؛ وفتات بسكويت هش تناثر على طول خط بجوار عتبة الباب . لا ولم ينتظرا فترة من فترات الفرج : الأسابيع ، بل الشهور ، حين لم يكن يتعكر صفو شىء . لا . هرب كل منهما فى الحال - فى اللحظة التى اقترف فيها البيت ماكان بالنسبة له الإهانة الوحيدة التى لاتحتمل أو تشاهد مرة أخرى . خلال شهرين فى عز الشتاء ، تاركين جدتهما ، بيبى سجز ، وسيث أمهما ، وأختهما الصغيرة دنفر وحدهن بغير عائل فى البيت الأبيض والرمادى فى شارع بلوستون . لم يكن يحمل رقما عندئذ ، لأن سنسناتى لم تكن ممتدة الى هذا الحد . والحقيقة أن أوهايو كانت قد أطلقت على نفسها

اسم ولاية منذ سبعين سنة فقط حين حشا أحد الأخوين ثم الآخر حشوة لحاف فى قبعته ، واختطف حذاءه ، وتسلل هربا من الحقد الصارخ الذى كان البيت يشعر به تجاههما .

لم ترفع بيبى سجز حتى رأسها . من سرير مرضها سمعتهما يرحلان ولكن لم يكن ذلك هو السبب الذى من أجله رقدت ساكنة . كان من المدهش بالنسبة لها أن حفيديها قد استغرقهما وقت طويل ليدركا أن كل بيت لم يكن مثل البيت الذى يقع فى شارع بلوستون . لم يكن بامكانها أن تهتم بأن تودع الحياة أو أن تحياها وهى معلقة بين قرف الحياة وحقارة الأموات ، ناهيك عن خوف صبيين يتسللان . كان ماضيها مثل حاضرها ـ حياة غير محتملة ـ ولما كانت تعلم أن الموت يمكن أن يكون أى شىء إلا النسيان ، فإنها استخدمت ماتبقى لها من طاقة ضئيلة لتفكر فى اللون .

« هات قليلا من اللون الأرجوانى الشاحب ، إذا كان لديك أى منه . أو القرنفلى ، إذا لم يكن لديك . »

وكانت سيث تمن عليها بأى شىء ابتداء من اللباس الى الكلام . فقد كان الشتاء فى أوهايو قاسيا بوجه خاص إذا كان لديك عشق للألوان . كانت السماء وحدها هى الدراما المليئة بالاحداث . وكان الاعتماد على أفق سنسناتى فى الاستمتاع ببهجة الحياة الأساسية أمرا طائشا حقا . ولذا فإن سيث والطفلة دنفر كانا يبذلان لها كل ما بوسعهما ، أو ما كان البيت يسمح به . كانا يخوضان معا معركة لامبالية ضد سلوك المكان الشائن ، ضد جرار الماء القذرة المقلوبة ، والصفعات على المؤخرات ،

وعصفات الهواء المرة . لأنهما كانتا تعرفان مصدر الانتهاك مثلما كانتا تعرفان مصدر الضوء .

توفيت بيبى سجز بعد مغادرة الصبيين بقليل ، دون أدنى اهتمام بمغادرتهما أوبمغادرتها ، وبعد ذلك مباشرة قررت سيث ودنفر أن تضعا حدا للاضطهاد باستدعاء الشبح الذى كان يزعجهما الى ذلك الحد . ظنتا أنهما قد تجدان العون ربما فى حديث ، أو فى تبادل الآراء أو فى شىء ما . ولذا فإنهما أمسكتا بيدى إحداهما الأخرى وقالتا : « تعال . تعال . ربما يحسن بك مجرد أن تأتى . »

تحرك الخوان خطوة الى الأمام ولم يحدث أى شىء آخر .

قالت دنفر : « لابد أن جدتى بيبى توقفه . » كانت فى العاشرة وكانت ماتزال غاضبة من بيبى سجز لموتها .

فتحت سيث عينيها . قالت : « أشك فى هذا . »

« إذن لماذا لايأتى ؟ »

قالت أمها : « أنت تنسين كم هى صغيرة . ماتت ولم تبلغ بعد الثانية من عمرها . كانت أصغر من أن تعى شيئا . أصغر حتى من أن تعرف الكلام . »

قالت دنفر : « ربما كانت لاتريد أن تفهم » .

« ربما . ولكن لو أنها فقط تحضر ، لأوضحت لها كل شىء . »

أطلقت سيث يد ابنتها ودفعتا الخوان معا الى الوراء لصق الحائط .

وفى الخارج ساط حوذى حصانة ليعدو مسرعا على النحو الذى يراه أبناء الحى ضروريا عندما يمرون أمام البيت رقم ١٢٤ .

قالت دنفر : « إنها تنفث سحرا قويا بالنسبة لطفلة . »

أجابتها أمها بقولها : « ليس أقوى من حبى لها . » وعادت الى صمتها مرة ثانية . وهبت الرطوبة المحببة لشواهد القبور غير المنحوتة ، اختارت واحدا وأسندت ظهرها إليه وقد شبت على أطراف أصابعها ، وباعدت مابين ركبتيها باتساع القبر . كان قرنفليا مثل ظفر ، تتناثر عليه رقائق خشب لامعة . قال، عشر دقائق . إذا سمح وقتك بعشر دقائق فسوف أعملها مجانا .

عشر دقائق لنقش ستة حروف . هل كان يمكنها فى عشر دقائق أخرى أن تضيف كلمة « الغالية » ؟ لم تفكر فى أن تسأله وإن ظلت الفكرة تؤرقها فيما إذا كان ذلك ممكنا ـ أن ينقش على شاهد قبر طفلتها فى خلال عشرين دقيقة ، أو لنقل نصف ساعة ، كل شىء ، كل كلمة سمعت الواعظ يقولها فى الجنازة (وبالتأكيد ، كل ما كان يمكن أن يقال) : « محبوبة » الغالية . لكن ما حصلت عليه ، ما استقرت عليه ، كان الكلمة الوحيدة المهمة . ظنت أنها كانت كافية ، منزوية بين شواهد القبور مع النحات ، وابنه الصغير يراقبه ، الغضب فى وجهه قديم جدا ، والرغبة جديدة جدا . من المؤكد أن ذلك يجب أن يكون كافيا . كافيا للرد على واعظ واحد آخر ، على واحد آخر يؤمن بتحريم الرق وعلى بلدة مليئة بالقرف .

واعتمادا على سكون روحها هى ، نسيت الروح الأخرى : روح

ابنتها الطفلة . من كان يظن أن طفلة صغيرة في ماضى الزمان بإمكانها أن تضمر كل هذا الغضب ؟ لم يكن كافياً أن تنزوى بين شواهد القبور تحت عينى النحات . لم يكن لزاما عليها فحسب أن تعيش عمرها فى بيت يرتجف بغضب الطفلة لذبحها ، لكن تلك الدقائق العشر التى قضتها ملتصقة بالحجر ذى اللون الشفقى المرصع برقائق خشب نجمية الشكل ، وركبتاها متباعدتان على اتساعهمامثل القبر ، كانت أطول من الحياة ، أكثر حياة ، أكثر نبضا من دم الطفلة الذى كان يتخلل أصابعها كأنه زيت .

كانت قد اقترحت على حماتها ذات مرة : « بإمكاننا أن ننتقل إلى بيت آخر.»

وسألتها بيبى سجز : « وما الفائدة ؟ فليس فى البلد بيت لا يمتلىء حتى عوارض سقفه الخشبية بحزن زنجى ميت . نحن سعداء الحظ أن هذا شبح طفل . ماذا لو كانت روح زوجى ، أو زوجك ، هى التى عادت إلى هنا ؟ لا تكلمينى . أنت محظوظة . فما يزال لديك ثلاثة . ثلاثة يجذبون تنورتك وواحدة فقط تسبب إزعاجًا من الجانب الآخر . كونى شاكرة ، لم لا ؟ كان لى ثمانية رحلوا عنى جميعا . أربعة اختطفوهم وأربعة اصطادوهم ، وكلهم فيما أتوقع يزعجون بيت شخص ما ويدفعونه إلى الشر .» حكّت بيبى سجز حاجبيها ثم قالت : « طفلتى الأولى . كل ما يمكننى أن أذكره عنها هو كم كانت تحب ظهر رغيف الخبز المحترق . هل تتحملين هذا ؟ ثمانية أطفال وذلك كل ما أذكره عنهم » .

قالت سيث لها : « هذا كل ما تسمحين لنفسك بتذكره » ، لقد نقص العدد بالنسبة لها إلى واحدة - أى واحدة حية - وطاردت

الطفلة الميتة الصبيين ، وكانت ذكرى بجلر تبهت بسرعة فى ذهنها . كان لهوارد على الأقل شكل رأس لا ينساه أحد . أما فيما يتعلق بالباقى فإنها جاهدت حتى تذكر أقل القليل بالقدر الذى يكفل لها الأمان . غير أن عقلها لسوء الحظ كان تائها . لعلها الآن تسرع عبر حقل ، تجرى بالفعل ، لتصل إلى الطلمبة بسرعة لتغسل عن رجليها نسغ البابونج . ولم يكن ببالها أى شيء آخر . كانت صورة الرجال وهم يأتون ليرضعوا من ثدييها صورة لا حياة فيها مثل الأعصاب بظهرها حيث تغضن الجلد كأنه لوح غسيل . لا ولم يكن هناك أضأل رائحة حبر أو صمغ الكرز ولحاء شجرة البلوط اللذين كان يصنع منهما . لا شيء . سوى النسيم يرطب وجهها وهى تهرع باتجاه الماء . وبعدئذ تمسح البابونج بماء الطلمبة والخرق ، لا يشغل بالها سوى إزالة آخر آثار من السائل الملتصق بها وإهمالها باتخاذ طريق قصير عبر الحقل لمجرد أن توفر نصف ميل ، دون أن تلاحظ الطول الذى بلغته الحشائش إلا حين تصل الحكة إلى ركبتيها . وعندئذ يحدث شيء . تناثر رَشَاشْ الماء ، ومرأى حذائها وجوربها منحرفان على الممر حيث كانت قد ألقت بهما ؛ أو هيربوى يلعق فى البركة الموحلة قرب قدميها ، وفجأة كان سويت هوم يتدحرج ، يتدحرج ، يتدحرج أمام عينيها ، وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك ورقة شجر فى تلك المزرعة لا تجعلها تريد أن تصرخ ، إلا أنه كان يتدحرج أمام عينيها جميلاً بلا حياء . لم يبد أبدا قطيعا كما كان وجعلها تتساءل ماإذا كان الجحيم مكانا جميلاً أيضا . نار وكبريت حقا ، ولكنهما مختبئان فى الأيكات الشبكية . أطفال يتدلون من أجمل

أشجار جميز في العالم . كان ذلك يملؤها إحساسا بالخزى ـ إذ تتذكر الأشجار الرائعة وهى تئن بدلاً من الأطفال . ومهما حاولت أن تجعل الأمر غير ذلك كانت أشجار الجميز تطرد ذكرى الأطفال فى كل مرة ولم يكن بإمكانها أن تغفر ذلك لذاكرتها .

عندما أزالت آخر آثار البابونج ، دارت حول المنزل لتصل إلى واجهته ، والتقطت حذاءها وجوربها وهى فى طريقها . وكما لو كان قد جاء ليضاعف عقابها بسبب ذاكرتها الفظيعة ، وجدت بول د ، آخر رجال سويت هوم جالسا فى الشرفة على بعد لايزيد على أربعين قدما . وعلى الرغم من أنها ما كانت لتخطىء وجهه أبدا على أنه وجه شخص آخر ، إلا أنها قالت : « هل هذا هو أنت ؟ »

نهض وابتسم : « ماتبقى منى . ماذا جرى لك ، يا بنت ، بالإضافة إلى قدميك الحافيتين ؟ »

وعندما ضحكت انطلقت ضحكتها حرة طليقة وشابة : « اتسخت رجلاى هناك . البابونج. »

تقلص وجهه كما لو كان يتذوق ملعقة صغيرة من شىء مر . « لاأريد أن أسمع شيئاً عن تلك المادة . كنت دائما أكره تلك المادة . »

كورت سيث جوربها وحشرته فى جيبها . « هيا إلى الداخل . » « الشرفة رائعة ، يا سيث الجو منعش هنا . » عاد إلى الجلوس ونظر إلى المرعى على الجانب الآخر من الطريق ، وهو يعرف أن عيناه ستفضحان شوقه إليها .

قالت بصوت ناعم : « ثمانى عشرة سنة.»

كرر قولها : « ثمانى عشرة . وأقسم أننى ظللت أسير كل سنة منها . هل يضايقك أن أشاركك ؟ » أومأ باتجاه قدميها وشرع يفك رباط حذائه .

« هل تريد أن تنقعهما ؟ دعنى آتيك بحوض ماء.» وتحركت مقتربة منه لتدخل المنزل.« لا ، آه آه . لا أستطيع فقدماى مازالتا صغيرتين . لا يزال على أن أسير بهما طويلاً.»

« لا يمكنك أن ترحل فى الحال ، يا بول د . عليك أن تبقى قليلاً.»

حسنا ، بما يكفى أن أرى بيبى سجز . أين هى ؟ »

« ماتت.»

« أوه لا . متى ؟ »

« ثمانى سنوات الآن . تسع تقريبا.»

« هل كانت ميتة قاسية ؟ أرجو ألا تكون قد عانت فى موتها .» هزت سيث رأسها . « ميتة هادئة للغاية . كانت القسوة والمعاناة فى حياتها . آسفة لأنك لم تدركها رغم ذلك . هل هذا ما جئت من أجله ؟ »

« هذا بعض ماجئت من أجله . والباقى أنت . ولكن لو عرفت كل الحقيقة ، فإننى أذهب إلى أى مكان هذه الأيام . إلى أى مكان أجد فيه موضعا للجلوس.»

« تبدو بحال طيبة . »

« هذا خداع الشيطان . إنه يجعلنى أبدو بحال طيب كلما كنت أشعر أننى فى حال سيىء.» وحملت كلمة « سىء » وهو ينظر إليها معنى آخر .

وابتسمت سيث . كان هذا حالهما - فى الماضى . كان كل رجال سويت هوم ، قبل وبعد هال ، يعاملونها بغزل أخوى رقيق ، حاذق إلى درجة أنه كان على المرء أن ينبش ليصل إليه . بدا كما كان فى كنتاكى ، فيما عدا مزيد من الشعر الغزير وبعض الحنين فى عينيه . بشرة بلون نواة الخوخ ؛ وظهر مستقيم . وبالنسبة لرجل له وجه جامد كان مذهلاً كم كان على استعداد لأن يبتسم ، أو أن يتوهج أو أن يأسف لك . كان الأمر كأن كل ما عليك أن تفعله هو أن تجتذب انتباهه ليصدر عنه الشعور الذى تشعر به . فى أقل من طرفة عين ، كان وجهه يبدو متغيرا - تحته كانت تكمن الحيوية .

« هل ينبغى على أن أسأل عنه . كنت ستخبرنى لو أن لديك شيئا جديراً بأن تحكيه ، أليس كذلك ؟ » نظرت سيث إلى قدميها ورأت أشجار الجميز مرة أخرى .

« كنت لأخبرك . مؤكد كنت لأخبرك . أنا لا أعرف الآن أكثر مما كنت أعرف عندئذ . » وقال لنفسه ، فيما عدا الاهتياج ، وأنت لست بحاجة إلى أن تعرفى ذلك واستطرد قائلاً : « لابد أنك تظنين أنه لا يزال حيا . »

« لا . أظنه مات . ليست الثقة هى ما يبقيه على قيد الحياة.»

« ماذا كانت بيبى سجز تظن ؟ »

« نفس الشيء ، يكفى أن تنصت اليها لتعرف أن كل أطفالها ماتوا . كانت تزعم أنها كانت تشعر بكل منهم وهو يموت فى نفس اليوم والساعة.»

« متى قالت إن هال مات ؟ »

« ١٨٥٥ . يوم ولدت طفلتى.»

أطلق ضحكة خافتة وقال : « هل ولدت تلك الطفلة إذن ؟ لم أكن أظنك ستفلحين فى أن تهربى وأنت حامل.»

« كان على أن أفعل ذلك . لم استطع الاستمرار فى الانتظار » . نكست رأسها وقالت لنفسها ، مثلما فعل ، كم كان نجاحها مستبعداً . لولا تلك الفتاة التى كانت تبحث عن القطيفة ، لما أفلحت مطلقاً .

« وأنت وحدك تماماً أيضاً . » كان فخوراً بها وضائقا بها . كان فخوراً لأنها أفلحت ، ومتضايقا لأنها لم تكن بحاجة إلى هال أو اليه لتفعل ذلك .

« وحدى تقريباً . ليس وحدى تماماً . ساعدتنى فتاة بيضاء.»

« إذن فقد ساعدت نفسها . ليباركها الله . »

« يمكنك أن تمكث الليلة ، يا بول د . »

« يبدو أنك غير جادة فى هذا العرض.»

ألقت سيث نظرة تجاه الباب المغلق وراءه ثم قالت : « بل أعنى

ما أقول تماماً . غير أنى أرجو أن تعذر بيتى . هيا إلى الداخل . تكلم مع دنفر بينما أطبخ لك شيئاً . »

ربط بول د . فردتى حذائه معا ، وعلقهما فوق كتفه وتبعها خلال الباب مباشرة إلى بقعة ضوء أحمر متموج أطبق عليه حيث وقف .

قطب جبينه وقال هامساً : «لديك صحبة ؟»

قالت سيث : «من آن لآخر» .

تراجع خارجاً من الباب إلى الشرفة وقال : «يا لله الرحيم . أى شيطان لديك هنا ؟»

«ليس شريراً ، هو حزين فقط . تقدم إلى الداخل» .

نظر إليها عندئذ بإمعان . بإمعان أكبر مما فعل عندما كانت تدور حول البيت أول الأمر وساقاها مبتلتين لامعتين ، ممسكة حذائها وجوربها بإحدى يديها ، وبتنورتها بالأخرى . فتاة هال ـ الفتاة ذات العينين القويتين والعود الصلب الذى يتسق معهما . لم يكن قد رأى شعرها مطلقاً فى كنتاكى . وعلى الرغم من أن وجهها كان أكبر سناً بثمانية عشر عاماً عما رآها آخر مرة ، إلا أنه كان أكثر نعومة الآن . بسبب الشعر . وجه فيه سكينة تبعث على الراحة ، والحدقتان فى سواد بشرتها تجعلاه يظن ، وهما فى ذلك الوجه الساكن ، أن ما يراه قناع به عينين مثقوبتين بشكل رحيم . إمرأة هال . حامل كل سنة ، بما فى ذلك السنة التى كانت تجلس فيها بجوار النار تخبره عن عزمها على الهرب . كانت قد

حشرت أطفالها الثلاثة سلفاً فى عربة مشحونة بآخرين فى قافلة للزنوج تعبر النهر . كانت ستتركهم مع أم هال بالقرب من سنسناتى . حتى فى ذلك الكوخ الصغير ، إذ تميل قرب النار حتى أنك تشم الحرارة فى ثوبها ، لم تعكس عيناها خفقة ضوء . كانتا أشبه ببئرين ، رأى القلق يحدق فيهما . وحتى وهما مثقوبتان كانتا بحاجة إلى تغطيتهما ، إلى وضع غطاء عليهما ، إلى وسمهما بعلامة ما لتحذير الناس مما يعنيه ذلك الخواء . ولذلك نظر إلى النار بدلاً من أن ينظر إليها وهى تحكى له ، لأن زوجها لم يكن هناك ليسمع منها حكايتها . كان مستر جارنر قد مات وكان برقبة زوجته ورم بحجم حبة بطاطا أعجزها عن الكلام . مالت قريباً من النار بالقدر الذى كان بطنها الحامل يسمح به وأخبرته ، هو بول د . ، آخر رجال سويت هوم ؟!

كان هناك ستة منهم ينتمون إلى المزرعة ، وكانت سيث الأنثى الوحيدة . وكانت مسز جارنر قد باعت أخاه ، وهى تبكى مثل طفل ، لتسدد الديون التى طفت إلى السطح لحظة ترملها . ثم جاء المدرس ليضع الأمور فى نصابها . لكن ما فعله حطم ثلاثة رجال آخرين من رجال سويت هوم ، ومحا من عينى سيث بريق القوة ، تاركاً بئرين مفتوحين لا يعكسان ضوء النار .

الآن عادت القوة لكن الوجه ، الذى أكسبه الشعر نعومة ، جعله يثق فيها بما يكفى لأن يخطو داخل باب بيتها مباشرة إلى بركة من الضوء الأحمر النابض .

كانت على حق . كان محزناً . فبينما كان يخوض فيه ، لفته

موجة من الحزن حتى شعر معها برغبة فى البكاء بدا بعيداً كل البعد عن الضوء العادى المحيط بالمنضدة، لكنه نجح فى اجتيازه- محظوظاً ودون أن تدمع عيناه.

ذكرها بقولها: «قلت إنها ماتت ميتة ناعمة. ناعمة مثل القشدة.»

قالت: «لم أكن أعنى بيبى سجز.»

«من إذن؟»

«ابنتى. الطفلة التى أرسلتها قبلى مع الصبيين.»

«ألم تعش؟»

«نعم. الطفلة التى كنت أحملها عندما هربت هى كل ما بقى لى الصبيان رحلا أيضاً. كلاهما هرب قبل أن تموت بيبى سجز.»

نظر بول د. الى البقعة التى غمره فيها الحزن. كان الضوء الأحمر قد اختفى لكن نوعاً من البكاء كان يتشبث بالهواء حيث كان قبلا.

قال لنفسه، ربما كان هذا أفضل. فإذا كان للزنجى ساقان فعليه أن يحسن استخدامهما. إذا ظل فى مكانه طويلاً فربما يظهر له من يوثقهما. ومع ذلك... فإذا كان ولداها قد رحلا...

«أليس لك رجل؟ هل تعيشين هنا بمفردك؟»

قالت: «أنا ودنفر.»

« هل أنت بخير هكذا ؟ »

« أنا بخير هكذا؟ »

أحست بتشككه وواصلت قولها : « أقوم بالطبخ فى مطعم فى البلدة . وأحيك الثياب قليلاً فى السر . »

ابتسم بول د . عندئذ ، وهو يتذكر ثوب اللقاء الأول فى السرير . كانت سيث فى الثالثة عشرة حين جاءت إلى سويت هوم ، وكانت عيناها تفيضان حيوية . كانت هدية جاءت فى وقتها لمسز جارنر التى كانت قد فقدت بيبى سجز إطاعة لمبادىء مستر جارنر العليا . نظر رجال سويت هوم الخمسة إلى الفتاة الجديدة وقرروا أن يدعوها وشأنها . كانوا شباناً قد سئموا الحياة بدون نساء حتى أنهم كانوا قد ولعوا بالعجول . لكنهم تركوا الفتاة ذات العينين النفاذتين وشأنها ، حتى يمكنها أن تختار ، رغم حقيقة أن كلا منهم كان على استعداد لأن يضرب الآخرين حتى يصبحوا عصيدة لتكون له . استغرقها الاختيار عاماً - شاباً فارعاً قوياً قضى عاماً يتقلب على حشيات القش تلتهمه أحلامه بها . عاماً من الحنين ، حين كان الاغتصاب يبدو هدية الحياة الوحيدة . كان كبح الجماح الذى مارسوه ممكناً فقط لأنهم كانوا رجال سويت هوم - الرجال الذين كان مستر جارنر يتباهى بهم فى حين كان المزارعون الآخرون يهزون رءوسهم محذرين عند أول كلمة تقال .

كان يقول لهم : « كلكم لديكم صبية . فتيان صغار ، فتيان كبار ، فتيان مشحوذون يصعب إرضاؤهم . أما فى سويت هوم ،

فإن زنوجى رجال كل واحد فيهم . اشتريتهم بطريقتى ، وربيتهم بطريقتى . كل واحد فيهم رجل » .

« اسمح لى أن اختلف معك ، يا جارنر . ليس هناك زنوج رجال . »

اتسعت ابتسامة جارنر : « إنهم ليسوا رجالاً إذا أفزعك هذا . لكن لو كنت أنت نفسك رجلاً ، لأردت زنوجك أن يكونوا رجالاً . »

« ما كنت لأسمح لوجود زنوج رجال حول زوجتى . »

كان ذلك رد الفعل الذى كان جارنر يحبه وينتظره . قال : « ولا أنا . » وكانت لحظة صمت تحل دائماً قبل أن يكون الجار ، أو الغريب ، أو بائع متجول أو نسيب أو كائن من كان قد فهم معنى عبارة ، « ولا أنا . » وكان يعقب هذا مناقشة وحشية . وأحياناً شجار ، وكان جارنر يعود إلى البيت سعيداً وبه كدمات ، بعد أن بين مرة أخرى كم كان كنتاكيا حقيقياً : رجلاً قوياً بما يكفى وذكياً بما يكفى لأن يجعل زنوجه رجالاً ويسميهم هكذا .

وهكذا كانوا : بول د . جارنر ، بول ف . جارنر ، بول أ . جارنر ، هال سجز ، وسيكسو ، الرجل الجامح . كلهم فى العشرينات ، المحرومون من النساء ، يجامعون الأبقار ، يحلمون بالاغتصاب ، يتقلبون على حشيات القش ، يدلكون أفخاذهم وينتظرون الفتاة الجديدة ـ الفتاة التى احتلت مكان بيبى سجز بعد أن اشتراها هال مقابل أن يعمل أيام الآحاد لمدة خمس سنوات . ربما كان ذلك السبب فى اختيارها له . رجل فى الواحدة والعشرين يحب أمه إلى حد أن يتنازل عن أيام العطلات لمدة خمس سنوات

لمجرد أن يراها تجلس من باب التغيير - كان ذلك تزكية جدية .

انتظرت عاماً . وكان رجال سويت هوم يسيئون استخدام الأبقار وهم ينتظرون معها . اختارت هال وحاكت لنفسها فى السر ثوباً للقائهما الأول فى السرير .

« ألا تمكث قليلاً ؟ لا يستطيع الواحد أن يعوض ثمانى عشرة سنة فى يوم . »

من عتمة الغرفة التى كانا يجلسان فيها ، كان درج أبيض يرتفع تجاه ورق الحائط الأزرق والأبيض فى الطابق الثانى . كان بول د . يستطيع أن يرى مجرد بداية الورق ؛ نقطا صفراء نثرت بحرص وسط عاصفة من رذاذ الثلج على أرضية زرقاء . أبقاه الحاجز الأبيض المضيء والدرجات محدقاً فى ذلك الاتجاه . كان كل إحساس أوصى به إليه الهواء الصاعد من بئر السلم ساحراً ورقيقاً . لكن الفتاة التى هبطت من ذلك الهواء كانت ممتلئة الجسم سمراء لها وجه دمية يقظة .

نظر بول د . إلى الفتاة ثم إلى سيث التى ابتسمت قائلة : « ها هى ذى ابنتى دنفر . هذا بول د . ، يا حبيبتى ، من سويت هوم . »

« صباح الخير ، يا مستر د . » .

« جارنر ، يا طفلتى . بول د . جارنر . »

« نعم يا سيدى . »

« يسعدنى أن أراك . فى المرة الأخيرة التى رأيت فيها أمك ،

كنت تجذبين طرف ردائها . »

ابتسمت سيث : « وما تزال ، على شرط أن تستطيع الدخول فيه . »

وقفت دنفرِ على الدرجة السفلى وفجأة تملكها الخجل والحرارة . كان قد مضى وقت طويل منذ أن جلس إلى مائدتهم أحد (امرأة بيضاء سليمة الطوية أو واعظ أو خطيب أو صحفى) وأصواتهم المتعاطفة تشى بكذبهم من خلال النفور فى أعينهم . ولمدة اثنتى عشرة سنة ، قبل موت الجدة بوقت طويل ، لم يكن هناك زائرون من أى نوع ، وبالتأكيد لا أصدقاء . لا ناس ملونون . بالتأكيد لم يكن هناك رجل فى لون البندق له شعر طويل بلا دفتر مذكرات ، ولا فحم نباتى ، ولا برتقال ، ولا أسئلة شخص كانت أمها تريد ان تحادثه بل أن تفكر فى محادثته وهى حافية القدمين . وهى تبدو ، بل تتصرف فى الحقيقة ، مثل فتاة بدلاً من المرأة الهادئة الجليلة التى عرفتها دنفر طوال حياتها . المرأة التى لم تكن تلتفت أبداً ، التى لم تكن تلتفت عندما كانت فرس تسحق رجلا حتى الموت أمام مطعم سوير ، ولم تلتفت حتى عندما شرعت خنزيرة تأكل صغارها ذاتها . وعندما رفع شبح الطفلة كلبهم هير بوى ، وضربه بعنف فى الحائط بما يكفى لأن تكسر رجلين من أرجله وتفقأ إحدى عينيه،بعنف إلى حد أن انتابته تشنجات وقطع لسانه ، لم تلتفت أمها رغم ذلك .. أخذت مطرقة ، وضربت الكلب حتى فقد الوعى ، ومسحت الدم واللعاب ، ودفعت عينه فى مكانها من رأسه ، وجبرت عظام رجله . استعاد صحته ، وهو صامت فاقد لتوازنه ، بسبب عينه التى لم تعد أهلا

للثقة أكثر من رجله الملتوية ، ولم يكن بإمكان أى شىء أن يقنعه بدخول المنزل مرة ثانية سواء كان الوقت شتاءً أو صيفاً ؛ ممطراً أو جافاً .

والآن ها هنا كانت هذه المرأة التى كان لها من حضور الذهن ما يمكنها من أن تصلح كلباً صار وحشاً من الألم ، تهز كاحليها المعقودتين وتدير عينيها عن جسد ابنتها ذاتها . كما لو كان حجمه أكثر مما يستطيع البصر أن يحتمله . ولم تكن هى أو هو يرتديان حذاء . وقفت دنفر الآن وحيدة وقد تملكها الخجل والحرارة . الجميع رحلوا : أخواها أولا ، ثم جدتها . خسائر فادحة إذ لم يكن هناك أطفال راغبون فى التحلق حولها فى لعبة أو فى تدلية ركبهم فوق حاجز شرفتها . لم يكن أى من هذا يهمها طالما لم تدر أمها رأسها مثلما كانت تفعل الآن ، وهى تجعل دنفر تتوق ، تتوق لاشارة حقد من شبح الطفلة .

قال بول د . : « إنها آنسة رائعة الحسن . رائعة الحسن . لها وجه أبيها الحلو . »

« هل تعرف أبى ؟ »

« كنت أعرفه . كنت أعرفه جيداً » .

« صحيح ، يا أمى ؟ » قاومت دنفر رغبة فى الكشف عن عاطفتها .

« بالطبع كان يعرف أباك . لقد أخبرتك إنه من سويث هوم . »

جلست دنفر على الدرجة السفلى . لم يكن هناك مكان آخر

تستطيع أن تذهب إليه برشاقة . كانا اثنين ، يقولان « أباك.» و « سويت هوم » بطريقة توضح أن كلا العبارتين تخصانهما لا تخصانها . وأن غياب أبيها ذاته ليس أمرا يخصها هى . ذات مرة كان الغياب يخص الجدة بيبى ـ ابن فجعت فيه فجيعة عميقة لانه كان من اشترى حريتها من ذلك المكان . وبعدئذ كان زوج أمها الغائب . والآن كان صديق هذا الغريب البندقى اللون الغائب . أولئك الذين كانوا يعرفونه فقط « يعرفونه جيداً » كانوا يستطيعون أن يزعموا أن غيابه حقاً يخصهم . تماماً مثلما كان أولئك الذين عاشوا فى سويت هوم فقط يستطيعون أن يتذكروه ، يهمسوا به ويلقوا بنظرات جانبية على أحدهما الآخر مثلما كانا يفعلان الآن . مرة أخرى تاقت الى شبح الطفلة ـ إن غضبه يستثيرها الآن حيث كان ينهكها . ينهكها .

قالت : « معنا شبح هنا » ، وفعل قولها فعله . لم يعودا اثنين . كفت أمها عن أرجحة قدميها وعن كونها أشبه بفتاة . تراجعت ذكرى سويت هوم من عينى الرجل الذى كانت تتشبه بالبنات من أجله . رفع عينيه بسرعة إلى أعلى الدرجات خلفها التى تشبه فى بياضها الرعد .

قال : « هكذا سمعت . لكنه شبح حزين ، كما قالت أمك . لا شرير . »

قالت دنفر : « لا يا سيدى ، ليس شريراً . لكنه ليس حزيناً كذلك . »

« ماذا اذن ؟ »

«مُوبّخ . مُوبّخ ووحيد.»

استدار بول د . الى سيث : « هل ذلك صحيح ؟ »

قالت أم دنفر : « لا أعرف شيئاً عن كونه وحيداً . مجنون ، ربما ، لكننى لا أفهم كيف يمكن أن يكون وحيداً وهو يقضى كل دقيقة معنا مثلما يفعل » .

« لابد أن لديك شيئاً يريده.»

هزت سيث كتفيها : « انه مجرد طفل . »

قالت دنفر : « أختى . ماتت فى هذا البيت.»

هرش بول د . شعر ذقنه وقال : « يذكرنى هذا بتلك العروس التى بلا رأس هناك خلف سويت هوم . هل تذكرين ذلك ، يا سيث ؟ اعتادت أن تتجول فى تلك الغابات بانتظام » .

«كيف يمكن أن أنسى ؟ كان شيئاً يثير القلق .. »

«كيف اتفق أن كل من هرب من سويت هوم لا يمكنه أن يكف عن الكلام عنه ؟ يبدو أنه لم كان لطيفاً لبقيتما » . .

« من تخاطبين ، يا بنت ؟ »

ضحك بول د . ثم هز رأسه وقال : «صحيح . صحيح . هى على حق ، يا سيث . لم يكن لطيفاً ، ولم يكن بالتأكيد موطناً » .

قالت سيث : «لكنه المكان الذى عشنا فيه . كلنا معا . إن ذكراه ترجع سواء أردنا أم لم نرد.» ارتجفت قليلاً . مرت موجة خفيفة فى جلد ذراعها ، ربتت عليها حتى تلاشت . قالت : « دنفر ، أشعلى ذلك الموقد . لا يمكن أن يأتى صديق لزيارتنا ولا أطعمه » .

قال بول د . : « لا تتعبى نفسك من أجلى » .

الخبز ليس تعباً . والباقى أتيت به من حيث أعمل . أقل ما يمكننى أن أفعله ، وأنا أطبخ من الفجر حتى الظهر ، هو أن أحضر العشاء معى . هل لديك أى اعتراضات على سمك الكراكى ؟ »

« إذا لم يكن لديه اعتراض علىّ فأنا ليس لدىّ اعتراض عليه» .

قالت دنفر لنفسها ، ها هما يعودان ثانية . وقفت وظهرها اليهما ، وقلبت الضرام وفقدت النار تقريباً . «لماذا لا تقضى الليلة ، يا مستر جارنر ؟ يمكنك أنت وأمى أن تتحدثا عن سويت هوم طوال الليل » .

خطت سيث خطوتين سريعتين نحو الموقد ، ولكن قبل أن يمكنها أن تجذب ياقة دنفر ، مالت الفتاة إلى الامام وشرعت تبكى .

«ماذا دهاك ؟ لم أعرفك أبدا تتصرفين بهذا الشكل » .

قال بول د . : « اتركيها وشأنها . فأنا غريب بالنسبة لها » .

« بالضبط هكذا . ليس لديها سبب يجعلها تتصرف بشكل غير ملائم مع غريب . أوه . يا طفلتى ، ماذا بك ؟ هل حدث شىء ؟ »

لكن دنفر كانت تهتز وهى تنشج ولذا لم تستطع الكلام . فاضت الدموع التى لم تسكبها طوال تسع سنوات حتى بللت نهديها الأنثويين الناضجين تماماً .

«لم أعد أستطيع . لم أعد أستطيع . »

«ما الذى لا تستطيعينه ؟ لا تستطيعين ماذا ؟ »

« لا أستطيع العيش هنا . لا أعرف أين أذهب ولا ماذا أفعل ، لكن لا يمكنني العيش هنا . لا أحد يحادثنا . لا أحد يزورنا . الأولاد لا يحبونني . ولا البنات كذلك » .

« حبيبتي ، حبيبتي ».

سأل بول د . : «ما الذي تعنيه بقولها أن لا أحد يحادثكم ؟ »

« إنه البيت . الناس لا .. »

«ليس هذا ! إنه ليس البيت . إنه نحن ! إنه أنت ! »

« دنفر ! »

«كفى ، ياسيث . إنه أمر صعب بالنسبة لفتاة صغيرة تعيش في بيت تسكنه الأشباح . لا يمكن أن يكون هذا سهلا » .

« إنه أسهل من أشياء أخرى ».

« فكري ، يا سيث . فأنا رجل ناضج لم أدع شيئاً لم أره أو أفعله ، وأنا أخبرك أنه ليس سهلاً . ربما ينبغي عليك أن تنتقلي منه . من صاحب هذا البيت ؟ »

من فوق كتف دنفر صوبت سيث نظرة ثلجية إلى بول د . وقالت : «ماذا يهمك ؟ »

«لن يدعوك ترحلين ؟ »

« لا . »

« سيث » .

«لن نرحل. لن نترك المكان. الوضع هنا على ما يرام».

«تقولين إن الأمر على ما يرام وهذه الطفلة تكاد تفقد عقلها؟»

توتر شيء في البيت، وفي صمت الإصغاء الذي أعقب ذلك تكلمت سيث.

«لدى شجرة على ظهري وشبح في بيتي، ولا شيء بينهما سوى الابنة التي أحتضنها بين ذراعي. لا هرب بعد الآن ـ من لا شيء. لن أهرب من أي شيء آخر على هذه الأرض، لقد قمت برحلة ودفعت ثمن التذكرة، لكن دعني أقل لك شيئاً، يا بول د. جارنر: كلفني هذا الكثير! هل تسمعني؟ لقد كلفني كثيراً. والآن اجلس وكل أو اتركنا في حالنا».

فتش بول د. في صدريته عن كيس التبغ ـ وهو يركز انتباهه على محتوياته وعقدة خيطه، في حين قادت سيث دنفر الى داخل الغرفة الاحتياطية التي يفتح بابها على الحجرة الواسعة التي يجلس فيها بول د. لم يكن لديه ورق لف الدخان، ولذا راح يعبث بالكيس ويصغي خلال الباب المفتوح الى سيث تهدىء ابنتها. وعندما عادت تجنبت نظرته واتجهت مباشرة الى المنضدة الصغيرة القريبة من الموقد. كان ظهرها إليه وكان يستطيع أن يرى كل الشعر الذي يريد أن يراه دون أن يلهيه وجهها عن ذلك.

«أية شجرة على ظهرك؟»

«هه». وضعت سيث وعاء على المنضدة ومدت يدها تحت

المنضدة لتحضر الدقيق .

« أية شجرة على ظهرك ؟ هل هناك شيء ينمو على ظهرك ؟ أنا لا أرى شيئاً ينمو على ظهرك » .

« هى هناك رغم هذا » .

« من أخبرك بذلك » .

« الفتاة البيضاء ، هكذا أسمتها . أنا لم أرها مطلقاً ولن أراها أبدا . لكنها قالت إنها تشبه شجرة . شجرة كرز برى . الجذع ، والأغصان ، بل حتى الأوراق . أوراق شجرة كرز برى صغيرة دقيقة . لكن ذلك كان من ثمانى عشرة سنة مضت . ربما أثمرت الآن كرزاً أيضاً فى حدود علمى » .

أخذت سيث قليلاً من لعابها من طرف لسانها بسبابتها . ولمست الموقد بسرعة وخفة . ثم مرت بأصابعها خلال الدقيق ، وهى تشقه ، تفصله الى تلال صغيرة ومرتفعات ، بحثاً عن السوس . ولما لم تجد أيا منه ، صبت الصودا والملح فى ثنية يدها المطوية وألقت بهما فى الدقيق . ثم مدت يدها فى داخل علبة صفيح واغترفت نصف حفنة من الدهن . وبمهارة عجنت الدقيق بالدهن ، ثم شكلت العجين ويدها اليسرى تنثر الماء .

قالت : «كان فى ثديىى لبن . كنت حاملاً فى دنفر ولكن كان فى ثديىى لبن لطفلتى . لم أكن قد كففت عن إرضاعها عندما أرسلتها قبلى مع هوارد وبجلر » .

راحت الآن تفرد العجين بوتد خشبى . واستطردت قائلة : «كان

بإمكان أى واحد أن يشتم رائحتى قبل أن يرانى بكثير . وعندما كان يرانى كان بإمكانه أن يرى نقطاً منه على مقدم ثوبى . لم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً حيال ذلك . كل ما كنت أعرفه هو أن أرضع لبنى لطفلتى . لم يكن أحد ليرضعها مثلى . لم يكن أحد ليوصله لها بالسرعة الكافية ، أو يأخذه منها بعد أن تكون قد نالت كفايتها وهى لا تدرى . لم يكن أحد يعرف أنها لم تكن تستطيع أن تتجشأ اذا رفعتها على كتفك ، كانت تفعل ذلك فقط اذا كانت مستلقية على ركبتى . لم يكن أحد يغرف هذا سواى ، ولا أحد غيرى يحمل فى صدره لبنها . وقد أخبرت بذلك النساء اللاتى كن فى العربة . طلبت منهن أن يضعن لها الماء المسكر فى قطعة قماش لترضع منها وهكذا لم تكن لتنسانى عندما أصل الى هناك بعد بضعة أيام . سيكون اللبن هناك وسأكون أنا معه » .

قال بول د . وهو يدس كيس تبغه ثانية فى جيب صدريته : « الرجال لا يعرفون الكثير ، لكنهم يعرفون أن الرضيع لا يمكنه أن يبتعد عن أمه طويلاً » .

« إذن فهم لا يعلمون كيف يكون الحال أن ترسل الأمهات أطفالهن بعيداً بينما لا تزال صدورهن مملوءة لبناً » .

« كنا نتكلم عن شجرة ، يا سيث » .

« عندما غادرتكم ، جاء أولئك الأولاد هناك واغتصبوا لبنى . كان ذلك ما جاءوا من أجله . طرحونى أرضاً وأخذوه غصباً . أبلغت مسز جارنر عنهم . كان لديها ذلك الورم ولم تكن تستطيع الكلام لكن عينيها ذرفتا الدمع . اكتشف الأولاد أننى أبلغت عنهم .

جعلهم المدرس يشقون ظهرى، وعندما التأم الجرح كانت الشجرة. ولا تزال تنمو».

«استخدموا معك سوطا من ذيل البقر».

«واغتصبوا لبنى».

«جلدوك وأنت حامل؟»

«واغتصبوا لبنى!»

صفت دوائر العجين الأبيض الدسم وملأت جوانب الطاولة صفوفاً صفوفاً. ومرة أخرى لمست سيث الموقد بسبابتها المبتلة. فتحت باب الفرن ودفعت طاولة البسكويت بداخله. وعندما رفعت قامتها بعيداً عن الحرارة شعرت ببول د. خلفها ويداه تحت ثدييها. انتصبت قامتها وعرفت، دون أن تشعر، أنه يضغط بخده على أغصان شجرة كرزها البرية.

وبدون أن يحاول، كان قد أصبح ذلك النوع من الرجال الذى يستطيع أن يدخل بيتاً وأن يجعل النساء يبكين. لأنهن كن يستطعن ذلك معه، فى وجوده. كان هناك شىء مبارك فى سلوكه. تراه النساء فتغلبهن الرغبة فى البكاء وفى أن يخبرنه أن صدورهن تؤلمهن وركبهن كذلك أيضا. كانت النساء القويات الحكيمات يرينه ويخبرنه بأشياء لا يبحن بها إلا لبعضهن البعض: تغيرت الحياة كثيراً، والرغبةالجنسية أصبحت فجأة شهوة هائلة، نهمة، أكثر وحشية عما كن وهن فى الخامسة عشرة، وكان ذلك يسبب لهن ارتباكاً ويجعلهن حزينات، أو يشعرن فى

أعماقهن برغبة فى الموت - للتخلص من هذا - كان النوم بالنسبة لهن أغلى من اليقظة . كانت الفتيات الصغيرات ينتحين به جانباً ليعترفن أو يصفن له كم كان يجلدهن العقاب الإلهى الذى يلاحقهن بسبب أحلامهن مباشرة ولذلك ، فعلى الرغم من أنه لم يكن يفهم لماذا كان الأمر على هذا النحو ، إلا أنه لم يندهش حين انهمرت دموع دنفر فى نار الموقد . ولا لماذا بكت أمها أيضا ، بعد خمس عشرة دقيقة من هذا ، بعد أن أخبرته عن لبنها المسلوب . من خلفها أمسك بثدييها فى راحتى يديه ، وهو يميل الى الامام ، وجسده قوس من الحنان . دلك وجنيته على ظهرها وعرف بهذه الطريقة حزنها ، جذوره ، جذعه العريض وأغصانه المتشابكة . وعرف ، وهو يرفع أصابعه الى مشابك ثوبها ، أن الدموع كانت تنهمر بسرعة دون أن يراها أو ان يسمع أى زفرة . وعندما أحاطت فتحة رقبة ثوبها بردفيها ورأى النحت الذى صار اليه ظهرها ، كأنه عمل زخرفى لحداد أشد إيلاما من أن يعرض ، لم يسعه إلا أن يفكر دون أن يقول ، « أوه ، يا إلهى ، يا فتاتى » . ولم يهدأ له بال إلا حين لمس بشفتيه كل ورقة منها ، لم تشعر سيث بما فعل لان جلد ظهرها كان قد مات منذ سنوات . كان ما عرفته هو أن مسؤولية ثدييها كانت أخيراً بين يدى شخص ما آخر .

تساءلت فيما بينها وبين نفسها ترى هل تجد مساحة صغيرة ، زمناً قصيراً ، طريقة ما تنأى بها عن زخم الأحداث ، أن ترجىء الانشغال فى زوايا الغرفة وتقف هناك دقيقة أو اثنتين ، عريانة من أعلى الصدر حتى الخصر ، متحررة من ثقل ثدييها ، تشتم

رائحة اللبن المسلوب مرة أخرى ومتعة خبز العيش؟ ربما كان بوسعها هذه المرة أن تتوقف ساكنة تماماً فى منتصف إعداد وجبة! ـ بل ألا تترك حتى الموقد ـ وأن تشعر بالألم الذى يجب أن يكون ظهرها يشعر به . أن تثق فى الأشياء وأن تتذكر الأشياء لأن آخر رجال سويت هوم كان هناك ليتلقفها إذا تهاوت؟

لم يرتجف الموقد وهو يتكيف مع حرارته . ولم تكن دنفر تتحرك فى الغرفة المجاورة . ولم يرتد نبض الضوء الأحمر ، ولم يكن بول د . قد ارتجف منذ ١٨٥٦ وعند ذاك لمدة ثلاثة وثمانين يوماً متصلة . لم يكن بوسعه أن يدخن أو حتى أن يحك جلده كما ينبغى ، وهو محبوس ومقيد بالأغلال . كان الآن يرتجف مرة أخرى ولكن ساقيه هذه المرة هما اللتان ترتجفان . استغرق فترة حتى يدرك أن ساقيه لم تكونا ترتجفان بسب القلق ، بل لأن ألواح الأرضية كانت ترتجف وأن الأرضية التى تصر وترتج كانت فقط جزءاً من هذا الارتجاف . كان البيت نفسه يميل . انزلقت سيث الى أرض الحجرة وجاهدت حتى تدخل ثانية فى ثوبها . فى حين اندفعت دنفر من الغرفة الاحتياطية وهى على أربع ، كأنها كانت تثبت بيتها الى الأرض ، والذعر فى عينيها ، وابتسامة غامضة على شفتيها .

كان بول د . يصيح ، وهو يسقط ، ويبحث عن مرساة : «لعنة الله! صمتاً! دع المكان وشأنه . اخرج بحق الجحيم!» اندفعت منضدة باتجاهه وقبض على قائمها . وبطريقة ما تمكن من الوقوف بزاوية ، وراح يطوح بها فى كل اتجاه ، وهو ممسك بقائميها ، محطماً كل شىء ، وهو يصرخ فى وجه الغرفة

الصارخة . « تريد أن تتقاتل ، هيا ! لعنة الله ! لقد نالها ما يكفيها بدونك . لقد نالت ما يكفيها ! » .

تباطأت الرجفات الى ترنح عرضى ، لكن بول د . لم يكف عن التطويح بالمنضدة فى كل الاتجاهات حتى أصبح كل شىء هادئاً هدوء صخرة . استند الى الحائط فى الفراغ الذى تركه الخوان ، والعرق يتفصد منه وهو يتنفس بصعوبة . كانت سيث ماتزال رابضة بالقرب من الموقد ، وهى تقبض على حذائها الذى استنقذته لصق صدرها . كان ثلاثتهم ، سيث ودنفر وبول د . يتنفسون بنفس الايقاع ، كأنهم شخص واحد مجهد . وكان هناك تنفس آخر مجهد مثلهم تماماً .

رحل . مشت دنفر خلال الصمت الى الموقد . مالت على الموقد وجذبت طاولة البسكويت من الفرن . كانت خزانة « الجيلى » مقلوبة على ظهرها ، ومحتوياتها ترقد فى كومة فى ركن الرف السفلى . أخرجت جرة صغيرة ، ووجدت ، وهى تبحث فيما حولها عن طبق ، نصف طبق بجوار الباب . حملت هذه الأشياء خارجاً الى الشرفة حيث جلست .

كان الاثنان قد صعدا الى هناك . كانا قد صعدا الدرجات البيضاء وهما يخطوان بخفة على مهل ، وتركاها تحت . انتزعت السلك من أعلى الجرّة بصعوبة ثم الغطاء . كان تحته قماش وتحت ذلك طبقة رقيقة من الشمع . أزالتها كلها وحاولت فى حذر شديد أن تصب « الجيلى » ليسقط على نصف الطبق . أخذت قطعة بسكويت ونزعت قمتها السوداء . تصاعد الدخان متلوياً من قلبها

الأبيض الناعم .

افتقدت أخويها . لقد بلغ بجلر وهوارد الثانية والعشرين والثالثة والعشرين الآن . وعلى الرغم من أنهما كانا مهذبين معها خلال الأوقات الهادئة وكانا يعطيانها قمة السرير كله ، إلا أنها تذكرت كيف كان الحال من قبل : المتعة التى كانوا ينعمون بها وهم يجلسون متجمعين على الدرجات البيضاء ـ وهى بين ركبتى هوارد أو بجلر ـ وهم يخترعون لعبة موت الساحرة ! قصصا ذات طرق مؤكدة تجعلها تموت من الخوف . وبيبى سجز تخبرها بأشياء فى الغرفة الاحتياطية . كانت تفوح منها رائحة لحاء الشجر فى النهار والأوراق عند الليل ، لأن دنفر لم تكن لتنام فى غرفتها القديمة منذ أن هرب أخواها .

والآن ها هى أمها فى الطابق العلوى مع الرجل الذى تخلص من الصحبة الأخرى الوحيدة التى كانت لها . غمست دنفر قطعة من الخبز فى « الجيلى » . وأكلتها ببطء ، بطريقة آلية وتعاسة .

صعدت سيث وبول د . درجات السلم البيضاء ، وهما ليسا فى عجلة تماما وإن لم يضيعا وقتا . أسقط بول د . خمسا وعشرين سنة من ذاكرته القريبة ، وقد غمره إحساس بحظه الصرف فى أن يجد بيتها وأن يجدها فيه تماما مثلما غمره إحساس بالثقة فى أن يمنحها ذكورته . فأمامه بدرجة من درجات السلم كانت بديلة بيبى سجز ، الفتاة الجديدة التى كانوا يحلمون بها فى الليل ويجامعون الأبقار من أجلها فى الفجر وهم ينتظرون أن تعقد اختيارها . كان مجرد تقبيل الحديد المطاوع على ظهرها قد زلزل البيت ، ودفعه على الرغم منه إلى أن يمزقه أشلاء . والآن سيفعل ما هو أكثر .

قادته إلى أعلى السلم ، حيث كان الضوء يأتى من السماء مباشرة لأن نوافذ الطابق الثانى لهذا البيت كانت قد ركبت فى السقف المائل لا فى الجدران . كانت هناك غرفتان ، أدخلته فى واحدة منهما ، وهى تأمل ألا يبالى بحقيقة أنها لم تكن مستعدة ، أنها وإن كان بوسعها أن تتذكر الشهوة ، إلا أنها قد نسيت كيف تفعل فعلها ؛ التشبث واليأس اللذان كان يكمنان فى اليدين ، كيف أن العمى قد تغير بحيث أصبح ما يثب فى العين أماكن للرقاد ، وأن كل ما عدا هذا ـ مقابض الأبواب ، السيور ، الخطاطيف ، الحزن الذى كان يربض فى الأركان ، ومرور الوقت ـ كان تشويشا .

انتهى الأمر قبل أن يتمكنا من خلع ثيابهما . ورقدا جنبا إلى جنب ، نصف عاريين يلهثان ، مستاءين من أحدهما الآخر ومن ضوء السماء فوقهما . كان حلمه بها طويلا ويمتد فى الماضى بعيداً . ولم يكن بحرمانها أية أحلام خاصة بها على الإطلاق . وها هما الآن آسفين وأكثر خجلا من أن يتحدثا .

رقدت سيث على ظهرها ، وقد حولت رأسها عنه . ورأى بول د . بطرف عينه طفو ثدييها وكرهه ، استدارتهما المسطحة المنبسطة التى كان باستطاعته يقينا أن يحيا بدونها ، متناسيا أنه قد أمسك بهما فى الطابق السفلى وأحس وكأنهما أغلى جزء من نفسه . وأن شبكة الحديد المطاوع التى كان يستكشفها فى المطبخ مثل عامل منجم ذهب ينبش فى تربة غنية بالمعادن ، كانت فى حقيقة الأمر كتلة من الندوب المقززة . ليست شجرة كما قالت. ربما كان لها شكل واحدة ، لكنها لا تشبه فى قليل أو كثير أى شجرة يعرفها لأن الأشجار لها إغراؤها ؛ إنها أشياء بإمكانك أن تثق فيها وأن تكون بقربها ، أن تخاطبها إن شئت مثلما كان يفعل من آن لآخر منذ زمان طويل مضى عندما كان يتناول وجبة نصف النهار فى الحقول فى سويت هوم . فى نفس المكان دائما إن استطاع ، وكان اختيار المكان أمرا شاقا لأن سويت هوم بها من الأشجار الجميلة أكثر من أى مزرعة حولها . كان يطلق على الشجرة التى يختارها « الأخ » ، ويجلس تحتها ، وحده أحيانا ، وأحيانا مع هال وآل بول الآخرين ، ولكن فى أغلب الأحيان مع سيكسو ، الذى كان لا يزال رقيقا ويتكلم الانجليزية . كان سيكسو ، وهو فى لون النيلة ذا لسان أحمر كاللهب ، يجرى

تجارب على البطاطس التى يطبخها ليلا ، وهو يحاول أن يحدد بالضبط متى يضع الصخور الساخنة فى حفرة ، والبطاطس فوقها ، ويغطى الكل بأغصان غضة بحيث ما أن يحل وقت الراحة لتناول وجبة الطعام ، ويربطون الحيوانات ، ويتركون الحقل ويصلون إلى «الأخ» ، تكون البطاطس فى قمة نضجها . وقد ينهض فى منتصف الليل ، ويقطع كل المسافة إلى هناك ، ويشرع فى تقليب الأرض فى ضوء النجوم ، أو قد يجعل الأحجار أقل سخونة ويضع بطاطس اليوم التالى عليها بعد الوجبة مباشرة . لم يتقنها أبدا ، لكنهم كانوا يأكلون تلك البطاطس التى طهيت أقل من اللازم ، أو أكثر من اللازم ، أو جفت ، أو على أى حال تكون ، وهم يضحكون ويبصقون ويبذلون له النصح .

لم يعمل الوقت أبدا بالطريقة التى كان سيكسو يفكر بها ، ولذا لم تمض الأمور معه كما أراد . وذات مرة وضع خطة محكمة بالدقيقة لرحلة طولها ثلاثون ميلا ليرى امرأة . غادر يوم السبت حين كان القمر فى المكان الذى كان يريده أن يكون فيه ، ووصل إلى كوخها قبل موعد الكنيسة يوم الأحد ، ولم يعد أمامه وقت كاف إلا ليقول لها صباح الخير ويشرع فى رحلة العودة ثانية حتى يصل فى موعد نداء الحقل فى الوقت المناسب صباح الإثنين . كان قد سار لمدة سبع عشرة ساعة ، وجلس لمدة ساعة ، واستدار وسار سبع عشرة ساعة أخرى . قضى هال وآل بول اليوم كله يقومون بنصيب سيكسو فى العمل لإخفاء غيابه عن مستر جارنر . لم يأكلوا بطاطس فى ذلك اليوم . نام سيكسو باسطا ذراعيه وقدميه على مقربة من «الأخ» ، ولسانه الأحمر كاللهب

مختفيا عنهم ، ووجهه النيلى اللون مطبقا ، كالجثة خلال الغداء .
والآن **هناك** كان رجل ، و **تلك** كانت شجرة . لم يكن هو نفسه راقد
فى السرير و « الشجرة » راقدة إلى جواره ولكن لا وجه للمقارنة .

نظر بول د . خلال النافذة التى كانت تقع فوق قدميه وعقد
ذراعيه خلف رأسه . لمس مرفقه كتف سيث . أفزعها ملمس
القماش على جلدها . كانت قد نسيت أنه لم يخلع قميصه . قالت
لنفسها ، كلب ، ثم تذكرت أنها لم تمهله وقتا ليخلعه . ولا نفسها
حتى تخلع قميصها الداخلى ؛ ومع الأخذ فى الاعتبار أنها كانت
قد شرعت فى خلع ملابسها قبل أن تراه فى الشرفة ، وأن حذاءها
وجوربها كانا فى يدها سلفا ولم تكن قد أعادت ارتداءهما ؛ وأنه
كان قد نظر إلى قدميها الحافيتين المبتلتين وطلب أن يجلس
معها ؛ وأنه عراها أكثر حين نهضت لتطبخ ، ومع الأخذ فى
الاعتبار السرعة التى شرعا يتعريان بها ، كنت لتظن ما سيكونان
عليه الآن . ولكن ربما الرجل هو الرجل ، وهو ما كانت بيبى سجز
تقوله دائما . كانوا يشجعونك أن تضعى بعض ثقلك بين أيديهم
وما أن تشعرى كم كان هذا خفيفا وجميلا ، فإنهم كانوا
يفحصون ندوبك ومحنك ، وبعد ذلك يفعلون ما فعل هو : طردوا
أبناءها إلى الخارج وحطموا البيت .

كانت بحاجة إلى أن تنهض من هناك ، أن تنزل إلى الطابق
السفلى ، وأن تلملم شتات الأشياء ثانية. هذا البيت الذى طلب منها
أن تغادره كما لو أن البيت شيئا تافها - بلوزة أو سلة أدوات
حياكة تستطيع أن ترحل عنه فى أى وقت شئت . هى التى لم يكن
لها بيت سوى هذا البيت ؛ هى التى تركت أرض حجرة ترابية

لتأتى إلى هذا البيت ؛ هى التى كان عليها أن تحضر حفنة من البقل إلى مطبخ مسز جارنر كل يوم لمجرد أن تكون قادرة على العمل فيه ، لتشعر أن جزءا منه كان خاصاً بها ، لأنها كانت تريد أن تحب العمل الذى تقوم به ، وأن تنزع عنه القبح ، وكانت الطريقة الوحيدة التى تستطيع أن تشعر من خلالها بأنها فى بيتها فى سويت هوم هى أن تقطف شيئا جميلا مما ينمو وتحمله معها . كان اليوم الذى تنسى فيه هو اليوم الذى لا تصل فيه الزبد أو اليوم الذى فيه كان الملح فى البرميل يقرح ذراعيها .

كان الأمر يبدو هكذا على الأقل . بضع زهرات صفراء على المنضدة ، بضعة من نبات الآس العطرى حول مقبض المكواة تبقى الباب مفتوحا يسمح بدخول نسمة تهدئها ، وعندما كانت مسز جارنر وهى يجلسان لفرز الشعر الغليظ ، أو لصنع الحبر ، كانت تشعر بالبهجة . البهجة . لم تكن فزعة من الرجال فى الخارج . الخمسة الذين كانوا ينامون فى مأوى بالقرب منها ، ولم يكونوا يدخلون فى الليل أبدا . كانوا يلمسون قبعاتهم الرثة فقط حين يرونها ويحملقون . وكانت إذا حملت إليهم الطعام فى الحقل ، شرائح لحم الخنزير المقدر والخبز ملفوفة فى قطعة قماش نظيفة ، لم يتناولوها من يديها أبدا.كانوا يتراجعون إلى الخلف وينتظرونها أن تضعها على الأرض (أسفل جذع شجرة) وتمضى . إما لأنهم لم يكونوا يريدون أن يتناولوا أى شىء منها ، أو لا يريدونها أن تراهم يأكلون . تريثت مرتين أو ثلاثا . راحت تراقبهم وهى مختبئة خلف شجرة صريمة الجدى (أزهارها غنية بالرحيق) . كم كانوا مختلفين بدونها ، كم ضحكوا ولعبوا

وتبولوا وغنوا . كلهم إلا سيكسو ، الذى ضحك مرة واحدة ـ فى النهاية تماما . كان هال ألطفهم بطبيعة الحال . طفل بيبى سجز الثامن والأخير ، الذى أجرّ نفسه فى طول المقاطعة وعرضها لكى يسترد حريتها من هناك . ولكنه أيضا ، كما اتضح ، لم يكن سوى رجل .

قالت بيبى سجز : « الرجل هو الرجل . ولكن الابن ؟ حسنا إذن ، إنه **شخص ذو شأن** » .

بدا هذا معقولا لأسباب كثيرة لأن الرجال والنساء فى كل حياة بيبى ، كما فى حياة سيث نفسها ، كان يحركون مثل أحجار لعبة الداما . كان كل من عرفته بيبى سجز ، ناهيك عن أنها أحبته ، ولم يهرب أو يشنق ، كان يؤجر ، يُعار ، يُشترى ، يُعاد ، يُختزن ، يُرهن ، يُكسب ، يُسرق أو يقبض عليه . ولذا فإن أطفال بيبى سجز كان لهم ستة آباء . وما كانت تسميه قرف الحياة كانت تعنى به الصدمة التى تلقتها عندما كانت تعلم أن أحدا لم يتوقف عن لعبة الداما لمجرد أن الأحجار كانت تتضمن أبناءها . تمكنت من أن تحتفظ بهال أطول فترة. عشرين عاما . عمر بأكمله. أعطوه لها ، دون شك ، لتعويضها عن **سماعها** بأن ابنتيها ، اللتين لم يكن قد نبتت لهما أسنان الكبار ، قد بيعتا ورحلتا ولم يكن بوسعها أن تلوح لهما وداعا . ولتعويضها عن تزاوجها مع رئيس عمال لمدة أربعة شهور فى مقابل الاحتفاظ بطفلها الثالث ، الصبى ، معها ـ وإنما لتجده قد قيض بخشب منشور فى ربيع العام التالى ولتجد نفسها حاملة من الرجل الذى وعدها بألا تحمل ولم يف بوعده . هذا الطفل لا تحبه ولا تستطيع ، وكذلك الباقون. كانت تقول :

« ليأخذ الرب ما يشاء » . وفعل ، وفعل ، وفعل ثم وهبها هال الذى منحها حريتها حين لم تكن تعنى شيئا .

وقد حظيت سيث بحظ مذهل تمثل فى ست سنين كاملة من الزواج بذلك الابن « ذى الشأن » الذى كان أبا لكل واحد من أبنائها . نعمة كانت من الطيش بحيث أخذتها على علاتها ، واعتمدت عليها ، كما لو كان سويت هوم نعمة حقا . كما لو كانت حفنة من نبات الآس العطرى فى مقبض مكواة مسندة إلى الباب فى مطبخ امرأة بيضاء بإمكانها أن تجعله خاصًا بها . كما لو كان غصين نعناع فى الفم يغير النَفَس مثلما يغير رائحته . لم يكن بالحياة انسان أكثر منها خرقا .

شرعت سيث تستدير على بطنها ثم غيرت رأيها . لم تشأ أن تجتذب انتباه بول د . إليها ثانية ، ولذا استقر رأيها على عقد كاحليها .

لكن بول د . لاحظ الحركة مثلما لاحظ التغير فى تنفسها . شعر أنه مضطر إلى أن يحاول ثانية ، أبطأ هذه المرة ، لكن شهيته كانت قد انقضت . كان شعورا طيبا فى الواقع - ألا يريدها . خمسة وعشرين سنة كنقطة مضيئة على شاشة! نفس الشىء الذى كان سيكسو ليفعله - كما فعل فى المرة التى رتب فيها لقاء مع باتسى امرأة الأميال الثلاثين . استغرق الأمر ثلاثة أشهر ورحلتا ذهاب وعودة كل منهما طولها أربعة وثلاثون ميلا ليحقق هذا . أن يقنعها أن تسير ثلث الطريق باتجاهه ، إلى مكان يعرفه . بناء حجرى مهجور كان الهنود الحمر يستخدمونه فى سالف الأزمان

عندما كانوا يظنون أن الأرض أرضهم . اكتشفه سيكسو فى أحد تسللاته الليلية ، وطلب منه الإذن بالدخول . وفى الداخل ، بعد أن أحس بإحساس المكان ، سأل روح الهنود الحمر إذا كان بإمكانه أن يحضر امرأته هناك . قال له نعم . وأرشدها سيكسو بعد جهد جهيد كيف تصل إلى هناك ، متى تبدأ رحلتها بالضبط ، وكيف تبدو أصوات صفيرة مرحبة أو محذرة . ولما كان أيهما لا يمكنه الذهاب إلى أى مكان فى مهمة خاصة به ، ولما كانت امرأة الثلاثين ميلا فى الرابعة عشرة سلفا وعلى موعد مع ذراعى شخص ما ، كان الخطر حقيقيا . عندما وصل ، لم تكن قد وصلت . صفر ولم يتلق ردا . دخل مأوى الهنود الحمر المهجور . لم تكن هناك . عاد إلى مكان اللقاء . لم تكن هناك . انتظر فترة أطول . ورغم ذلك لم تحضر. انتابه الخوف عليها وسار فى الطريق فى الاتجاه الذى كانت ستأتى منه . ثلاثة أو أربعة أميال ، وتوقف . كان أمرا ميئوسا منه أن يمضى فى ذلك الطريق ، ولذا وقف فى الريح وصاح يطلب العون . سمع نشيجا وهو يصغى بانتباه لعلامة ما . استدار باتجاهه ، وانتظر وسمعه مرة أخرى . صاح باسمها وقد تخلى الآن عن حذره . أجابته بصوت بدا كأنه الحياة بالنسبة له ـ لا الموت . صاح : « لا تتحركى ! تنفسى بشدة حتى يمكننى أن أجدك ». ووجدها. كانت تعتقد أنها بالفعل عند نقطة اللقاء وكانت تبكى لأنها ظنت أنه لم يف بوعده . أصبح الوقت الآن متأخرا للملتقى فى بيت الهنود الحمر ، وأنهيا الأمر حيث كانا . وفيما بعد ثقب ربلة ساقها ليقلد لدغة ثعبان حتى تستخدمها بشكل ما كعذر عن الذهاب فى الموعد لجمع لطع

الديدان من على أوراق التبغ . أعطاها تعليمات مفصلة حول تتبع جدول الماء كطريق مختصر للعودة وودعها . وعندما بلغ الطريق كان الضوء غامرا وكان يمسك بثيابه فى يديه . وفجأة من حول المنحنى تدحرجت عربة باتجاهه. رفع سائقها ، وقد اتسعت عيناه ، سوطا بينما غطت المرأة الجالسة بجواره وجهها . لكن سيكسو كان قد ذاب سلفا فى الغابات قبل أن يلهب السوط مؤخرته ذات اللون النيلى .

قص القصة على بول ف . ، وهال ، وبول أ . وبول د . بالطريقة المميزة التى جعلتهم يدمعون من شدة الضحك . كان سيكسو يذهب بين الأشجار ليلا . للرقص ، هكذا قال ، ليحافظ على شرايين دمه مفتوحة . كما قال . كان يفعل ذلك سرا ، وحده . لم يكن أى من الآخرين قد رآه يفعل ذلك ، لكن كان بوسعهم أن يتخيلوه ، وجعلتهم الصورة التى رسموها له يتوقون إلى الضحك منه ـ فى النهار ، عندما كان ذلك آمنا .

لكن ذلك كان قبل أن يكف عن الحديث بالانجليزية لأنها لا مستقبل لها . وبسبب امرأة الثلاثين ميلا كان سيكسو الوحيد الذى لم يكن الحنين إلى سيث يشلّه . لم يكن هناك شىء طيب مَثل ممارسة الجنس معها . ظل بول د . يحلم به من آن لآخر لمدة خمسة وعشرين عاما . جعله حمقه يبتسم ويفكر بشكل مضحك فى نفسه وهو ينقلب على جنبه ويواجهها . كانت عينا سيث مغمضتين ، وشعرها مهوشا . لم يكن وجهها جذابا إلى هذا الحد ، إذ تبصرها بهذا الشكل ، بدون العينين اللامعتين . إذن لابد أن

عينيها هما ما جعلاه حذرا ومهتاجا . بدونهما كان وجهها من الممكن التعامل معه ـ وجها بإمكانه أن يعالجه . ربما لو أبقتهما مغمضتين هكذا . . لكنْ لا ، كان هناك فمها . لطيف . لم يعرف هال قط ما كان لديه .

وبالرغم من أن عينيها كانتا مغمضتين ، إلا أن سيث كانت تعلم أن نظرته المحدقة كانت على وجهها ، وارتفعت أمام خيالها صورة تبين كم كانت تبدو فى حالة سيئة بالضبط . رغم ذلك ، لم تكن هناك سخرية تأتيها من نظرته . ناعمة . ناعمة مشوقة على نحو ما . لم يكن يحكم عليها ـ أو كان بالأحرى.يحكم لكنه لم يكن يقارنها بغيرها . لم يحدث هذا منذ أن سمح هال لرجل أن ينظر إليها بتلك الطريقة : لا بطريقة محبة أو تتسم بالشفقة ، ولكن مهتمة ، كما لو كان يفحص سنبلة قمح ليحدد نوعيتها . كان هال أخا أكثر منه زوجا . كان اهتمامه يوحى بعلاقة عائلية لا برجل يطالب بحق ظلا لسنين يرى أحدهما الآخر فى عز ضوء النهار فقط خلال أيام الأحد.وبقية الوقت كانا يتحدثان أو يتلامسان أو يأكلان فى الظلام . ظلام ما قبل الفجر و ما بعد غروب الشمس . هكذا كانت متعة صباح الأحد وكلاهما ينظر إلى الآخر بإمعان ، وهال يتفحصها كما لو كان يختزن ما رآه فى ضوء الشمس للظل الذى كان يراه بقية الأسبوع . وكان لديه أقل القليل من الوقت . بعد عمله فى سويت هوم وفى أوقات عصر أيام الأحد كان العمل الذى يدين به لأمه . عندما سألها أن تكون زوجته ، وافقت سيث سعيدة ثم توقفت عاجزة وهى لا تعلم الخطوة التالية . يجب أن يكون هناك احتفال ، أليس كذلك ؟ واعظ ، بعض الرقص ، حفل ،

شيء ما . كانت هي ومسز جارنر المرأتين الوحيدتين هناك ، ولذا قررت أن تسألها .

« أنا وهال نريد الزواج ، يا مسز جارنر » .

ابتسمت وقالت : « هذا ما سمعته ، لقد حادث مستر جارنر في هذا . هل أنت حامل سلفا ؟ »

« لا ، يا سيدتي » .

« حسنا ، سوف تكونين . تعرفين ذلك ، ألا تعرفين ؟ »

« بلى ، يا سيدتي » .

« هال لطيف ، يا سيث . سوف يكون طيبا معك » .

« لكنني أعني أننا نريد الزواج » .

« لقد قلت هذا توا ، وقلت إن هذا على ما يرام » .

« هل هناك حفل زفاف ؟ »

وضعت مسز جارنر ملعقة الطبخ . لمست رأس سيث ، وهي تضحك قليلا ، قائلة : « إنك طفلة عذبة » .ثم لا شيء .

صنعت رداء في السر وعلق هال حبل ربط الماشية الخاص به في مسمار بالحائط في كوخ سيث ، وهناك على حشية فوق أرض الحجرة القذرة تزاوجا للمرة الثالثة ، أما المرتين الأوليين فقد كانتا في حقل الذرة الصغير الذي كان مستر جارنر يحتفظ به لأنها كانت محصولا يمكن للحيوانات مثلما يمكن للبشر أن يستخدموه . كان هال وسيث واقعين تحت تأثير أنهما كانا

مختفيين. لم يكن بوسعهما أن يريا أى شىء، بما فى ذلك شواشى الذرة فوق رأسيهما التى يراها كل إنسان دونهما، وهما راقدان تكتنفهما أعواد الذرة.

ابتسمت سيث لغبائها وغباء هال. فحتى الغربان كانت تعرف وجاءت لتنظر. نجحت فى ألا تضحك، وهى تفك عقد كاحليها.

قال بول د. لنفسه إن القفزة من عجل إلى فتاة لم تكن جبارة بهذا القدر. لم تكن الوثبة التى أعتقد هال أنها ستكون. كانت بادرة حنان منه أن يأخذها فى الذرة لا فى مسكنها، على بعد ياردة من أكواخ الآخرين الذين خسروا. أراد هال السرية من أجلها ولكنه حصل على عرض عام. من ذا الذى كان بوسعه أن يفوته تموج فى حقل ذرة فى يوم هادىء غير ملبد بالغيوم؟ كان هو وسيكسو وكل من آل بول يجلسون تحت «الأخ» يصبون الماء من يقطينة فوق رءوسهم، ومن خلال عيون يسيل منها ماء البئر، يراقبون اضطراب شرَّابات الذرة فى الحقل أسفلهم. كان شاقا، شاقا، شاقاً أن يجلسوا هناك منتصبين مثل كلاب، يراقبون أعواد الذرة تتراقص عند الظهيرة. وجعل الماء الذى يسيل من فوق رءوسهم الأمر أسوأ.

تنهد بول د. واستدار. انتهزت سيث الفرصة التى سمحت بها هذه الحركة لتغير اتجاهها أيضا. وعندما نظرت إلى ظهر بول د.، تذكرت أن بعض أعواد الذرة تكسرت وانثنت فوق ظهر هال، ومن بين ما أمسكت بهِ أصابعها قشور وشعر الذرة الحريرى.

كم كان الحرير مفككا. وكم كان العصير محبوسا.

ذاب إعجاب الرجال المتلصصين الغيور مع وليمة الذرة الجديدة التى سمحوا لأنفسهم بها فى تلك الليلة . قطفوها من أعواد الذرة المتكسرة التى لم يكن بوسع مستر جارنر إلا أن يشك أنها خطأ حيوان الراكون . أراد بول ف . ذرته مشوية ، وأراد بول أ . ذرته مسلوقة ، ولم يستطع بول د . الآن أن يتذكر كيف طبخوا فى النهاية حبات الذرة تلك التى كانت أصغر من أن تؤكل . ما تذكره هو تفريق الشرّابات وصولا إلى الطرف ، وحافة ظفره تحته تماما حتى لا يمس حبة واحدة .

كان نزع الغلاف المحكم إلى أسفل ، وصوت التمزق يقنعانها دائما أنها عملية مؤلمة .

ما أن ينزل شريط واحد من قشور كوز الذرة حتى يستسلم الباقى ويسلم له صفوفه الخجلى ، وقد تعرت أخيرا . كما كان الحرير مفككا . وكم كانت النكهة المحبوسة تسرع فى الجريان حرة .

ولا يهم ماذا كانت أسنانك وأصابعك المبتلة تتوقع ، فلم يكن هناك تعليل للطريقة التى كانت تلك البهجة البسيطة تهزك بها .

كما كان الحرير مفككا . كما كان ناعما ومفككا وحرا .

كانت أسرار دنفر لطيفة . ارتبطت كل مرة بزهرة الحواشى حتى اكتشفت الكولونيا . كانت الزجاجة الأولى هدية ، والتالية سرقتها من أمها وخبأتها وسط شجيرة البقس حتى تجمدت وتشققت . حدث هذا فى العام الذى جاء فيه الشتاء على عجل وقت العشاء وظل ثمانية شهور . وهى إحدى سنوات الحرب حين أحضرت مس بودوين ، المرأة البيضاء ، كولونيا عيد الميلاد لأمها ولها ، وبرتقالا للأولاد وشالا صوفيا جيدا لبيبى سجز . بدت سعيدة وهى تتحدث عن حرب حافلة بالموتى - ووجهها متورد ، وعلى الرغم من أن صوتها كان ثقيلا مثل صوت رجل ، إلا أنها كانت عطرة مثل حجرة مليئة بالزهور - ومثيرة إلى الحد الذى جعل دنفر تتمنى لو تستحوذ على الكل لنفسها فى شجيرة البقس . ففى الخلف فيما وراء البيت رقم ١٢٤ كان هناك حقل ضيق ينتهى عند حافة غابة . وفى الجانب الأبعد من هذه الغابات ، جدول . فى تلك الغابات ، بين الحقل والجدول وفى مكان تخفيه أشجار البلوط ، كانت خمس أجمات من شجيرات البقس ، مزروعة فى دائرة ، طالت أغصانها حتى تعانقت وقد ارتفعت عن الأرض أربع أو خمس أقدام لتشكل حجرة دائرية خالية ، ارتفاعها سبعة أقدام ، جدرانها خمسون بوصة من الأوراق المهمهمة .

كان بوسع دنفر أن تزحف إلى داخل هذه الحجرة وقد انحنت ،

وما أن تدخل حتى تجد بإمكانها أن تقف على امتداد قامتها فى ضوء زمردى .

بدأ الأمر مثل لعبة منزلية لفتاة صغيرة ، ولكن عندما تطورت رغباتها ، تطور اللعب كذلك . هادئا ، حيوانيا أوليا وسريا تماما فيما عدا رائحة الكولونيا المؤذية التى كانت تستثير الأرانب قبل أن تربكها . كان المكان أولا حجرة لعب (حيث كان الصمت أكثر نعومة) ، ثم ملاذا (من خوف أخويها) ، وسرعان ما أصبح الغاية . فى تلك الأيكة ، المغلقة دون ألم العالم الجريح ، كان خيال دنفر ينتج جوعه وطعامه ، الذى كانت بحاجة ماسة إليه لأن الوحدة كانت تنهكها . **كانت تنهكها** . كانت تشعر أنها ناضجة ورائقة ، والجدران الخضراء الحية تحجبها وتحميها ، وكان الخلاص سهلا سهولة الأمنية .

ذات مرة بينما هى فى أجمة شجيرات البقس ، فى الخريف قبل أن ينتقل بول د . إلى البيت مع أمها بوقت طويل ، شعرت بالبرد فجأة إثر لفح الريح والعطر على جلدها . ارتدت ثيابها ، وانحنت لتغادر المكان ووقفت وسط الثلج المتساقط : ثلج رقيق لاسع يشبه تماما الصورة التى رسمتها أمها وهى تصف ظروف ولادة دنفر فى زورق طويل وقد باعدت ما بين ساقيها فتاة بيضاء سميت باسمها .

اقتربت دنفر من البيت وهى ترتجف ، وتنظر إليه على اعتباره شخصا لا مبنى مثلما كانت تفعل دائما . شخصا يبكى ، يتنهد ، يرتعد وتصيبه نوبات . كانت خطواتها ونظرتها المحدقة خطوات

ونظرات طفلة حذرة تقترب من قريب خامل عصبى (شخص عالة لكنه ذو كبرياء) . أخفى حجاب الظلام كل النوافذ ما عدا واحدة . انبعث توهجها المعتم من حجرة بيبى سجز . عندما أطلت دنفر برأسها رأت أمها على ركبتيها تصلى وهو ما لم يكن أمر غير عادى . لكن الشيء غير العادى (حتى بالنسبة لفتاة عاشت كل حياتها فى بيت يسكنه نشاط الموتى الحى) هو رداء أبيض يركع بالقرب من أمها ويطوق كمه وسط أمها . وكان العناق الحنون لكم الرداء هو ما جعل دنفر تتذكر ولادتها - ذلك والثلج النحيل اللاسع الذى كانت تقف فيه ، مثل فاكهة الأزهار العادية . بدا الرداء وأمها معا كأنهما امرأتان ناضجتان ودودتان - إحداهما (الرداء) تساعد الأخرى . وشهد سحر ولادتها ، أو معجزته فى الواقع ، بتلك الصداقة مثلما يشهد بذلك اسمها .

دخلت بسهولة فى القصة المروية التى كانت تقع أمام عينيها على الممر الذى تبعته مبتعدة عن النافذة . كان هناك باب واحد وللوصول إليه من الخلف كان عليك أن تمشى كل الطريق حول البيت إلى واجهة ١٢٤ ، عابرا المخزن . عابرا كوخ التبريد ، والمرحاض ، والشرفة ، وتدور حتى تصل إلى الشرفة . ولكى تصل إلى ذلك الجزء من القصة الذى كانت تفضله ، كان عليها أن تبدأ من زمن بعيد : أن تسمع الطيور فى الغابات الكثيفة ، وتكسّر الأوراق تحت قدميها ؛ وترى أمها تشق طريقها فى التلال حيث لم يكن من المحتمل أن توجد بيوت . . كم كانت سيث تمشى على قدمين من المفروض أن تستخدمهما فى الوقوف ساكنة . كم كانتا متورمتين إلى درجة أنها لم يكن بوسعها أن تراهما تتقوسان أو

أن تتحسس كاحليها . كانت قصبة ساقها تنتهى بكتلة مخروطية من اللحم تحفر حوافها أظافر أصابع القدم الخمس . لكنها لم تكن تستطيع ، أو تود ، التوقف ، لأنها حين تفعل هذا فإن البقرة الوحشية تنطحها بقرون وتضرب أسفل رحمها بحوافر نافدة الصبر . بينما كانت تمشى ، كانت البقرة تبدو كما لو كانت ترعى ، فى هدوء- ولذا كانت تسير ، على قدمين من المفروض أن يستخدما ، وهى فى شهرها السادس هذا من الحمل ، للوقوف ساكنة . ساكنة قرب غلاية ؛ ساكنة عند الممخضة ؛ ساكنة عند حوض الاستحمام ولوح الكى . كان اللبن اللزج الحمضى يبلل ثوبها ، فيجتذب كل شىء صغير يطير ابتداء من البعوض حتى الجنادب . وما أن تصل إلى حافة التل حتى تكون قد كفت من زمن بعيد عن هشها . كان الرنين فى رأسها ، الذى بدأ مثل جرس كنيسة يُسمع من مسافة ، قد أصبح عندئذ قلنسوة من أجراس هادرة حول أذنيها . كانت تغطس وتضطر إلى النظر لترى ما إذا كانت فى حفرة أو كانت راكعة . لم يكن هناك شىء حى سوى حلمتيها والبقرة الوحشية الصغيرة . أخيرا كانت أفقية- أو لابد أنها كانت كذلك لأن نصال البصل البرى كانت تخدش صدغها ووجنتيها . ولما كانت قلقة على حياة أم أطفالها ، فقد قالت سيث لدنفر كما تذكرت وهى تفكر : « حسنا ، لست مضطرة على الأقل أن أخطو خطوة أخرى » . وهى فكرة آخذة فى الاحتضار إن صح ذلك ، وانتظرت أن تحتج البقرة الوحشية ، ولم يكن بوسع سيث أن تتخيل لماذا فكرت فى بقرة وحشية حيث أنها لم تر واحدة مطلقا . خمنت أن لابد أنها كانت اختراعا تشبثت به من قبل سويت هوم ، عندما كانت صغيرة جدا . من المكان الذى ولدت فيه (ربما

كارولينا ؟ وربما لويزيانا ؟) تذكرت فقط الأغانى والرقصات . بل لا تتذكر حتى أمها ، التى دلتها عليها طفلة عمرها ثمانى سنوات كانت تراقب الصغار. دلتها عليها بصفتها واحدة من بين عدة ظهور مستديرة عنها ، منحنية الظهر فى حقل مغمور بالماء . انتظرت سيث بصبر حتى يصل هذا الظهر بالذات إلى آخر الصف ويقف . ما رأته كان قبعة من القماش فى مقابل واحدة من القش ، مظهرا متميزا بما فيه الكفاية فى ذلك العالم من نساء يهدلن ، كل واحدة منهن كانت تنادى بكلمة« أمى » .

« سيث ـ ثوه » .

« أمى » .

« أمسكى الطفل » .

«نعم يا أمى » .

«سيث ـ ثوه » .

« أمى » .

« احضرى بعض الضرام هنا » .

«نعم ، يا أمى » .

أوه ، عندما كن يغنين . وأوه عندما كن يرقصن وأحيانا يرقصن رقصة البقرة الوحشية . الرجال و «الأمهات» أيضا ، اللاتى كانت واحدة منهن أمها بالتأكيد . كانت هيآتهم تتبدل ليصبحوا شيئا آخر . بعضهم غير مقيد وبعضهم لحوح تعرف

أقدامهم نبضها أفضل مما كانت هى تعرفه . مثل تلك الواحدة التى كانت فى بطنها .

« أعتقد أن أم هذا الطفل سوف تموت فى البصل البرى فى الجانب الآخر الملعون من نهر أوهايو » . كان ذلك ما يدور فى عقلها وما أخبرت به دنفر . كلماتها بالضبط . ولم يبد أنها فكرة سيئة ، فى مجموعها ، بسبب الخطوة التى لم تكن لتخطوها ، لكن فكرتها عن نفسها وهى ممددة ميتة فى حين بقيت البقرة الوحشية على قيد الحياة ـ ساعة ؟ يوما ؟ يوما وليلة ؟ ـ أشاعت ذلك الحزن فى جسدها الميت إلى حد أن انطلقت منها آهة جعلت الشخص الذى يسير فى الممر على بعد أقل من عشر ياردات يتوقف ويقف ساكنا . لم تكن سيث قد سمعت الخطو ، لكنها فجأة سمعت الوقفة الساكنة ثم شمت رائحة الشعر . كان الصوت الذى قال : « من هناك ؟ » هو كل ما كانت تحتاجه لتعرف أن صبيا أبيض كان على وشك اكتشافها . وأنه هو الآخر كانت له أسنان مكسوة بالطحالب ، وشهية . وأنها وهى على سلسلة تلال مكسوة بأشجار الصنوبر قرب نهر أوهايو ، تحاول الوصول إلى أطفالها الثلاثة ، الذين كان واحد منهم يتضور جوعا طلبا للحليب الذى كانت تحمله ، وبعد أن اختفى زوجها ؛ وبعد اغتصاب لبنها ، وتحول ظهرها إلى لباب ، وتيتم أطفالها ، لم تكن لتموت ميتة سهلة . لا .

أخبرت دنفر أن **شيئا ما** خرج من الأرض ليدخل فيها ـ مثل شىء متجمد ، لكنه يتحرك أيضا ، مثل فكين بداخلها . قالت : « كنت أبدو مجرد فكين يطحنان » . وفجأة تملكها شوق إلى عينيه ، لتثقبهما بأسنانها ، لتقضم وجنته .

أخبرت دنفر : « كنت جائعة ، جائعة كما يمكن أن يكون الجوع إلى عينيه . لم أكن أستطيع أن أنتظر » .

ولذا رفعت نفسها على مرفقها وجرجرت نفسها ، جذبة ، اثنتين ، ثلاثا ، أربعا ، باتجاه الصوت الأبيض الصغير الذى كان يتكلم عن « من هناك ؟ »

كنت أفكر : « تعال وانظر . ليكن آخر شىء تراه » وظهرت القدمان بكل تأكيد ، ولذا فكرت أن حسنا ذلك هو المكان الذى أبدأ به وليفعل الله ما يشاء ، سوف آكل قدميه أولا . إننى أضحك الآن ، لكنه صحيح . لم أكن فقط مصممة على فعل ذلك ، كنت أتحرق إلى فعل ذلك . مثل ثعبان . كلى فكان وجائعة .

لم يكن ولدا أبيض على الإطلاق . كانت فتاة . أكبر نفاية رثة المظهر رأيتها فى حياتك . « انظرى إلى ماهنالك . زنجية . إذا لم يكن هذا يفوق كل شىء » .

ثم جاء الجزء الذى كانت دنفر تحبه أكثر من أى شىء :

كان اسمها ايمى ، وكانت بحاجة إلى اللحم وإلى شراب مسكر أكثر من أى واحد فى العالم . ذراعان مثل أعواد القصب وشعر يكفى أربعة أو خمسة رءوس . عينان تتحركان ببطء . لم تكن تنظر إلى أى شىء بشكل سريع . كانت تتكلم كثيرا إلى حد أنه لم يكن من الواضح كيف كان بوسعها أن تتنفس فى ذات الوقت . وكانت ذراعاها اللتان تشبهان أعواد القصب قويتين كالحديد ، كما اتضح .

« أنت تقريبا أكبر شيء مخيف المنظر رأيته عى الإطلاق . ماذا تفعلين هنا على هذا الارتفاع ؟ » .

فتحت سيث فمها ، وهي راقدة في العشب ، مثل الثعبان الذى كانت تظنه نفسها ، وبدلا من أنياب ولسان مشقوق ، انطلقت منها الحقيقة .

قالت سيث لها . « هاربة » كانت الكلمة الأولى التى فاهت بها طوال اليوم ، خرجت غليظة بسبب لسانها الواهن .

« وهذان القدمان هما ما تهربين عليهما ؟ يا للمسيح ».جلست القرفصاء وحملقت فى قدمى سيث . « هل معك أى شيء ، يا فتاة ، يمكن اعتباره طعاما ؟ »

حاولت سيث أن تتحرك إلى وضع جالس ولكنها لم تستطع . «لا . »

« أود أن أموت فأنا جائعة للغاية » . حركت الفتاة عينيها بطء ، وهى تتفحص الخضرة حولها . «كنت أظن أنه سيكون هناك توت . يبدو هذا . لذلك صعدت إلى هنا . لم أتوقع أن أجد امرأة زنجية . لو كان هناك أى منه لأكلته الطيور . هل تحبين التوت ؟ »

« إننى حامل ، يا آنسة » .

ألقت ايمى نظرة عليها . « ذلك يعنى أنك ليست لديك شهية ؟ حسنا علىّ أن آكل شيئا » .

استعرضت المنظر الطبيعى مرة أخرى ، وهى تمشط شعرها

بأصابعها . أما وقد اقتنعت أنه لم يكن فيما حولها شيء تأكله ، فقد وقفت لترحل ؛ وتوقف قلب سيث أيضا لفكرة أن تترك وحيدة فى العش بلا ناب فى رأسها .

« إلى أين كنت ذاهبة ، يا آنسة ؟ »

استدارت ونظرت إلى سيث بعينين أضاءتا من جديد . « بوسطون لأشترى لنفسى بعض القطيفة . إنه مخزن اسمه ويلسون . رأيت صورة ولديهم أجمل قطيفة . إنهم لا يظنون أننى سأحصل عليه ، لكننى سأفعل » .

أومأت سيث ونقلت مرفقها. «أمك تعلم أنك تبحثين عن قطيفة؟»

رفعت الفتاة شعرها من على وجهها. «كانت أمى تعمل لدى هؤلاء الناس لتدفع أجر رحلتها. ولكنها ولدتنى ولما ماتت بعد ذلك مباشرة، حسنا، قالوا إن على أن أعمل لديهم لاسدد الدين. وقد فعلت ، لكننى أريد الآن بعض القطيفة .»

لم ينظرا مباشرة إلى إحداهما الأخرى ، ليس فى العيون مباشرة على أية حال . لكنهما انسابا بلا مجهود فى ثرثرة عن لا شيء على وجه التحديد - فيما عدا أن إحداهما كانت ترقد على الأرض .

قال سيث : « بوسطون ، هل هى بعيدة ؟ »

« أووه ، نعم . مائة ميل . ربما أكثر » .

« لابد أن هناك قطيفة أقرب فيما حولنا » .

«ليس كما فى بوسطون. بوسطون فيها الأفضل. وستكون جميلة للغاية علىّ. هل لمستها أبدا ؟»

«لا، يا آنسة. لم ألمس أية قطيفة مطلقا». لم تعلم سيث ما إذا كان الصوت، أو بوسطون أو القطيفة، ولكن الطفل نام بينما كانت الفتاة البيضاء تتكلم. لا لطمة واحدة أو ركلة، ولهذا خمنت سيث أن حظها قد تغير.

سألت الفتاة سيث: «هل رأيت أيا منها ؟ أراهن أنك لم ترى مطلقا أيا منها».

«إذا كنت قد رأيتها فلم أعرفها. ما شكلها، القطيفة ؟»

دارت ايمى بعينيها فى وجه سيث كما لو كانت لن تنقل مطلقا مثل هذه المعلومة السرية لشخص غريب تماما عنها.

سألتها: «ما اسمك ؟».

ومهما كانت بعيدة عن سويت هوم، لم يكن هناك داع لأن تكشف اسمها الحقيقى لأول شخص تراه. قالت سيث: «لو. يسموننى لو».

«حسنا، يا لو، إن القطيفة تشبه كما لو كان العالم قد ولد لتوه. نظيفا وجديدا وناعما للغاية. كانت القطيفة التى رأيتها بنية، ولكن فى بوسطون لديهم كل الألوان. قرمزى. ذلك يعنى أحمر لكن عندما تتحدثين عن القطيفة فإنك تقولين قرمزى!» رفعت عينيها إلى السماء، ثم تحركت مبتعدة وهى تقول: «لابد

أن أذهب » كما لو كانت قد أضاعت ما يكفى من الوقت بعيدة عَن بوسطون .

صاحت للخلف مخاطبة سيث وهى تشق طريقها خلال الأجمة : « ماذا ستفعلين ، مجرد أن ترقدى هناك وتلدين ؟ »

قالت سيث : « أنا لا أستطيع النهوض من هنا » .

توقفت واستدارت إليها : « ماذا ؟ »

« قلت إننى لا أستطيع أن أنهض » .

سحبت ايمى ذراعها عبر أنفها وعادت ببطء إلى حيث كانت سيث ترقد . قالت : « هناك بيت على البعد » .

« بيت ؟ »

« مممم . مررت به ليس بيتا بالمعنى الصحيح وإن كان به ناس . منحدر السطح ، نوعا ما » .

« على أية مسافة ؟ »

« هل يصنع هذا فرقا ؟ إذا قضيت الليل هنا قضى عليك ثعبان » .

« حسنا ربما يحسن أن يأتى. لا أستطيع الوقوف ناهيك عن المشى وليساعدنى الله ، يا آنسة ، أنا لا أستطيع أن أزحف » .

قالت ايمى : « مؤكد تستطيعين ، يالو . هيا ،» وبقذفة شعر يكفى خمسة رءوس ، تحركت باتجاه الممر .

وهكذا زحفت ومشت ايمى إلى جانبها ، وعندما احتاجت سيث أن تستريح ، توقفت ايمى أيضا وتحدثت أكثر عن بوسطون والقطيفة وطيبات الطعام . أبقى رنين ذلك الصوت ، الذى كان يشبه صوت صبى فى السادسة عشرة ، مستمرا ، البقرة الوحشية هادئة ترعى العشب . وخلال الزحف الكريه كله إلى البيت المائل ، لم تشب مرة واحدة .

لم يبق أى من أشياء سيث سليما حين وصلا إلى البيت سوى قطعة القماش التى كانت تغطى رأسها . تحت ركبتيها الداميتين ، لم يكن هناك أى إحساس ، وكان صدرها وسادتين من الدبابيس . كان الصوت الممتلىء بالقطيفة وبوسطون وطيبات الطعام هو ما حثها على المضى قدما وجعلها تفكر أنها ربما لم تكن ، فى النهاية ، مجرد جَبَّانة زاحفة للساعات الأخيرة فى حياة طفل عمره ستة شهور .

كان البيت المائل مليئا بأوراق الشجر ، التى صنعت منها ايمى كومة لترقد عليها سيث . ثم جمعت الصخور وغطتها بأوراق أكثر وجعلت سيث تضع قدميها عليها ، وهى تقول : « أعرف امرأة جرح قدماها حتى تورمتا للغاية » . وأتت بايماءات تقلد بها المنشار بحافة يدها عبر كاحلى سيث « ززز .. ززز .. ززز .. ززز » .

« كان حجمى طيبا ذراعان جميلتان وكل شىء ، ما كنت لتظنين ذلك ، أليس كذلك ؟ كان ذلك قبل أن يضعونى فى قبو الجذور . كنت أصطاد فى نهر بيفر ذات مرة . سمك السلور فى نهر بيفر شهى

مثل لحم الدجاج . حسنا ؛ كنت اصطاد هناك فحسب عندما طفا زنجي بجانبي تماما . أنا لا أحب الغرقى ، هل تحبينهم أنت ؟ قدماك تذكراني به . تبدوان منتفختين تماماً . »

ثم فعلت فعل السحر : رفعت قدمي سيث وساقيها ودلكتهما حتى بكت دموعا ملحية .

قالت ايمي : « سوف يؤلمك هذا الآن . أي شيء ميت يعود للحياة يؤلم » .

فكرت دنفر لنفسها ، هذه حقيقة لكل الأزمان.ربما كان الرداء الأبيض الذي كان يطوق خصر أمها بذراعه يتألم . إذا كان الأمر كذلك ، فمن الممكن أن يعني هذا أن الشبح الطفل كان يخطط لشيء . عندما فتحت الباب كانت سيث تغادر للتو الغرفة الاحتياطية .

قالت دنفر : « رأيت رداء أبيض متشبثا بك » .

« أبيض ؟ ربما كان ثوب عرسي . صفيه لي » .

«كان له رقبة عالية . مجموعة مبعثرة كاملة من الأزرار على طول الظهر » .

«أزرار. حسنا ، ذلك يستبعد ثوب عرسي . فلم يكن لدي زرار مطلقا على أي شيء » .

«هل كان لدى جدتي بيبي أي أزرار ؟»

هزت سيث رأسها. «لم تكن تستطيع التعامل معها . حتى على حذائها . أي شيء آخر ؟ »

« حزمة بالظهر. في جزء المقعدة » .

«ردف مستعار؟ كان له ردف مستعار؟»

«لا أعرف ما يسمونه».

«ململم شيئا ما؟ تحت الوسط على الظهر؟»

«أمّ همّ!».

«ثوب سيدة غنية. من الحرير؟»

«يبدو من القطن».

«ربما كان قطنيا ناعما محكم الفتل. ثوبا قطنيا ناعما أبيض. تقولين أنه كان متشبثا بى. كيف؟»

«يشبهك. بدا شبهك بالضبط. يركع إلى جوارك بينما كنت تصلين. وقد طوقك بذراعه».

«حسنا هذا غريب».

«لم كنت تصلين، يا أمى؟»

«لا لأى شىء. أنا لم أعد أصلى. أتكلم فقط».

«عما كنت تتكلمين؟»

«لن تفهمى، يا طفلتى».

«نعم، سأفهم».

«كنت أتكلم عن الزمن. صعب علىّ للغاية أن أومن به. بعض الأشياء تمضى. تمر. بعض الأشياء تبقى. كنت أظن أننى أستعيد الذكرى. تعرفين. بعض أشياء تنسينها. وأشياء أخرى لا تنسينها أبدا. لكن هذا ليس صحيحا. الأماكن، الأماكن تظل هناك. اذا احترق مكان فإنه يختفى، لكن المكان - صورته - تبقى، ليس فقط فى ذاكرتى، ولكن هناك بالخارج، فى العالم. ما أتذكره هو صورة تطفو حولى هناك خارج رأسى. أعنى أننى

حتى لو لم أفكر فيه ، حتى لو مت ، فإن صورة ما فعلته ، أو عرفته ، أو رأيته ما تزال هناك فى الخارج . فى المكان الذى حدث فيه تماما » .

سألتها دنفر . « هل يمكن أن يراها آخرون ؟ »

« أوه ، نعم . أوه ، نعم ، نعم ، نعم . يوما ما وأنت تسيرين فى الطريق وتسمعين شيئا أو ترين شيئا يحدث . بوضوح للغاية . وتظنين أنك أنت التى تستدعينه . صورة فكرة . لكن لا . إنه يحدث حين تصطدمين بذكرى تخص شخصا آخر . حيث كنت قبل أن آتى إلى هنا ، ذلك المكان حقيقى . ولن يرحل أبدا . حتى ولو ماتت كل المزرعة . كل شجرة وكل نصل نجيل فيها . الصورة دائما هناك وأكثر من ذلك ، لو أنك ذهبت إلى هناك . أنت يا من لم تكونى هناك أبدا . إذا ذهبت إلى هناك ووقفت فى المكان الذى كانت فيه ، فسوف يحدث ثانية ، سوف تكون هناك بالنسبة لك ، تنتظرك . ولذا فإنك ، يا دنفر ، لن يمكنك أن تذهبى إلى هناك أبدا . أبدا . لأن على الرغم من أنه مضى . مضى وانقضى . فسوف يكون دائما هناك ينتظرك . هذا هو السبب الذى من أجله كان علىّ أن أخرج أطفالى من هناك . مهما كان الثمن » .

راحت دنفر تنظف أظافرها . « إذا كان لا يزال هناك ، ينتظر ، فلابد أن هذا يعنى أن لا شىء يموت أبداً » .

نظرت سيث فى عينى دنفر مباشرة . قالت : « لا شىء يموت مطلقاً » .

« أنت لم تخبرينى مطلقاً بما حدث . مجرد أنهم جلدوك وأنك هربت ، وأنت حامل . بى » .

«ليس هناك ما أخبرك به سوى المدرس . كان رجلا ضئيل الحجم . قصيراً . ويرتدى دائماً ياقة ، حتى فى الحقل . قالت ، مدرس . جعلها هذا تشعر شعوراً طيباً أن زوج أخت زوجها كان يتعلم . ويرغب فى المجىء الى سويت هوم بعد أن مات زوجها مستر جارنر . كان بإمكان الرجال أن يفعلوا هذا ، حتى بعد أن بيع بول ف . لكن الأمر كما قال هال . لم تكن تريد أن تكون الشخص الأبيض الوحيد فى المزرعة وامرأة أيضا . لذا كانت سعيدة حين وافق المدرس أن يجىء . أحضر معه ولدين. ابنين أو ابنىّ أخ . لا أدرى . كانا يسميانه أونكا وكانا حسنى السلوك . كانا يتكلمان بصوت هادىء ويبصقان فى مناديلهما . مهذبين فى كثير من أشكال السلوك . تعرفين ، ذلك النوع الذى يعرف اسم المسيح الأول ، ولكن لا يستعملانه أبدا حتى فى وجوده بدافع الأدب . كان هال يقول ، مزارع جيد تماماً . لم يكن قوياً مثل مستر جارنر لكنه ذكى بما فيه الكفاية . كان الحبر الذى أصنعه يروق له . كانت هذه وصفتها هى ، لكنه كان يفضل الطريقة التى كنت أمزجه بها وكان مهما بالنسبة له لأنه كان يجلس بالليل ليكتب فى دفتره . كان كتاباً عنا لكننا لم نعرف ذلك فى الحال . ظننا فقط أن تلك كانت طريقته فى طرح أسئلة علينا . وبدأ يحمل معه دفترا أينما ذهب ويكتب فيه ما قلناه . ومازلت أظن أن هذه الأسئلة هى التى مزقت سيكسو . مزقته الى الأبد » .

توقفت .

عرفت دنفر أن أمها قد كفت عن الكلام - مؤقتاً على أية حال . طرفة عينيها الوحيدة البطيئة ، الشفة السفلى تنزلق الى أعلى لتغطى الشفة العليا ، ثم زفرة من أنفها ، كأنها زفرة لإطفاء لهب شمعة - هى علامات على أن سيث قد وصلت الى النقطة التى لا تود أن تسترسل بعدها .

قالت دنفر : « حسناً ، أظن أن الطفل كانت لديه خطط » .

« أية خطط ؟ »

« لا أدرى ، لكن لابد أن تشبث الرداء بك يعنى شيئا » .

قالت سيث : « ربما ، ربما كان لديه خطط » .

ومهما كانت الخطط أو مهما كان من المحتمل أن تكون ، فإن بول د . أفسدها الى الأبد . لقد خلص البيت رقم ١٢٤ من حقه فى المطالبة بالشهرة المحلية بمنضدة وصوت رجل عال . كانت دنفر قد عودت نفسها أن تعتز بالإدانة التى كان الزنوج يكيلونها لهم ؛ الزعم بأن سكنى الأشباح للبيت حدث بفعل شرير يبحث عن المزيد . لم يعرف أيهم متعة الفتنة التامة التى تكمن لا فى الشك ولكن فى **معرفة** الأشياء التى وراء الأشياء . كان أخواها يعرفان ، لكنه كان يفزعهما ؛ وكانت الجدة بيبى تعرف ، لكنه أحزنها ؛ لم يكن بوسع أحد أن يقدر الأمان الذى تكفله صحبة شبح . حتى سيث لم تكن تحبه . أخذته علي علاته - مثل تغير مفاجىء فى الجو .

لكنه انصرف الآن . طرد فى انفجار صيحة الرجل البندقى ، تاركا عالم دنفر مسطحاً ، تقريباً ، باستثناء خلوة زمردية ترتفع سبعة أقدام فى الغابات . كانت أمها تحتفظ بأسرار ـ أشياء لم تكن تفصح عنها ؛ أشياء كانت تقول نصفها . حسناً ، كان لدنفر أسرارها أيضا . وكانت أسرارها لطيفة ـ عذبة مثل كولونيا زنبقة الوادى .

كانت سيث قد أعارت الرداء الأبيض قليلاً من التفكير حتى جاء بول د . ثم تذكرت تفسير دنفر : خطط . ابتسمت فى الصباح بعد الليلة الأولى التى قضتها مع بول د . لمجرد التفكير فيما كان يمكن أن تعنيه الكلمة . هذه رفاهية لم تألفها سيث على مدى ثمانى عشرة سنة وفقط فى تلك المرة . قبل ذلك ومنذ ذلك الحين ، كان جهدها كله موجها لا الى تجنب الألم ولكن الى التخلص منه بأسرع ما يمكن . فقد فسدت مجموعة الخطط الوحيدة التى خططت لها ـ الهرب من سويت هوم ـ تماماً حتى أنها لم تكن لتتحدى الحياة بأن تضع خططاً أكثر .

لكن فى الصباح الذى استيقظت فيه بجانب بول د . ، طافت بخاطرها الكلمة التى استخدمتها ابنتها منذ بضع سنوات مضت ، وفكرت فيما كانت دنفر قد رأته راكعا الى جوارها ، وفكرت أيضا فى إغراء الثقة والتذكر الذى تمكن منها وهى تقف أمام موقد الطبخ بين ذراعيه . هل كان الأمر على ما يرام ؟ هل كان الأمر

على ما يرام أن تواصل وأن تشعر ؟ أن تواصل وأن **تعتمد على شيء** ؟

لم تستطع أن تفكر بوضوح ، وهى ترقد بجواره تنصت الى تنفسه ، فى حرص بالغ ، وفى حرص غادرت السرير .

كان من الواضح ، وهى تركع فى الغرفة الاحتياطية حيث كانت تذهب عادة لتفكر بصوت عال ، لماذا كانت بيبى سجز تتضور جوعاً للون الى هذا الحد . لم يكن هناك أى منه سوى مربعين برتقاليين فى لحاف جعلا غياب اللون يصرخ . كانت جدران الحجرة بلون الاردواز ، وأرض الحجرة بنية بلون التربة ، والخوان الخشبى بلونه ، والستائر بيضاء ، وكان الملمح السائد ، اللحاف فوق المهد الحديدى ، مصنوع من قصاصات من الصوف الأزرق والأسود والبنى والرمادى - المدى الكامل للظلمة والسكون الذى كان الاقتصاد والتواضع يسمح به . وفى ذلك الحقل الرصين ، بدت رقعتان برتقاليتان بريتين - مثل الحياة فى حالة فجة .

نظرت سيث الى يديها ، وأكمامها الخضراء ، وفكرت كم كان اللون فى البيت ضئيلاً وكم كان من الغريب أنها لم تكن قد افتقدته بالشكل الذى كانت بيبى تفتقده . قالت لنفسها ، هذا شيء متعمد ، لابد أن يكون هذا متعمدا ، لأن آخر لون تذكره كان الرقائق القرنفلية على شاهد قبر طفلتها الصغيرة . وبعد ذلك أصبحت واعية باللون مثل دجاجة . فى كل فجر كانت تصنع فطائر

الفواكه ، وأطباق البطاطس والخضروات فى حين كان الطباخ يصنع الحساء واللحم وكل الباقى . ولا تستطيع أن تتذكر أنها تذكرت تفاحة متألقة اللون أو عصيراً أصفر . فى كل فجر كانت ترى الفجر ، لكنها لم تعبر عن شكرها له أو تلاحظه . كان هناك خطأ ما فى ذلك . بدا الأمر كما لو كانت قد رأت يوماً ما دم الطفلة الأحمر ، ويوماً آخر الرقائق القرنفلية على شاهد القبر ، وكان ذلك آخر الأشياء .

كان البيت رقم ١٢٤ حافلا بشعور قوى ربما لأنها كانت غافلة عن فقدان أى شيء على الإطلاق . كان هناك زمن تتفحص فيه بدقة الحقول كل صباح وكل مساء بحثاً عن أبنائها . حين كانت تجلس عند النافذة المفتوحة ، غير عابئة بالذباب ، ورأسها مائل على كتفها الأيسر ، وعيناها تبحثان عنهم باتجاه اليمين . ظل سحابة على الطريق ، امرأة عجوز ، عنزة تتجول غير مقيدة وتمضغ العليق. وكل واحد يبدو أولا مثل هوارد. لا ، بجلر . وتوقفت رويدا رويدا وتلاشى وجهاهما تماما وهما فى الثالثة عشرة فى وجهيهما الطفوليين ، اللذين كانا يطلان عليها فى النوم فقط . وعندما كانت أحلامها تطوف خارج البيت رقم ١٢٤ ، كانت تراهما أحيانا بين أشجار جميلة ، لا تكاد أرجلهم الصغيرة تبين وسط الأوراق. وأحياناً كانا يجريان على طول خط السكة الحديدية وهما يضحكان ، بصوت أعلى من اللازم ، فيما يبدو ، الى درجة أنهما لم يسمعاها لأنهما لم يستديرا أبدا . وعندما كانت تستيقظ كان البيت يحتشد حولها : هناك كان الباب حيث رص البسكويت المصنوع بالصودا فى صف ؛ الدرجات البيضاء

التى كانت طفلتها الصغيرة تحب تسلقها ، الركن الذى كانت بيبى سجز تصلح فيه أحذيتها ، والتى كانت كومة منها ماتزال فى كوخ التبريد ، المكان المضبوط على الموقد حيث أحرقت دنفر أصابعها . وبالطبع حقد البيت ذاته . لم يكن هناك حيز لأى شىء آخر أو شخص آخر حتى وصل بول د . وحطم المكان ، مفسحا فيه حيزا، ينقله ، يحركه الى مكان ما آخر ، ثم يقف فى المكان الذى صنعه .

وهكذا ، بينما هى راكعة فى الغرفة الاحتياطية فى الصباح بعد أن جاء بول د . ، شتت ذهنها المربعان البرتقاليان اللذان كانا يشيران الى كم كان البيت رقم ١٢٤ قاحلا حقا .

كان مسؤولاً عن ذلك . كانت العواطف تطفو الى السطح بسرعة فى صحبته . كانت الأشياء تصبح ما هى عليه : الكآبة تبدو كئيبة ؛ والحرارة تبدو حارة . فجأة يصبح للنوافذ منظر تطل عليه . أو لم تكن لتعرف أنه كان رجلا يغنى .

قليل من الأرز ، قليل من الفاصوليا ،

بلا لحم بينهما .

العمل الشاق ليس سهلا ،

والخبز الجاف ليس مدهنا .

كان مستيقظاً الآن ويغنى وهو يصلح الأشياء التى كسرها فى اليوم السابق . بعض المقطوعات الغنائية تعلمها فى مزرعة السجن أو فى الحرب بعد ذلك . لا شىء مثل ما كانوا يغنونه فى

سويت هوم ، حيث كان الحنين يصوغ كل نغمة .

كانت الأغنيات التى تعلمها من جورجيا مسامير ذات رءوس مفلطحة لطرقها وطرقها وطرقها .

ضعوا رأسى على شريط السكة الحديدية ،

والقطار يأتى ، يهدئ رأسى .

لو وضعت ثقلى فى الجير الحى ،

لجلدت النقيب حتى يصاب بالعمى .

خمسة سنتات نكلة ،

عشرة سنتات عُشر دولار ،

كسر الصخور هو كسر للوقت .

لكن هذه الأغنيات لم تكن ملائمة . كانت أعلى وأقوى من أن تلائم الأعمال المنزلية التى كان مشغولا بها . يعيد تركيب قوائم المنضدة ، ويزججها .

لم يكن بوسعه أن يعود إلى « عاصفة على المياه » التى كانوا يغنونها تحت أشجار سويت هوم ، ولذا قنع بـ م م م م م م م م ، وهو يدخل فيها شطرا إذا عنّ له أحدها ، ولكن ما عن له المرة بعد المرة : «قدمان حافيتان ونسغ البابونج ، خلعت حذائى . خلعت قبعتى » .

كان من المغرى أن يغير الكلمات الى (أعيدى إلىّ حذائى ؛ أعيدى الىّ قبعتى) ؛ لأنه لم يكن يؤمن أن بوسعه أن يعيش مع

امرأة ـ أية امرأة ـ أكثر من شهرين أو ثلاثة . كانت تلك أطول فتر
تقريباً يستطيع أن يقيم فيها فى مكان واحد . فبعد ديلاوير وقبل
ذلك ألفريد ، جورجيا حيث كان ينام تحت الأرض ويزحف الى
ضوء الشمس لهدف واحد هو تكسير الصخور ؛ كانت الوسيلة
الوحيدة التى يمكنه بها إقناع نفسه أنه لم يعد مضطرا لأن ينام
أو يتبول ، أو يأكل ، أو أن يؤرجح المطرقة الثقيلة وهو فى القيو
أن يمضى حين يكون مستعدا .

لكن لم تكن هذه المرأة امرأة عادية فى بيت عادى . ما أن خط
خلال الضوء الأحمر عرف أن بقية العالم ، بالمقارنة بالبيت رقم
١٢٤ ، كان قاحلا . فبعد ألفريد أغلق جزءا كريما من عقله
واعتمد على الجزء الذى يساعده على الحركة والأكل والنو
والغناء . فإن استطاع أن يحصل على تلك الأشياء ـ مع ممارس
قليل وقليل من الجنس فيما بينهما ـ لم يطلب المزيد ، لأن المزي
يتطلب منه أن يمعن التفكير فى وجه هال وسيكسو وهو يغنى
أن يتذكر ارتجافه فى صندوق مثبت فى الأرض . امتنانه لضو
النهار الذى كان يقضيه وهو يقوم بعمل البغال فى محجر لأن
لم يكن يرتجف وهو يمسك بمطرقة بين يديه . فقد فعل الصندو
به ما لم يفعله سويت هوم ، ما لم يفعله شغل الحمير وحيا
الكلاب : دفعه الى شدة الاهتياج حتى لا يفقد عقله .

وحين وصل الى أوهايو ، ثم الى سنسناتى ، ثم الى بيت أ
هال سجز ، كان يظن أنه قد شاهد كل شيء وأحسه . بل إنه الآ
وهو يعيد تركيب إطار النافذة التى كسرها ، لم يكن قادراً على
تبرير متعة دهشته لرؤية زوجة هال حية ، حافية القدمين بشع

مكشوف- وهى تستدير حول ركن البيت وفى يديها حذاؤها وجوربها . تفتح الجزء المغلق من عقله كما ينفتح قفل مشحم .

«كنت أفكر فى البحث عن عمل فى هذه الناحية . ما رأيك ؟ »

«ليس هناك الكثير . معظمه فى النهر . أو الخنازير » .

«حسنا ، أنا لم أعمل على النهر أبدا ، لكننى أستطيع أن أكسب عيشى فى أى عمل ثقيل مثلى ، بما فى ذلك الخنازير » .

«البيض هنا أفضل منهم فى كنتاكى لكن ربما كان عليك أن تزاحم البعض » .

«ليس الأمر ما إذا كنت سأزاحم ، لكنه أين . تقولين إنه على ما يرام أن أزاحم هنا ؟ »

« أفضل من على ما يرام » .

«ابنتك دنفر . يبدو لى أن رأيها مختلف » .

«لماذا تقول ذلك ؟ »

«لديها طريقة فى الانتظار . شىء تنتظره وهو ليس أنا » .

« لا أدرى ماذا يمكن أن يكون » .

«حسناً ، مهما كان ، فإنها تعتقد أننى أعوقه » .

« لا تقلق بشأنها ، فهى طفلة مسحورة . منذ البداية » .

« هل هذا صحيح ؟ »

« أه هه . لا يمكن أن يحدث لها شىء سىء . فكر . كل من عرفت

مات أو رحل أو مات ورحل . إلا هي. إلا طفلتي دنفر . حتى حين كنت حبلى بها ، عندما أصبح واضحاً أنني لن أفلح - وهو ما يعني أنها ما كانت لتفلح هي الأخرى - اجتذبت فتاة بيضاء من داخل التل . وهو آخر مايمكن أن تتوقعه . وعندما وجدنا المدرس وجاء مقتحما هذا المكان ومعه القانون وبندقية . »

« المدرس وجدك ؟ »

« استغرق بعض الوقت ، لكنه فعل . أخيراً » .

« ولم يعد بك ؟ »

« أوه ، لا . لم أكن لأعود الى هناك . لا يهمني من وجدني . أي حياة إلا تلك . ذهبت الى السجن بدلا من ذلك . كانت دنفر مجرد طفلة ولذا ذهبت معي . كانت الفئران تعض كل شيء هناك إلا هي » .

أدار بول د . وجهه . كان يريد أن يعرف أكثر عن الموضوع ، لكن الحديث عن السجن كان يعيده الى ألفريد ، جورجيا .

« أريد بعض المسامير . هل هناك حولنا من استطيع أن أقترض منه أو هل يجب على أن أذهب الى البلدة ؟ »

« يحسن أن تذهب الى البلدة . فسوف تحتاج الى أشياء أخرى » .

ليلة واحدة وكانا يتحدثان مثل زوجين . تجاوزا الحب والوعود واتجها مباشرة الى ، « تقولين إنه على ما يرام أن أزاحم هنا » .

كان المستقبل بالنسبة لسيث ان تدع الماضى محاصرا . كانت « الحياة الأفضل » التى كانت تعتقد انها تعيشها هى ودنفر هى ببساطة ليست تلك الحياة الأخرى .

وكانت حقيقة أن بول د . قد جاء من « تلك الحياة الأخرى » الى سريرها حقيقة طيبة أيضا ، وبدأت تراودها فكرة بناء مستقبل معه ، أو بدونه فى هذا الخصوص . أما بالنسبة لدنفر ، فإن الجهد الذى قامت به سيث فى إبعادها عن الماضى الذى ما يزال ينتظرها كان كل ما يهمها .

فى انزعاج سائغ تجنبت سيث الغرفة الاحتياطية ونظرات دنفر الجانبية . فكما توقعت ، لم يكن هذا مجديا ، طالما الحياة على ذلك النحو . وتدخلت دنفر بجرأة ، وفى اليوم الثالث سألت بول د. دون مواربة الى متى سيظل يتسكع هنا وهناك .

آلمته العبارة كثيرا الى حد أنه أخطأ المنضدة . سقط قدح القهوة على الأرض وتدحرج على الألواح المائلة باتجاه الباب الأمامى .

لم ينظر بول د. الى الفوضى التى أحدثها وقال فى تساؤل : «اتسكع ؟» نظرت سيث إلى ابنتها ، وهى تشعر بالارتباك أكثر مما تشعر بالغضب وقالت : «دنفر ! ماذا جرى لك ؟» حك بول د . شعر ذقنه وقال : «ربما ينبغى علىّ أن ارحل بسرعة» .

«لا !» ودهشت سيث لارتفاع الصوت حين قالت هذا .

قالت دنفر : «إنه يعرف حاجته» .

قالت لها سيث : «حسنًا ، أنت لاتعرفين ، ولايجب أن تعرفى ماتحتاجينه أيضا . لاأريد أن أسمع كلمة واحدة تصدر منك .»

«لقد سألت فقط إذا ـ»

«ولا كلمة انصرفى انت إذهبى الى مكان ما واجلسى .»

تناولت دنفر طبقها وغادرت المنضدة ولكن ليس قبل ان

تضيف ظهر دجاجة ومزيدًا من الخبز الى الكومة التى كانت تحملها معها . مال بول د . ليمسح القهوة المسكوبة بمنديله الأزرق .

« سوف أتولى أنا هذا . » قفزت سيث واتجهت الى الموقد حيث توجد خلفه قطع قماش مختلفة معلقة ، كل منها فى مرحلة مامن التجفيف ، وفى صمت مسحت أرض الغرفة واستعادت القدح . ثم صبت له ملء قدح آخر ، ووضعته بعناية أمامه . لمس بول د . حافته لكنه لم يقل شيئا - كما لو كانت حتى عبارة « أشكرك » واجبا ليس بوسعه أن يوجهه والقهوة ذاتها هدية ليس بوسعه أن يقبلها .

عادت إلى كرسيها واستمر الصمت . وأخيرًا أدركت أنه إذا كان لابد من كسره فإن عليها أن تفعل هذا .

« أنا لم أربِها بذلك الشكل ».

مر بول د . بإصبعه عل حافة القدح .

« وأنا مندهشة من سلوكها مثلما أنت متألم منه . »

نظر بول الى سيث ، « هل هناك تاريخ وراء سؤالها ؟ »

« تاريخ ؟ ماذا تعنى ؟ »

« أعنى ، هل اضطرت لأن تسأل ذلك السؤال ، أو أرادت أن تسأله ، لأى واحد آخر قبلى ؟ » ضمت سيث قبضتيها ووضعتهما على شفتيها . « أنت سيىء مثلها » .

« أسرعى ، يا سيث . »

« أوه . سأسرع . سأسرع . »

« تعرفين ماأعنيه ».

« أعرف ولا أحبه ».
همس قائلا : « ياللمسيح ».

« من ؟ »وارتفع صوت سيث مرة ثانية .

« ياللمسيح ! قلت ياللمسيح ! كل مافعلته هو أننى جلست لتناول العشاء ! فألعن مرتين . مرة لكونى هنا ومرة لكونى أسأل لماذا لعنت فى المرة الأولى . »

« انها لم تلعن . »

« لا ؟ شعرت بميل لذلك . »

« انظر . أنا أعتذر بالنيابة عنها . أنا حقا ـ »

« لايمكنك أن تفعلى ذلك . لايمكنك أن تعتذرى عن أحد . عليها أن تفعل ذلك . »

تنهدت سيث . « سوف اعنى بأن تفعل ذلك . »

« ماأريد أن أعرفه هو ، هل تسأل سؤالا يدور بعقلك أنت أيضا ؟ »

« أوه لا . لا ، يابول د . أوه لا . »

« إذن فهى لها رأى وانت لك رأى آخر ؟ إذا كنت تستطيعين أن تسمى ما يدور برأسها رأيا ، على حد القول . »

« عفوا، لكن لايمكننى أن أسمع كلمة ضدها . سوف أعاقبها .

دعها وحدها . »

قال بول د . لنفسه ، خطر ، خطر جداً . خطر جداً أن تحب أمَة سابقة أى شىء إلى هذا الحد ، خاصة إذا كان هذا الشىء هو أطفالها الذين استقر رأيها على أن تحبهم . كان يعرف أن أفضل شىء هو أن تحب بقدر قليل فقط ؛ كل شىء ، وبقدر ضئيل فحسب ، حتى إذا ما كسروا ظهره ، أو دفعوه فى جوال جمع الأسماك ، حسنا ، لربما بقى لديك قليل من الحب للطفل التالى . سألها : « لماذا ؟ تتكفلين نيابة عنها ؟ تعتذرين نيابة عنها ، لقد بلغت سن الرشُد .»

« لايهمنى ماهى. بلوغ سن الرشد لايعنى شيئا بالنسبة لأم . الطفل طفل . إنهم يكبرون فى الحجم ، فى السن ، ولكنهم لا يتمتعون بالرشد ؟ ما المفروض أن يعنيه ذلك ؟ إنه لا يعنى شيئا فى أعماقى .»

« يعنى أن تتحمل النتيجة إذا أساءت التصرف . لا يمكنك أن تحميها كل دقيقة . ماذا سيحدث عندما تموتين ؟ »

« لاشىء ! سوف أحميها طالما أنا حية وسوف أحميها حين لا أكون . »

قال : « أوه حسنا ، لقد انتهيت . كففت عن الكلام . »

« هذا هو الوضع ، يابول د . لايمكننى أن أفسره لك أفضل من هذا ، لكن هذا هو الوضع . إذا كان على أن أختار - حسنا إنه ليس حتى اختيارا . »

« هذا لب الموضوع . لب الموضوع كله . أنا لاأطلب منك أن تختارى . لاأحد يود هذا . كنت أظن- حسنا ، كنت أظن أنك

تستطيعين- أن هناك مكانا لى . »

« إنها تسألنى . »

« لا يمكنك أن تسترشدى بهذا . عليك أن تقوليها لها . أخبريها أن الأمر لايتعلق باختيار شخص ما زيادة عليها- أن المسألة إفساح مكان لشخص مامعها . وعليك أن تقوليها . وإذا قلتها وكنت تعنيها ، فعليك أيضًا أن تعلمى أنك لاتستطعين تكميم فمى . ليس هناك من سبيل أن أوذيها أو ألا أعنى بما تحتاجه إذا استطعت ، لكن لايمكن أن يقال لى أن اغلق فمى إذا تصرفت هى بشكل قبيح . تريدينى هنا ، لاتكممى فمى . »

قالت . « ربما يجب على أن أترك الأشياء على ماهى عليه . »

« وكيف هى ؟ »

« نحن نتماشى معا . »

« ماذا عن الداخل ؟ »

« أنا لاأدخل فى الداخل . »

« سيث ، إذا كنت هنا معك ، مع دنفر ، يمكنك أن تذهبى إلى أى مكان تريدين . اقفزى إذا أردت ، لاننى سوف أتلقاك ، يافتاة . سوف أمسك بك قبل أن تسقطى . ادخلى الى أبعد ماتحتاجين من الدخول الى الداخل ، سوف أمسك بكاحليك . تأكدى أن تعودى الى الخارج . أنا لاأقول هذا لأننى بحاجة الى مكان أبقى فيه . ذلك آخر شيء أريده . لقد قلت لك إننى رجل مشاء ، لكننى ظللت ماشيا فى هذا الاتجاه سبع سنوات . أمشى حول هذا المكان . أعلى

الولاية ، أسفل الولاية،شرقا وغربا ، دخلت مقاطعات لن أسميها لك ، لم أمكث فى أى مكان وقتا طويلا . لكن عندما وصلت هنا وجلست بالخارج هناك فى الشرفة ، أنتظرك ، حسنا ، عرفت أنه لم يكن المكان الذى كنت أتجه اليه . بإمكاننا أن نصنع حياة ، يافتاة . حياة . »

« لا أدرى . لا أدرى . »

« اتركى الأمر لى . انظرى كيف يسير . لا وعود ، إذا كنت لا تريدين أن تقطعى على نفسك وعودا انظرى فقط كيف تسير الأمور . تمام ؟ »

« تمام ؟ »

« هل أنت راغبة فى أن تتركى الأمر لى ؟ »

« حسنا . بعضه . »

ابتسم ، « بعضه ؟ حسنا . إليك بعضه . هناك مهرجان فى البلدة الخميس ، غدا ، للملونين ومعى دولاران . أنت وأنا ودنفر سوف ننفق كل سنت فيهما . ماقولك ؟ »

كانت « لا » هى ماقالته . على الأقل ماشرعت فى قوله (فماذا يقول رئيسها لوأنها أخذت أجازة ؟) ، لكن حتى حين قالتها كانت تفكر كم استمتعت عيناها وهما تنظران فى وجهه .

كان لاعبو الكريكيت يصرخون يوم الخميس والسماء ، وقد

تعرت من الزرقة ، حارّة متوهجة فى الحادية عشرة صباحا . وكانت سيث مرتديه أسوأ ثياب تناسب الحر ، ولكن لأن هذه كانت أول نزهة اجتماعية خلال ثمانية عشر عاما ، فقد شعرت أنها مضطرة الى ارتداء ثوبها الوحيد الجيد رغم ثقله ، وقبعة . بالتأكيد قبعة .'لم تشأ أن تلقى ليدى جونز أو ايللا برأسها مغطاة كما لو كانت ذاهبة الى العمل . كان ثوبها ، وهو ثوب مهمل من الصوف الجيد ، هدية عيد الميلاد لبيبى سجز من مس بودوين ، المرأة البيضاء التى كانت تحبها . كان حال دنفر وبول د . أفضل فى الحر حيث لم يشعر أيهما بأن المناسبة كانت تتطلب ثيابا خاصة . كانت قلنسوة دنفر ترتطم بلوحى كتفيها ؛ وترك بول د . صدريته مفتوحه ، وهو بلاسترة وشمر أكمامه فوق مرفقيه . لم يكونوا متشابكى الأيدى ، لكن ظلالهم كانت . نظرت سيث إلى يسارها وإذ ثلاثتهم ينزلقون فوق التراب متشابكى الأيدى . ربما كان على حق . حياة .ارتبكت ، وهى ترى ظلالهم متشابكة الأيدى ، لكونها ترتدى ثياب الكنيسة . كان الآخرون ، أمامهم وخلفهم ، ليظنوا أنها كانت تتباهى ، بأن تدعهم يعرفون أنها مختلفة لأنها تعيش فى بيت من طابقين ؛ وأنها أقوى لأن بوسعها أن تفعل أشياء وأن تبقى على قيد الحياة بعد أشياء كانوا يعتقدون أنها لم يكن ينبغى أن تفعلها أو أن تعيش بعدها . داخلها السرور لأن دنفر قاومت حثها لها أن ترتدى أفضل ثيابها ـ أن تعيد جدل شعرها على الأقل . لكن دنفر لم تكن تفعل أى شىء لتجعل من هذه الرحلة متعة . وافقت أن تذهب ـ وهى مكفهرة الوجه ـ لكن موقفها كان « تفضلوا . حاولوا أن تجعلونى سعيدة ـ » كان السعيد هو بول د . كان يسلم على كل واحد داخل نطاق عشرين قدما .

ويسخر من الجو وماكان يفعله به ، ويبادل الغربان صيحاتها ، وكان أول من يشم رائحة الورود المحكوم عليها بالهلاك . وطوال الوقت ، مهما كان ما يفعلونه ـ سواء كانت دنفر تمسح العرق عن جبهتها أو تنحنى لتعيد ربط حذائها ؛ أو سواء كان بول د . يركل حجرا أو يلاطف وجه طفل يميل على كتف أمه ـ طوال الوقت كانت الظلال الثلاثة التى تنطلق من أقدامهم على يسارهم تتشابك أيديها . لم يلاحظ أحد سوى سيث ، وكفت عن النظر بعد أن قررت أنها علامة طيبة . حياة . محتمل .

على طول حاجز فناء الأخشاب كانت ورود قديمة تحتضر . كان ناشر الأخشاب الذى زرعها من اثنتى عشرة سنة مضت ليضفى على مكان عمله أحساساً لطيفا ـ شيئا يمحو الخطيئة عن تقطيع الأشجار الحية الى شرائح كحرفة للعيش ـ مذهولا لوفرتها ؛ كم أسرعت فى زحفها على طول الحاجز المصنوع من الأوتاد والأعمدة الذى كان يفصل فناء الخشب عن الحقل المفتوح المجاور له حيث كان المشردون ينامون ، والأطفال يجرون ، وحيث كان القائمون على الكرنفال ينصبون خيامهم مرة فى العام . وكلما شارفت الورود على الموت ، فاحت رائحتها ، وكان كل من يحضر الكرنفال يربط بينه وبين نتن الورود المتعفنة . كانت تدوخهم قليلا وتجعلهم يشعرون بالعطش الشديد لكنها لم تكن تفعل شيئا لتطفىء شغف الملونين وهم يسيرون أرتالاً على طول الطريق . كان بعضهم يمشى على شرائط الأرض المعشبة ، والآخرون يتفادون العربات التى كانت تمر على طول منتصف الشارع المغبر . كان الجميع ، مثل بول د . ، مبتهجين ، وهو ما لم

تستطيع رائحة الورود المحتضرة (التى كان بول د. يوجه اليها انتباه الجميع) أن تخمده. وعندما كانوا يسرعون ليصلوا الى مدخل الجبال كان الاشراق يملؤهم كالمصابيح. لاهثى الأنفاس من إثارة رؤيتهم لبيض طلقاء: يقومون بالألعاب السحرية، يهرجون، بلا رؤوس أو برأسين، طولهم عشرون قدما أوقدمان، يزنون طنا، موشومون تماما، يأكلون الزجاج، يبتلعون النار، يبصقون شرائط من القماش، مجدولة فى عقد، يشكلون أهرامات، يلعبون بالثعابين ويوسعون أحدهم الآخر ضربا.

كان كل هذا اعلانا يقرأه من يستطيعون القراءة ويسمعه من لايستطيعون، ولم تخمد شهيتهم ولو قليلا رغم إدراكهم أن شيئا من هذا لم يكن حقيقيا. كان المنادى الذى يجتذب الزبائن يسبهم ويسب أطفالهم («أطفال زنوج مجانا») لكن الطعام على صدريته، والثقب فى سرواله يجعلان سبه غير مؤذ تماما. كان ذلك على أية حال ثمنا ضئيلا للهو الذى قد لايحصلون عليه أبدا مرة أخرى. كان بنسان وإهانه شيئا ينفق عن طيب خاطر إذا كان يعنى رؤية مشهد البيض وهم يجعلون من أنفسهم فرجة. ولذا، فعلى الرغم من أن الكرنفال كان أقل بكثير من متوسط (وهو سبب موافقته على تخصيص يوم خميس للملونين) إلا أنه كان يعطى الأربعمائة زنجى من جمهوره إثارة بعد إثارة بعد إثارة.

بصقت عليهم سيدة وزنها طن، لكن حجمها قصّر عن بلوغ هدفها وداخلتهم إثارة هائلة من الحقارة العاجرة فى عينيها الضيقتين. واختصرت راقصة الليالى العربية رقصتها الى ثلاثة دقائق بدلا من ربع الساعة المعتادة الذى كانت تؤديه عادة.

وكسبت امتنان الأطفال الذين كانوا يتحرقون شوقا الى « الساحر أبو ثعبان » الذى تلاها .

أشترت دنفر حلوى وعرقسوسا ونعناعا وليمونادة من طاولة تديرها طفلة بيضاء صغيرة ترتدى حذاء سيدات ذا رقبة عالية . أما وقد هدأها السكر ، وهى محاطة بحشد من الناس لم يجدوا فيها العرض الرئيسى ، والذين كانوا فى الحقيقة يقولون : « أهلا يادنفر » من آن لآخر ، فقد سرت بما يكفى لأن تفكر فى احتمال أن بول د . لم يكن بهذه الدرجة من السوء . والحقيقة أنه كان به شيء- عندما وقف ثلاثتهم معها يشاهدون رقصة قذم- جعل تحديق الزنوج الآخرين يتسم بالطيبة والرقة ، وهو شيء لم تذكر دنفر أنها رأته فى وجوههم . بل إن عدة أشخاص أومأوا وابتسموا لأمها ، دون أن يكون أى واحد فيما يبدو قادرا على تجنب مشاركة المتعة التى كان بول د يحظى بها . طرق ركبتيه عندما رقص العملاق مع القزم ؛ وعندما تكلم الرجل ذو الرأسين مع نفسه . اشترى كل ماطلبته دنفر والكثير مما لم تطلبه . وعابث سيث بإدخالها فى خيام لا ترغب فى دخولها . وألصق قطعا من الحلوى لم تردها بين شفتيها . وعندما هز المتوحش الأفريقى البرى قضبانه وقال وا وا ، أخبر بول د . الجميع أنه كان يعرفه فى الماضى فى رونوك .

عقد بول د . صلات مع بضعة معارف ؛ وتكلم معهم عن العمل الذى يحتمل أن يجده . ردت سيث على الابتسامات التى نالتها . كانت دنفر تترنح ابتهاجا . وفى الطريق الى البيت ، على الرغم من أن ظلال الأشخاص الثلاثة كانت تسبقهم الآن ، فقد كانت لاتزال متشابكة الأيدى .

خرجت من الماء امرأة بكامل ثيابها وسارت خطوات . لم تكد تبلغ ضفة الجدول حتى جلست واستندت الى شجرة توت . جلست هناك طوال النهار وطوال الليل ، وقد أسلمت رأسها الى جذع الشجرة فى وضع يكفى لأن يكسر حافة قبعتها المصنوعة من القش . كان كل شىء يوجعها لكن رئتيها كانتا أشد إيلاما من أى شىء آخر . قضت تلك الساعات وهى مغمورة بالبلل ، تتنفس بصعوبة وهى تحاول التغلب على ثقل جفنيها . جفف نسيم النهار ثوبها ؛ وجعدته ريح الليل . لم يرها أحد وهى تبرز أو يعثر عليها بالصدفة ولو فعلوا لكانت الاحتمالات أن يترددوا قبل أن يقتربوا منها . لا لأنها مبتلة أو غافية ، أو لأنها تعانى من ضيق فى التنفس ، ولكن لأنها وسط كل هذا كانت تبتسم . استغرقها صباح اليوم التالى كله حتى ترفع نفسها من على الأرض وتشق طريقها خلال الغابة متجاوزة معبدا عملاقا من شجيرات البقس الى الحقل ثم فناء البيت الاردوازى الرمادى . وعندما أصابها الإنهاك ثانية ، جلست فى أول مكان قريب ـ جدعة شجرة غير بعيدة عن درجات البيت رقم ١٢٤ . فى ذلك الوقت لم يكن إبقاء عينها مفتوحتين أقل إجهادا . كان بإمكانها معالجة هذا لمدة دقيقتين كاملتين أو أكثر . وظلت رقبتها ، التى كان محيطها ليس أوسع من طبق مما يستخدم فى خدمة الفنادق ، تنحنى وذقنها تمس قطعة الدانتيلا التى تحف بردائها .

من الممكن أن تبدو النساء اللاتى يشربن الشمبانيا حين لايكون هناك شيء للاحتفال به على هذا النحو : قبعاتهن المصنوعة من القش المكسورة الحواف غالبا ماتكون منحرفة ، تتمايل رؤوسهن فى الأماكن العامة ؛ وأحذيتهم محلولة أربطتها . لكن جلودهم ليست مثل جلد المرأة التى كانت تتنفس قرب درجات البيت رقم ١٢٤ . كان لها جلد جديد ، ناعم بغير تجاعيد ، بما فى ذلك مفاصل أصابعها .

فى ساعة متأخرة من وقت العصر حينما انتهى الكرنفال ، وكان الزنوج يوقفون السيارات ليركبوها مجانا الى منازلهم إذا حالفهم الحظ. ويسيرون إذا لم يحالفهم. كانت المرأة قد نامت ثانية . كانت أشعة الشمس تنصب على وجهها كله . وهكذا عندما استدار بول د . وسيث ودنفر نحو المنحنى الذى يقع فى الطريق كان كل مارأوه ثوبا أسود ، وحذاء مفكوك الرباط أسفله ، ولم يكن هير بوى فى مرمى البصر فى أى مكان .

قالت دنفر « انظروا . ماهذا ؟ »

ولسبب مالم تستطيع له تعليلا على الفور ، ما أن أقتربت سيث بما يكفى لأن ترى الوجه ، حتى امتلأت مثانتها عن آخرها . قالت : « أوه ، عن إذنكم » وجرت الى خلف المنزل رقم ١٢٤ . لم يحدث منذ أن كانت طفلة صغيرة ترعاها الفتاة ذات الأعوام الثمانية التى أشارت لها على أمها ، أن حدث لها طارىء لايمكن التحكم فيه مثل هذا . لم تبلغ المرحاض الخارجى أبدا . أمام بابه تماما اضطرت الى رفع تنورتها ، وكانت المياه التى أفرغتها بلا

نهاية . قالت لنفسها ، مثل حصان ، ولكن عندما استمرت واستمرت قالت لنفسها ، لا ، أكثر شبها بغمر القارب بالمياه حين ولدت دنفر . كانت مياه كثيرة الى درجة ان ايمى قالت : « انتظرى ، يالو . سوف تغرقينا إذا واصلت . » لكن لم يكن هناك توقف لمياه تنفجر من رحم متفجر ولم يكن هناك توقف الآن . تمنت ألا يتكفل بول د . بالحضور بحثا عنها وان يضطر الى رؤيتها جالسة القرفصاء أمام مرحاضها صانعة فجوة من الطين عميقة الى درجة أنها لم يكن بالامكان مشاهدتها بدون خزى . وفى اللحظة التى بدأت تتساءل فيها ماإذا كان الكرنفال ليقبل عجيبة أخرى من عجائب الطبيعة ، توقفت المياه . هندمت ثيابها وجرت حول البيت الى الشرفة . لم يكن هناك أحد . كان الثلاثة كلهم بالداخل - بول د . ودنفر يقفان أمام الغريبة ، يراقبانها وهى تشرب قدحا بعد قدح من الماء .

قال بول د . : « قالت إنها عطشانة . » خلع قلنسوته . « تبدو عطشانة عطشا هائلا . »

تجرعت المرأة الماء من قدح قصديرى منقط ومدته طلبا للمزيد . ملأته دنفر أربع مرات ، وشربت المرأة أربع مرات كما لو كانت قد عبرت الصحراء . عندما انتهت كان هناك قليل من الماء على ذقنها ، لكنها لم تمسحه . بدلا من ذلك راحت تحدق فى سيث بعينين ناعستين . قالت سيث لنفسها سيئة التغذية وأصغر سنا مما كانت ثيابها توحى به - دانتيلا جيدة عند الحنجرة ، وقبعة امرأة ثرية . كان جلدها سليما بغير اصابات فيما عدا ثلاثة خدوش طولية على جبهتها بدت رقيقة ونحيلة فى أول الأمر كأنها

شعرات ، شعرات طفولية قبل أن تزدهر وتتجدل فى كتل من الغزل الأسود تحت قبعتها .

سألتها سيث : « أنت من حولنا هنا ؟ »

هزت رأسها بالنفى ومالت لتخلع حذاءها . رفعت ثوبها الى ركبتيها وثنت جوربها الى اسفل . عندما دست جوربها فى حذائها ، رأت سيث أن قدميها كانتا مثل يديها ، ناعمتين جديدتين . لابد أنها أوقفت سيارة لتوصلها مجانا ، هكذا قالت سيث لنفسها . ربما كانت واحدة من فتيات فيرجينيا الغربية تبحث عن شيء تقهر به حياة التبغ والذرة العويجة ، مالت سيث لتلتقط حذائها .

سألها بول د . : «ماذا يحتمل أن يكون اسمك ؟ »

قالت . محبوبة* » وكان صوتها منخفضا وخشنا الى درجة أن كل واحد نظر للآخرين . سمعوا الصوت أو لا ثم الاسم .

سألها بول د . «محبوبة . أنت تستخدمين اسمك الأخير ، محبوبة ؟ »

بدت حائرة : « الأخير ؟ » ثم « لا » وتهجت الاسم لهم ، ببطء كما لو كانت الحروف تتشكل وهى تنطق بها .

اسقطت سيث الحذاء ؛ جلست دنفر وابتسم بول د . تعرف على النطق الحريص للحروف الذى يقوم به أولئك الذين كانوا لايستطيعون القراءة ، مثله ، لكنهم كانوا يحفظون حروف اسمائهم

---

* ترجم الاسم (Beloved) ليتفق مع ما نقشته سيث على شاهد قبر طفلتها ومع الأية الانجيلية التى تتصدر الرواية . (المترجم)

عن ظهر قلب . كان على وشك أن يسأل عمن كان أهلها لكنه فضل السكوت . فامرأة شابة ملونة يجرفها التيار كانت تنجرف بعيدا عن الدمار. وقد كان في روتشستر منذ أربع سنوات مضت ورأى خمس نساء يصلن مع أربع عشرة طفلة . كان كل رجالهم ـ أخوتهم ، أعمامهم ، أزواجهم ، أبناؤهم ـ **قد صرعوا بالرصاص واحد بعد الآخر** . كن يحملن روقة واحدة ترشدهم إلى واعظ في شارع ديفور . كانت الحرب قد انتهت منذ أربع سنوات أو خمس عندئذ ، ولكن لم يكن يبدو أن أي أحد أبيض أو أسود يعرف ذلك . كانت مجموعات غير منتظمة وضالة من الزنوج يجولون في الطرق الخلفية وممرات الأبقار من شينكتادى الى جاكسون . كانوا يفتشون أحدهم الآخر ، وقد أصابهم الدوار لكنهم مصرون ، عن كلمة عن ابن عم أو عمة أو صديق قال ذات مرة . « زوروني . في أي وقت تصلون فيه قرب شيكاغو ، فقط زوروني. » كان بعضهم يهرب من عائلة لم يكن بوسعها أن تعولهم ، أو إلى عائلة ؛ وبعضهم كان يهرب من المحاصيل الميتة ، الأقارب المتوفين ، تهديدات بالقتل ، وأرض استولى عليها . صبية أصغر من بجلر وهوارد ؛ أشكال ومزيج من عائلات من نسوة وأطفال ، في حين كان في أماكن أخرى رجال ، رجال ، رجال منفردون مطارَدون ومطارِدون كانوا يتبعون الطرق الثانوية وقد حرموا من المواصلات العامة ، تطاردهم ديون وتسجيلات قذرة ، يتفحصون الأفق بحثا عن علامات ويعتمدون اعتمادا كبيرا على أحدهم الآخر . وعندما كانوا يلتقون أحدهم بالآخر لم يكونوا يصفون ، ولايسألون عن الأسى الذي كان يسوقهم من مكان لمكان ،

صامتين، فيما عدا المجاملات الاجتماعية. لم يكن البيض يحتملون الكلام عنهم. كان الجميع يعرفون.

لذلك لم يضغط على المرأة الشابة ذات القبعة المكسورة بسؤالها عن من أين أتت وكيف. إذا أرادت هى أن تخبرهم وكانت من القوة بحيث تمضى فى إخبارهم، فسوف تفعل. كان مايشغلهم فى تلك اللحظة هو مايحتمل أن تكون بحاجة إليه. وتحت كل سؤال رئيسى، كان كل واحد يخفى سؤالا آخر. تعجب بول د. من جدة حذائها. تأثرت سيث تأثرا عميقا من اسمها الجميل؛ وجعلتها ذكرى شاهد القبر المتألق تشعر بحنو خاص تجاهها. كانت دنفر، على أية حال، ترتجف. نظرت إلى هذا الجمال الناعس وأرادت المزيد.

علقت سيث قبعتها على وتد واستدارت الى الفتاة برشاقة. «ذلك اسم جميل، محبوبة. اخلعى قبعتك، لم لاتفعلين، وسوف أعد لنا شيئا. لقد عدنا لتونا من الكرنفال المقام قرب سنسناتى. كل شىء هناك يستحق المشاهدة.»

كانت «محبوبة» قد داهمها النوم وهى تجلس منتصبة القامة، فى منتصف ترحيب سيث بها. هزها بول د. برقة: «آنسة. آنسة هل تريدين أن تأخذى سنة من نوم؟»

فتحت عينيها شقين ووقفت على قدميها الناعمتين الجديدتين، اللتين حملتاها الى الغرفة الاحتياطية وهما لاتكاد أن تقويان على القيام بمهمتهما. وما أن دخلت هناك حتى تهاوت على سرير بيبى سجز، نزعت دنفر قبعتها ووضعت اللحاف ذا المربعين

الملونين على قدميها . كانت تتنفس كأنها آلة بخارية .

قال بول د . ، وهو يغلق الباب · « يبدو مثل التهاب الحنجرة . »

« هل هى محمومة ؟ دنفر ، هل يمكنك أن تعرفى ؟ »

« لا . إنها باردة . »

« إذن فهى محمومة . فالحمى تنتقل من الحرارة الى البرودة . »

قال بول د . : « يمكن أن تكون مصابة بالكوليرا . »

« تظنين ؟ »

« كل ذلك الماء . علامة مؤكدة »

« مسكينة . ولايوجد بهذا البيت شىء نعطيه لها ضدها . سيكون عليها أن تجتازها . فهذا مرض كريه أكثر من أى مرض كريه آخر . »

قالت دنفر : « إنها ليست مريضة ، » وابتسما لانفعال صوتها .

نامت أربعة أيام ، تستيقظ خلالها لتجلس طلبا للماء فقط . عنيت دنفر بها ، راقبت نومها العميق ، أصغت إلى تنفسها الشاق ، وبدافع من الحب والتملك المهلك الذى كان يثقلها ، أخفت سلس بول « محبوبة » كأنه عيب يخصها . كانت تغسل الملاءات سرا ، بعد أن تذهب سيث الى المطعم ويذهب بول د . لتصيد مراكب نقل البضائع ليساعد فى إفراغ حمولتها ·كانت تغلى الثياب الداخلية وتنقعها فى الزهرة ، وهى تصلى داعية أن تمر الحمى دون ضرر . عنيت بتمريضها عناية فائقة حتى نسيت الأكل وزيارة

الغرفة الزمردية .

كانت دنفر تهمس : «محبوبة ؟ محبوبة ؟» وعندما كانت العينان السوداوان تتفتحان قليلا كان كل ما يمكنها أن تقوله : «أنا هنا مازلت هنا».

وأحيانا حين كانت «محبوبة» ترقد حالمة العينين لمدة طويلة جدا ، لاتقول شيئا ، تلعق شفتيها وتزفرْ زفرات عميقة ، كان الرعب يصيب دنفر .

همهمت «محبوبة» : «ثقيل. هذا المكان ثقيل .»

«هل تودين أن تجلسى ؟»

قال الصوت المزعج : «لا» .

استغرقت «محبوبة» ثلاثة أيام حتى تلاحظ الرقعتين البرتقاليتين فى ظلمة اللحاف . سرت دنفر لأن هذا جعل مريضتها تظل مستيقظة فترة أطول . بدت مبهورة كلية بتلكما الشريحتين البرتقاليتين الباهتتين ، بل بذلت مجهودا لتستند على مرفقها وتربتهما . وهو مجهود سرعان ماأرهقها ، ولذلك أعادت دنفر ترتيب اللحاف بحيث كان الجزء الأكثر إبهاجا منه فى خط نظر الفتاة .

تملك دنفر الصبر ، وهو شىء لم تعرفه مطلقا . طالما لم تتدخل أمها ، كانت مثالا للتعاطف ، وتتحول الى انسانة غضوبة ، رغم ذلك ، حين تحاول سيث أن تساعد .

تساءلت سيث : «هل تناولت ملعقة من أى شىء اليوم .»

« لا يجب أن تأكل مع الكوليرا . »

« هل أنت متأكدة أنها كذلك ؟ كان مجرد حدس من بول د . »

« لاأدرى ، لكن لايجب أن تأكل على أى حال بعد . »

« أظن أن مرضى الكوليرا يتقيأون طوال الوقت . »

« بل هذا سبب أقوى ، أليس كذلك ؟ »

« حسنا ، ولايجب كذلك أن تتضور جوعا حتى الموت ، يادنفر . »

« اتركينا وحدنا ، ياأمى . فأنا أعنى بها . »

« هل قالت شيئا ؟ »

« كنت لأخبرك لو فعلت . »

نظرت سيث إلى ابنتها وقالت لنفسها ، نعم ، لقد كانت وحيدة . شاعرة بالوحشة جدا .

« إننى متعجبة أين ذهب هيربوى ؟ » ظنت سيث أنهما كانا بحاجة الى تغيير االموضوع .

قالت دنفر : « إنه لن يعود . »

« كيف تعرفين ؟ »

« مجرد أننى أعرف . » أخذت دنفر شريحة من بنكرياس العجل من على الطبق .

عندما عادت دنفر إلى حجرة النوم كانت على وشك الجلوس

عندما تفتحت عينا «محبوبة» على اتساعهما فجأة. شعرت دنفر بضربات قلبها تتسارع. لم يكن الأمر أنها كانت تنظر إلى ذلك الوجه للمرة الأولى بدون أى أثر للنوم فيه، أو أن العينين كانتا واسعتين وسوداوين. ولم يكن الأمر أن بياضهما كان ناصعا للغاية - بياض مشوب بزرقة. بل أن بأعماق تلكما العينين الواسعتين السوداوين لم يكن هناك أدنى تعبير.

«هل آتيك بشىء؟»

نظرت «محبوبة» إلى شرائح البنكرياس فى يدى دنفر فمدت دنفر يدها وأعطتها لها. ابتسمت عندئذ وتوقف قلب دنفر عن التواثب وجلست - وقد سكنت واستراحت مثل مسافر بلغ بيته.

منذ تلك اللحظة وخلال كل شىء تلا ذلك، كان بالامكان الاعتماد على السكر لبعث السرور فيها. كان الأمر كما لو كانت الأشياء الحلوة هى ماخلقت من أجله. عسل النحل والشمع الذى يحتويه، شطائر السكر، مولاس العسل الأسود الذى تجمد وأصبح صلبا فى العلبة، الليمونادة، الملبّس، وأى نوع من الحلوى كانت سيث تجلبها الى البيت من المطعم. كانت تمضغ عود القصب حتى النفاية وتحتفظ بالمصاصة فى فمها لفترة طويلة بعد أن تكون قد امتصت العصير. كانت دنفر تضحك، وسيث تبتسم، وبول د. يقول إن هذا يثير الغثيان.

كانت سيث تعتقد أن هذه حاجة جسم يسترد عافيته بعد مرض - من أجل استعادة القوة بسرعة. لكنها كانت حاجة استمرت طويلا لتصل بها إلى صحة متوهجة لأن «محبوبة» لم تكن تذهب

الى أى مكان . لم يكن يبدو أن هناك مكاناً لها لتذهب إليه . فلم تذكر واحدا ، ولم تكن لديها أية فكرة عما كانت تفعله فى ذلك الجزء من البلاد أو أين كانت . اعتقدوا أن الحمى تسببت فى ضعف ذاكرتها تماما مثلما أبقت حركتها بطيئة . كانت تتحرك وهى امرأة شابة فى التاسعة عشرة أو العشرين ونحيلة ، كشخص أثقل وزنا أو أكبر سنا ، وهى تتشبث بالأثاث ، وتريح رأسها فى راحة يدها كما لو كان أثقل من أن يحمله العنق وحده .

« هل ستغذينها فقط ؟ من الآن فصاعدا ؟ » سمع بول د . العصبية فى صوته ، وهو يشعر أنه غير كريم ، ومندهش لهذا .

« دنفر تحبها . وهى لاتشكل إزعاجا حقيقيا . ظننت أن علينا أن ننتظر حتى يتحسن تنفسها . فماتزال تبدو لى تعانى من فقراتها القطنية . »

قال بول د . : « شىء غريب فى هذه البنت ، » قالها فى الأغلب لنفسه .

« كيف غريب ؟ »

« تتصرف على أنها مريضة ، وتبدو مريضة ، لكنها لاتشبه المرضى . جلد جيد ، عينان لامعتان وقوية كالثور . »

« إنها ليست قوية . هى لاتكاد تقوى على المشى دون الاستناد الى شىء . »

« ذلك ماأعنيه . لاتستطيع المشى ، لكننى رأيتها ترفع المقعد الهزاز بيد واحدة . »

« أنت لم ترها . »

«لا تقولى هذا لى . اسألى دنفر . كانت هناك معها تماما . »

« دنفر ! تعالى هنا لحظة . »

كفت دنفر عن غسل الشرفة وأطلت برأسها من النافذة .

« بول د . يقول أنك أنت وهو رأيتما « محبوبة » ترفع الكرسى الهزاز بيد واحدة . هل هذا صحيح ؟ » جعلت الأهداب الطويلة الكثيفة عينى دنفر أكثر انشغالاً عما كانتا ، مُضَلِلة ، حتى حين نظرت بتحديقة ثابتة الى بول د . وقالت : « لا . لم أر شيئا كهذا . »

قطب بول د . جبينه ولكنه لم يقل شيئا . ولو كان هناك مزلاج مفتوح بينهما ، لانغلق .

تعلقت مياه الأمطار بأوراق شجر الصنوبر الابرية الشكل تعلقها بالحياة الغالية ولم تستطع «محبوبة» أن ترفع عينيها عن سيث. كانت عينا «محبوبة» تلعق سيث وتتذوقها وتأكلها، وهى منحنية تهز الصمام المنظم لسحب التيار فى الموقد، أو وهى تقصف أعوادا لتحضير الضرام. راحت تحوم، كأنها شيطان أو جنى يمد يد المساعدة، لاتغادر الحجرة التى كانت فيها سيث أبدا مالم يطلب هذا منها أو تؤمر به. كانت تنهض فى الصباح الباكر فى الظلام حتى تكون هناك، تنتظر فى المطبخ حين تنزل سيث لتصنع الخبز قبل أن تغادر البيت إلى عملها. فى ضوء المصباح، وفوق لهب موقد الطبخ، كان ظلاهما يصطدمان ويتقاطعان على السقف كأنهما سيفان أسودان. كانت تقف فى النافذة عند الساعة الثانية وقتما تعود سيث، أو عند المدخل؛ ثم فى الشرفة، على درجاتها، فى الممر، فى الطريق، حتى بدأت، وقد استسلمت فى النهاية للعادة، تسير ببطء نحو آخر شارع بلوستون وهى تذهب الى أبعد وأبعد كل يوم لتلقى سيث وتصحبها عائده الى المنزل رقم ١٢٤. كان الأمر يبدو كما لو كانت عصر كل يوم تشك من جديد فى عودة المرأة الأكبر سنا.

شعرت سيث بإطراء من إخلاص «محبوبة» الصريح الهادىء. لو أن نفس الهيام كان يصدر عن ابنتها لضايقها؛ لأشعرها بالبرودة لفكرة أنها قد نشأت طفلة تابعة بشكل سخيف. لكن

صحبة هذه الضيفة اللطيفة ، وإن كانت غريبة ، بعث فيها السرور على نحو مايبعث تلميذ متحمس السرور فى قلب معلمه.

حان الوقت الذى توقد فيه المصابيح مبكرا لأن الليل كان يحل أسرع وأسرع . كانت سيث تغادر الى عملها فى الظلام ؛ وهو الوقت الذى يعود فيه بول د . إلى البيت سيرا على الأقدام فى مساء كهذا مظلم ورطب ، قطعت سيث حبة لفت سويدية أربعا وتركتها تطهى غليا . أعطت دنفر مكيالاً من البازلاء الجافة لفرزها ونقعها أثناء الليل ، ثم جلست هى نفسها لتستريح . جعلتها حرارة الموقد تشعر بالنعاس وما أن بدأت تستسلم للنوم حتى شعرت «بمحبوبة» تمسها . لمسة لم تكن أثقل من ريشة لكنها محملة ، رغم ذلك بالرغبة . تحركت سيث وتطلعت فيما حولها . أولا الى يد «محبوبة» الناعمة الجديدة على كتفها ، ثم فى عينيها. كان الحنين الذى رأته هنا بلا نهاية . التماسا ما لا تكاد تتحكم فيه . ربتت سيث على أصابع «محبوبة» ونظرت الى دنفر ، التى كانت عيناها مركزتين على مهمة فرزها للبازلاء .

كانت «محبوبة» تفتش فى وجه سيث ، «أين ماساتك ؟»

«ماسات ؟ ماذا أفعل بماسات ؟»

«فى أذنيك ؟»

«كنت أتمنى لو كان لدىّ . كان لدى بعض البللور ذات يوم . هدية من سيدة كنت أعمل لديها .»

قالت «محبوبة» ، وهى تبتسم ابتسامة سعيدة عريضة :

« خبرينى ، خبرينى عن ماساتك . »

أصبحت طريقة لتغذيتها تماما مثلما اكتشفت دنفر التأثير الممتع الذى كانت الأشياء الحلوة تحدثه فى « محبوبة » واعتمدت عليها ، اكتشفت سيث الرضا العميق الذى كانت « محبوبة » تستمده من قص الحكايات . أذهل هذا سيث (بنفس القدر الذى أمتع به « محبوبة ») لأن كل ذكر لماضيها كان يؤلمها . كان كل شىء فيه مؤلما أو ضائعا . كانت هى وبيبى سجز قد اتفقتا دون أن يقولا هذا على أنه لايصح ذكره ، كانت سيث ترد ردودا مقتضبة أو بتأملات تهويمية ناقصة على استفساراتها . حتى مع بول د ، الذى كان قد شاركها بعضه ، والذى كان بوسعها ان تحدثه بقدر من الهدوء على الأقل ، كان الألم دائما هناك - مثل مكان حساس فى ركن فمها خلفته الشكيمة .

لكنها وجدت نفسها تريد هذا ، تحبه ، عندما شرعت تحكى عن الأقراط . ربما كان بعد « محبوبة » ذاته عن الأحداث ، أو تعطشها الى سماعها - كان على أية حال متعة غير متوقعة .

فسرت سيث حكاية البللور الذى كان يوما يتدلى من أذنيها ، فوق صوت نقر البازلاء وفرزها ، ورائحة طبخ حبة اللفت .

« أعطتنى إياهما تلك السيدة التى كنت أعمل لديها عندما تزوجت . ماكانوا يسمونه زواجا فى ذلك المكان وذلك الزمان ، أظن أنها رأت كم شعرت بالاستياء عندما اكتشفت أنه لن يكون هناك احتفال ، ولا واعظ . لاشىء . كنت أظن أنه يجب أن يكون هناك شىء - شىء يقول إنه كان صحيحا وحقيقيا . لم أكن أريده

أن يكون مجرد انتقالى فوق حشية ملئت بقشور الذرة . أو مجرد إحضارى لدلوى الليلى الى كوخه . كنت أظن أنه يجب أن يكون هناك احتفال . رقص ربما . زهرة صغيرة فى شعرى . « ابتسمت سيث » . لم أر حفل زفاف أبدا ، لكننى رأيت ثوب زفاف مسز جارنر فى الخزانة ، وسمعتها تردد كيف كان . قالت ، رطلان من الزبيب فى الكعكة وأربعة خراف كاملة . كان الناس مايزالون يأكلون فى اليوم التالى . كان ذلك ما أريد . وجبة ربما ، نجلس انا وهال وكل رجال سويت هوم ونأكل شيئا خاصا . وندعو بعض الملونين الآخرين من توفنجتون أو هاى تريز . تلك الأماكن التى كان سيكسو يتسلل اليها . لكن ذلك لم يكن ليتبدد هباء ، قالوا إنه على مايرام بالنسبة لنا أن نكون زوجا وزوجة وكان ذلك كل شىء . كل مافيه .

« حسنا ، قررت أن أحصل على الأقل على ثوب من غير القماش القنبى الخشن الذى كنت أعمل فيه . ولذا تعودت أن أسرق القماش وانتهى الأمر بى الى ثوب لايمكن أن تصدقيه . كان الجزء العلوى منه مصنوعاً من كيسى وسادتين من سلة رتق الملابس الخاصة بها . وكانت مقدمة التنورة من غطاء خوان سقطت عليه شمعة وأحرقته محدثة به ثقبا ، وأحد أحزمتها القديمة الذى كنا نستخدمه فى أختبار المكواة عليه . والآن كان الظهر مشكلة أستمرت أطول وقت ممكن . يبدو أننى لم أكن قادرة على أن أجد شيئاً لا يفتقد فى الحال . لأننى كان على أن أفككه فيما بعد وان أعيد القطع إلى حيث كانت . كان هال عندئذ صبورا ، ينتظرنى أن أفرغ منه . كان يعلم أننى لم أكن لاستمر بدون أن أحصل

عليه . وأخيرا أخذت شبكة البعوض من على مسمار فى الجرن . كنا نستخدمها لتصفية « الجيلى » . غسلتها ونقعتها ما امكننى وثبتها كظهر للتنورة . وهكذا كنت ، فى أقبح رداء يمكنك أن تتخيليه . حفظنى شالى الصوفى فقط من أن أبدو شبحا متجولا . لم أكن إلا فى الرابعة عشرة ، ولذا أظن أن ذلك كان السبب الذى كنت من أجله فخورة بنفسى .

« على أية حال ، لابد أن مسز جارنر رأتنى أرتديه . كنت أظن أننى أسرق بذكاء ، وكانت ترى كل ماكنت أفعله حتى فى شهر العسل : وأنا أذهب الى حقل الذرة مع هال . كان ذلك حيث ذهبنا أول مرة . كان ذلك فى عصر يوم سبت . الح فى السؤال حتى لايذهب للعمل فى البلدة ذلك اليوم . فقد كان يعمل عادة أيام السبت والأحد ليدفع ثمن حرية بيبى سجز. لكنه ألحف فى السؤال وارتديت ثوبى ومشينا داخل الذرة متشابكى الأيدى . مايزال بإمكانى أن أشم رائحة حبات الذرة تشوى هناك حيث كان آل بول وسيكسو . وفى اليوم التالى عقفت مسز جارنر إصبعها باتجاهى وصحبتنى الى الطابق العلوى الى حجرة نومها ، فتحت صندوقا خشبيا وأخرجت زوجا من الأقراط البللورية .. قالت : « أريدك أن تأخذى هذين ، ياسيث ! » قلت : « نعم ياسيدتى . » قالت : « هل أذناك مثقوبتان ؟ » قلت : « لا ، ياسيدتى. » قالت : « حسنا ، افعلى ذلك ، حتى يمكنك ارتداؤهما . أريدك أن تأخذيهما وأريدك أنت وهال أن تكونا سعيدين . » شكرتها ولكننى لم ألبسهما أبدا حتى خرجت من هناك . وذات يوم بعد أن دخلت هذا البيت هنا فكت بيبى سجز تنورتى الداخلية وأخرجتهما . جلست هنا تماما بجوار

الموقد ودنفر بين ذراعى وتركتها تثقب ثقبين فى أذنى حتى أرتديهما . »

قالت دنفر : « أنا لم أر، مطلقا تلبسين أقراطا أين هى الآن ؟ »

قالت سيث : « ضاعت من زمن بعيد ، » ولم تشأ أن تقول أى كلمة أخرى . حتى المرة التالية حين عاد ثلاثتهم الى البيت يعدون فى الريح بأغطية وقمصان داخلية بللها المطر . طووا الغسيل على الكراسى والمنضدة وهم يلهثون ويضحكون . ملأت « محبوبة » بطنها ماء من الدلو وراحت تراقب بينما سيث تدلك شعر دنفر بقطعة من قماش المناشف .

سألتها سيث : « ربما كان ينبغى أن نفك جدائله ؟ »

« أه أه . غدا . » وانحنت دنفر الى الأمام خوفا لدى فكرة مشط حاد الأسنان وهو يجذب شعرها .

قالت سيث : « اليوم هنا دائما . الغد ، أبدا ».

قالت دنفر : « إنه يؤلم » .

« مشطيه كل يوم . لن يؤلمك . »

« آه » .

سألت « محبوبة » :« ألم تمشط امرأتك شعرك أبدا ؟ »

رفعت سيث ودنفر عينيهما إليها ، كانتا ماتزالان لم تتعودا بعد أربعة أسابيع على الصوت الخشن والأغنية التى تبدو كامنة فيه . كان يقع خارج حدود الموسيقى مباشرة ، وهو ذو إيقاع

لايشبه إيقاع أصواتهم .

« ألم تمشط امرأتك شعرك أبدا ؟ » كان من الواضح أن سؤالا موجها إلى سيث ، إذ أنها كانت تنظر إليها .

« امرأتى ؟ تعنين أمى ؟ إذا كانت تفعل ذلك فأنا لاأذكر . أنا لم أرها إلا بضع مرات فى الحقول ومرة وهى تعمل فى إعداد النيلة . فما أن كنت أستيقظ فى الصباح،حتى تكون هى فى الطابور . وإذا كان القمر متألقا عملوا فى ضوئه . وفى يوم الأحد كانت تغط فى النوم . لابد أنها عنيت بى ثلاثة أو أربعة أسابيع ـ هكذا كانت الأخريات يفعلن . ثم عادت الى العمل فى الأرز ورضعت من امرأة أخرى كانت تلك مهمتها . ولذا لكى أجيبك ، لا . أحسب لا . لم تمشط شعرى أبدا ولا أى شىء . لم تكن حتى تنام فى نفس الكوخ أغلب الليالى التى أتذكرها . أحسب أنه كان بعيدا جدا عن طابور الأنفار . شىء واحد فعلته بالفعل . التقطتنى وحملتنى خلف معمل التدخين . وهناك فتحت ثوبها من الأمام ورفعت ثديها وأشارت تحته . على ضلعها تماما كانت هناك دائرة وصليب وُسِما حرقاً فى الجلد تماما . قالت : « هذه أمك . هذه ،» وأشارت : « أنا الوحيدة التى لديها هذه العلامة الآن ، والباقون موتى إذا حدث لى شىء ولم تستطيعى أن تتعرفى على وجهى ، تستطعين أن تعرفينى بهذه العلامة . » أفزعتنى جداً . كان كل ما استطعت أن أفكر فيه هو كم كان هذا هاما وكم كنت بحاجة الى أن يكون لدى شىء هام أرد به عليها ، لكننى لم أستطع أن أفكر فى أى شىء ولذا قلت مجرد ماخطر لى . قلت : « نعم ، ياأمى » . وقلت : « ولكن كيف ستعرفيننى ؟ كيف ستعرفيننى ؟ ادمغينى أنا أيضا.» ضحكت سيث

ضحكة خافتة.

سألت دنفر: «هل فعلت؟»

«صفعتنى على وجهى».

«لماذا؟»

«لم أفهم عندئذ. ليس حتى كان لى علامتى أيضا.»

«ماذا حدث لها؟»

«شنقت. فحين قطعوا الحبل وأنزلوا جثتها لم يكن أحد يستطيع أن يتبين ماإذا كان لديها دائرة وصليب أم لا وأقلهم أنا وقد نظرت.» جمعت سيث الشعر من المشط وطوحت به وهى تميل إلى الخلف فى النار. انفجر نجوما وملأتهم الرائحة غضبا. قالت: «أوه، ياللمسيح،» ونهضت فجأة الى درجة أن المشط الذى غرسته فى شعر دنفر سقط إلى الأرض.

«أمى؟ ماذا دهاك، ياأمى؟»

مشت سيث الى كرسى، ورفعت ملاءة ونشرتها على امتداد ذراعيها،ثم طوتها، وأعادت طيها وطوتها ثانية. تناولت أخرى. لم يكن أيهما جافا تماما لكن الطى بعث فيها شعورا أرق من أن تتوقف معه، كان عليها أن تفعل شيئا بيديها لأنها كانت تتذكر شيئا كانت قد نسيت أنها تعرفه. شيئا مخزيا بصورة شخصية تسرب الى داخل شق فى عقلها تماما خلف الصفعة على وجهها والصليب الذى تحيط به دائرة.

سألتها دنفر : « لماذا شنقوها، ياأمي ؟ » كانت تلك هي المرة الأولى الذي سمعت فيها أي شيء عن جدتها لأمها . كانت بيبي سجز هي الجدة الوحيدة التي عرفتها .

قالت : « لم أكتشف أبدا . كان هناك الكثير منهن ، » ولكن الشيء الذي كان يتضح أكثر وأكثر وهي تطوي وتعيد طي الغسيل كان المرأة المدعوة نان التي أخذت يدها واجتذبتها بعيداً عن الكومة قبل أن تستطيع أن تتبين العلامة . كانت نان هي المرأة التي تعرفها معرفة وثيقة ، التي كانت هنا وهناك طوال اليوم ، التي كانت تعنى بالأطفال الحديثي الولادة ، وتطبخ ، كان لها ذراع واحدة جيدة ونصف ذراع أخرى . والتي كانت تستخدم كلمات مختلفة . كلمات كانت سيث تفهمها حينذاك لكنها لم يكن بوسعها لا أن تتذكرها ولا أن تكررها الآن . وكانت تعتقدأن هذا لابد أن يكون السبب في أنها كانت تتذكر أقل القليل قبل سويت هوم فيما عدا الغناء والرقص وكم كان مزدحما . كانت قد نسيت ماأخبرتها به نان جنبا إلى جنب مع اللغة التي قالته بها.نفس اللغة التي كانت أمها تتكلم بها ، والتي ماكانت لتعود أبدا . أما الرسالة - فقد كانت هناك طوال الوقت.كانت تلتقط المعنى من شفرة لم تعد تفهمها ، وهي تضم الملاءات الرطبة لصق صدرها . ليلا، نان ممسكة بها بذراعها الجيدة ، وهي تلوح بجدعة الذراع الأخرى في الهواء . « أخبرك . أنا أخبرك ، أيتها الطفلة الصغيرة سيث » ، وكانت تفعل ذلك . أخبرت سيث أنها هي وأمها جاءا معا من البحر . كلاهما اعتدى عليهما البحارة أكثر من مرة . « نبذتهم جميعا فيما عداك ، نبذت الطفل الذي أنجبته من البحارة على الجزيرة . الآخرين الذين

أنجبتهم من مزيد من البيض نبذتهم أيضا . ألقت بهم بلا أسماء . وأنت أعطتك اسم الرجل الأسود . أحاطته بذراعيها . الآخرين لم تحطهم بذراعيها . أبدا . أبدا . أخبرك . أنا أخبرك ، أيتها الطفلة الصغيرة سيث . »

وكطفلة صغيرة لم تتأثر سيث . وكامرأة ناضجة كانت غاضبة ، وإن لم تكن متأكدة مم . غمرتها رغبة هائلة فى بيبى سجز كأنها موجه تتكسر على الشاطىء . ووسط الهدوء الذى تلا رشاشها ، نظرت سيث الى الطفلتين الجالستين بجوار الموقد : نزيلتها المعتلة الصحة الضحلة العقل ، وابنتها الوحيدة النزقة . بدتا ضئيلتين وبعيدتين جدا .

قالت : « سوف يصل بول د . بعد دقيقة . »

زفرت دنفر زفرة راحة لمدة دقيقة ، بينما كانت أمها واقفة تطوى الغسيل غارقة فى التفكير ، كانت تقرض على أسنانها وتضرع أن يتوقف هذا . كانت دنفر تكره القصص التى تقصها أمها والتى لم تكن تخصها ، وهو ما كان السبب فى أن ايمى كانت كل ما تسأل عنه أبدا . أما الباقى فقد كان عالما متلألأ قويا جعله غياب دنفر منه أشد تلألأ وقوة . ولأنها لم تكن فيه ، كرهته وأرادت « محبوبة » أن تكرهه أيضا ، على الرغم من أنه لم تكن هناك فرصة لهذا على الاطلاق . كانت « محبوبة » تنتهز كل فرصة كى تسأل سؤالا مضحكا وتطلق سيث من عقالها . لاحظت دنفر كم كانت نهمة الى سماع حديث سيث . والآن لاحظت شيئا أكثر . الأسئلة التى طرحتها « محبوبة » : « أين ماساتك ؟ » « امرأتك لم

تمشط شعرك أبدا ؟ » وأكثر باعثا على الحيرة : خبرينى عن قرطيك ؟

كيف عرفت ؟

كانت « محبوبة » متألقة وإن لم يرق هذا لبول د . كانت النساء تفعلن ماتفعله نباتات الفراولة قبل أن تطلق سيقانها النحيلة · كانت نوعية اللون الأخضر تتغير . ثم كانت خيوط السيقان تظهر ، ثم البراعم . وما أن تذوى التبلات وتبرز ثمار الفراولة ذات اللون النعناعى ، حتى يصبح تألق الورقة مموها بإحكام وشمعيا . هكذا بدت « محبوبة » ـ مموهة ومتألقة . لاذ بول د . بالنوم مع سيث عند الاستيقاظ ، ليصبح ذهنه صافيا فيما بعد ، عندما يهبط الدرج الأبيض الى حيث كانت تصنع الخبز ونظرات « محبوبة » تلاحقها .

وفى المساء عندما يعود الى البيت وثلاثتهم هناك كلهم يعدون مائدة العشاء ، كان تألقها ملحوظا الى درجة أنه تعجب كيف لم تلاحظ سيث ودنفر هذا . أو ربما فعلتا . فمن المؤكد أن النساء بوسعهن أن يدركن ، كما يستطيع الرجال ، متى كانت واحدة منهن مستثارة . تفرس بول د . فى « محبوبة » ليرى إن كانت واعية بذلك لكنها لم تعره انتباها على الاطلاق ـ بل ومن آن لآخر لاتجيب على سؤال مباشر يطرحه عليها . كانت تنظر إليه ولاتفتح فمها . أمضت معهم خمسة أسابيع ، ولم يعرفوا عنها أكثر مما عرفوه عندما وجدوها نائمة على جدعة الشجرة .

جلسوا الى المنضدة التى كسرها بول د . يوم وصل الى المنزل رقم ١٢٤ . كانت قوائمها التى أصلحها أقوى من ذى قبل . كانوا

قد فرغوا من الكرنب حين دُفعت كواحل الخنزير المدخنة اللامعة في كومة على أطباقهم. وراحت سيث توزع البودنج على الأطباق، وهى تهمهم أملا فى أن يعجبهم، وتعتذر مقدما بالطريقة التى يعتذر بها قدامى الطباخين دائما، عندما ارتسم شيء ما على وجه «محبوبة» دفع بول د. الى الكلام، شيء كأنه هيام الحيوانات الأليفة تمكن منها وهى تنظر إلى سيث.

«أليس لك إخوة أو أخوات؟»

عبثت «محبوبة» بملعقتها لكنها لم تنظر إليه وقالت: «ليس لى أحد.»

سألها: «عم كنت تبحثين حين جئت إلى هنا؟»

«هذا المكان. كنت أبحث عن هذا المكان الذى يمكننى أن أقيم فيه.»

«هل دلك أحد على هذا البيت؟»

«هى دلتنى. عندما كنت عند الجسر، دلتنى.»

قالت سيث: «لابد أنه أحد من أيام زمان.» الأيام التى كان فيها المنزل رقم ١٢٤ محطة على الطريق الى حيث كانت الرسائل ترد ثم مرسلوها. حيث كانت نتف الأخبار متسربة مثل الفاصوليا المجففة فى مياه النبع - حتى تصبح لينة بما فيه الكفاية للهضم.

«كيف أتيت؟ من أحضرك؟»

ثبتت نظراتها عندئذ عليه، لكنها لم تجب.

كان بوسعه أن يشعر ان سيث ودنفر تكبحان نفسيهما، تتحكمان في نفسيهما، ترسلان خيوط عنكبوت لزجة لتلمس إحداهما الأخرى. قرر أن ينتزع السر منها على أية حال.

«سألتك من أتى بك إلى هنا؟»

قالت: «مشيت الى هنا. طريقا طويلا، طويلا، طويلا، طويلا. لم يأت بي أحد لم يساعدني أحد.».

«كنت ترتدين حذاء جديدا.فإذا كنت قد سرت طريقا طويلا الى هذا الحد فلماذا لا يشي حذاؤك بهذا؟»

«بول د. كف عن مضايقتها.»

قال، وهو يمسك بمقبض السكين في قبضة يدة كأنها عمود: «أريد أن أعرف.»

صاحت: «سرقت الحذاء! سرقت الثوب! ورباط الحذاء لايثبت!» وألقت عليه نظرة مليئة بالحقد حتى أن دنفر لمست ذراعها.

قالت دنفر: «سوف أعلمك كيف تربطين حذاءك»، وكافأتها «محبوبة» بابتسامة.

داخل بول د. شعور بأن سمكة فضية كبيرة قد انزلقت من يديه في اللحظة التي قبض فيها على ذيلها. وأنها كانت تنساب عائدة الى المياه المظلمة الآن، تختفي لولا التلألؤ الذي يحدد طريقها. ولكن إذا لم يكن تلألؤها له، فلمن إذن؟ لم يعرف أبدا امرأة تضوي للا أحد على وجه التحديد، تفعل ذلك كمجرد إعلان عام.

فدائما كان الضوء يظهر ، حسب تجربته ، عندما كانت هناك بؤرة . مثل امرأة الثلاثين ميلا ، التى انطفأت حتى صارت بلون الدخان فى حين كان ينتظر معها فى الخندق ، وصارت ضوء نجمة عندما وصل سيكسو الى هناك . لم يعرف عن نفسه أبدا انه فاته إدراك ذلك . كان هناك فى اللحظة التى نظر فيها الى رجليها المبتلتين ، وإلا لما واتته الجرأة مطلقا بما يكفى لأن يحيطها بذراعيه ذلك اليوم ويهمس فى ظهرها .

وقد فاقت هذه الفتاة « محبوبة » الجميع ، وهى بلا مأوى وبلا ناس ، على الرغم من أنه لم يكن بوسعه أن يحدد السبب بالضبط إذا أخذ بعين الاعتبار الملونين الذين صادفهم خلال العشرين سنة الأخيرة . فأثناء الحرب وقبلها وبعدها كان قد رأى زنوجا مذهولين للغاية أو جائعين أو متعبين أو ثكالى ، وكان من العجب أن تذكروا أو قالوا أى شىء . من أختبأوا ، مثله ، فى كهوف وصارعوا البوم من أجل الطعام ؛ من سرقوا ، مثله ، من الخنازير؛ من ناموا ، مثله ، فى الأشجار نهارا وساروا ليلا ، من دفنوا انفسهم ، مثله ، فى الوحل وقفزوا فى الآبار ليتجنبوا المسؤولين عن النظام ، والمغيرين ، والخفراء ، وقدامى المحاربين ، ورجال التلال ، والحشود ، واللاهين . وذات مرة التقى بزنجى فى حوالى الرابعة عشرة يعيش وحده فى الغابات وقال إنه لا يمكنه أن يتذكر أنه عاش فى أى مكان آخر . ورأى زنجية معتوهة تسجن وتشنق لسرقتها بضع بطات كانت تعتقد أنها أطفالها الرضع .

تحرك . سِرْ . اجر ، اختبىء . اسرق وارتحل . مرة واحدة أمكنه أن يبقى فى مكان واحد - مع امرأة ، أو عائلة - لمدة أطول من

بضعة شهور . وذات مرة قضى سنتين تقريبا مع سيدة تعمل بالنسيج فى ديلاوير ، أحقر مكان بالنسبة للزنوج شاهده على الإطلاق خارج مقاطعة بولاسكى ، كنتاكى ، وبطبيعة الحال معسكر السجن فى جورجيا .

كانت «محبوبة» مختلفة عن كل أولئك الزنوج . تألقها ، حذاؤها الجديد . أقلقه . ربما كانت مجرد حقيقة أنه لم يضايقها . أو ربما كان التوقيت . كانت قد ظهرت واستضيفت فى نفس اليوم الذى سويا فيه هو وسيث شجارهما ، وخرجا علنا وقضيا وقتا طيبا للغاية ـ كأسرة . واستعادت دنفر نفسها ، على حد القول ؛ وكانت سيث تضحك ؛ وحصل هو على وعد بعمل ثابت ، وتخلص المنزل رقم ١٢٤ من الأشباح .

كان الأمر قد أخذ يبدو كأنه حياة . وياللعنة ! مرضت امرأة تشرب الماء ، واستضيفت ، وشفيت ، ولم تتحرك قيد أنملة منذ ذلك الوقت .

كان يريدها أن ترحل ، لكن سيث سمحت لها بالدخول ولم يكن بوسعه أن يطردها خارج بيت لم يكن له . كانت هزيمته لشبح شيئا ، ولكنه شيء آخر تماما أن يطرد فتاة ملونة عاجزة فى منطقة ملوثة بالكلوكس كلان . كان التنين يسبح فى أوهايو على كيفه ، متعطشا عطشا مفرطا الى دم السود ، الذى لم يكن بوسعه أن يعيش بدونة .

اتخذ بول د . قرارا بأن يحدد هويتها ، وهو جالس الى المنضدة ، يمضغ قشة من المقشة بعد العشاء . أن يتشاور مع الزنوج فى البلدة وأن يجد لها مكانها .

ماأن واتته الفكرة حتى كانت «محبوبة» تختنق بحبة زبيب أخرجتها من بودنج الخبز. سقطت الى الخلف من كرسيها وراحت تتخبط فيما حولها وهى تمسك بحلقها. ضربتها سيث على ظهرها وانتزعت دنفر يديها بعيدا عن رقبتها. تقيأت «محبوبة» طعامها، وهى على يديها وركبتيها، وجاهدت لالتقاط أنفاسها.

وعندما هدأت، ومسحت دنفر القذارة، قالت: «سأذهب الآن للنوم».

وقالت لها دنفر: «تعالِ إلى حجرتى. هناك أستطيع أن أرعاك».

لم يكن فى الإمكان أن توجد لحظة أفضل. كانت دنفر قد أرهقت نفسها بحثا عن طريقة لتجعل «محبوبة» تشاركها غرفتها. كان من الصعب أن تنام فوق، وهى تتساءل إن كانت سيصيبها الغثيان ثانية، أن تروح فى النوم ولاتستيقظ، أو (لاسمح الله) أن تنهض وأن تتجول خارج الفناء بنفس الطريقة التى تجولت ودخلت بها. كان بوسعهما أن يتبادلا الحديث هناك على نحو أيسر.بالليل عندما يكون بول د. وسيث غارقين فى النوم أو أثناء النهار قبل أن يعودا للبيت. أحاديث حلوة نزقة وأحلام يقظة أشد اثارة من أى شىء آخر. عندما غادرت الفتاتان، شرعت سيث تنظف المنضدة. كدست الأطباق قرب طست ماء.

«لماذا تضايقك إلى هذا الحد؟»

قطب بول د. جبينه، لكنه لم يقل شيئا.

سألت سيث : «لقد تشاجرنا مشاجرة حامية حول دنفر . هل نحن بحاجة إلى شجار حولها هى أيضا ؟ »

« أنا فقط لاأفهم فيم التشبث . فسبب تعلقها بك واضح ، لكننى لاأستطيع أن أفهم سر تعلقك بها . »

استدارت سيث عن الأطباق باتجاهه : «ماالذى يهمك فيمن يتعلق بمن ؟ إن إطعامها ليس مشكلة.كل مافى الأمر أنى سأحضر قدرا اضافيا ضئيلا من المطعم ، هذا كل مافى إلأمر. والفتاة صحبة لطيفة لدنفر . أنت تعرف ذلك وأنا أعلم أنك تعرف ، فما الذى يثيرك ؟ »

« لا أستطيع أن أحدد إنه شعور بداخلى . »

« حسنا ، أشعر بهذا ، لم لا ؟ أشعر كيف يكون شعورك أن يكون لك سرير تنام فيه وشخص ماهناك لايزعجك حتى الموت بشأن مايجب عليك أن تفعله كل يوم حتى تستحقه . أشعر كيف يكون هذا الشعور . وإذا لم يفلح هذا ، فاشعر كيف يكون الشعور بأنك امرأة ملونة تتجول فى الطرقات وأنت عرضة لأن يثب عليك أى شىء صنعه الله . اشعر بهذا . »

« أعرف كل جزئية من ذلك ، ياسيث . أنا لم أولد بالأمس ولم أسىء معاملة امرأة فى حياتى . »

أجابت سيث : « هذا سيجعل منها واحدة فى ذلك العالم . »

« لا اثنين ؟ »

« لا . ليس اثنين . »

« مافعله معك هال ؟ هال وقف بجانبك . لم يتركك أبدا . »

« من تركني إذن إذا لم يكن هو قد تركني ؟ »

« لاأدري ، لكن لم تكوني أنت . تلك حقيقة . »

« إذن فقد فعل ماهو أسوأ من هذا ، ترك أطفاله . »

« أنت لاتعرفين ذلك . »

« لم يكن هناك . لم يكن حيث قال إنه سيكون . »

« كان هناك ».

« إذن لماذا لم يظهر نفسه ؟ لماذا كان ينبغي علّي أن أشحن أطفالي وأن أبقى لأبحث عنه ؟ »

« لم يستطع أن يغادر مخزن التبن »

« مخزن التبن ؟ أي مخزن تبن ؟ »

« المخزن الذي كان يقع فوق رأسك في الجرن »،

تحركت سيث باتجاه المنضدة ببطء ، ببطء ، مستغرقة كل ماكان الزمن يسمح به .

« هل رأى ؟ »

« رأى . »

« أخبرك ؟ »

« أنت أخبرتني . »

« بماذا ؟ »

« اليوم الذى جئت فيه الى هنا قلت إنهم اغتصبوا لبنك، لم أعرف مطلقا ما الذى شوش فكره . كل ماعرفته هو أن شيئا ما كسره . لم تؤثر فيه أبداً واحدة من تلك السنين التى عمل فيها أيام السبت والأحد وأثناء الليل كعمل إضافى . لكن مارآه يحدث فى ذلك الجرن فى ذلك اليوم كسره مثل غصن صغير . »

« هو رأى ؟ » كانت سيث تقبض على مرفقيها كما لو كانت تمنعهما من الطيران .

« لقد رأى، لابد أنه رأى . »

« رأى أولئك الأولاد يفعلون ذلك بى وتركهم يستمرون فى استنشاق الهواء ؟ هو رأى ؟ هو رأى ؟ هو رأى ؟ »

« هاى ! هاى ! انصتى . دعينى أخبرك بشىء . إن الرجل ليس فأسا ملعونة تشق ، وتقطع إربا ، وتكسر فى كل لحظة ملعونة من النهار . تحدث له أشياء . أشياء لايستطيع أن يشقها لأنها بداخله . »

كانت سيث تذرع المكان جيئة وذهابا ، جيئة وذهابا ، فى ضوء المصباح . «قال العميل السرى يوم الأحد . أخذوا حليبى ورأى ذلك ولم ينزل ؟ وجاء يوم الأحد ولم يحضر . وجاء الاثنين ولا أثر لهال . ظننته مات ، وأن هذا هو السبب ؛ ثم ظننت أنهم قبضوا عليه ، وأن هذا هو السبب . ثم ظننت ، لا ، هو لم يمت لأنه لو كان قد مات لعرفت ذلك ، ثم تأتى أنت الى هنا بعد كل ذلك

الوقت ، ولم تقل إنه مات ، لأنك لم تكن تعلم أنت الآخر ، وهكذا ظننت ، حسنا ، لقد وجد لنفسه طريقة أفضل فى الحياة . لأنه لو كان فى أى مكان قريب هنا ، لجاء لبيبى سجز ، إن لم يكن لى . لكننى لم أعرف أبدا أنه رأى » .

« ماذا يهم فى ذلك الآن ؟ »

« إذا كان حيا ، ورأى ذلك ، فلن يطأ قدمه عتبة بيتى . ليس هال » .

« لقد حطمه ذلك يا سيث » . ثم رفع بول د . عينيه اليها وتنهد وقال : « يحسن أن تعرفى كل شىء . فآخر مرة رأيته فيها كان جالساً فى الممخضة . وكان وجهه كله مغطى بالزبد » .

لم يحدث شىء ، وكانت ممتنة لذلك . كانت تستطيع عادة أن ترى الصورة مما تسمعه مباشرة . لكنها لم تكن قادرة على تصور ما قاله بول د . لم يراود عقلها شىء . وبحرص ، بحرص ، انتقلت الى سؤال آخر .

« ماذا قال ؟ »

« لا شىء »

« ولا كلمة ؟ »

« ولا كلمة »

« هل تكلمت معه ؟ الم تقل له شيئا ؟ »

« لم أستطع ، يا سيث . لم أستطع ... تماما » .

« لم ! »

« كانت بفمى شكيمة . »

فتحت سيث الباب الأمامى وجلست على درجات الشرفة . بدا النهار أزرق بعد مغيب شمسه ، لكن كان لايزال بإمكانها أن تتبين خطوط الأشجار الخارجية فى المرعى البعيد . هزت رأسها يمنة ويسرة ، وقد استسلمت لعقلها الثائر . لماذا لم يكن هناك شىء يرفضه ؟ لاتعاسة ، لاأسف ، لاصورة كريهة أكثر تعفنا من أن تكون مقبولة ؟ كان يختطف كل شىء كطفل شره . مرة واحدة فقط ، هل كان بإمكانه أن يقول لا وشكرا ؟ لقد أكلت لتوى ولاأستطيع أن أحتمل قضمة أخرى ؟ لقد فاض بى الكيل ـ اللعنة على كل شىء ـ من ولدين ذوى أسنان مطحلبة ـ أحدهما يرضع من صدرى والآخر يثبتنى الى الأرض ، ومعلم القراءة يراقب هذا ويكتبه . مازال الكيل يفيض بى ، لعنة الله عليه ، لاأستطيع أن أعود الى الماضى وأن أضيف المزيد .أضف الى هذا زوجى يراقب ، من فوقى فى مخزن التبن ـ يختبىء على مقربة ـ المكان الوحيد الذى كان يظن ان أحداً لم يكن ليبحث عنه فيه ، يطل على مالم أكن قادرة على النظر إليه أبدا . ولايوقفهم ـ ينظر ويتركه يحدث . لكن عقلى الشره يقول ، أوه شكرا ، أحب أكثر ـ ولذلك فإننى أضيف المزيد والى أن أفعل ذلك عاجلا فلن يكون هناك توقف . هناك أيضا زوجى يجلس القرفصاء بجوار الممخضة يلطخ وجهه كله بالزبد كما يلطخه بلبنها المتخثر لأن الحليب الذى أخذوه منى يدور برأسه . وفى حدود مايعنيه هذا ، فليعلم العالم أيضا . وإذا كان قد دُمِر حينذاك الى هذا الحد ، فهو أيضا ومن المؤكد ميت

الآن . وإذا كان بول د . قد رآه ولم يستطع أن ينقذه أو أن يواسيه لأن الشكيمة كانت فى فمه ، فما يزال هناك المزيد الذى يستطيع بول د . أن يقوله لى ، وسوف يواصل عقلى طريقه ويتقبله ولا يقول أبدا ، لا شكرا . لا أريد أن أعرف أو أن أضطر الى تذكر ذلك . لدى أشياء أخرى أقوم بها : القلق بشأن الغد ، على سبيل المثال ، على دنفر ، على « محبوبة »، على العمر والمرض ناهيك عن الحب .

لكن عقلها لم يكن مهتما بالمستقبل . أما وقد كان مثقلا بالماضى وجائعا الى المزيد، فإنه لم يترك مجالا لتخيل اليوم التالى ، ناهيك عن التخطيط له . تماما مثل عصر ذلك اليوم وسط البصل البرى ـ حينما كانت خطوة واحدة هى أقصى ماكان بوسعها أن تراه من المستقبل . كان غيرها من الناس يجنون ، فلم لايمكنها هى؟ لقد توقفت عقول ناس آخرون ، استدارت واتجهت الى شىء جديد ، وهو ما لابد أن يكون قد حدث لهال . وكم كان هذا ليكون جميلا ، كلاهما هناك بجوار حظيرة الألبان ، يجلسان القرفصاء بجوار الممخضة ، يضربان وجهيهما بعنف بالزبد البارد المتكتل دون أدنى مبالاة بالعالم . يشعران به زلقا ، لزجا ـ يدلكانه فى شعرهما ، ويراقبانه وهو يبرز من خلال أصابعهما . أى راحة أن يوقفانه هناك تماما . حبيسا . مغلقا . أن يعتصرا الزبد . لكن أطفالها الثلاثة كانوا يمضغون الحلمة الصناعية المسكرة تحت بطانية فى طريقهم الى أوهايو وماكان أى لعب بالزبد ليوقف هذا .

خطا بول د . من خلال الباب ولمس كتفها .

«لم يكن فى نيتى أن أخبرك بهذا .»

«لم يكن فى نيتى أن أسمعه .»

قال بول د : «لايمكننى أن استرده ، لكن لايمكننى أن أتركه وشأنه .»

قالت لنفسها ، إنه يريد أن يخبرنى . يريدنى أن أسأله عما كان الأمر بالنسبة له. عن كم يكون اللسان مستاء والشكيمة تلزمه الصمت . كم تكون الحاجة الى البصق عميقة الى حد البكاء من أجلها . كانت تعرف هذا سلفا،قد رأته مرة بعد مرة فى المكان الذى سبق سويت هوم . رجال ، أولاد ، فتيات صغيرات ، نساء . الجموح الذى كان ينطلق فى العين فى اللحظة التى كانت الشفاه تجذب فيها . هناك . وبعد أيام كانت الشكيمة ترفع ويدلك ركنا الفم بدهن الأوز ، لكن لا شىء يواسى اللسان أو ينتزع الجموح من العين .

رفعت سيث عينيها الى عينى بول د . لترى إن كان هناك أثر باق فيهما .

قالت : «كان الناس الذين رأيتهم وأنا طفلة ، والذين تلقوا الشكيمة يبدون دائما جامحين بعد ذلك . وإيا كان السبب الذى يستخدمونها معهم لأجله ، فلم تكن لتفلح ، لأنها كانت تصنع الجموح حيث لم يكن هناك قبلا أى شىء منه . عندما أنظر إليك ، لا أراه . ليس هناك أى جموح فى عينيك فى أى مكان .»

«ثمة طريقة لوضعه هناك ، وثمة طريقة لازالته . أعرف كلتا

الطريقتين ولم أكتشف بعد أيهما أسوأ . » جلس بجوارها . نظرت سيث إليه . فى ضوء النهار غير المضىء هدأ قلبها وجهه الذى اكتسب لونا برونزيا وبرزت عظامه .

سألته . « هل تريد أن تخبرنى عنه ؟ »

« لاأدرى . لم أتكلم عنه أبدا . للا أحد . كنت أغنيه أحيانا ، لكننى لم أبح به لمخلوق . »

« استمر يمكننى أن أسمعه . »

« ربما . ربما يمكنك أن تسمعيه . أنا فقط غير واثق أن بإمكانى أن أقوله . أعنى أن أقوله على الوجه الصحيح ، لأن الأمر لم يكن الشكيمة ـ لم يكن ذلك هو الأمر . »

سألته سيث : « ماذا إذن ؟ »

قال : « الديوك . وأنا أمشى أمام الديوك أنظر إليها وهى تنظر إلى . »

ابتسمت سيث . « فى شجرة الصنوبر تلك ؟ »

ابتسم بول د . معها . « آه . لابد أنه كان هناك خمسة منها تجثم أعلاها، وعلى الأقل خمسون دجاجة . »

« ومستر أيضا » .

« ليس فى لحظتها . لكننى لم أكن قد أخذت عشرين خطوة قبل أن أراه . نزل من على عمود السور هناك وجلس على حوض الاغتسال . »

قالت سيث : «كان يحب ذلك الحوض ، » وهى تفكر ، لا ، ليس هناك توقف الآن .

« ألم يكن يحبه ؟ كأنه عرش . كنت أنا الذى أخرجته من غلاف البيضة ، كما تعرفين . لولاى لمات . كانت الدجاجة قد مشت مبتعدة مع كل الكتاكيت التى فقست . كانت هناك تلك البيضة الوحيدة الباقية . بدت بيضة جوفاء ، لكننى عندئذ رأيتها تتحرك فطرقتها حتى انفتحت وخرج منها مستر ، أرجل سيئة وكل شىء . وراقبت ابن العاهرة وهو يكبر ويجتاح كل شىء فى الفناء . »

قالت سيث : «كان كريها دائما . »

« أجل ، كان كريها تماما . دموياً أيضا ، وشريرا . قدماه الملتويتان تخفقان . عرف كبير فى حجم يدى وأحمر بعض الشىء . كان يجلس فوق حوض الاستحمام ويتطلع الىّ . أقسم أنه ابتسم . كان رأسى ممتلئا بما رأيته من هال فى لحظة سابقة . لم أكن حتى أفكر فى الشكيمة . مجرد هال وقبله سيكسو ، ولكن حين رأيت مستر عرفت أنه أنا أيضا . لا هما فقط ، أنا أيضا . واحد مجنون ، وواحد بيع ، وواحد مفقود ، وواحد حرق وأنا ألعق الحديد ويداى معقودتان خلفى . آخر رجال سويت هوم .»

« بدا مستر... حرا للغاية . أفضل منى . أقوى ، أشد عنفا . وابن العاهرة لم يتمكن حتى من أن يخرج من البيضة وحده لكنه كان مايزال ملكا وكنت أنا ...» توقف بول د . واعتصر يده اليسرى بيده اليمنى . وأمسك بها على هذا النحو مدة طويلة تكفى لأن تهدأ ويهدأ العالم وتدعه يواصل .

«كان مسموحا لمستر أن يكون وأن يبقى ماكان عليه . لكننى لم يكن مسموحا لى أن أكون وأن أبقى ماأنا عليه حتى لو طبختة لكنت تطبخين ديكا اسمه مستر . ولكن لم تكن هناك طريقة لأن أكون أبدا بول د . ، حيا أو ميتا . غيرنى المدرس . كنت شيئا آخر وكان ذلك الشيء أقل من دجاجة تجلس على حوض الاغتسال . »

وضعت سيث يدها على ركبته .

كان بول د . قد بدأ ، وكان ما حكاه لها هو البداية فقط حين أوقفته أصابعها على ركبته ، ناعمة تعيد إليه طمأنينته . أحسن . أحسن . قد يدفع قول المزيد كليهما لأن يذهب إلى مكان لايستطيع العودة منه . كان ليحتفظ بالباقى حيث كان ينتمى : فى علبة التبغ تلك المدفونة فى صدره حيث كان هناك يوما قلب أحمر . صدأ غطاها وانغلق . لم يكن لينتزعه بصعوبة ويحرره أمام هذه المرأة اللطيفة القوية ، فلو أنها أصابت نفحة من محتوياته لأخزته . وكان ليؤلمها أن تعرف أنه لم يكن هناك قلب أحمر متألق مثل عرف مستر يخفق بين جنبيه .

دلكت سيث ودلكت ، وهى تضغط قماش حلة العمل والمنحنيات الحجرية التى تصنع ركبته . كانت تأمل أن تهدئه مثلما هدأتها . مثل عجن الخبز فى ضوء مطبخ المطعم المعتم . قبل أن يصل الطباخ حين كانت تقف فى مساحة لايتعدى عرضها طول مقعد خشبى ، هناك خلف علب اللبن والى اليسار منها . تصنع العجين . تصنع ، تصنع العجين . ليس هناك أفضل من هذا لتبدأ عمل اليوم الجدى فى دفع الماضى الى التراجع للخلف .

كانت «محبوبة» ترقص فى الطابق العلوى. خطوتان صغيرتان، خطوتان، خذى- خطوة- جديدة، انزلقى، انزلقى، واختالى الى آخر الغرفة.

جلست دنفر على السرير وهى تبتسم وتوفر الموسيقى.

لم يحدث أن شاهدت «محبوبة» سعيدة هكذا أبدا. لقد رأت شفتيها الممطوطتين استياء تنفرجان على اتساعهما بمتعة السكر أو بخبر ما نقلته اليها دنفر. لقد شعرت بالرضا الدافىء يشع من جلد «محبوبة» حين تصغى الى أمها تتحدث عن أيام زمان. لكنها لم تكن قد رأت الابتهاج أبدا. لم تكن عشر دقائق قد انقضت منذ انطرحت «محبوبة» الى الخلف على أرض الحجرة، وقد جحظت عيناها، وهى تتطوح وتمسك بحلقها. والآن، بعد أن رقدت بضع ثوان فى سرير دنفر، نهضت وراحت ترقص.

سألتها دنفر: «أين تعلمت الرقص؟»

«ليس فى أى مكان. انظرى الىّ أؤدى هذه الرقصة.» وضعت «محبوبة» قبضتى يديها على ردفيها وشرعت تتواثب فرحاً على قدمين حافيتين. ضحكت دنفر.

قالت محبوبة: «والآن أنت. هيا. يحسن بك أن تأتى». كان مؤخر تنورتها يتأرجح من جنب الى جنب.

أصبحت دنفر باردة كالثلج وهى تنهض من على السرير . كانت تعلم أنها ضعف حجم «محبوبة» لكنها نهضت، باردة وخفيفة مثل ندفة الثلج.

تناولت «محبوبة» يد دنفر ووضعت اليد الأخرى على كتف دنفر . رقصا عندئذ . حول الغرفة الضيقة وحولها ، وربما كان الدوار ، أو الشعور بالبرودة والخفة فى آن واحد ، هو ما جعل دنفر تضحك بقوة بالغة . ضحكة معدية انتقلت الى «محبوبة» . تمايلت الاثنتان ، مرحتين كقطتين صغيرتين ، جيئة وذهاباً ، جيئة وذهابا ، حتى نالهما الإرهاق فجلستا على أرض الحجرة . تركت «محبوبة» رأسها تسقط على حافة السرير حتى تستعيد تنفسها ورأت دنفر قمة الشيء الذى كانت تراه دائما بتمامه حين كانت «محبوبة» تخلع ثيابها لتنام. همست وهى تنظر اليه مباشرة : «لماذا تسمين نفسك «محبوبة ؟»

أغمضت «محبوبة» عينيها . «اسمى فى الظلام «محبوبة.»

أسرعت دنفر بالاقتراب أكثر التصاقاً . «كيف تبدو الأشياء هناك ، حيث كنت قبلا ؟ هل يمكنك أن تخبرينى ؟»

قالت «محبوبة» : «مظلم . أنا ضئيلة فى ذلك المكان . وأنا هكذا هنا.» رفعت رأسها من على السرير ، ورقدت على جنبها وتداخلت فى بعضها.

غطت دنفر شفتيها بأصابعها،«هل كنت تشعرين بالبرد؟»

تداخلت «محبوبة» فى بعضها أكثر وهزت رأسها . «بالحر .

فلا شيء تتنفسيه هناك ولا مجال تتحركين فيه » .

« هل كنت ترين أحدا ؟ »

« اكواماً . كثير من الناس تحت هناك . بعضهم موتى » .

« هل رأيت المسيح ؟ بيبى سجز ؟ »

جلست وقالت : « لا أدرى . لا أعرف الأسماء . »

«قولى لى ، كيف وصلت الى هناك ؟ »

« انتظرت ، ثم صعدت الى الجسر . مكثت هناك فى الظلام ، فى النهار ، فى الظلام ، فى النهار . كان وقتا طويلا » .

«طوال هذا الوقت كنت على جسر ؟ »

« لا . فيما بعد . عندما خرجت » .

« لماذا عدت ؟ »

ابتسمت « محبوبة » . « لأرى وجهها » .

« وجه أمى ؟ سيث ؟ »

« نعم ، سيث » .

تألمت دنفر قليلا ، شعرت باستخفاف إذ لم تكن هى السبب الرئيسى لعودة « محبوبة » . « ألا تذكرين أننا كنا نلعب معا بجوار مجرى الماء ؟ »

قالت محبوبة : «كنت على الجسر . هل رأيتنى على الجسر ؟ »

« لا ، بجوار مجرى الماء . الماء هناك فى الغابات » .

« أوه ، كنت فى الماء . رأيت ماسات هناك تحت . كان بإمكانى أن ألمسها » .

« ماذا منعك ؟ »

قالت محبوبة : « تركتنى خلفها . وحدى . » رفعت عينيها لتلتقيا بعينى دنفر وقطبت جبينها ، ربما . ربما لا . ربما جعلتها الخدوش الدقيقة على جبهتها تبدو كذلك .

ابتلعت دنفر ريقها . قالت : « لا تفعلى ذلك . لا تفعلى ذلك . لن تتركينا ، أليس كذلك ؟ »

« لا ، أبداً . هذا حيث أكون » .

مالت دنفر ، التى كانت تجلس معقودة الساقين ، الى الأمام فجأة وقبضت على رسغ « محبوبة » . « لا تخبريها . لا تدعى أمى تعرف من أنت . أرجوك ، هل تسمعين ؟ »

« لا تخبرينى بما أفعله . لا تخبرينى أبداً . أبداً بما أفعله » .

« لكننى فى جانبك « يا محبوبة » » .

« هى من أريد . هى المرأة التى احتاج اليها . أنت يمكنك أن تذهبى ولكن هى المرأة التى يجب أن تكون لى » . اتسعت عيناها الى آخرهما ، سوداوين مثل سماء الليل كله .

قالت دنفر : « أنا لم أفعل شيئاً لك . لم أؤذك مطلقاً . لا أؤذى أحداً مطلقاً » .

« ولا أنا . ولا أنا » .

« ماذا ستفعلين ؟ »

« أمكث هنا . أنا أنتمى هنا ».

« أنا أنتمى هنا أيضاً ».

« إذن فابق ، ولكن لا تخبرينى أبداً بما أفعله . لا تفعلى هذا أبداً » .

«كنا نرقص . من دقيقة مضت فقط كنا نرقص معاً . دعينا نرقص » .

« لا أريد ». نهضت « محبوبة » واستلقت على السرير . طن هدوءهما فيما حولهما على الجدران مثل طيور فزعة . وأخيراً انتظم تنفس دنفر على تهديد بخسارة لا تحتمل .

قالت محبوبة : «خبرينى . خبرينى كيف ولدتك سيث فى القارب » .

قالت دنفر : « إنها لم تخبرنى مطلقاً » .

« خبرينى » .

صعدت دنفر الى السرير وطوت ذراعيها تحت مئزرتها . لم تكن قد ذهبت الى غرفة الشجرة مرة واحدة منذ أن جلست « محبوبة » على جدعة شجرتهم بعد الكرنفال ، ولم تتذكر أنها لم تكن قد ذهبت الى هناك حتى هذه اللحظة اليائسة ذاتها . لم يكن هناك شيء لم توفره هذه الأخت الفتاة بوفرة : قلب سريع النبض ،

الميل للأحلام ، المجتمع ، الخطر ، الجمال . ابتلعت ريقها مرتين لتستعد للقص ، أن تنسج من كل الخيوط التى سمعتها طيلة حياتها شبكة تمسك بها « محبوّبة » .

« قالت إنها كان لها يدان جيدتان . قالت إن الفتاة البيضاء كان لها ذراعان نحيلتان ولكن كان لها يدان جيدتان . قالت إنها رأت هذا فى الحال . قالت إن شعرها كان يكفى خمسة رؤوس ، وكان لها يدان جيدتان . وأظن أن اليدين جعلتاها تظن أنها كانت قادرة على فعل هذا : أن تعبر بكلينا النهر . لكن الفم كان ما حفظها من الفزع . قالت إنه ليس هناك شيء نسترشد به مع البيض . أنت لا تعرفين كيف سيثبون . يقولون شيئا ، ويفعلون شيئا آخر . لكنك اذا نظرت الى الفم أحياناً يكون بوسعك أن تعرفى عن ذلك الطريق . قالت إن هذه الفتاة كانت تتكلم كعاصفة ، لكن لم يكن هناك خسة حول فمها . أخذت أمى الى البيت المائل ودلكت لها قدميها ، كان ذلك شيئا . وأعتقدت أمى أنها لم تكن لتسلمها . كان بإمكانك أن تحصلى على مال إذا سلمت هاربة ، ولم تكن متأكدة أن هذه الفتاة ايمى لم تكن بحاجة الى المال أكثر من أى شيء آخر ، خصوصاً وأن كل ما تكلمت عنه كان الحصول على بعض القطيفة » .

« ما القطيفة ؟ »

« إنها قماش ، شيء عميق وناعم » .

« استمرى »

« على أية حال ، دلكت قدمى أمى وأعادتهما الى الحياة ،

وبكت ، كما قالت ، من شدة الألم فيهما . لكن هذا جعلها تفكر أنها بامكانها أن تواصل الى حيث كانت جدتى بيبى سجز و ... »

« من تلك ؟ »

« قلت هذا لتوى . جدتى » .

« هل تلك أم سيث ؟ »

« لا . أم أبى » .

« استمرى » .

« ذلك حيث كان الآخرون . أخواى و ... الطفلة الرضيعة . أرسلتهم قبلها لينتظروها فى بيت جدتى بيبى . ولذا كان عليها أن تحتمل أى شىء لتصل الى هناك . وساعدتها تلك الفتاة ايمى » .

توقفت دنفر وتنهدت . كان ذلك الجزء الذى تحبه من القصة . وصلت اليه الآن ، وكان يروقها لأنه كان عنها بأكمله ، لكنها كانت تكرهه أيضا لأنه يجعلها تشعر بأنها فاتورة مستحقة السداد فى مكان ما ، وأنها كان عليها ، هى دنفر ، أن تدفعها . ولكن كان يروغ منها من كانت مدينة له وما تدفعها به . والآن ، وهى تراقب وجه « محبوبة » اليقظ الجائع ، كيف كانت تستوعب كل كلمة ، وتسأل أسئلة عن لون الأشياء وحجمها ، وتوقها الصريح الى ان تعرف ، بدأت دنفر ترى ما تقوله لا أن تسمعه فقط : هناك هذه الفتاة الأمة فى التاسعة عشرة من عمرها - أكبر منها هى نفسها بعام - تسير خلال الغابات لتصل الى أطفالها البعيدين . هى متعبة ، ربما فزعة ، بل ربما ضائعة . وأكثرمن

أى شىء هى وحدها وبداخلها طفل آخر عليها أن تفكر فيه . وخلفها الكلاب ، ربما ؛ بنادق ؛ ممكن ؛ وبالتأكيد أسنان علاها الطحلب . وهى ليست خائفة فى الليل لأنها فى لونه ، أما فى النهار فكل صوت هو طلقة أو خطوة هادئة لمقتفى الأثر .

كانت دنفر تراه الآن وتشعر به ـ من خلال « محبوبة » . تشعر كم لابد ان كان الشعور بالنسبة لأمها . ترى كم لابد أن كانت الأشياء تبدو لأمها . وكلما زاد استخلاصها للمعانى ، وكلما زادت التفاصيل التى كانت تزودها بها ، راق ذلك « لمحبوبة » . وهكذا توقعت الأسئلة من خلال بعث الحياة فى الفتات الذى أخبرتها به أمها وجدتها ـ ونبضة قلب . أصبحت المناجاة الذاتية ، فى الحقيقة ، لحنا ثنائياً وهما مستلقيتان معا ، ودنفر تغذى اهتمام « محبوبة » مثل عاشق متعته أن يتخم معشوقته . كان اللحاف الداكن ذو الرقعتين البرتقاليتين هناك معهما لأن « محبوبة » أرادته بقربها عندما تنام . كانت تنبعث منه رائحة كالعشب وله ملمس اليدين ـ أيدى قلقة لنساء نشيطات : جافة ، دافئة ، شائكة . كانت دنفر تتكلم ، و « محبوبة » تصغى ، وبذل الاثنان ما بوسعهما حتى يحاكيا ما حدث بالفعل ، كيف كان حقاً ، شيئاً كانت سيث وحدها تعرفه لأنها وحدها كانت لديها فكرة عنه والوقت الذى تشكله فيه فيما بعد : نوعية صوت ايمى ، ونفسها الذى يشبه رائحة الخشب المحترق . الجو السريع التغير فى أعالى تلك التلال ـ رطب بالليل ، حار بالنهار ، والضباب المفاجىء ـ كم تصرفت بطيش مع هذه الفتاة البيضاء ـ طيش وليد اليأس تشجعه عينا ايمى الهاربة وفمها الرقيق القلب .

«ليس لك حق فى السير حول هذه التلال ، يا آنسة » .

« انظرى من يتكلم هنا . إن لى حقا هنا أكثر مما لك . إنهم يقبضون عليك ويقطعون رأسك . ليس هناك من يطاردنى لكننى أعرف أن وراءك من يطاردك » . وضغطت ايمى أصابعها فى بطن قدمى المرأة الأمة . « طفل من ذلك ؟ »

لم تجب سيث .

« أنت حتى لا تعرفين . هيا ، يا إلهى » ، وتنهدت سيث وهزت رأسها . « هل يؤلمك ؟ »

« قليلاً » .

« أفضل لك . كلما آلمك كلما كان أفضل . لا يمكن أن يلتئم شىء بدون ألم ، تعرفين . لماذا تتلوين ؟ »

رفعت سيث نفسها على مرفقيها . كان ستلقاؤها على ظهرها هذه المدة الطويلة قد أثار صخبا بين لوحى كتفيها . جعلتها النار المشتعلة فى قدميها والنار المشتعلة فى ظهرها تتصبب عرقاً .

قالت : « ظهرى يؤلمنى » .

« ظهرك ؟ يا فتاة ، أنت فى حال يرثى لها . استديرى هنا ودعينى أرى » .

استدارت سيث على جنبها الأيمن ، فى محاولة هائلة جعلتها تشعر بالغثيان فى معدتها . فكت ايمى ظهر ردائها وقالت حين رأت : « تعال ، أيها المسيح » . خمنت سيث أن يكون الأمر سيئاً ،

لأن ايمى لم تتكلم لفترة بعد دعائها للمسيح . ووسط صمت إيمى وقد أصابها الخرس من باب التغيير ، شعرت سيث بأصابع اليدين الجيدتين تمسان ظهرها برفق . كان بوسعها أن تسمع تنفسها لكن الفتاة البيضاء لم تقل شيئا رغم ذلك . لم تستطع سيث أن تتحرك . لم تستطع أن ترقد على بطنها أو على ظهرها ، وكان البقاء على جنبها يعنى الضغط على قدميها اللتين تصرخان . تكلمت ايمى أخيراً بصوتها الذى يشبه صوت من يمشى أثناء نومه .

« إنها شجرة ، يا لو . شجرة كرز برى . انظرى ، هنا الجذع ـ إنه أحمر ومشقوق على اتساعه ، ملىء بالنسغ ، وهذا هنا تفرع الأغصان . ولديك قدر هائل من الأغصان . أوراق أيضا ، فيما يبدو ، وان لم يكن لها أزهار . أزهار كرز صغيرة دقيقة ، فى بياضها تماما . إن ظهرك يحمل شجرة كاملة . مزدهرة . ما الذى يدور فى عقل الله ، أتعجب . لقد أصابنى قدر من جلد السياط ، لكننى لا أذكر شيئا مثل هذا . كان لمستر بَدْى يد شريرة تماما هو الآخر . يجلدك لنظرك اليه مباشرة . كان ليفعل هذا بالتأكيد . نظرت اليه مباشرة ذات مرة ، فجذب محرك النار وقذفنى به . أظن أنه عرف ما كنت أفكر فيه » .

أنّت سيث واختصرت ايمى حلمها ـ مدة كافية لأن تنقل قدمى سيث بحيث أصبح الثقل فوق الكاحلين ، وهما ترقدان على أحجار مغطاة بأوراق الشجر .

« هذا أفضل ؟ يا الهى ، يا لها من طريقة للموت . سوف تموتين هنا ، تعلمين . ليس هناك مخرج من هذا . اشكرى خالقك أن جئت

حتى لا تموتين فى الخارج وسط هذه الأعشاب . فإذا جاء ثعبان للدغك . والدب يأكلك . ربما كان يجب أن تظلى حيث كنت ، يا لو . استطيع أن أرى من ظهرك لماذا لم تفعلى . هاها . فمن زرع هذه الشجرة يفوق مستر بَدْى بميل . أنا سعيدة لأننى لست فى مكانك . حسنا ، خيوط العنكبوت هى كل ما يمكننى أن أفعله من أجلك . فما هنا لا يكفى . سوف أبحث فى الخارج . يمكننى استخدام الطحالب ، لكن بها حشرات وأشياء أحياناً . ربما يجب علىّ أن أفتح هذه الأزهار . لأجعل الصديد يسيل ، تظنين ؟ أتسائل عما كان يدور بعقل الله . لابد أنك فعلت شيئا . لا تهربى الى أى مكان الآن » .

كان بوسع سيث ان تسمعها وهى تدندن بين الشجيرات أثناء بحثها عن خيوط العنكبوت . ركزت على الدندنة لأن ايمى ما أن غطست بعيداً عن الانظار حتى بدأ الطفل يتمدد . كانت تقول لنفسها ، سؤال وجيه . ما الذى كان يدور بعقله ؟ كانت ايمى قد تركت مؤخر ثوب سَيث مفتوحا والآن ضربته هبة ريح ، مما قلل من الألم . راحة جعلتها تشعر بألم آخر أقل هو ألم لسانها الملتهب . عادت ايمى بحفنتين من خيط العنكبوت ، نظفته من الغرائس وبطنت به ظهر سيث ، وهى تقول إنه أشبه بتزيين شجرة عيد الميلاد .

لدينا فتاة زنجية جاءت الى مزرعتنا . لا تعرف شيئا . تحيك الأشياء لمسز بَدْى .. دانتيللا رقيقة للغاية لكنها لا تستطيع أن تربط كلمتين معا . لا تعرف شيئا ، مثلك تماماً . سوف ينتهى الأمر بك ميتة ، هذا ما فى الأمر . أنا لا . علىّ أن أصل الى بوسطون

وأن أحصل لنفسى على بعض القطيفة . القرمزية . أنت لا تعرفين حتى عن هذا ، أليس كذلك ؟ والآن لن تعرفى أبدا . أراهن أنك حتى لا تنامين مطلقا والشمس فى وجهك . فعلت هذا مرتين . فأنا معظم الأوقات أقوم بتغذية الماشية قبل الضوء ولاأذهب للنوم حتى بعد أن يأتى الظلام بكثير . لكن ذات مرة كنت على ظهر العربة وغلبنى النوم . النوم والشمس فى وجهك هو أفضل شعور قديم . فعلت هذا مرتين . مرة حين كنت صغيرة . ولم يزعجنى أحد عندئذ . المرة الثانية ، على ظهر العربة ، حدث هذا ثانية واللعنة إن لم تكن الدجاجات انطلقت من كل قيد . جلد مستر بَدْى مؤخرتى . كنتاكى ليست مكاناً طيباً للعيش فيه . بوسطون هى المكان المناسب . ذلك حيث كانت أمى قبل أن تعطى لمستر بَدْى . قال جو ناثان إن مستر بَدْى هو أبى لكننى لا أصدق هذا ، هل تصدقين أنت ؟ »

أخبرتها سيث أنها لا تصدق أن مستر بَدْى هو أبوها .

« أنت تعرفين أباك ، هل تعرفينه ؟ »

قالت سيث : « لا » .

« ولا أنا . كل ما أعرفه أنه ليس هو » . عندئذ نهضت ، وقد انتهت من عملية الإصلاح ، وراحت تغنى وهى تتمايل حول البيت المائل ، وعيناها البطيئتا الحركة باهتتان فى الشمس التى كانت تضىء شعرها :

« عندما ينتهى عمل اليوم
وطفلى الصغير المتعب

يتأرجح برقة جيئة وذهابا ؛

عندما تهب رياح الليل بنعومة

والجنادب فى الوادى

تسقسق وتسقسق وتسقسق ثانية ؛

وعندما ترقص الجنيات حول ملكتها

على العشب الأخضر المسكون ،

عندئذ من بين السموات الضبابية البعيدة

تأتى سيدة العيون المستديرة ».

وفجأة توقفت عن التمايل والتأرجح وجلست، وقد لفت ذراعيها النحيلتين حول ركبتيها ، ومرفقاها فى راحتى يديها . توقفت عيناها البطيئتا الحركة وحدقت فى القذارة عند قدميها . «تلك أغنية أمى . علمتنى إياها ».

« خلال القاذورات والشبورة والظلام

نعود إلى بيتنا المريح ،

حيث يتأرجح مهد جيئة وذهابا

على غناء خافت عذب .

حيث ساعة الحائط الرتيبة المملة

تحكى عن اليوم الذى انقضى ،

حيث تحوم أشعة القمر

فوق اللعب النائمة على الأرض ،

حيث يرقد طفلى المتعب الصغير

تأتى سيدة العيون المستديرة » .

« تضع يديها على

طفلى الصغير العزيز المتعب ،

وتلك الأيادى البيضاء المنتشرة

مثل حجاب على الرأس المجعد ،

تبدو تلاطف وتربت

كل خصلة حريرية صغيرة .

ثم تسدل الجفنين بنعومة

على تلكما العينين العسليتين

وبطريقة رقيقة مهدهدة كهذى

تأتى سيدة العيون المستديرة » .

جلست ايمى بعد أغنيتها فى هدوء ، ثم كررت البيت الأخير قبل أن تقف ، وتترك البيت المائل وتمشى بعض الطريق لتستند الى شجرة دردار صغيرة . وعندما عادت كانت الشمس تغمر الوادى أسفلهما وكانتاهما بعيداً فوقه فى ضوء كنتاكى الأزرق .

« ألم تموتى بعد ، يا لو ؟ لو ؟ »

« ليس بعد » .

« تراهنين . اذا أفلحت خلال الليل ، فإنك تفلحين على طول » . أعادت ايمى ترتيب أوراق الأشجار لمزيد من الراحة وركعت لتدلك القدمين المتورمتين ثانية . قالت : « أعط هذين تدليكا آخر حقيقياً » ، وعندما امتصت سيث الهواء من خلال أسنانها ، قالت : « اسكتى . عليك أن تبقى فمك مغلقاً » .

عضت سيث على شفتيها ، وهى حريصة على لسانها ، وتركت اليدين الجيدتين تعملان عملهما على لحن ، « لذا غن أيها النحل بنعومة ، غن بصوت خافت » . وبعد ذلك انتقلت ايمى الى الجانب الآخر من البيت المائل حيث أخفضت رأسها تجاه كتفها ، وهى جالسة ، وراحت تضفر شعرها ، وهى تقول : « لا تنهضى وتموتى علىّ فى الليل ، هل تسمعين ؟ لا أريد أن أرى وجهك الأسود القبيح يحن محلقا فوقى . اذا مت ، فارحلى الى مكان ما حيث لا أستطيع أن أراك ، هل تسمعين ؟ »

قالت سيث : « اسمع ، سوف أفعل ما يمكننى ، يا آنسة » .

لم تتوقع سيث أبدا أن ترى شيئا آخر فى هذا العالم ، ولذا فإنها حين شعرت بأصابع قدميها تنخس ردفها فقد استغرقت بعض الوقت حتى تخرج من نوم كانت تظنه الموت . جلست ، متصلبة ومرتجفة ، فى حين راحت ايمى تلقى نظرة على ظهرها الملىء بالعصارة .

قالت ايمى : « يبدو كأنه الشيطان . لكن لقد أفلحت . انزل هنا ، أيها المسيح ، فقد أفلحت لو . ذلك بسببى . فأنا جيدة مع الأشياء المريضة ، هل تظنين انك تستطيعين المشى ؟ »

« علىّ أن أطلق مائى بشكل ما » .

« دعينا نراك تسيرين عليهما » .

لم يكن الأمر طيبا ، لكنه ممكن ، وهكذا راحت سيث تعرج ، وهى تتشبث أولا بايمى ، ثم بشجيرة .

« كنت أنا من فعل هذا . أنا جيدة مع الأشياء المريضة ، ألست كذلك ؟ »

قالت سيث : « بلى ، أنت جيدة » .

« علينا أن ننزل من على هذا التل . هيا . سوف أنزل بك الى النهر . لابد أن يلائمك هذا . أما أنا ، فأنا ذاهبة الى نهر يايك . وسوف يؤدى بى إلى بوسطون مباشرة ، ما هذا الذى يغمر ثوبك كله ؟ »

« لبن » .

« أنت فوضى كاملة » .

نظرت سيث الى أسفل ، الى بطنها ولمسته . كان الطفل ميتا . لم تكن هى قد ماتت فى الليل ، لكن الطفل مات ، اذا كان ذلك هو الحال ، فلم يكن هناك الآن اذن توقف . سوف توصل ذلك اللبن الى طفلتها حتى ولو اضطرت الى السباحة .

سألتها ايمى : « ألست جائعة ؟ »

«لست أى شىء إلا أننى فى عجلة ، يا آنسة » .
« هووا ! أبطئى . هل تريدين حذاء ؟ »
«ماذا تقولين ؟ »
قالت ايمى : « فكرت فى طريقة » ، وكانت قد فكرت فعلا . مزقت قطعتين من شال سيث ، ملأتهما بأوراق الأشجار وربطتهما على قدميها ، وهى تثرثر طول الوقت .

«كم عمرك ، يا لو » لقد ظللت أدمى أربعة أعوام لكننى لا أحمل طفل أحد . لن تضبطينى أعرق حليبا لأن .. »
قالت سيث : « أعرف . أنت ذاهبة الى بوسطون » .
عند الظهر رأتاه ، عندئذ كانا من القرب منه بحيث تسمعاه . وفى وقت متأخر من العصر كان بإمكانهما أن تشربا منه إن أرادتا . كانت أربعة نجوم ظاهرة فى السماء حين وجدتا ، لا قاربا نهرياً تخفيان فيه سيث ، أو صاحب عبارة راغبا فى ركوب مسافرة هاربة - لا شىء من ذلك - ولكن وجدتا قاربا كاملا تسرقانه . كان له مجداف واحد ، وثقوب كثيرة ، وعشّان للطيور .
« ها أنت تمضين ، يا لو . المسيح يرعاك » .
كانت سيث تنظر على بعد ميل من المياه المظلمة ، عليهما أن تشقاه بمجداف واحد فى قارب لا نفع فيه ضد تيار مسخر للمسيسيبى على بعد مئات الأميال . بدا كأنه البيت لها ، ولابد أن الطفل (الذى لم يكن ميتا على الإطلاق) كان يرى هذا أيضا . وما أن اقتربت سيث من النهر حتى انطلقت مياهها لتنضم اليه . قوس ظهرها إنطلاق مياهها مشفوعا بالإعلان المسهب عن المخاض .

سألتها ايمى : «لماذا تفعلين ذلك ؟ أليس لك مخ فى رأسك ؟ أوقفى هذا فى الحال . قلت أوقفيه ، يا لو . يا أغبى مخلوقة على الارض . لو ! لو ! »

لم يكن بوسع لُو أن تفكر فى أى مكان سوى أن تدخل . انتظرت النقرة اللطيفة التى تبعث انفجار الألم . زحفت داخلة إلى القارب ، وهى على ركبتيها مرة أخرى . تهادى تحتها وكان لديها ما يكفى بالكاد من الوقت أن تثبت قدمها على المقعد الخشبى عندما سلبها تمزق آخر تنفسها . ألقت بساقيها فوق الجانبين ، وهى تلهث تحت أربعة نجوم صيفية ، لأن الرأس تخرج ، كما أخبرتها ايمى كأنها لم تكن تعرف. كما لو كان التمزق تمزقاً فى زنود الدعامة المصنوعة من شجر الجوز ، أو تمزق البرق المنثلم فى سماء جلدية .

انحشر . وجهه الى أعلا وهو يغرق فى دم أمه . توقفت ايمى عن استجداء المسيح وشرعت تلعن أباه .

صرخت ايمى : « ادفعى » .

همست سيث : « أجذبى » .

وبدأت اليدان القويتان فى العمل مرة رابعة ، ولكن ليس بالسرعة الكافية ، لأن مياه النهر ، التى كانت تتسرب من خلال أى ثقب تختاره ، كانت تنتشر على ردفى سيث . مدت ذراعاً الى الخلف وقبضت على الحبل فى حين أنشبت ايمى أصابعها تقريبا فى الرأس . وعندما ارتفعت من قاع النهر قدم وركلت قاع القارب ومؤخرة سيث ، عرفت ان الأمر انتهى وسمحت لنفسها باغماءة

قصيرة . عندما أفاقت ، لم تسمع صراخا ، مجرد هديل ايمى المشجع . لم يحدث شىء لفترة طويلة حتى اعتقد كلاهما أنهما فقدتاه . تقوست سيث فجأة وانطلقت المشيمة خارجة . ثم أنشج الطفل ونظرت سيث . كانت عشرون بوصة من الحبل تتدلى من بطنه وكانت تهتز فى هواء المساء الرطيب . لفت ايمى تنورتها حوله وتسلقت المرأتان المبتلتان اللزجتان الشاطىء لتريا حقاً ما كان يدور بعقل الله .

تطفو بذور السرخس الأزرق الذى ينمو فى التجاويف على طول شاطىء النهر تجاه المياه فى خطوط فضية زرقاء تصعب رؤيتها ، ما لم تكن بداخلها أو قريباً منها ، راقدا على حافة النهر تماما عندما تكون أشعة الشمس منخفضة وواهنة . وغالبا ما نخطئها على أنها حشرات - لكنها بذور يرقد فيها الجيل كله واثقا من مستقبل ما . ومن السهل أن نعتقد للحظة أن كلا منها لها مستقبل - سوف تصبح كل ما تحتويه البذرة : سوف تعيش أيامها كما هو مخطط . ولا تدوم لحظة التأكد هذه أطول من ذلك ، أطول ، ربما ، من البذرة ذاتها .

على شاطىء نهر فى رطوبة إحدى أمسيات الصيف جاهدت امرأتان تحت رذاذ من الزرقة الفضية . لم تتوقعا أبدا أن تريا إحداهما الأخرى ثانية فى هذا العالم وفى تلك اللحظة لم يكن بوسعهما أن يهتما مثقال ذرة . لكنهما فى ليلة صيفية يحيط بهما السرخس الأزرق ، فعلا معا شيئا على نحو ملائم وطيب . ولو أن حارسا كان يمر لضحك لرؤية منبوذتين ، اثنتين من المجرمات الخارجات على القانون - أمة وامرأة بيضاء حافية القدمين ذات

شُعر مرسل ـ تلفان طفلا عمره غشر دقائق فى الخرق التى كانتا ترتديانها . ولكن لا حارس أتى ولا واعظ . كانت المياه تمتص وتبتلع نفسها تحتهما . لم يكن هناك ما يزعجهما أثناء عملهما . ولذا عملاه على نحو ملائم وطيب .

أطل الشفق وقالت ايمى إن عليها أن ترحل ؛ انها ما كانت ليقبض عليها فى وضح النهار على نهر يموج بالحياة مع هاربة . وبعد أن غسلت يديها ووجهها فى النهر ، نهضت وألقت نظرة على الطفل الملفوف والمربوط الى صدر سيث .

« إنها لن تعرف من أنا . هل ستخبريها ؟ من جاء بها الى هذا العالم ؟ » رفعت ذقنها ، وألقت نظرة بعيدة إلى حيث تسطع الشمس دائما . « يحسن بك أن تخبريها . هل تسمعين ؟ قولى مس ايمى دنفر ، بوسطون » .

شعرت سيث بنفسها تروح فى نوم كانت تعلم أنه سيكون عميقاً . قالت لنفسها ، وهى على حافته قبل أن تغوص فيه : « ذلك جميل . دنفر . جميل حقاً » .

حان الوقت لاختزان الأمر كله . قبل أن يأتى بول د . ويجلس على درجات شرفتها ، كانت الكلمات المهموسة فى الغرفة الاحتياطية تشد أزرها . تساعدها على احتمال الشبح الذى يونجها ، تجدد وجهى هوارد وبجلر الطفلين وتحفظهما كاملين فى العالم لأنها فى أحلامها كانت ترى فقط أجزاءهما فى الأشجار ، تحفظ زوجها ظلا لكنه هناك ـ فى مكان ما . والآن تضخم وجه هال أكبر وأكبر بين معصرة الزبد والممخضة ، وهو يزحم عينيها ويجعل رأسها تؤلمها . تمنت أصابع بيبى سجز وهى تشكل مؤخر عنقها ، وتعيد تشكيله ، قائلة : « اطرحيهما جانبا ، يا سيث . الأمر برمته . جانبا . جانبا . كلاهما جانبا . بجوار ضفة النهر . الأمر برمته . لا تفكرى فى الحرب بعد هذا . اطرحى كل هذه الفوضى جانبا . الأمر برمته » . وتحت ضغط الأصابع والصوت الهادىء الهادى ، كانت تذعن . كانت توجه أسلحة دفاعها الحادة لمغالبة الأسى ، المرارة والألم ، واحدة بعد الأخرى على ضفة كانت المياه الصافية تتدفق تحتها .

تسع سنوات بدون أصابع أو صوت بيبى سجز تعد شيئا هائلا . وكانت الكلمات المهموسة فى الغرفة الاحتياطية ضئيلة جدا . كان الوجه الملطخ بالزبد لرجل لم يخلق الله أعذب منه يتطلب ما هو أكثر : بناء قوس أو حياكة رداء . شعيرة تثبيت . قررت أن تذهب

الى الأرض المقطوعة الأشجار ، هناك حيث رقصت بيبى سجز فى ضوء الشمس .

قبل أن ينغلق البيت رقم ١٢٤ وكل من فيه، ويحتجبوا، ويستبعدوا ، قبل أن يصبح لعبة الأشباح وبيت الغاضبين ، كان ١٢٤ بيتا بهيجا يفيض بالحياة حيث كانت بيبى سجز التقية تحب ، تحذر ، تغذى ، توبخ،وتواسى . حيث لم يكن قدر واحد بل قدران يغليان برفق على الموقد ، وحيث كان المصباح يشتعل طول الليل . كان الأغراب يستريحون هناك بينما الأطفال يقيسون أحذيتهم . كانت الرسائل تترك هناك ، لأن من يحتاجها كان من المؤكد أن يتوقف يوما ما عاجلا . كان الحديث خافتا ومركزا - لأن بيبى سجز التقية لم تكن توافق على التزيد . كانت تقول : «كل شيء يعتمد على كم المعرفة ، » و «من الجيد أن تعرف متى تتوقف » .

أمام البيت رقم ١٢٤ هذا نزلت سيث من عربة ، ووليدها مربوط الى صدرها ، وشعرت لأول مرة بذراعى حماتها الواسعتين ، التى نجحت فى الوصول الى سنسناتى . التى قررت أنه لما كانت حياة العبودية قد «كسرت رجليها وظهرها ورأسها وعينيها ويديها وكليتيها ورحمها ولسانها » ، فإنها لم يبق لها لتكسب عيشها إلا قلبها - الذى أعملته على الفور . ولما لم تقبل أى لقب شرفى قبل اسمها ، وإن سمحت برتبة صغيرة بعده ، أصبحت واعظة بلا كنيسة ، واعظة تزور المنابر وتفتح قلبها العظيم لأولئك الذين يستطيعون استخدامه . فى الشتاء والخريف كانت تحمله إلى المعمدانيين ، أصحاب القداسة والمقدسين ، إلى

كنيسة المخلص والمفتدين . دون أن تستدعى ، أو ترتدى رداء الكهنوت ، أو تمسح بالزيت ، كأن تدع قلبها ينبض فى حضورهم . وعندما كان الجو الدافىء يأتى ، كانت بيبى سجز التقية ، يتبعها كل رجل أسود وامرأة وطفل يستطيع أن يصل الى النهاية ، تحمل قلبها العظيم إلى الساحة الخالية من الأشجار - مكان مفتوح على اتساعه اقتطعت أشجاره فى عمق الغابة دون سبب معروف فى نهاية ممر تعرفه الظباء فقط ومن أخلى الأرض فى المقام الأول . فى حرارة عصر كل سبت ، كانت تجلس فى الساحة الخالية بينما الناس ينتظرون بين الأشجار .

وبعد أن تأخذ مكانها على صخرة هائلة مسطحة الجوانب ، كانت بيبى سجز تحنى رأسها وتصلى فى صمت . وكانت الجماعة تراقبها من بين الأشجار . كانوا يعرفون أنها مستعدة عندما تضع عصاتها . ثم تصيح : « دعوا الأطفال يأتون ! » وكانوا يهرعون من بين الاشجار إليها .

كانت تقول لهم : « دعوا أمهاتكم يسمعنكم تضحكون » ، وكانت الغابة تدوى . وكان الكبار ينظرون ولا يسعهم إلا أن يبتسموا .

ثم كانت تصيح : « دعوا الرجال الكبار يأتون » . كانوا يتقدمون واحدا بعد الآخر من بين الأشجار المدوية .

كانت تقول لهم : « دعوا زوجاتكم وأطفالكم يرونكم ترقصون » ، وكانت حياة الأرض ترتجف تحت أقدامهم .

وأخيراً كانت تدعو النساء اليها . كانت تقول لهم : « إبكين من أجل الأحياء والموتى . إبكين فقط » .

كان الأمر يبدأ بهذا الشكل : الأطفال الضاحكين ، الرجال الراقصين ، النساء الباكيات ثم يختلط الأمر . تتوقف النساء عن البكاء ؛ يجلس الرجال ويبكون ، يرقص الأطفال ، تضحك النساء ، يبكى الأطفال حتى يرقد الكل بلا استثناء ، مرهقين وممزقين ، حول الساحة الخالية مبللين لاهثى الأنفاس . وفى الصمت الذى كان يعقب هذا ، كانت بيبى سجز التقية تمنحهم قلبها الكبير العظيم .

لم تقل لهم أن يطهروا حياتهم أو أن يذهبوا ولا يعودوا الى ارتكاب الخطايا . لم تقل لهم إنهم المباركون فى الأرض ، والطيبون الذين يرثونها ، والأنقياء المتجهين للمجد .

كانت تقول لهم إن النعمة الالهية الوحيدة التى كان بإمكانهم أن ينعموا بها هى النعمة التى بإمكانهم أن يتخيلوها . انهم اذا لم يستطيعوا أن يروها ، فلن يحظوا بها .

وقالت : « هنا فى هذا المكان نحن لحم ؛ لحم يبكى ويضحك ؛ لحم يرقص على قدمين عاريتين فى العشب . أحبوه . أحبوه بشدة . بعيدا هناك هم لايحبون لحمكم . هم يحتقرونه . لايحبون عيونكم ؛ إنهم يفضلون أن يقتلعوها . لا ولايحبون الجلد الذى يكسو ظهوركم . هم يسلخونه . وياقومى هم لايحبون أيديكم . هم يستخدمونها ، يربطونها ، يوثقونها ، يقطعونها ويتركونها خاوية . أحبو أيديكم ! أحبوها . أرفعوها وقبلوها . إلمسوا الآخرين بها ، ربتوهما معا ، دلكو بهما وجوهكم ، لأنهم لايحبون هذه أيضا . عليكم أنتم أن تحبوها ، أنتم ! ولا ، هم لايحبون

أفواهكم. بعيدا، هناك، سوف يودون ان يروها مكسورة ويكسروها ثانية. ولن يعبأوا بما تنطقون به من خلالها. ولا يسمعون ماتصرخون به منّها. وماتضعونه فيها لتغذوا به جسدكم سوف يختطفونه ويعطونكم بدلا منه فضلات. لا، هم لايحبون أفواهكم. عليكم أنتم أن تحبوها. إننى أتكلم عن اللحم هنا. لحم بحاجة إلى أن يحب. لحم بحاجة إلى أن يستريح وأن يرقص؛ ظهور يجب أن تدعم؛ أكتاف بحاجة الى أذرع، أذرع قوية أقول لكم. وآه ياقومى، بعيدا هناك، اسمعونى، لايحبون رقابكم غير معقودة بأنشوطة ومنتصبة. لذا أحبوا رقابكم؛ ضعوا يدا عليها، باركوها، ربتوها وأرفعوها، وكل أجزائكم الداخلية التى يودون أن يريقوها للخنازير، عليكم أن تحبوها. والكبد الداكن، الداكن- أحبوه، أحبوه، والنبض والقلب النابض، أحبوا ذلك أيضا. أكثر من العينين والأقدام أكثر من الرئتين اللتين يحتاجان بعد الى استنشاق هواء حر. أكثر من أرحامكن التى تقبض على الحياة وأعضائكم السرية التى تهب الحياة، اسمعونى الآن، أحبوا قلوبكم. فهذه هى الجائزة».كانت تقف عندئذ، وقد كفت عن قول المزيد، وترقص بردفها الملتوى مابقى مما كان قلبها يود أن يقوله فى حين يفتح الآخرون أفواههم ويعطونها الموسيقى. يحتفظون بنغمات طويلة حتى يصبح التناغم الرباعى الأجزاء كاملا بما فيه الكفاية للحمهم المحبوب بعمق.

أرادت سيث أن تكون هناك الآن. على الأقل لكى تنصت إلى المسافات التى خلفها وراءه الغناء فى الزمن البعيد. وعلى الأكثر

لكى تحصل على مفتاح من أم زوجها الميتة الى مايجب عليها أن تفعله بالأمر برمته الآن ، أيها المسيح العزيز ، تسع سنوات الآن بعد أن أثبتت بيبى سجز التقية أنها كاذبة ، وقد نبذت قلبها العظيم ورقدت فى سرير الغرفة الاحتياطية وهى تستيقظ مرة من آن لآخر تتوق للون ولا لشيء آخر .

قالت : « تلك الأشياء البيضاء قد أخذت كل ما كان لدى أو حلمت به وقطعت نياط قلبي أيضا . ليس هناك حظ سيىء فى العالم سوى البيض . » قد أُغلق البيت رقم ١٢٤ واحتمل حقد شبحه . لم يعد هناك مصباح طوال الليل ، أو جيران يقومون بزيارات عرضية . لا أحاديث خافتة بعد العشاء . لا أطفال حفاة الأقدام يراقبون يلعبون بأحذية الغرباء . كانت بيبى سجز تعتقد أنها قد كذبت . لم تكن هناك نعمة - متخيلة أو حقيقية - ولارقص تضيئه الشمس فى الساحة الخالية قادر على تغيير هذا . بدا إيمانها ، وحبها ، وخيالها وقلبها العجوز الكبير العظيم ينهار بعد وصول زوجة ابنها بثمانية وعشرين يوما .

ورغم ذلك فإن سيث صممت على الذهاب الى الساحة الخالية - لتقدم اجلالها لهال . قبل ان يتغير الضوء ، حين كان لايزال المكان الأخضر المبارك الذى تذكره . مغيبا ببخار النباتات وتحلل التوت .

ارتدت شالها وأخبرت دنفر و« محبوبة » ان تفعلا مثلها . بدأن رحلتهن فى وقت متأخر من صباح الأحد ، سيث تقودهما ، والفتاتان تهرولان خلفها ، ولامخلوق على مرمى البصر .

عندما بلغن الغابة لم تستغرق وقتا فى أن تجد الممر الذى يمر

خلالها لأن اجتماعات المدينة الكبيرة الدينية كانت تعقد هناك بانتظام الآن، مكتملة بالمناضد المحملة بالطعام وآلات البانجو الموسيقية وخيمة. أصبح الممر القديم طريقا الآن، لكن لاتزال الأشجار التى تسقط كستناء الحصان على العشب أسفلها تقوس نفسها فوقه.

لم يكن هناك ماتفعله سوى مافعلته، لكن سيث أنبت نفسها لانهيار بيبى سجز. ومهما أنكرت بيبى هذا مرارا، إلا أن سيث عرفت أن الحزن بدأ فى البيت رقم ١٢٤ عندما وثبت من على العربة، ووليدها مربوط الى صدرها فى الثياب الداخلية لفتاة بيضاء تبحث عن بوسطون.

بدأت سيث تتصبب عرقا تماما مثل ذلك العرق الآخر عندما استيقظت ووجهها ملطخ بكتل الطين الجاف على ضفاف نهر أوهايو، والفتاتان تتبعانها على طول ممر أخضر متألق من أشجار البلوط وكستناء الحصان.

كانت ايمى قد رحلت. وكانت سيث وحيدة ضعيفة، وهكذا طفلها. مشت طويلا على طول النهر ثم وقفت تحدق فى المياه المتألقة وعندئذ لاح قارب فى المنظر شيئا فشيئا، لكنها لم تستطع أن ترى ماإذا كان الشخوص فيه من البيض أم لا. بدأت تتصبب عرقا من حمى شكرت الله عليها حيث أنها كانت لتبقى طفلتها دافئة. عندما غاب القارب عن نظرها راحت تتعثر إلى الأمام ووجدت نفسها قريبة من ثلاثة زنوج يصطادون السمك: صبيان ورجل أكبر سنا. توقفت وانتظرت حتى يخاطبوها. أشار

أحد الصبيين وألقى الرجل نظرة من فوق كتفه ـ نظرة خاطفة حيث كل ماأحتاج أن يعرفه عنها كان بوسعه أن يراه فى لمحة .

لم يقل أحد أى شىء لبرهة . ثم قال الرجل : « هل أنت متجهة عبر النهر ؟ »

قالت سيث : « نعم،ياسيدى . »

« هل يعلم أحد بمجيئك ؟ »

« نعم،ياسيدى . »

نظر إليها ثانية وأومأ باتجاه صخرة تبرز من الأرض فوقه كأنها شفة سفلى . مشت سيث إليها وجلست . كان الحجر قد امتص أشعة الشمس لكنه لم يكن يدانى حرارتها . ظلت هناك وهى أتعب من أن تتحرك ، والشمس فى عينيها تصيبها بالدوار ، تصبب العرق عليها وغسل الطفل تماما . لابد أنها نامت وهى جالسة ، لأنها عندما فتحت عينيها بعد ذلك كان الرجل يقف أمامها وبين يديه قطعة من ثعبان السمك مقلية يتصاعد منها دخان ساخن . كان يتطلب مجهودا منها أن تمد يدها إليها ، ومجهودا أكبر لشمها ، ومن المستحيل أكلها . استجدته بعض الماء وأعطاها إياه من نهر أوهايو فى جرة . شربتها كلها وطلبت المزيد . عاودها الرنين فى رأسها لكنها رفضت أن تصدق أنها قطعت كل ذلك الطريق ، وتحملت كل ماتحملته ، لتموت فى الجانب الخطأ من النهر .

انتبه الرجل الى وجهها الذى يتصبب عرقا ونادى أحد الولدين إليه .

قال له : « اخلع هذه السترة . »

« سيدى ؟ »

« لقد سمعتنى . »

انسل الصبى من سترته ، وهو ينتحب : « ماذا ستفعل ؟ ماذا سأرتدى ؟ »

فك الرجل رباط الطفل من على صدرها ولفه فى سترة الصبى ، عاقدا الكمَّين من الأمام .

« ماذا سأرتدى ؟ »

تنهد العجوز وقال بعد لحظة صمت : « تريد أن تسترده ، هيا إذن وأخلعه عن ذلك الطفل . ضع الطفل عاريا فى العشب وعد إلى ارتداء معطفك . وإذا استطعت أن تفعل ذلك ، فاذهب إذن إلى مكان بعيد ولاتعد . »

أرخى الصبى عينيه . ثم استدار ليلحق بالصبى الآخر . أخذت سيث سنة من النوم ، جافة الفم تتصبب عرقا ، وقد أمسكت بثعبان السمك فى يديها ، والطفل عند قدميها . حل المساء ولمس الرجل كتفها .

وعلى عكس ماتوقعت راحوا يدفعون القارب بعمود باتجاه أعلى النهر ، بعيدا عن الزورق الذى وجدته ايمى . وفى اللحظة التى ظنت فيها أنه كان سيعيدها الى كنتاكى ، أدار القارب وعبر نهر أوهايو كأنه قذيفة . وهناك ساعدها على ارتقاء الضفة الشديدة الانحدار ، فى حين كان الصبى الذى لايرتدى سترة ،

يحمل الطفل الذى يرتديها . وقادها الرجل الى حظيرة صغيرة مغطاة بأغصان شجر ذات أرضية مطروقة .

« انتظرى هنا . سوف يأتى شخص ما الى هنا فورا . لاتتحركى . سوف يجدونك . »

قالت : « شكرا . أود لو عرفت اسمك حتى أستطيع أن أتذكرك على الوجه الصحيح . »

قال : « الاسم ستامب . ستامب بيد، انتبهى الى ذلك الطفل ، هل تسمعين ؟ »

قالت : « أسمع . أسمع . » لكنها لم تسمع . وبعد ساعات انتصبت أمامها فجأة امرأة قبل أن تسمع شيئا . ألقت عليها التحية امرأة قصيرة ، شابة ، تحمل جوالا لجمع السمك .

قالت : « رأيت إشارة منذ برهة . لكننى لم أستطع المجىء أسرع من هذا . »

سألتها سيث : « أية إشارة ؟ »

« ان ستامب يترك الحظيرة مفتوحة عندما يكون هناك عبور . ويعقد خرقة بيضاء على السارى اذا كان هناك طفل أيضا . »

ركعت وأفرغت الجوال . قالت : « اسمى ايللا ، » وهى تتناول بطانية صوفية ، وقماشا قطنيا ، وحبتين بطاطا وزوج أحذية « رجالى » من الجوال . « زوجى ، جون ، فى الخارج هناك دائما . إلى أين تتجهين ؟ »

أخبرتها سيث عن بيبى سجز حيث كانت قد أرسلت أطفالها الثلاثة .

لفت ايللا شريطا من القماش حول سرة الطفل وهى تصغى الى الثقوب ـ الأشياء التى لم يكن الهاربون يقولونها ؛ الأسئلة التى لم يكونوا يطرحونها . أصغت أيضا الى الناس الذين لايحملون أسماء ، ولايرد لهم ذكر ، الذين تركوا وراء . هزت الحصى من الحذاء الرجالى وحاولت أن تدفع قدمى سيث فيه . لم يدخل . وبأسى شقاه من عند الكعب ، وهما آسفتان حقا على اتلاف هذا الشىء الثمين . ارتدت سيث سترة الصبى ، وهى لاتجرؤ على سؤال ماإذا كان هناك خبر عن الأطفال .

قالت ايللا : « لقد أفلحوا . فقد ساعد ستامب بعض تلك الجماعة على العبور . تركهم فى بلوستون . إنها ليست بعيدة . »

لم تستطع سيث أن تفكر فى أى شىء تفعله ، كانت ممتنة للغاية ، ولهذا قشرت حبة بطاطا ، أكلتها ، ولفظتها ، وأكلت المزيد فى احتفال هادىء .

قالت ايللا : « سوف يسعدون برؤياك . متى ولد هذا الطفل ؟ »

قالت سيث : « بالأمس ، » وهى تمسح العرق من تحت ذقنها . « أرجو أن تفلح » .

نظرت ايللا الى الوجه الدقيق القذر الذى يبرز من البطانية الصوفية وهزت رأسها وقالت : « يصعب القول . لو سألنى أحد لقلت « لاتحبى شيئا » ثم ، كما لو كانت تلثم حدة رأيها ، ابتسمت لسيث . « هل ولدت تلك الطفلة وحدك ؟ »

« لا . ساعدتنى فتاة بيضاء . »

« إذن يستحسن أن نسرع بالرحيل . »

قبلت بيبى سجز شفتيها ورفضت أن تدعها ترى الأطفال . قالت إنهم كانوا نائمين وأن سيث كانت تبدو أقبح من أن توقظهم فى الليل . تناولت الوليدة وناولتها لامرأة شابة ترتدى قلنسوة ، وهى تخبرها ألا تنظف عينيها حتى تحصل على بول الأم .

سألتها بيبى : « هل بكت بعد ؟ »

« قليلا . »

« لايزال أمامنا وقت . فلنساعد الأم على استعادة صحتها . »

قادت سيث إلى الغرفة الاحتياطية . وعلى ضوء مصباح كحولى غسلتها قطاعا قطاعا ، بادئة بوجهها . ثم جلست تخيط قماشا قطنيا رماديا ، وهى تنتظر قدرا آخر من المياه الساخنة . أخذت سيث سنة من النوم واستيقظت على غسل يديها وذراعيها . وبعد كل اغتسال ، كانت بيبى تغطيها بلحاف وتضع قدرا آخر على النار فى المطبخ : راحت تشرف على المرأة ذات القلنسوة التى كانت تعنى بالطفلة وتسيل دموعها فى الطبيخ ، وهى تمزق ملاءات وتخيط القماش القطنى الرمادى . وعندما انتهت من ساقى سيث ، نظرت بيبى الى قدميها ومسحتها بخفة . نظفت مابين ساقى سيث بقدرين منفصلين من الماء الساخن ثم ربطت بطنها ومهبلها

بملاءات . وأخيرا شرعت تعمل على القدمين اللتين كان يصعب التعرف عليهما .

« هل تشعرين بهذا ؟ »

سألتها سيث : « أشعر بماذا ؟ »

« لاشيء . قومى . » ساعدت سيث على الوصول الى مقعد هزاز ودلت قدميها فى دلو من الماء المالح والعرعر. وقضت سيث بقية الليل منقوعة فى الماء . ألانت بيبى القشرة من على حلمتيها بدهن الخنزير ثم غسلتهما . وعند الفجر استيقظت الطفلة الصامتة وتناولت لبن أمها .

قالت بيبى : « أرجو من الله ألا يكون قد فسد . وعندما تنتهين ، نادينى . » وبينما كانت تستدير لتذهب ، لمحت بيبى سجز شيئا داكنا على ملاءة السرير . قطبت جبينها ونظرت الى زوجة ابنها وهى تميل على الطفلة . كانت ورود من دم تزدهر على البطانية التى تغطى كتفى سيث . أخفت بيبى سجز فمها بيدها . عندما انتهت الرضاعة ونامت الطفلة الوليدة ـ عيناها نصف مفتوحتان وفمها يرضع فى الحلم ـ دهنت المرأة الأكبر سنا الظهر المزهر بالشحم دون كلمة وثبتت بطانة من القماش داخل الثوب الذى خاطته حديثا .

لم يكن الأمر حقيقيا بعد . ولكن عندما أُحضر الصبيان النعسانان والطفلة التى كانت تحبو سلفا ، لم يعد يهم ما إذا كان حقيقيا أم لا . رقدت سيث فى السرير تحتهم جميعا ، حولهم ، فوقهم ، بينهم ولكن على الأخص معهم . سال بصاق الطفلة

الصغيرة الصافى على وجهها ، وكانت ضحكة سيث المبتهجة عالية إلى درجة جعلت الطفلة التى كانت تحبو سلفا تطرف بعينيها . عبث بجلر وهوارد بقدميها القبيحتين ، بعد أن تحدى كل منهما الآخر أن يكون أول من يلمسهما . ظلت تقبلهما . قبلت مؤخرة عنقيهما ، قمتى رأسيهما ومنتصف راحات أيديهما ، وكان الصبيان هما من قررا أن هذا يكفى حين رفعت قميصيهما لتقبل بطنيهما المشدودين المستديرين. توقفت عندما وبسبب أنهما قالا : « هل جاء أبى ؟ »

لم تبك . قالت : « قريبا » وابتسمت حتى يظنا أن لمعان عينيها كان حبا فقط. ومضى بعض الوقت قبل أن تدع بيبى سجز تطردهم حتى تستطيع سيث أن ترتدى الرداء القطنى الرمادى الذى كانت حماتها قد شرعت تخيطه معا فى الليلة السالفة . وأخيرا رقدت ثانية وراحت تهدهد الطفلة التى كانت تحبوا سلفا بين ذراعيها . أحاطت حلمة ثديها اليسرى باصبعين من يديها اليمنى ، وفتحت الطفلة فمها . والتقيا معا .

دخلت بيبى سجز وضحكت منهما ، وهى تخبرها كم كانت الفتاة الصغيرة قوية ، وذكية ، وتحبو بالفعل . ثم انحنت لتجمع كومة الخرق التى كانت ثياب سيث .

قالت : « لاشىء يستحق أستنفاذه هنا » .

رفعت سيث عينيها . نادت عليها : « انتظرى . فتشى وانظرى إذا كان هناك شىء ملفوف فى القميص الداخلى . »

دفعت بيبى سجز القماش التالف خلال أصابعها وصادفت

ماكان له ملمس الحصى . لوحت به باتجاه سيث : « هدية رحيل ؟ »

« هدية زفاف . »

« يكونان جميلين إذا كان هناك معهما عريس يلائمهما . » حدقت في يدها . «ما الذي تظنين أنه حدث له ؟ »

قالت سيث : « لا أعرف . لم يكن حيث طلب مني أن ألقاه . وكان عليّ أن أهرب . كنت مضطرة . » راحت سيث تراقب عيني الطفلة الرضيعة الناعستين للحظة ثم نظرت الى وجه بيبي سجز. « سوف يفلح . إذا كنت قد أفلحت ، فمن المؤكد أن هال يستطيع . »

« حسنا ، ارتدي هذين . ربما يضيئان طريقه . » ناولت القرطين لسيث ، وهي مقتنعة أن ابنها مات .

« احتاج الى ثقوب في أذني . »

قالت بيبي سجز : «سوف أفعل هذا . حالما تكونين قادرة عليه . »

جلجلت سيث القرطين رغبة في إدخال السرور على ابنتها التي كانت تحبو سلفا ، والتي مدت يدها إليهما مرارا وتكرارا .

في الساحة الخالية من الأشجار ، وجدت سيث صخرة بيبي القديمة التي كانت تعظ من عليها وتذكرت رائحة أوراق الأشجار وهي تغلي برفق في الشمس ، والأقدام الراعدة والصرخات التي

كانت تمزق البراعم من على أطراف أشجار الكستناء . كان الناس ينطلقون ، وقلب بيبى سجز يرعاهم .

كانت سيث قد قضت ثمانية وعشرين يوما - رحلة قمر كامل - من حياة التحرر من العبودية . ثمانية وعشرين يوما على مجرى اللعاب الصافى الرائق الذى كانت الطفلة الصغيرة تسيله على وجهها إلى دمها الزيتى . أيام من الشفاء والراحة والحديث الحقيقى . أيام من الصحبة : وهى تتعرف على أسماء أربعين ، خمسين زنجيا آخرين ، آرائهم ، عاداتهم ؛ أين كانوا ماذا فعلوا ؛ وهى تستشعر لهوهم وأساهم مع لهوها وأساها ، وهو ماخفف عنها . كان أحدهم يعلمها الأبجدية ، وأخرى الخياطة . علموها جميعا كيف كانوا يشعرون إذ يستيقظون عند الفجر **ويقررون** مايفعلون بالنهار . كانت تلك هى الطريقة التى تغلبت بها على انتظار هال . فى البيت رقم ١٢٤ وفى الساحة الخالية ، مع الآخرين ، كانت قد طالبت بحقها بالتدريج . ان تحرر نفسك هذا شىء ؛ أن تطالب بملكية تلك النفس المحررة شىء آخر .

الآن كانت تجلس فى مقعد بيبى سجز الهزاز ، ودنفر و« محبوبة » يراقبانها من بين الأشجار . قالت لنفسها ، لن يكون هناك أبدا يوم يطرق فيه هال الباب . دون أن تعلم أن ذلك كان قاسيا ؛ وهى تعلم أنه أشد قسوة .

مجرد الأصابع ، قالت لنفسها . مجرد أن تدعينى أشعر بأصابعك مرة أخرى على مؤخر عنقى وسوف أطرح الأمر ، أشق طريقى خارج هذا الطريق المسدود . أحنت سيث رأسها وبالتأكيد

تماما ـ كانت الأصابع هناك . أخف الآن ، ليست أكثر من تربيتات ريشة طائر ، لكنها أصابع تربت بشكل جلى . كان عليها أن تسترخى قليلا لتدعها تعمل عملها ، واللمسة خفيفة للغاية ، طفولية تقريبا ، عناق أصابع أكثر منها تدليكا . ورغم ذلك كانت ممتنة للجهد ؛ كان حب بيبى سجز البعيد المسافة متكافئا مع أى حب لصيق بالجلد عرفته . كانت الرغبة ، ناهيك عن الايماءة ، فى تلبية احتياجاتها كفيلة بأن ترفع معنوياتها الى حيث كانت تستطيع أن تأخذ الخطوة التالية : أن تطلب كلمة مفسرة ؛ نصيحة ماعن الطريقة التى تبقى عليها مع عقل نهم لأخبار لايمكن لمخلوق أن يعيش معها فى عالم يسعده أن يوفرها .

كانت تعرف أن بول د . كان يضيف شيئا الى حياتها ـ شيئا كانت تريد أن تعتمد عليه ، ولكنها تخاف من الاعتماد عليه . كان قد أضاف المزيد الآن ، صورا جديدة وذكريات قديمة حطمت قلبها . فى الفراغ الخالى من عدم معرفتها أخبار هال ـ فراغ يلونه أحيانا استياء صالح مما كان يمكن أن يكون جبنه أو غباؤه أو سوء حظه ـ ذلك المكان الخالى من أية أخبار محددة امتلأ الآن بأسى جديد ومن ذا الذى يمكنه أن يعرف كم من مزيد كان فى الطريق . منذ سنوات مضت ـ عندما كان البيت رقم ١٢٤ حيا ـ كان لها صديقات وأصدقاء من كل ناحية تشاطرهم الحزن . ثم لم يكن هناك أحد ، لأنهم ماكانوا ليزورونها بينما الشبح الطفل يملأ البيت ، وبادلتهم رفضهم بالكبرياء القوى لمن يساء معاملتهم . لكن كان هناك الآن شخص يشاطرها إياه ، وقد طرد الروح فى نفس اليوم الذى دخل فيه بيتها ولم تعد هناك أية علامة عليه

منذ ذلك الوقت . وهو بركة . لكنه أتى مكانه بنوع آخر من تردد الشبح : وجه هال وقد لطخه الزبد واللبن المتخثر أيضا ؛ وفمه هو نفسه قد حشر فيه الحديد ، ويعلم الله أى شىء آخر كان بإمكانه أن يخبرها به لو أراد .

كانت الأصابع التى تلمس مؤخر عنقها أقوى الآن ـ التربيتات أكثر جرأة كما لو كانت بيبى سجز تستجمع قوتها ، وهى تضع إبهاميها فى مؤخر العنق بينما الأصابع تضغط الجانبين . تحركت الأصابع ببطء بصورة أشد وأشد حول الرقبة باتجاه مزمار رقبتها ، وهى تصنع دوائر فى طريقها ، كانت سيث فى الواقع أكثر دهشة منها خوفا إذ تجد نفسها تختنق . أوهكذا بدا الأمر . كانت أصابع بيبى سجز ، على أية حال،تقبض عليها بحيث لاتترك لها مجالا للتنفس . راحت تتشبث باليدين اللتين لم تكونا هناك ، وهى تقع الى الأمام من جلستها على الصخرة . وكانت قدماها ترفسان حين بلغتها دنفر ثم « محبوبة » .

صاحت دنفر : « أمى ! أمى ! مامى ! » وأدارت أمها على ظهرها . كفت الأصابع وكان على سيث أن تبتلع جرعات هائلة من الهواء قبل أن تتعرف عل وجه ابنتها قرب وجهها ووجه « محبوبة » يحوم فوقها .

« هل أنت بخير ؟ »

قالت سيث : «كان هناك من يخنقنى » .

« من ؟ »

دلكت سيث رقبتها وجاهدت أن تصل الى وضع الجلوس.
« جدتك بيبى ، فيما أظن . طلبت منها أن **تدلك** رقبتى ، كما اعتادت أن تفعل وكانت تقوم بهذا على خير وجه ثم أصابها الخبل ، فيما أظن » .

« ماكانت لتفعل بك ذلك ، ياأمى . جدتى بيبى ؟ أه أه . »

« ساعدينى على القيام . »

« انظرى . » كانت « محبوبة » تشير إلى رقبة سيث .

سألتها سيث : « ماذا هناك ؟ ماذا ترين ؟ »

قالت دنفر : « كدمات . »

« على رقبتى ؟ »

قالت « محبوبة » : « هنا . هنا وهنا أيضا.» مدت يدها ولمست البقع وهى تكتسب لونا أدكن من رقبة سيث السمراء ، وكانت أصابعها رطبة للغاية .

قالت دنفر : «ذلك لايفيد فى شىء. ولكن « محبوبة » كانت تميل عليها ، ويداها تدلكان الجلد الرطب الذى كان له ملمس الشامواه ويبدو فى لون التفتاه .

أنَّت سيث . كانت أصابع الفتاة رطبة للغاية تعرف ما تفعله . استجابت حياة سيث المعقدة ، السرية التى كانت تشبه المشى على الماء، ولانت، وبدا أن لمحة السعادة التى أبصرتها فى الظلال تؤرجح يديها على الطريق الى الكرنفال كانت أمرا محتملا ــ إن

استطاعت فقط ان تتدبر الأخبار التى أتى بها بول د . والأخبار التى احتفظ بها لنفسه. مجرد أن تتدبرها . ألا تنكسر ، أو تتهاوى أو تبكى فى كل مرة تندفع فيها أمام عينيها صورة كريهة . ألا تنمى فى نفسها خبلا دائما مثل صديقة بيبى سجز ، امرأة شابة ترتدى قلنسوة كان طعامها مليئا بالدموع . مثل العمة فيليس، التى كانت تنام وعيناها مفتوحتان على اتساعها . مثل جاكسون تيل الذى كان ينام تحت السرير . كل ماكانت تتمناه ان تستمر. كما فعلت.وحدها مع ابنتها فى بيت مسكون كانت تتدبر كل شىء. لماذا كانت تفقد رباطة جأشها الآن ، مع بول د. بدلا من الشبح ؟ هل كان الفزع يداخلها ؟ بحاجة الى بيبى ؟ لقد انقضى أسوأ مافى الأمر ، أليس كذلك ؟ كانت قد اجتازت المسألة، أليس كذلك ؟ كان بوسعها أن تحتمل ، تفعل ، تحل أى شىء مع الشبح فى البيت رقم ١٢٤. والآن فإن التلميح الى ماحدث لهال جعلها تتوقف مثل أرنبة تبحث عن أمها .

كانت أصابع « محبوبة » سماوية. تضاءل الألم تحت تأثيرها وهى تتنفس بانتظام الآن. تسلل الى نفسها السلام الذى ذهبت الى هناك تبحث عنه .

قالت لنفسها ، لابد أن منظرنا يبدو غريبا ، وأغمضت عينيها لتراه : النساء الثلاث فى وسط الساحة الخالية ، عند قاعدة صخرة كانت بيبى سجز التقية تحبها . واحدة منهن جالسة قد سلمت حنجرتها الى اليدين الحنونتين لواحدة من الاثنتين الراكعتين أمامها .

راحت دنفر تراقب وجهى المرأتين الأخريين. وراحت « محبوبة » تراقب العمل الذى كانت إبهاماها يقومان به ولابد أنها أحبت مارأته لأنها مالت الى الأمام وقبلت الحنان تحت ذقن سيث .

ظللن على هذه الحال فترة لأن دنفر وسيث لم تعرفا لم لاتفعلان ذلك: كيف يتوقفان ولا يحبان النظرة أو يشعران بالشفتين اللتين راحتا تقبلان . ثم انفصلت سيث ، وهى تقبض على شعر « محبوبة » وتطرف بعينيها بسرعة . وفيما بعد اعتقدت أن السبب كان ان تنفس الفتاة كان مثل اللبن الجديد تماما حتى أنها قالت لها وهى متجهمة ومقطبة الجبين : « أنت أكبر عمرا من أن تفعلى ذلك .»

نظرت إلى دنفر ، وعندما رأت أن الفزع كان يتحول الى شىء أكبر ، نهضت بسرعة ، محطمة اللوحة الى أجزاء .

« هيا انهضا! انهضا.» لوحت سيث لـ لنتاتين أن تقفا على قدميهما . وعندما تركن الساحة الخالية كـ ، يبدين على الصورة التى كن عليها عندما جئن : سيث فى المقدمة ، والفتاتان خلفها بمسافة . كلهن صامتات كما سبق ، ولكن مع فارق . كانت سيث منزعجة ، لا بسبب القبلة ، ولكن لأن الأصابع التى كانت تحبها قبلها مباشرة عندما كانت تشعر بصفاء وهى تدع « محبوبة » تدلك الألم ، والأصابع التى كانت تهدئها قبل أن تخنقها ذكرتها بشىء غاب عن ذهنها . لكن شيئا واحدا كان مؤكدا ، أن بيبى سجز لم تخنقها كما ظنت فى أول الأمر . كانت دنفر على حق ، فقد تذكرت سيث لمسة تلك الأصابع التى كانت تعرفها أكثر من

أصابعها ذاتها ، وهى تسير فى ضوء الشجر الأرقش ، وقد صفا ذهنها الآن ـ بعيداً عن سحر الساحة الخالية. فقد غسلتها قطاعا قطاعا ، ولفت رحمها ، ومشطت شعرها ، ودهنت بالزيت حلمتيها ، وخاطت ثيابها ، ونظفت قدميها ، ودهنت بالشحم ظهرها وتركت تقريبا كل شيء كانت تفعله لتدلك مؤخر عنق سيث ، خاصة فى الأيام الأولى عندما هبطت معنوياتها تحت وطأة الأشياء التى تذكرتها والتى تتذكرها : المدرس يكتب بحبر صنعته هى نفسها بينما كان ابنا أخيه يعبثان بها ؛ وجه المرأة التى ترتدى قبعة من الجوخ وهى تنهض لتتمدد فى الحقل . لو أنها رقدت بين كل أيادى العالم ، لعرفت يدى بيبى سجز مثلما كانت تعرف يدى الفتاة البيضاء التى كانت تبحث عن القطيفة . ولكنها لمدة ثمانيةعشر عاما عاشت فى بيت مليء بلمسات من العالم الآخر . وكان الإبهامان اللذان يضغطان مؤخر عنقها نفس الإبهامين . ربما كان ذلك هو المكان الذى ذهب إليه . بعد أن طرده بول د. من البيت رقم ١٢٤ ، ربما استجمع نفسه فى الساحة الخالية . **قالت لنفسها** ، معقول .

لم يحيرها الآن سبب اصطحابها لدنفر و« محبوبة » معها ـ فقد بدا الأمر عندئذ نزوة ، مع رغبة غامضة فى الحماية. وقد انقذتها الفتاتان ، وتصرفت « محبوبة » وهى قلقة للغاية مثل طفلة عمرها سنتان .

ومثل رائحة احتراق واهنة تختفى حين تطفأ النار أو حين تفتح النافذة طلبا لنسمة ، تبدد الشك فى أن لمسة الفتاة كانت مثل لمسة الشبح الطفل تماما. كان إقلاقا ضئيلا فقط ـ ليس قويا بما

يكفى لأن يلهيها عن الطموح الذى كان يتفجر فيها الآن : كانت تريد بول د . مهما كان مايقوله ويعرفه . كانت تريده فى حياتها . أكثر من الاحتفال بذكرى هال، هذا ماجاءت الى الساحة الخالية لتحسبه ، وكان الآن محسوبا. الثقة والذكرى ، نعم ، بالطريقة التى كانت تعتقد أنها ممكنة عندما هدهدها أمام موقد الطبخ . وزنه وزاويته؛ شعره لحيته الناطقة بالحياة؛ ظهره المقوس ، يداه المتمرستان. عيناه المترقبتان ، وسطوته الانسانية الهائلة . عقله الذى كان يعرف عقلها. كانت قصتها محتملة لأنها كانت قصته أيضا ـ لتسرد وتصقل وتسرد مرة ثانية . الأشياء التى لم يكن أيهما يعرفها عن الآخر ـ الأشياء التى لم يكن لدى أيهما صياغات لفظية لها ـ حسنا ، سوف تأتى مع الوقت : حيث ساقوه ليرضع الحديد ؛ الموت الكامل لطفلتها التى كانت تحبو سلفا .

كانت تريد أن ترجع ـ بسرعة . أن تكلف هاتين الفتاتين العاطلتين ببعض العمل الذى يملأ رأسيهما الهائمتين . خطر لها ، وهى تندفع خلال الممر الأخضر الذى كان الآن أرطب لأن الشمس قد تحركت ، أن الاثنتين كانتا متشابهتين كأختين. تكشف لها طاعتهما وامكانية الاعتماد المطلق عليهما وقد أصابتها الدهشة لذلك. كانت سيث تفهم دنفر . كانت الوحدة قد جعلتها كتومة ـ تعمل بوحى من نفسها . كانت سنين المطاردة الشبحية قد أكسبتها بلادة بأشكال لاتصدق وشحذتها بأشكال لاتصدق أيضا . وكانت النتيجة ابنة وجلة لكنها عنيدة كانت سيث على استعداد أن تموت لتحميها . كانت تعرف أقل ، لاشىء، عن الأخرى، « محبوبة »-فيماعدا أنها كانت لتفعل أى شىء فى سبيل سيث

وأنها هى ودنفر كانتا تحبان صحبة إحداهما الأخرى . ظنت الآن أنها تعرف السبب . كانتا تبذلان مشاعرهما أو تتشبثان بهما بطرق متناغمة. ماكان لدى الواحدة لتعطيه كانت الأخرى مسرورة بتقبله . فقد تخلفتا بين الأشجار التى كانت تطوق الساحة الخالية ، ثم اندفعتا فيها بصرخات وقبلات عندما اختنقت سيث ـ على أية حال هكذا فسرت الأمر لنفسها لأنها لم تلاحظ المنافسة بين الاثنتين أو تسلط واحدة منهما . كانت مشغولة البال بالعشاء الذى تريد إعداده لبول د ـ شيئا صعب الإعداد ، شيئا تفعله حتى ـ حتى تدشن حياة لها أكثر جدة وقوة مع رجل رقيق . تلك البطاطس الرقيقة المحمرة من كل جوانبها ، وهى تثقل الفلفل الأخضر ، فاصوليا خضراء متبلة بقشر البرتقال ؛ قرع أصفر نثر عليه الخل والسكر . ربما ذرة منزوعة من على القولحة ومقلية مع البصل الأخضر والزبد. بل حتى . خبز متخمر .

كان عقلها ، وهو يفتش المطبخ قبل أن تبلغه ، متخما بقربانها حتى أنها لم تر فى الحال ، فى المساحة التى تقع تحت الدرجات البيضاء ، حوض الاغتسال الخشبى وبول د. جالس فيه . ابتسمت له وبادلها الابتسام .

قالت : «لابد أن الصيف قد انقضى» .

«تعالى هنا .»

«أه أه . اتبعانى يابنات .»

«أنا لاأسمع أحدا .»

«على أن أطبخ يابول د».

«وأنا أيضا» نهض وجعلها تبقى هناك فى حين ضمها بين ذراعيه . امتص ثوبها العرق من على جسده . كان فكه قرب اذنها . وكانت ذقنها تلمس كتفه .

«ماذا ستطبخين ؟ »

«كنت أفكر فى بعض الفاصوليا الخضراء ».

« أوه ، أجل . »

« أن أقلى بعض الذرة » .

« أجل » .

لم يكن هناك شك فى أنها قادرة على أن تفعل هذا . تماما مثل اليوم الذى وصلت فيه الى البيت رقم ١٢٤ - بكل تأكيد كان لديها من الحليب ما يكفى الجميع .

دخلت « محبوبة » من الباب وكان ينبغى أن يسمعا خطوتها . لكنهما لم يفعلا . كانا يتنفسان ويهمهمان، يتنفسان ويهمهمان . سمعتهما « محبوبة » بمجرد أن انصفق الباب خلفها. قفزت لدى سماع انصفاقه وأدارت رأسها تجاه الهمسات التى كانت تأتى من خلف الدرجات البيضاء . أخذت خطوة وشعرت بميل للبكاء . كانت قريبة للغاية ، ثم أقرب . وكان الاتصال بينهما أفضل بكثير من الغضب الذى كان يسيطر عليها حين كانت سيث تعمل أو تفكر فى أى شيء يستبعدها هى نفسها. كانت تستطيع أن تحتمل

الساعات ـ تسعا أو عشرا منها فى اليوم فيما عدا ساعة ـ حين كانت سيث ترحل . أن تحتمل حتى الليالى التى كانت فيها قريبة لكنها بمنأى عن الأنظار ، خلف الجدران والأبواب راقدة الى جواره . لكن الآن ـ حتى فى وقت ضوء النهار الذى كانت « محبوبة » تعتمد عليه ، ووطنت نفسها على الرضا به ، كان يتضاءل ، موزعا من خلال رغبة سيث أن تولى اهتمامها لأشياء أخرى . هو فى المقام الأول . هو الذى قال لها شيئا جعلها تهرع الى الغابة وتكلم نفسها على صخرة . هو الذى كان يخفيها بالليل وراء الأبواب . وهو الذى كان يعانقها الآن وهو يهمس خلف درجات السلم بعد أن أنقذت « محبوبة »ـ رقبتها وكانت على استعداد الآن لأن تضع يدها فى يد تلك المرأة .

استدارت « محبوبة » وخرجت . لم تكن دنفر قد وصلت ، إلا إذا كانت تنتظر فى مكان ما بالخارج . مضت « محبوبة » لتلقى نظرة ، وتوقفت لتلاحظ طائر الكردينال وهو يتواثب من غصن كبير الى غصن صغير . تبعت البقعة الحمراء وهى تنتقل بين أوراق الشجرة حتى تاه عن بصرها وحتى عندئذ راحت تتراجع الى الوراء وهى لاتزال تتوق الى نظرة خاطفة أخرى .

استدارت أخيرا وراحت تعدو خلال الغابة الى الجدول . راحت تراقب انعكاس صورتها هناك وهى تقف قريبة من حافته . وعندما انضم وجه دنفر الى وجهها ، حدقتا إحداهما فى الأخرى فى الماء .

قالت دنفر : « لقد فعلتيها ، رأيتك » .

« ماذا ؟ »

«رأيت وجهك . جعلتيها تختنق» .

«لم أفعل هذا . »

«قلت لى إنك تحبينها . »

«لقد أصلحتها ، ألم أفعل ذلك ؟ ألم أصلح رقبتها ؟ »

«فيما بعد . بعد أن خنقت رقبتها . »

«لقد قبلت رقبتها . لم أخنقها . كانت دائرة الحديد تخنقها . »

«لقد رأيتك» قبضت دنفر على ذراع «محبوبة» .

قالت «محبوبة» : «حذار ، يافتاة» ، وهى تنتزع ذراعها ، وانطلقت تجرى الى الأمام بأسرع ماتستطيع على طول الجدول الذى كان يغنى فى الجانب الآخر من الغابة .

تساءلت دنفر ، وقد تركت وحدها ، ماإذا كانت ، فى الحقيقة ، مخطئة . كانت هى و«محبوبة» تقفان بين الأشجار تتهامسان ، بينما سيث تجلس على الصخرة ؛ كانت دنفر تعلم أن الساحة الخالية كانت المكان الذى تعظ فيه بيبى سجز ، لكن ذلك حدث وهى صغيرة . لم تكن قد ذهبت أبدا حتى تتذكر هذا . كان البيت رقم ١٢٤ والحقل الذى يقع خلفه هما كل العالم الذى عرفته أو أرادته .

حدث ذات يوم أن عرفت المزيد وأرادت أن تعرف. فقد مشت فى الممر المؤدى الى بيت آخر حقيقى . وقد وقفت خارج النافذة تصغى . فعلت هذا أربع مرات وحدها ـ تسللت من البيت رقم ١٢٤

فى وقت مبكر من العصر عندما كانت أمها وجدتها تخففان مراقبتها ، قبل العشاء مباشرة ، بعد أداء أعمالهما ، الساعة الخالية قبل أن تتغير تعشيقة التروس الى أعمال مسائية. مضت دنفر تبحث عن البيت الذى كان الأطفال الآخرون يزورونه ولكنهم لايزورونها . وعندما وجدته كانت أجبن من أن تذهب الى الباب الأمامى ولذا استرقت النظر من النافذة . كانت ليدى جونز تجلس فى مقعد له ظهر معتدل ؛ بينما جلس عدة أطفال متربعين على الأرض أمامها . كانت ليدى جونز تمسك كتابا . وكان الأطفال يمسكون بلوح اردواز. كانت ليدى جونز تقول أشياء بصوت خافت لاتسمعه دنفر. وكان الأطفال يرددونه وراءها . ذهبت دنفر أربع مرات لتلقى نظرة . وفى المرة الخامسة أمسكت بها ليدى جونز وقالت : «تعالى الى الباب الأمامى،ياآنسة دنفر. ليس هذا عرضا جانبيا .»

وهكذا قضت عاما كاملا تقريبا فى صحبة أقرانها ومعهم تعلمت القراءة والحساب. كانت فى السابعة من عمرها ، وكانت الساعتان وقت العصر ثمينتين بالنسبة لها . على الأخص لأنها فعلت هذا وحدها وكانت مسرورة ومندهشة بالسرور والدهشة اللتين أثارهما هذا فى أمها وأخويها . ولقاء خمسة سمنات فى الشهر كانت ليدى جونز تفعل ماكان البيض يظنونه غير ضرورى أو غير قانونى : فقد زحمت ردهة بيتها بأطفال ملونين لديهم الوقت للتعلم والاهتمام به . كانت السنتات الخمسة التى صرتها فى عقدة منديلها ، وربطتها الى حزامها ، وحملتها الى ليدى جونز تستثيرها. جهد التعامل مع الطباشير بخبرة وتجنب

الصرير الذى يحدثه ؛ الحروف الكبيرة والحروف الصغيرة ، جمال الحروف فى اسمها ، الجمل العميقة الحزن من الكتاب المقدس الذى كانت ليدى جونز تستخدمه ككتاب مدرسى. تدربت دنفر كل صباح ، وكل عصر تزينه النجوم . كانت سعيدة الى حد أنها لم تكن حتى تعرف أن رفيقاتها فى المدرسة كن يتجنبنها . أنهن كن يختلقن الأعذار ويغيرن خطاهن حتى لايسرن معها . كان نيلسون لورد - صبى ذكى مثلها - هو من وضع حدا لهذا ؛ هو من سألها عن أمها التى كانت تضع الطباشير ، والحروف الصغيرة وكل ماكان العصر يضمه ، بعيدا عن متناولها إلى الأبد ، كانت لتضحك حين قال هذا ، أو تدفعه ليقع ، لكن لم تكن هناك خسة فى وجهه أو صوته مجرد حب الاستطلاع . لكن الشىء الذى ثار فى نفسها عندما سأل هذا السؤال كان شيئا كامنا هناك طوال الوقت .

لم تعد أبدا . لم تذهب فى اليوم التالى، وسألتها سيث لم لا. لم تجب دنفر . كانت خائفة الى درجة ألا تسأل أخويها أو أى واحد آخر سؤال نلسون لورد لأن مشاعر غريبة ومخيفة كانت تتجمع عن أمها حول الشىء الذى تواثب بداخلها . وفيما بعد ، بعد موت بيبى سجز ، لم تتساءل لماذا هرب بجلر وهوارد . لم تتفق مع رأى سيث أنهم هربا بسبب الشبح . فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا استغرقا كل هذا الوقت ؟ لقد تعايشا معه نفس الفترة التى تعايشت هى معه . ولكن إذا كان نلسون لورد على حق - فلا غرابة أنهما كانا متجهمين ، يقضيان أطول وقت بإمكانهما بعيدا عن البيت .

وفى تلك الأثناء كانت الأحلام الرهيبة التى لايمكن التحكم فيها بخصوص سيث تجد متنفسا لها فى التركيز الذى بدأت دنفر تصبه على الطفل الشبح . فقبل نلسون لورد كانت مهتمة بالكاد بألاعيبه . جعلها صبر أمها وجدتها فى حضوره لاتبالى به . ثم بدأ يثير أعصابها ، وينهكها بأذاه. كان ذلك حين مشت لتتبع الأطفال الى مدرسة ليدى جونز . والآن أصبحت تكن لها كل الغضب والحب والخوف التى لم تكن تعرف ماذا تفعل بها . حتى حينما استجمعت شجاعتها لتسأل سؤال نلسون لورد، لم يكن باستطاعتها أن تسمع إجابة سيث ، ولا كلمات بيبى سجز ، ولاأى شىء آخر على الإطلاق فيما بعد . ولمدة سنتين ظلت تسير فى صمت أمتن من أن يخترق وإن اعطى عينيها قوة كان من الصعب عليهاهى نفسها أن تصدقها . على سبيل المثال، فتحتى أنف عصفور سوداوين يجلس على غصن فوق رأسها على ارتفاع ستين قدما . ولمدة سنتين لم تسمع شيئا على الاطلاق ثم سمعت رعداً قريبا يزحف الى أعلى درجات السلم. وظنت سيث أنه صوت ارتداد الكرة المطاطية التى كان الصبيان يلعبان بها على السلم ، وظنت بيبى سجز أنه هيربوى يدخل فى أماكن لم يدخلها أبدا.

صاحت بيبى سجز « هل فقد ذلك الكلب عقله؟ »

قالت سيث : « إنه فى الشرفة . انظرى بنفسك . »

« حسنا ، ماذلك الذى أسمعه إذن؟ »

صفقت سيث غطاء الموقد.« بجلر ! بجلر! قلت لكم جميعا ألا تستخدموا تلك الكرة هنا .» نظرت الى درجات السلم البيضاء ورأت دنفر عند قمتها .

«كانت تحاول الوصول الى الطابق العلوى . »

« ماذا ؟ » كانت قطعة القماش التى تعالج بها الموقد مكورة فى يد سيث .

قالت دنفر : « الطفلة. ألم تسمعها تحبو ؟ »

كانت المشكلة هى ماالذى يمكن الاتفاق عليه أولا : أن دنفر سمعت أى شىء على الإطلاق أو أن الطفلة التى كانت تحبو سلفا كانت تمارس نشاطها ولكن بشكل أكبر .

كانت عودة السمع لدنفر الذى عطلته إجابة لم تكن تحتمل أن تسمعها ، وأعادة صوت أختها المتوفاة تحاول صعود السلم ، إشارة أخرى الى تحول فى قدر ساكنى البيت رقم ١٢٤ . ومنذ ذلك الحين فصاعدا كان الشبح مليئا بالحقد . فبدلا من التنهدات والحوادث كانت هناك إساءة معاملة متعمدة صريحة . استشاط هوارد بجلر غضبا من صحبة النساء فى البيت وراحا يقضيان بتأنيب مكفهر الوجه أى وقت لديهما بعيداً عن عملهما الغريب فى البلدة وهما يحملان الماء والعلف فى الاسطبلات. حتى أصبح الحقد شخصيا فدفع كلا منهما الى الهرب . أصاب بيبى سجز التعب ، فكانت تذهب الى السرير وتبقى هناك حتى فارقها قلبها الكبير العجوز . لم تكن تقول أى شىء تقريبا فيما عدا طلبها من آن لآخر للون. حتى عصر اليوم الأخير فى حياتها حين غادرت السرير ، وتواثبت ببطء الى باب الغرفة الاحتياطية وأعلنت لدنفر وسيث الدرس الذى تعلمته من ستين سنة قضتها عبدة وعشر سنين طليقة: ليس فى الدنيا حظ سىء غير البيض. قالت : «إنهم

لايعرفون متى يتوقفون ،» وعادت إلى سريرها ، جذبت اللحاف ، وتركتهما يحتفظان بتلك الفكرة إلى الأبد .

بعد ذلك بفترة قصيرة قررت سيث ودنفر أن تستدعيا الشبح الطفل ، وأن يجادلاه بالحجة ، لكنهما لم يتوصلا الى شيء . استلزم الأمر رجلا ، بول د . أن يصرخ فيه ليبعده ، أن يطرده ويحتل مكانه لنفسه. وكانت دنفر تفضل الطفل الحقود عليه فى أى يوم ، كرنفال أولا كرنفال . وخلال الأيام الأولى بعد أن انتقل بول د . مكثت دنفر فى غرفتها الزمردية أطول وقت ممكن ، وحيدة مثل جبل وضخمة مثله تقريبا ، وهى تظن أن كل واحد كان له شخص ماإلا هى ؛ بل تظن أنها قد حرمت من صحبة الشبح . ولهذا فإنها حين رأت الرداء الأسود وتحته حذاء مفكوك الرباط فإنها ارتجفت بشكل خفى . فمهما كانت قوتها ومهما كان استخدامها لها ، فقد كانت « محبوبة » ملكها . انزعجت دنفر للأذى الذى ظنت أن « محبوبة » قد خططته لسيث ، لكنها شعرت بالعجز عن إحباطه ، فقد كانت حاجتها الى أن تحب أحدا بلا حدود . كان العرض الذى شاهدته فى الساحة الخالية يخزيها لأن الاختيارين سيث و« محبوبة » كان بلا صراع .

تركت نفسها تتساءل ماذا لو أن « محبوبة » قررت حقا أن تخنق أمها ، وهى تسير باتجاه الجدول ، فيما وراء بيتها من الأشجار الخضراء . هل كانت لتسمح بحدوثه ؟ كان نلسون لورد قد قال ، جريمة قتل . « ألم تحبس أمك بسبب جريمة قتل ؟ ألم تكونى معها هناك حين ذهبت ؟ »

كان السؤال الثانى هو ماجعل من المستحيل عليها أن تسأل

سيث عن السؤال الأول لمدة طويلة. كان الشيء الذى ثار ملفوفا فى مثل ذلك المكان تماما: ظلمة، حجر، وشيء آخر كان يتحرك من تلقاء نفسه. أصابها الصمم بدلا من أن تسمع الاجابة، ومثل زهور عباد الشمس التى تلتمس صراحة ضوء الشمس، ثم تغلق نفسها بإحكام حين تمضى، ظلت دنفر تحرس الطفل وتنسحب من أى شيء آخر. حتى جاء بول د. لكن الضرر الذى تسبب فيه بطل مفعوله ببعث «محبوبة» الخارق.

وأمامها مباشرة، على حافة الجدول، استطاعت دنفر ان ترى الصورة الظلية لها، وهى تقف فى الماء حافية، ترفع تنورتها السوداء فوق ربلتى ساقيها، والرأس الجميل مكفهر غارق فى التفكير.

اقتربت دنفر منها وهى تطرف بعينيها دموعا نضرة- تواقة الى كلمة، الى علامة غفران. خلعت دنفر حذاءها وخاضت فى الماء معها. استغرقتها لحظة حتى تنتزع عينيها عن مشهد رأس «محبوبة» لترى ماكانت تحدق فيه.

سبحت سلحفاة مائية ببطء على طول الحافة، واستدارت وتسلقت الشط الى الأرض الجافة. وغير بعيد خلفها كانت واحدة أخرى، تمضى فى نفس الاتجاه. أربع صفائح موضوعة تحت طاس تحوم بلا حركة. وخلفها على العشب كانت الأخرى تتحرك بسرعة، بسرعة لتعتليها. قوته المنيعة- وهو يحفر الأرض بقدميه قرب كتفيها. الرقبتان المتعانقتان- رقبتها ممتدة الى اعلى باتجاه رقبته المنحنية الى اسفل، ورأساهما المتلامسان

ينقران، ينقران نقراً خفيفا . لم يكن هناك أى ارتفاع لاتستطيع رقبتها التواقة أن تصل إليه، وهى ممدودة كأنها إصبع باتجاه رقبته، تغامر بكل شيء خارج الطاس لمجرد أن تلمس وجهه. كان ثقل ترسيهما وهما يصطدمان يتضاد مع الرأسين الطافيين المتلامسين ويسخر منهما.

أسقطت «محبوبة» طيات تنورتها. انتشرت حولها. وأظلمت حاشيتها فى الماء.

بعيدا عن أنظار مستر، بعيدا، والمجد لاسم الرب، عن رئيس الديكة المبتسم، بدأ بول د . يرتجف. لم يحدث ذلك فجاءة، ولابحيث يستطيع أحد أن يدركه. عندما أدار رأسه، ينشد نظرة أخيرة إلى «الأخ»، أدارة فى حدود ماسمح به الحبل الذى كان يصل رقبته بمحور عجلات عربة، وبعد ذلك، عندما ثبتوا الحديد حول كاحليه وشدوا الرسغين بإحكام أيضا، لم يكن يظهر للعيان دليل على الارتجاف مطلقا. ولابعد ذلك بثمانية عشر يوما عندما شاهد الخنادق، ألف قدم من التراب. خمس أقدام فى العمق، خمس أقدام فى العرض، ثبتت بداخلها صناديق خشبية. باب من القضبان تستطيع أن ترفعه على مفاصل مثلما يفتح قفص فى ثلاثة جدران وسقف من بقايا الخشب وتراب أحمر. قدمان منه فوق رأسه؛ ثلاثة أقدم من خندق مفتوح أمامه مع احتفائه بأى شىء يزحف أو يعدو ليشاركه ذلك القبر الذى يدعى مسكنا. وكان هناك خمسة وأربعون آخرون. أرسلوا به إلى هناك بعد أن حاول قتل براندیواین، الرجل الذى باعه المدرس له. كان براندیواین يقوده فى الأصفاد مع عشرة آخرين خلال كنتاكى الى فرجينا. لم يدر مالذى دفعه بالضبط الى المحاولة- غير هال سيكسو،بول أ . ، بول ف . ، ومستر . لكن الارتجاف تأكد ما أن عرف أنه هناك .

رغم ذلك لم يعرف أحد آخر؛ لأنه بدأ من الداخل. نوع من الارتعاش فى الصدر ثم فى لوحى الكتفين له إحساس التموج ـ

رقيقا في أول الأمر ثم حامي. كما لو كان الأمر أنهم كلما قادوه إلى مكان أبعد في الجنوب شرع دمه، المتجمد مثل بحيرة ثلجية عشرين عاما، يذوب أكثر، يتكسر قطعا ما أن تذوب حتى لايعود لها اختيار إلا أن تدور وتلف كالدوامة. أحيانا كان الدم في رجله. ثم يتحرك ثانية إلى قاعدة عموده الفقري. وماأن فكوه من العربة ولم ير شيئا سوى كلاب وكوخين في عالم من العشب البالغ الحرارة ، حتى كان الدم الغاضب يهزه إلى الأمام والى الخلف. لكن لم يكن بإمكان أحد أن يدرك. كان الرسغان اللذان مدهما للقيدين ذلك المساء ثابتين مثلما كانت الساقان اللتان كان يقف عليهما عندما ربطت السلاسل بقيود الرجلين الحديدية ولكن عندما دفعوه داخل الصندوق وأسقطوا باب القفص عليه، كفت يداه عن تلقى الأوامر. شرعتا تتأرجحان من تلقاء نفسيهما. لم يستطع شيء أن يوقفهما أو أن يجتذب إنتباههما،لم تكونا لتقبضا على ذكره حتى يتبول أو على ملعقة ليغرف كتلا من الفاصوليا يدخلها فمه . جاءت معجزة طاعتهما مع المطرقة في الفجر .

كان الستة والأربعون رجلا كلهم يستيقظون على رصاصة بندقية. الستة والأربعون جميعا. وكان ثلاثة رجال بيض يسيرون على طول الخندق يفتحون الأبواب واحدا واحدا. لم يكن أحد يدخل، وعندما كان آخر قفل يفتح، كان الثلاثة يعودون ويرفعون القضبان، واحدا واحدا. وكان الرجال السود يبرزون واحدا بعد الآخر - دون إبطاء ودون لكزة من مؤخر البندقية إذا كانوا هناك منذ أكثر من يوم؛ ودون إبطاء مع لكزة من مؤخر البندقية إذا كانوا، مثل بول د، قد وصلوا لتوهم : وعندما كان الستة

والأربعون كلهم يصطفون فى صف واحد فى الخندق، كانت رصاصة بندقية أخرى تعطهم الاشارة بالتسلق والخروج إلى الأرض أعلاهم، حيث يمتد ألف قدم من أفضل سلسلة طرقت باليد فى جورجيا. وكان كل رجل ينحنى وينتظر، يلتقط الرجل الأول الطرف ويمرره من الأنشوطه الموجودة على قيد رجله الحديدى. عندئذ يقف، ويحضر طرف السلسلة وهو يجرر قدمية قليلا إلى السجين التالى الذى يفعل نفس الشىء. وبينما كانت السلسلة تمر، وكل رجل يقف مكان الآخر ، يستدير صف الرجال، وهو يواجه الصناديق التى خرجوا منها. لم يكن أحد يتكلم مع الآخر . على الأقل بغير كلمات. كان على العيون أن تقول ماتريد أن تقوله: «ساعدنى هذا الصباح؛ إنه صباح سىء» ؛« سوف أفعل ذلك » ؛ « الرجل الجديد » ؛ « أثبت الآن أثبت . »

وبعد أن ينتهى رفع السلاسل،كانوا يركعون. كان الندى، فى أغلب الأحيان، يصبح شبورة عندئذ. شبورة ثقيلة فى بعض الأحيان. وإذا كانت الكلاب هادئة وتتنفس فقط كان بإمكانك أن تسمع اليمام. كانوا ينتظرون وسط الشبورة، وهم راكعون، نزوة أحد الحراس، أو حارسين أو ثلاثة. أو ربما حين يريدون جميعا يطلبون هذا من سجين معين أو لا أحد ـ أو الجميع .

« الافطار ؟ هل تريد إفطارا، أيها الزنجى».

« نعم ، ياسيدى .»

« جائع ، يازنجى ؟ »

« نعم ، ياسيدى »

« ها، أنتذا .»

ومن آن لآخر كان أحد الرجال الراكعين يختار رصاصة فى رأسه ثمنا ، ربما ، لأخذ قطعة صغيرة من جلدة الذكر التى تقطع فى الختان معه إلى المسيح . لم يكن بول د.يعلم ذلك عندئذ. كان ينظر إلى يديه المرتجفتين، يشم رائحة الحارس، يصغى إلى قَبعِه الناعم الذى يشبه قَبْعَ اليمام ، وهو يقف أمام الرجل الذى يركع وسط الشبورة إلى يمينه. ومقتنعا أن الدور كان عليه، كان بول د. يحاول التقيؤ - وهو لايتقيأ شيئا على الاطلاق. كسر أحد الحراس الملاحظين كتفه ببندقيته وقرر الحارس المشغول أن يتخطى الرجل الجديد مؤقتا حتى لايتسخ سرواله وحذاؤه بقيئه .

« هـا .. ى .. ى .. ى .. ى.»

كان ذلك هو الصوت الأول، غير « نعم ، يـاسيدى» الذى سمح لرجل أسود أن يقوله كل صباح ، وكانت سلسلة من يسير فى المقدمة تعطيه كل ماعنده . « هـا .. ى .. ى .. ى ..! » لم يتضح لبول د. أبدا كيف عرف حتى يصيح بتلك الكلمة الرحيمة. كانوا يسمونه رجل الـ « هـاى » وظن بول د. أول الأمر أن الحراس كانوا يخبرونه متى يعطى الاشارة التى تدع المساجين ينهضون من على ركبهم ويرقصون خطوتين على أنغام موسيقى الحديد المطروق يدويا. وفيما بعد شك فى هذا.وظل يعتقد حتى هذا اليوم أن الـ « هـا .. ى .. ى.. ى ! عند الفجر والـ « هو .. و .. و .. و!» عندما يأتى المساء كانتا المسؤولية التى يتولاها رجل الـ «هـاى» لأنه وحده كان يعرف ماكان كافيا، وماكان أزيد من اللازم، متى تنتهى الأشياء،ومتى يحين الوقت .

كانوا يرقصون بالسلاسل عبر الحقول،خلال الغابة حتى يصلوا

إلى مدق ينتهى بالجمال المدهش لسليكات الألومنيوم، وهناك كانتا يدا بول د. تخرجان عن طاعة التموج العنيف لدمه وتبديان اهتماما كان الرجال يشقون طريقهم تحت قيادة رجل الـ « هاى الذى يحمل مطرقة ثقيلة.» كانوا يصيحون بها ويوسعون الهواء ضربا ، وهم يحرّفون الكلمات حتى لا يفهمهم أحد ؛ يحتالون على الكلمات بحيث تخرج مقاطعها معان أخرى. كانوا يغنون عن النساء اللاتى عرفوهن؛ عن طفولتهم؛ عن الحيوانات التى روضوها أو رأوا الآخرين يروضونها. كانوا يغنون عن رؤسائهم وسادتهم وزوجاتهم ؛ عن البغال والكلاب ووقاحة الحياة. كانوا يغنون بحب عن الجبَّانات والأخوات اللاتى مضين من زمن بعيد. عن لحم الخنزير فى الغابة؛ الوجبة فى المقلاة، السمك فى الصنارة؛ قصب السكر والمطر والمقاعد الهزازة.

وكانوا يضربون: النساء لانهن عرفنهم ثم لم يعودوا يعرفنهم، ، الأطفال الذين كانوهم ولكنهم لن يكونوهم مرة ثانية أبدا. كانوا يقتلون رئيسا مرات كثيرة ونهائيا حتى أنهم كانوا يضطرون إلى إعادته إلى الحياة ثانية حتى يحولوه إلى عجينة ورقية مرة أخرى. كانوا يتذوقون كعكة الطحين الساخنة بين أشجار الضوء، ويضربونها حتى تختفى . يغنون أغنيات الحب للسيد الموت، ثم يحطمون رأسه. وكانوا يقتلون ، أكثر من الآخرين ، المرأة اللعوب التى كان الناس يسمونها الحياة لتشجيعها لهم . تجعلهم يظنون أن شروق الشمس فى اليوم التالى يستحق أن نحيا من أجله؛ أن خبطة أخرى من خبطات الزمن سوف تحقق الأمل فى النهاية. كانوا يشعرون أنهم آمنين فقط

عندما تموت. كان الناجحون منهم. أولئك الذين قضوا هناك مايكفى من السنين لأن يبتروها ، يشوهوها ، ربما حتى يدفنوها ـ يقومون على حراسة الآخرين الذين كانوا مايزالون فى عناقها اللعوب، يهتمون بها ويتطلعون إلى الأمام، ويتذكرون وينظرون إلى الخلف . كانوا أولئك الذين كانت عيونهم تقول : « ساعدنى إنه صباح سيىء » ' أو « انتبه » ، وهو يعنى **ربما كان هذا هو اليوم الذى أنبح منه أو أكل طعامى أو أهرب**، وكان هذا الاحتمال الأخير هو مايجب الحذر منه، فلو أن واحدا قذف الكرة وجرى ـ كان الكل، الستة والأربعون جميعا يجذبون من السلسلة التى كانت تربطهم ولايعلم أحد من كان ليقتل أو كم عدد القتلى منهم. كان الرجل يستطيع أن يغامر بحياته ، لكن لابحياة أخيه . ولذلك كانت العيون تقول : «أثبت الآن» و«تعلق بى» .

ستة وثمانون يوما وانتهى الأمر. ماتت الحياة . كان بول د .يضرب عجزها طوال اليوم وكل يوم حتى لم يعد بها صوت أنين. ستة وثمانون يوما ويداه ساكنتان، تنتظران فى هدوء كل ليلة تحدث فيها الفئران حفيفا فى انتظار «ها.. ى.. ى.. ى ! ». عند الفجر والقبضة الملهوفة على عمود المطرقة ـ تدحرجت الحياة وانقلبت على ظهرها ميتة. أو هكذا ظن .

أمطرت .

هبطت الثعابين من أشجار الصنوبر والشوكران القصيرة الأوراق .

أمطرت .

مالت أشجار السرو والحور الاصفر والدردار .والنخل القصير

تحت خمسة أيام من المطر بدون ريح . فى اليوم الثامن لم يكن اليمام فى مرمى البصر فى أى مكان، وفى التاسع أختفت حتى حيوانات السمندر. أرخت الكلاب آذانها وراحت تحدق من فوق مخالبها. لم يستطع الرجال أن يعملوا. كان رفع السلاسل بطيئا ، ثرك طعام الافطار ، وأصبحت رقصة الخطوتين جرا بطيئا فوق عشب حسائى القوام وأرض غير جديرة بالثقة .

تقرر أن يحبس الجميع تحت فى الصناديق حتى يتوقف المطر أو يخف حتى يستطيع الرجل الأبيض أن يسير، اللعنة، دون أن تغمر بندقيته بالماء وأن تتوقف الكلاب عن الارتجاف. وتطمث السلسلة خلال ست وأربعين أنشوطة من أفضل الحديد المطروق يدويا فى جورجيا .

أمطرت .

سمع الرجال فى الصناديق الماء يرتفع فى الخندق وأخذ الرجال حذرهم خوفا من الحية المعروفة باسم صل الماء. جلسوا القرفصاء فى ماء عكر ، ناموا فوقه ، تبولوا فيه ظن بول د. أنه يصرخ ؛ كان فمه مفتوحا وكان هناك ذلك الصوت العالى الذى يشق الحنجرة ـ لكن ربما كان شخص آخر. ثم ظن أنه يبكى. كان شىء مايسيل على وجهه . رفع يديه ليمسح الدموع ورأى طينا بنيا لزجا. ومن فوقه أنزلقت جداول من الطين خلال الواح السقف.قال لنفسه ، عندما ينزل سوف يسحقنى مثل قرادة. حدث هذا بسرعة حتى أنه لم يجد وقتا للتفكير . جذب شخص السلسلة ـ مرة ـ بقوة كافية لأن تعقد رجليه وتلقيه فى الوحل . لم يكتشف أبدا كيف عرف ـ كيف كان أى واحد يعرف ـ لكنه عرف ـ عرف

ـ وأمسك بالسلسلة بيديه الاثنتين وجذب السلسلة بطولها على يساره ، حتى يعرف الرجل التالى . كانت المياه فوق كاحليه تنساب فوق اللوح الخشبى الذى ينام عليه . ثم لم يعد ماء. كان الخندق يتقوض وتسرب الوحل تحت القضبان وخلالها .

أنتظروا ـ كل واحد من الستة والأربعين . لايصرخون ، على الرغم من أن بعضهم لابد أنهم قاوموا مثل الشيطان ألا يفعلوا. بلغ الطين فخذيه وتشبت بالقضبان . ثم جاءت ـ جذبة أخرى ـ من اليسار هذه المرة وأقل قوة من الأولى بسبب الطين الذى مرت به .

بدأ الأمر مثل خلع السلسلة لكن الفرق كان فى قوة السلسلة . غطسوا واحدا بعد الآخر ، بدءا من رجل «الهاى» إلى أسفل الصف. إلى أسفل خلال الوحل تحت القضبان، عميانا، يتلمسون طريقهم. كان لدى بعضهم مايكفى من الادراك لأن يلفوا رءوسهم فى قمصانهم، ويغطوا وجوههم بخرق، ويرتدوا أحذيتهم. غاص الآخرون ، غطسوا ببساطة إلى أسفل وهم يجاهدون أن يرتفعوا ليصلوا إلى الهواء. فقد آخرون الاتجاه، وجذبهم جيرانهم وهم يشعرون بجذب السلسلة المرتبك. فلو ضاع واحد لضاع الجميع. كانت السلسلة التى تشدهم لتنقذ الجميع أو لا أحد، وكان رجل الـ «هاى» هو المنقذ. كانوا يتكلمون خلال تلك السلسلة مثل شفرة سام مورس ، وبالله العظيم، صعدوا جميعا. وكالموتى الذين لم يعترفوا بخطاياهم ، أو موتى عادوا إلى الحياة طلقاء ، يمسكون بالسلاسل بين أيديهم، وضعوا ثقتهم فى المطر والظلام ، أجل ، ولكن فى الأغلب فى رجل الـ «هاى» وفى كل واحد منهم .

اجتازوا الحظائر حيث كانت الكلاب ترقد فى حالة اكتئاب عميق؛ أكواخ الحراس، حظيرة الجياد النائمة، الدجاج الذى كانت مناقيره مغروسة فى ريشه. لم يساعدهم القمر لأنه لم يكن هناك. كان الحقل مستنقعا، والدرب حوضا. بدت كل جورجيا كما لوكانت تنزلق، تذوب. كانت الطحالب تمسح وجوههم وهم يقاومون أغصان البلوط الحية التى تسد طريقهم. كانت جورجيا قد أستولت على كل ألباما والمسيسيبى عندئذ، ولذلك لم يكن هناك خط ولاية ليعبروه ولم يكن الأمر ليهم على أية حال. ولو أنهم كانوا يعرفون ذلك لتجنبوا لا ألفريد فحسب وسليكات الالومنيوم الجميلة، ولكن السفانا أيضا وأتجهوا إلى سى أيلاندز التى تقع فى النهر الذى كان ينزلق من جبال بلو ريدج.لكنهم لم يكونوا يعرفون .

طلع النهار واحتشدوا داخل أيكة من أشجار الأرجوان وجاء الليل وتسلقوا إلى أرض أكثر ارتفاعا، وهم يضرعون أن يستمر المطر فى سترهم وإيقاء الناس فى منازلهم. كانوا يأملون فى الوصول إلى كوخ خشبى،منعزل، على مسافة من الاصلاحية حيث يمكن أن يكون هناك عبد يصنع حبلا أو يسخن بطاطس على نار. وكان ماوجدوه معسكر هنود حمر شيروكيين مرضى أطلق أسمهم على وردة .

كانوا، وقد هلك منهم كثيرون لكنهم عنيدون ، من بين أولئك الذين أختاروا حياة الهاربين مفضلين إياها على اوكلاهما كان المرض الذى يجتاحهم الآن يعيد إلى الأذهان المرض الذى قتل نصف عددهم قبل ذلك بمائتى سنة. وفيما بين تلك الكارثة

وهذه، كانوا قد قاموا بزيارة الملك جورج الثالث فى لندن، ونشروا جريدة ، وصنعوا سلالا، وقادوا أوجلثورب خلال الغابات، وساعدوا أندروجاكسون على محاربة هنود الكريك، وطبخوا الذرة، وأصدروا دستوراً، وقدموا عريضة لملك أسبانيا، وأجرت عليهم دارتموث تجارب ، وأقاموا المصحات، وكتبوا لغتهم، وقاوموا المستوطنين، وصادوا الدببة وترجموا الكتاب المقدس. كله بلا جدوى . كان الانتقال الاضطرارى إلى نهر أركنساس، الذى أصر عليه نفس الرئيس الذى حاربوا معه ضد هنود الكريك، قد دمر ربعا آخر من عددهم المدمر سلفا .

قالوا لانفسهم، قضى الأمر، ونأوا بأنفسهم عن أولئك الشيروكيين الذين وقعوا المعاهدة، لينسحبوا إلى الغابة وينتظروا نهاية العالم. كان المرض الذى يعانون منه الآن مجرد شيء مزعج بالمقارنة بالدمار الذى يتذكرونه. ورغم ذلك كانوا يحمون أحدهم الآخر ماوسعهم هذا. فقد أرسلوا الاصحاء على بعد بعض الأميال؛ وبقى المرضى خلفهم مع الموتى ـ لتكتب لهم الحياة أو يلحقوا بهم .

جلس المساجين القادمون من الفريد، جورجيا فى شبه دائرة قرب المعسكر. لم يأت أحد وظلوا جالسين. مرت ساعات واعتدل المطر. وأخيرا أبرزت إمرأة رأسها من بيتها. وحل الليل ولم يحدث شيء. وعند الفجر اقترب منهم رجلان تغطى جلودهم الجميلة حيوانات بحرية صغيرة مما يعلق بالصخور. لم يتكلم أحد لفترة،ثم رفع رجل الـ «هاى» يده. رأى الشيروكيان السلاسل وانصرفا. وعندما عادا كان كل منهما يحمل حفنة من الفئوس

الصغيرة. تبعهما طفلان يحملان قدرا من العصيدة تبرد وتصبح مائية القوام فى المطر.

سميا هم بالرجال الجاموس، وراحا يخاطبان المساجين ببطء وهما يغرقان العصيدة ويطرقان السلاسل. لم يكن أى واحد جاء من صندوق فى الفريد، جورجيا، يهتم بالمرض الذى حذراهم الشيروكيان منه، ولهذا بقوا، الستة والأربعون كلهم، يستريحون، ويخططون تحركهم التالى. لم يكن لدى بول د. أية فكرة عما يفعله وكان يعلم أقل من أيهم فيما يبدو. سمع رفاقه المساجين يتكلمون عن علم عن أنهار وولايات، ومدن وأراضى. سمع رجلى الشيروكى يصفان بداية العالم ونهايته-أصغى إلى حكايات عن رجال جاموس آخرين كان يعرفانهم- ثلاثة منهم فى المعسكر الصحى على بعد بضعة أميال. أراد رجل الـ «هاى» أن ينضم اليهم؛ وأراد آخرون أن ينضموا اليه. أراد بعضهم أن يرحل؛ وبعضهم أن يبقى. وبعد ذلك بأسابيع كان بول د. الرجل الجاموس الوحيد الذى بقى - بلا خطة. كل ما أمكنه أن يفكر فيه هو الكلاب التى تتعقب الأثر، على الرغم من أن رجل الـ «هاى» قال إن المطر الذى رحلوا فيه لم يترك لذلك فرصة نجاح. وأخيرا إستيقظ بول د. وحده، الرجل الاخير ذو الشعر الجاموسى بين الشيروكيين المعتلين، ومعترفا بجهله سألهم كيف يمكن أن يصل إلى الشمال. الشمال الحر. الشمال السحرى. مرحبا بالشمال الحر. ابتسم الشروكى وتطلع حوله. كانت أمطار الفيضان التى هطلت من شهر قد أحالت كل شىء إلى بخار وأزهار.

قال مشيرا بيده: «ذلك الاتجاه» قال: «اتبع أزهار الاشجار. أزهار الاشجار فقط. اذهب كما تذهب هى. سوف تجد نفسك حيث تريد أن تكون عندما تنتهى.»

وهكذا أنطلق يعدو من أشجار قرانيا إلى أشجار خوخ مزهرة. وعندما تباعدت أتجه إلى زهور الكرز، ثم الماجنوليا، وأشجار الأزادرخت، وأشجار الجوز الأمريكى، وأشجار الجوز والتين الشوكى .وأخيرا وصل إلى حقل من أشجار التفاح كانت أزهاره تتحول لتوها إلى عقد دقيقة من الفاكهة. مشى الربيع الهوينا شمالا. لكنه كان عليه أن يجرى ليحتفظ به رفيق سفر. من فبراير إلى يوليو كان يراقب الازهار. وعندما فقدها، ووجد نفسه بدون حتى بتلة ترشده، توقف وتسلق شجرة على تل وتفحص الأفق بحثا عن ومضة قرنفلية أو بيضاء فى عالم أوراق الشجر الذى كان يحيط به. لم يلمسها أو يتوقف ليشمها.تبع أثرها فقط، كيان أسود رث الثياب ترشده أشجار البرقوق المزهرة.

أتضح أن حقل التفاح كان ديلاوير حيث كانت تعيش السيدة النساجة. فرقعت له بأصابعها ما أن أنتهى من السجق الذى أطعمته إياه وزحف فى سريرها وهو يبكى. انتحلت له شخصية ابن أختها من سيراكيوز بمجرد مناداته باسم ابن أختها. ومضى ثمانية عشر شهرا ومرة أخرى كانت عيناه على الأزهار غير أنه كان هذه المرة ينتبه اليها وهو على شاحنة واطئة.

مضى بعض الوقت قبل أن يستطيع أن يضع الفريد، سيكسو، المدرس، هال ، أخويه، مستر، طعم الحديد، منظر الزبدة، رائحة

شجر الجوزية، وورقة من دفتر، واحدا بعد الآخر فى علبة التبغ التى أودعها صدره. وعندما وصل إلى البيت رقم ١٢٤ لم يكن شىء فى هذا العالم يستطيع أن يفتحها عنوة.

كانت تثير مشاعره .

لا بالطريقة التى طارد بها شبح الطفل ـ كلها ضرب عنيف وصراخ ونوافذ مهشمة وجرار «جيلى» تتدحرج فى كومة. لكنها كانت تثير مشاعره على الرغم من ذلك، ولم يعرف بول د. كيف يوقف هذا لأن الأمر كان يبدو كما لو كان هو يثير مشاعر نفسه. وبشكل غير مدرك، بشكل متعقل تماما، كان سيرحل عن البيت رقم ١٢٤ .

كانت البداية بسيطة للغاية. ذات يوم جلس بعد العشاء فى المقعد الهزاز بجوار الموقد، فهك العظام، قد جلده النهر، وراح فى النوم. استيقظ على وقع اقدام سيث تهبط الدرج لتعد الافطار .

قالت: «ظننتك خرجت الى مكان ما.»

أنّ بول د. وقد أدهشه أن يجد نفسه بالضبط حيث كان فى آخر مرة نظر فيها .

«لاتقولى إننى نمت فى هذا الكرسى طوال الليل.»

ضحكت. «أنا؟ أنا لن أقول لك كلمة .»

«لماذا لم توقظينى؟»

«أيقظتك. ناديت عليك مرتين أو ثلاث مرات. ثم كففت حوالى منتصف الليل وبعدها ظننت أنك خرجت إلى مكان ما.»

نهض، متوقعا من ظهره أن يقاوم ذلك.لكنه لم يفعل. لاصرير

ولامفصل متيبس فى أى مكان. شعر أنه فى الحقيقة منتعش. بعض الأشياء هكذا، أماكن تجلب النوم الطيب. قاعدة أشجار معينة هناك وهناك؛ رصيف ميناء، مقعد خشبى طويل، زورق ذات مرة، كومة تبن عادة، ليس السرير دائما، وهنا الآن، مقعد هزاز، وهو ماكان غريبا لأنه حسب تجربته كان الأثاث أسوأ مكان لنوم هانىء.

فى مساء اليوم التالى فعلها ثم فعلها مرة أخرى. كان معتادا على الجنس مع سيث كل يوم تقريبا، ولكى يتجنب الارتباك الذى كان تألق «محبوبة» يسببه له فقد جعل مهمته أن يعود بها إلى الطابق العلوى فى الصباح، أو أن يرقد معها بعد العشاء. لكنه وجد سبيلا وسببا ليقضى أطول جزء من الليل فى المقعد الهزاز. قال لنفسه إنه لابد ظهره ـ كان بحاجة إلى شىء يسنده بسبب ضعف خلَّفه النوم فى صندوق فى جورجيا .

استمر الحال على هذا المنوال ولعله كان ليستمر على هذا المنوال، غير أنه ذات مساء، بعد العشاء، وبعد سيث، هبط إلى الطابق السفلى، وجلس فى المقعد الهزاز ولم يرد أن يكون هناك. نهض وأدرك أنه لايريد أن يذهب إلى الطابق العلوى أيضا. ولما كان نزقا ويحن للراحة، فإنه فتح باب حجرة بيبى سجز وتهادى لينام على السرير الذى ماتت فيه السيدة العجوز. حسم هذا الأمر ـ هكذا يبدو. أصبحت حجرته ولم تعترض سيث ـ كان سريرها المصنوع لاثنين قد شغلته واحدة لثمانية عشر عاما قبل أن يأتى بول د. لزيارتها. وربما كان الأمر أفضل بهذه الطريقة، وبالبيت فتاتان وهو ليس زوجها الحقيقى. على أية حال، حيث أنه لم يكن

هناك تناقص فى شهيته قبل الأفطار أو بعد العشاء، فإنه لم يسمعها تشكو .

استمر الحال على هذا المنوال ولعله كان ليستمر على هذا المنوال، غير أنه ذات مساء بعد العشاء ، بعد سيث، هبط إلى الطابق السفلى ورقد فى سرير بيبى سجز ولم يرد أن يكون هناك .

أعتقد أنه كان يعانى من نوبات منزلية، الغضب الكامد الذى يشعر به الرجال أحيانا عندما يبدأ بيت أمرأة فى تقييدهم، عندما يريدون أن يصرخوا ويكسروا شيئا أو على الأقل أن يهربوا .كان يعرف كل ذلك ـ شعر به عديدا من المرات ـ فى بيت نساجة ديلاوير، مثلا. لكنه كان يربط النوبة المنزلية بالمرأة التى تكون فيه. لم تكن لهذه العصبية علاقة بالمرأة، التى كان حبه لها يتزايد قليلا كل يوم: يدها وسط الخضروات. فمها حين كانت تلعق طرف خيط قبل أن تدفعه داخل ابرة أو تقضمه الى اثنين عندما تنتهى اللفقة، الدم فى عينيها حين كانت تدافع عن ابنتيها (وكانت «محبوبة» ابنتها الآن) أو أى أمرأة ملونة ضد افتراء. أيضا لم يكن هناك غضب فى هذه النوبة المنزلية، لا اختناق، لاحنين إلى أن يكون فى مكان آخر . لم يكن ببساطة يستطيع ، أو يريد، أن ينام فى الطابق العلوى أو فى المقعد الهزاز، أو، حاليا فى سرير بيبى سجز، وهكذا ذهب إلى حجرة الخزين .

استمر الحال على هذا المنوال، ولعله كان ليستمر على هذا المنوال، غير أنه ذات مساء بعد العشاء ، بعد سيث ، رقد على حشية فى حجرة الخزين ولم يرد أن يكون هناك. ثم فى كوخ

التبريد، وهناك، وهو منعزل عن الجزء الرئيسى من البيت رقم ١٢٤، متكوماً على جوالى جمع السمك الممتلئين بالبطاطا ، محدقا فى جوانب علبة دهن خنزير، أدرك أن الانتقال لم يكن اراديا. لم يكن عصبيا، كان ممنوعا .

ولذا انتظر . كان يزور سيث فى الصباح ؛ ينام فى الحجرة الباردة بالليل وينتظر .

الفصول فى أوهايو مسرحية. كل فصل يدخل وكأنه المغنية الرئيسية ، معتقدا أن أداءه هو السبب فى أن العالم به ناس. عندما أخرج بول د. عنوة من البيت رقم ١٢٤ الى حظيرة خلفه، كان الصيف قد ترك المسرح واستولى الخريف بزجاجاته الدموية الذهبية على انتباه الجميع. حتى فى الليل حين كان يجب أن يكون هناك فاصل مريح، لم يكن أى فاصل لاز أصوات المنظر الطبيعى كانت ملحة وعالية. حزم بول د . جرائد تحته وفوقه، ليتيح لبطانيته النحيلة بعض المساعدة لكن لم تكن الليلة الباردة تشغله. فعندما سمع الباب يفتح خلفه رفض أن يستدير وينظر .

«ماذا تريدين هنا؟ ماذا تريدين؟» كان ينبغى أن يكون قادرا على سماع تنفسها. «أريدك أن تلمسنى فى الجزء الداخلى وأن تنادينى باسمى».

«أريدك أن تلمسنى فى الجزء الداخلى وأن تنادينى باسمى»

لم يعد بول د. قلقا على علبة تبغه الصغيرة. فقد أغلقها الصدأ

ولهذا، فبينما كانت ترفع تنورتها وتدير رأسها فوق كتفها بالطريقة التى فعلت بها سلحفاة الماء هذا ، راح ينظر إلى علبة دهن الخنزير،التى بدت فضية فى ضوء القمر، وأخذ يتكلم بهدوء .

«عندما يستقبلك ناس طيبون ويعاملونك معاملة طيبة، فينبغى عليك أن تحاولى أن تردى الطيبة بالطيبة. أنت لاتفعلين ذلك.. سيث تحبك. بنفس القدر الذى تحب به ابنتها نفسها.أنت تعرفين ذلك .»

أسقطت «محبوبة» تنورتها وهو يتكلم ونظرت إليه بعينين خاويتين. أخذت خطوة لم يسمعها ووقفت خلفه تماما .

«هى لاتحبنى مثلما أحبها.أنا لا أحب أحدا سواها .»

«إذن لماذا تأتين إلى هنا؟»

«أريدك أن تلمسنى فى الجزء الداخلى» .

«عودى إلى ذلك البيت وادخلى سريرك» .

«عليك أن تلمسنى . فى الجزء الداخلى. وعليك أن تنادينى باسمى» .

طالما كانت عيناه مثبتتان على فضة دهن الخنزير كان آمنا. وإذا ارتجف مثل زوجة لوط. وشعر بحاجة نسائية لأن يرى طبيعة الخطيئة خلفه؛ لأن يشعر بالتعاطف، ربما، مع الملعونين الذين يلعنون، أو لأن يرغب فى ضمها بين ذراعيه بدافع من الاحترام للرابطة التى بينهما، لضاع هو الآخر .

« نادنى باسمى.»

«لا.»

«أرجوك أن تنادينى به . سوف أذهب إذا ناديتنى به.»

«محبوبة » قالها، لكنها لم تذهب. تحركت أقرب بوقع أقدام لم يسمعه لا ولم يسمع الهمسة التى عملتها رقائق الصدأ وهى تتساقط عن طبقات علبة تبغه المعدنية. ولذا فإنه لم يعرف حين انفتح الغطاء. ماعرفه هو أنه حين بلغ الجزء الداخلى كان يقول: «قلب أحمر. قلب أحمر.» مرارا وتكرارا. بنعومة ثم بصوت عال لدرجة أنه أيقظ دنفر، ثم بول د.نفسه . «قلب أحمر. قلب أحمر قلب أحمر».

كان من المستحيل أن تعود إلى الجوع القديم. ولحسن حظ دنفر، فإن النظر كان غذاء كافيا لأن يدوم. ولكن أن يُنظر إليها بدورها فقد كان هذا فوق ماتتحمله شهيتها؛ كان ذلك اختراقا لجلدها الى مكان حيث الجوع لم يكتشف . لم يكن من الضرورى أن يحدث هذا فى أغلب الأحيان ، لأن «محبوبة» نادرا ماكانت تنظر اليها مباشرة، وإذا فعلت فقد كانت دنفر تدرك أن وجهها هو بالتحديد المكان الذى توقفت عنده تلكما العينان بينما العقل الذى يقع خلفهما ماض فى طريقه. ولكن أحيانا ـ فى لحظات لم تكن دنفر تتوقعها ولا تخلقها ـ كانت «محبوبة» تريح وجنتها على مفاصل يدها وتنظر إلى دنفر باهتمام .

كان جميلا. ألا يحدق أحد فيها ، ألا يراها، ولكن أن تجتذبها عيون الأخرين المهتمة غير الناقدة إلى مجال الرؤية. أن تفحص العيون شعرها كجزء من نفسها ، لاكمادة أو أسلوب. أن تلاطف شفتاها، أنفها، ذقنها، كما يمكن أن تلاطف لو أنها كانت وردة كرنب توقف بستانى ليعجب بها. كان جلد دنفر يتحلل تحت تلك التحديقة ويصبح ناعما ومشرقا مثل الثوب القطنى الناعم الذى كان يطوق خصر أمها بذراعه . كانت تنجرف قريبا ولكن خارج جسدها ذاته ، وهى تشعر شعورا مبهما وانفعاليا فى نفس الوقت. ليست بحاجة إلى شىء. أن تكون ماهو كائن.

فى مثل تلك الأوقات كانت «محبوبة» تبدو كما لو كانت هى

التى تحتاج شيئا ـ تريد شيئا . ففى أعماق عينيها السوداوين الواسعتين ، خلف اللا تعبير ، كان هناك كف ممدودة طلبا لبنس كانت دنفر لتعطيه لها بكل سرور ، لو أنها عرفت فقط كيف أو عرفت ما يكفى عنها ، وهى معرفة لا يمكن الحصول عليها بالاجابات على أسئلة سيث التى كانت تطرحها عليها من آن لآخر : « هل تذكرين كل شىء ؟ أنا لم أعرف أمى أنا الأخرى ، لكننى رأيتها مرتين . هل رأيتها أبدا ؟ أى نوع من البيض كانوا ؟ ألا تذكرين أياً منهم ؟ »

كانت « محبوبة » تقول ، وهى تحك ظهر يدها ، إنها تذكر امرأة كانت أمها ، وتذكر أنها اختطفت منها . وفيما عدا ذلك ، فإن أوضح ذكرى لديها ، الذكرى التى كانت تكررها ، هى الجسر ـ وهى تقف على الجسر وتنظر الى أسفل . وكانت تعرف رجلاً أبيض واحداً .

وجدت سيث ذلك لافتا للنظر ودليلا آخر يعزز استنتاجاتها ، التى أسرت بها الى دنفر .

« من أين جئت بهذا الثوب ، وهذا الحذاء ؟ »

قالت « محبوبة » إنها أخذتهما .

« ممن ؟ »

ساد صمت وأسرعت فى حك يدها . لم تكن تعرف ؛ رأتهما وأخذتهما ببساطة .

قالت سيث : « أه هه » ، وأخبرت دنفر أنها كانت تعتقد أن

«محبوبة» قد حبسها رجل أبيض ما لأغراضه الخاصة، ولم يمكنها من الفرار. أنها لابد هربت الى جسر أو مكان ما وغسلت الباقى من عقلها. شىء من هذا حدث لإيللا إلا أنهما كانا رجلين- أب وابنه- وكانت ايللا تذكر كل جزء منه. احتفظا بها حبيسة فى غرفة لنفسيهما لأكثر من عام.

كانت ايللا قد قالت: «لا يمكنك أن تتصورى ما فعله بى هذان الاثنان».

ظنت سيث أن هذا يفسر سلوك «محبوبة» حول بول د. الذى كانت تكرهه للغاية.

لم تصدق دنفر تأملات سيث أو تعلق عليها، وأرخت عينيها ولم تقل كلمة عن كوخ التبريد. كانت واثقة أن «محبوبة» هى الثوب الأبيض الذى ركع مع أمها فى الغرفة الاحتياطية، والحضور الحقيقى للطفل الذى ظل فى صحبتها معظم حياتها. كانت نظرتها اليها، مهما كانت قصيرة، تبقيها ممتنة باقى الوقت حين كانت هى مجرد الناظرة. والى جانب ذلك، كان لديها مجموعة أسئلة خاصة بها لا علاقة لها بالماضى. كان الحاضر فقط يثير اهتمام دنفر، لكنها حرصت على أن تبدو غير فضولية بشأن الأشياء التى كانت تذوب شوقاً إلى أن تسأل عنها «محبوبة»، فلو أنها ضغطت بشدة زائدة، لربما فقدت البنس الذى كانت الكف الممتدة تريده، وتفقد، إذن، المكان الذى يقع فيما وراء الشهية. كان من الأفضل أن تستمتع بالوليمة، أن يسمح لها بأن تكون الناظرة، لأن الجوع القديم- جوع ما قبل

«محبوبة» الذى دفعها إلى شجر البقس والكولونيا لمجرد تذوق طعم الحياة، أن تشعر بها وعرة لامسطحة. كان خارج الموضوع. كان النظر سقيه محاصراً.

ولذا لم تسأل «محبوبة». كيف عرفت عن الأقراط، والنزهات الليلية على الأقدام إلى كوخ التبريد أو قمة الشىء الذى رأته عندما كانت «محبوبة» ترقد أو تتعرى وهى نائمة. كانت النظرة تأتى، عندما تأتى، حين كانت دنفر حريصة، قد فسرت أشياء، أو شاركت فى أشياء، أو سردت قصصاً لتشغلها أثناء وجود سيث فى المطعم. لم يكن أى عمل تكلف به ليخمد النار اللاعقة التى تبدو دائما وكأنها تشتعل فى داخلها. لا حين كانتا تعصران الملاءات بإحكام حتى تسيل مياه الشطف الى أعلا ذراعيهما. لا حين كانتا تجرفان الثلج من الممر إلى المرحاض الخارجى. أو تكسران ثلاث بوصات من الثلج فى برميل المطر؛ أو تنظفان جرات التعليب المستخدمة فى الصيف الماضى وتغليانها، أو تحشران الطين فى شقوق حظيرة الدجاج وتدفئان الأفراخ بتنوريتهما. طوال الوقت كانت دنفر مضطرة الى الكلام عما يفعلونه - وكيف ولماذا. عن الناس الذين عرفتهم دنفر أو رأتهم، وهى تكسبهم حياة أكبر مما أكسبتهم الحياة: المرأة البيضاء العطرة الرائحة التى كانت تحضر البرتقال والكولونيا والتنورات الصوفية الجيدة؛ ليدى جونز التى علمتهم الأغانى ليتعلموا منها الهجاء والحساب؛ عن صبى جميل ذكى مثلها له وحمة مثل قطعة بخمس بنسات على وجنته. واعظ أبيض كان يصلى من أجل أرواحهم فى حين تقشر سيث البطاطس وتستنشق الجدة بيبى

الهواء . وأخبرتها عن هوارد وبجلر : أجزاء السرير التى كانت تخص كلا منهما (والقمة المحجوزة لها) ؛ أنها قبل أن تنتقل الى سرير بيبى سجز لم تعرفهما يناماان أبدا دون أن تتماسك أيديهما . وصفتهما « لمحبوبة » ببطء ، لتحتفظ بانتباهها ، وهى تسهب فى وصف عاداتهما ، والألعاب التى علماها لها دون ذكر الخوف الذى دفعهما بشكل متزايد إلى خارج البيت - إلى أى مكان - وأخيراً بعيداً جداً .

فى هذا اليوم كانتا بالخارج . الجو بارد والثلج يتساقط بشدة كأنه وحل ملفوف . دنفر انتهت من غناء أغنية العد التى علمتها ليدى جونز لطلبتها . « محبوبة » تمد ذراعين ثابتنين فى حين تفك دنفر ثياباً داخلية وفوطا متجمدة من على حبل الغسيل . تضعها قطعة قطعة بين ذراعى « محبوبة » حتى تصل الكومة إلى ذقنها كأنها مجموعة هائلة من أوراق اللعب . والباقى ، مآزر وجوارب نسائية بنية ، تحملها دنفر نفسها . تعودان الى البيت وقد أصابهما البرد بالدوار . سوف تذوب الملابس ببطء لتصل الى درجة رطوبة مثالية مناسبة للكى ، مما سيجعلها تفوح برائحة كأنها مطر حار . و « محبوبة » تريد أن تعرف ، وهى ترقص حول الغرفة بمئزرة سيث ، اذا كانت هناك زهور فى الظلام . تضيف دنفر أعواد خشب الى نار الموقد وتؤكد لها أن هناك زهورا فى الظلام . وبينما هى تدور ، وقد أحاط بوجهها شريط الرقبة ، وعانقت خصرها شرائط المئزرة ، تقول إنها عطشى .

تقترح دنفر تدفئة بعض عصير التفاح، بينما عقلها ينطلق بسرعة إلى شىء قد تفعله أو تقوله لتثير اهتمام الراقصة

وتسليها. دنفر لديها الآن أهداف استراتيجية وعليها أن تبقى «محبوبة» بجانبها من اللحظة التى تغادر سيث فيها لتذهب إلى عملها حتى ساعة عودتها حين تبدأ «محبوبة» تحوم عند النافذة ، ثم تشق طريقها خارجة من الباب، وتهبط الدرج وتصل إلى قرب الشارع. لقد غير التخطيط دنفر تغييرا ملحوظا. وفى حين كانت ذات يوم كسولة، تستاء من كل مهمة، أصبحت الآن خفيفة الحركة، تقوم بتنفيذ المهمات التى تتركها سيث لهما بل وتتوسع فيها. كل ذلك حتى يمكنها أن تقول «واجب علينا» و«قالت أمى إن علينا أن نفعل.» وإلا فإن «محبوبة» تصبح منطوية وحالمة، أو هادئة ومتجهمة ، وتنعدم فرص دنفر فى أن تنظر اليها . ولم تكن لها سيطرة على الامسيات. فعندما تكون أمها فى أى مكان حولهما، تصبح عينا «محبوبة» لسيث فقط. وفى السرير بالليل قد يحدث أى شىء. قد تريد أن تسمع قصة فى الظلام عندما لايكون فى استطاعة دنفر أن تراها. أو قد تنهض وتذهب إلى كوخ التبريد حيث بدأ بول د. ينام. أو قد تبكى فى سكون . بل قد تنام نوما عميقا، وتنفسها سكرى الرائحة من امتلاء أصابعها بدبس السكر أو فتات الفطائر المحلاة بالسكر. عندئذ تستدير دنفر ناحيتها، وإذا واجهتها «محبوبة»، فسوف تستنشق بعمق الهواء الحلو الخارج من فمها. وإذا لم تواجهها فإنها سيكون عليها أن تميل لأعلى فوقها، بين الحين والحين، لتتلقى نفحة . فأى شىء أفضل من الجوع الأصلى ـ الوقت الذى لم يكن هناك صوت يصلها، بعد عام من الحروف الصغيرة المدهشة، والجمل تتدحرج كأنها عجينة فطائر وصحبة الأطفال الآخرين . أى شىء أفضل من الصمت عندما كانت تجيب على أيدى تومىء ولاتبالى بحركة

الشفاة عندما كانت ترى كل شيء صغير وألوانا تتواثب محترقة أمام عينيها. سوف تمتنع عن غروب الشمس البالغ العنف، والنجوم السمينة سمنة أطباق الغداء وكل دماء الخريف وترضى باللون الأصفر الشديد الشحوب إذا جاء من «محبوبتها» .

ابريق عصير التفاح ثقيل ، لكنه هكذا دائما، حتى حينما يكون فارغا. تستطيع دنفر أن تحمله بسهولة، ومع ذلك تطلب من «محبوبة» أن تساعدها. إنه في كوخ التبريد بجوار صفائح دبس السكر وستة أرطال من جبن الشيدر صلبة مثل العظام . في منتصف الأرضية حشية مغطاة بورق جرائد وبطانية عند آخرها. لقد نام عليها أحد لمدة شهر تقريبا، على الرغم من أن الثلوج قد أتت ومعها شتاء جاد .

الوقت ظهرا ؛ في الخارج ضوء تام ؛ في الداخل ليس كذلك. بضع بقع من ضوء الشمس تتسلل من خلال السطح والجدران ولكنها ماأن تدخل إلى هناك حتى تصبح أضعف من أن تتدبر أمرها. فالظلام أقوى ويبتلعها كأنها سمكات صغيرة .

يغلق الباب بضربة قوية. لاتستطيع دنفر أن تعرف أين تقف «محبوبة» .

تهمس بطريقة ضاحكة بعض الشيء: «أين أنت؟»

تقول محبوبة: «هنا.»

« أين ؟»

تقول محبوبة: «تعالى وابحثى عنى.»

تمد دنفر ذراعها. اليمنى وتأخذ خطوة أو خطوتين. تتعثر وتسقط على الحشية. تطقطق جريدة تحت ثقلها. تضحك ثانية. «أوه، أظهرى. «محبوبة» ؟»

لايجبها أحد، تلوح دنفر بذراعيها وتجعد عينيها لتزيح ظلال أجولة البطاطس وصفيحة دهن الخنزير وضلعا من الخنزير المدخن بحثا عن الواحدة التى يحتمل أن تكون انسانا .

تقول : «كفى عن العبث،» وتتطلع إلى أعلا تجاه الضوء لتفحص وتتأكد من أن هذا لا يزال كوخ التبريد وليس شيئا يحدث فى نومها. سمكات الضوء لاتزال تسبح هناك؛ لاتستطيع أن تشق طريقها إلى أسفل حيث هى .

«أنت العطشى. هل تريدين عصير التفاح أم لا؟» صوت دنفر ينطوى على اتهام خفيف . خفيف . لاتريد أن تسىء ولاتريد أن تفضح الذعر الذى يزحف عليها كأنه شعرات. ليس هناك صورة أو صوت «لمحبوبة». تجاهد دنفر أن تقف وسط طقطقة الجريدة. تتحرك ببطء تجاه الباب وقد مدت كفها إلى الامام. ليس هناك مزلاج أو مقبض - مجرد أنشوطة من السلك لتمسك بمسمار. تدفع الباب وتفتحه. يزيح ضوء الشمس البارد الظلام. الحجرة كما كانت عندما دخلا تماما - فيما عدا أن «محبوبة» ليست هناك . ليس هناك داع لأن تنظر أبعد من هذا، فكل شىء فى المكان يمكن رؤيته من النظرة الأولى. تنظر دنفر على أية حال لأن الخسارة فادحة. تعود أدراجها إلى داخل الكوخ، وهى تسمح للباب أن ينغلق بسرعة خلفها. ظلام أو لاظلام ، تتحرك بسرعة فى أرجاء

الكوخ، حمد يدها، تلمس خيوط العنكبوت، الجبن، الرفوف المائلة، والحشية تتداخل مع كل خطوة. إذا تعثرت لاتدرك ذلك لأنها لاتعلم أين يتوقف جسدها، وأى جزء منها ذراع أو قدم أو ركبة. تشعر كأنها كعكة بالمثلجات منتزعة من سطح الجدول المتماسك ، تطفو على سطح الظلام، سميكة تتهشم على حواف الأشياء التى تحيط بها قابلة للكسر ، قابلة للذوبان وباردة.

من الصعب أن تتنفس وحتى لوكان هناك ضوء لما أمكنها أن ترى أى شيء لانها تبكى.تماماً مثلما ظنت أنه قد يحدث، حدث. بسهولة مثل دخول حجرة. ظهور سحرى على جدعة شجرة، الوجه يمحوه ضوء الشمس، واختفاء سحرى فى كوخ، وقد أكلها الظلام حية.

تقول بين ابتلاعات قاسية: «لاتفعلى. لاتفعلى. لاتعودى إلى هناك.»

هذا أسوأ مما حدث عندما جاء بول د. إلى البيت رقم ١٢٤ وبكت يأسا فى نار الموقد . هذا أسوأ . حينذاك كان هذا من أجلها هى ذاتها ، أما الآن فهى تبكى لأنها لا ذات لها . الموت أشبه بوجبة تخطيناها بالمقارنة إلى هذا. تستطيع أن تشعر بكثافتها تتآكل، تتلاشى إلى لاشيء . تشد شعرها عند صدغيها لتمسك بقدر منه وتنتزعه من جذوره. وتوقف الذوبان لبرهة. انطبقت الاسنان، وتوقف دنفر نشيجها. لاتتحرك لتفتح الباب فليس هناك عالم فى الخارج. تقرر أن تبقى فى كوخ التبريد وتدع الظلام يبتلعها مثل سمكات الضوء فوقها. لن تحتمل فراقا آخر، خدعة أخرى. أن تستيقظ لتجد أخا ثم اخر غير موجودين فى آخر السرير ، وقدمه يخز

عمودها الفقرى. أن تجلس إلى المائدة تأكل لفتا وتدخر الشراب لجدتها حتى تشربه؛ يد أمها على باب الغرفة الاحتياطية وصوتها يقول: «لقد رحلت بيبى سجز، يادنفر.» وعندما وصلت إلى القلق بشأن مايكون عليه الحال إذا ماتت سيث أو أخذها بول د.بعيدا، يتحقق الحلم الذى يتحقق ليتركها فحسب على كومة من الجرائد فى الظلام.

لاوقع أقدام يعلن عن وجودها، لكن هاهى، تقف حيث لم يكن هناك أحد عندما ألقت دنفر نظرة. وهى تبتسم.

تقبض دنفر على حاشية تنورة «محبوبة». «ظننت أنك تركتنى. ظننت أنك عدت إلى هناك.»

تبتسم «محبوبة» ؛ «أنا لاأريد ذلك المكان. أنا هذا المكان.» تجلس على الحشية، وترقد على ظهرها تنظر إلى شقوق الضوء فوقها، وهى تضحك.

ودون أن تحس «محبوبة» أمسكت دنفر بقطعة من تنورتها وضغطت عليها بين أصابعها وتعلقت بها. حسن أن فعلت هذا لأن «محبوبة» نهضت فجأة.

تسألها دنفر: «ماذا هناك؟»

تشير إلى الشقوق يضيئها نور الشمس: «أنظرى.»

«ماذا ؟ أنا لا أرى شيئا.» تتبع دنفر الإصبع الذى يشير.

تنزل «محبوبة» يدها . «أنا مثل هذا».

تراقب دنفر بينما «محبوبة» تميل، تتكور وتتأرجح. عيناها

لاتذهبان إلى أى مكان؛ وأنينها خافت لدرجة أن دنفر تكاد تستطيع أن تسمعه .

« هل أنت بخير ؟ « محبوبة ؟ »

تركز «محبوبة» عينيها. «هناك. وجهها.»

تنظر دنفر إلى حيث تذهب عينا «محبوبة»؛ ليس هناك شىء سوى الظلام .

« وجه من ؟ من هناك ؟ »

«أنا. إنه أنا.»

وهى تبتسم مرة ثانية .

كان آخر رجال سويت هوم، هكذا سمَّاهم وهكذا كان يناديهم واحد عليم بهم، يؤمن بهذا. وكان الأربعة الآخرون يؤمنون بهذا أيضا، ذات يوم ، لكنهم رحلوا من زمن طويل. المباع لم يعد مطلقا، والضائع لم يعثر عليه مطلقا. كان يعلم أن واحدا منهم قد مات بالتأكيد؛ وكان يأمل أن يكون الآخر قد مات، لأن الزبد واللبن المتخثر لم يكن حياة أو سببا لأن يحياها. نشأ وهو يعتقد أن من بين كل السود فى كنتاكى، كان الخمسة رجالا. كان جارنر، يسمح لهم بتصحيحه ويشجعهم على هذا، بل بأن يتحدوه. أن يبتكروا طرقا لعمل الأشياء؛ أن يروا ماهو مطلوب وأن يشرعوا فى عمله دون إذن. أن يشتروا أماً، أن يختاروا حصانا أو زوجة، أن يتعاملوا مع البنادق، بل أن يتعلموا القراءة إن شاءوا ذلك ـ لكنهم لم يشاءوا إذ لم يكن لديهم شىء هام يخطونه على الورق.

هل كان الأمر هكذا؟ هل هذا مكمن الرجولة؟ فى تسمية أطلقها رجل أبيض كان من المفروض أن يعرف؟ أعطاهم أمتيازاً لا أن يعملوا ولكن أن يقرروا كيف يعملون؟ لا. كان فى علاقتهم بجارنر معدن حقيقى: كان يؤمن بهم ويثق فيهم، لكنه قبل كل شىء كان يصغى اليهم .

كان يعتقد أن مايقولونه له جدارته ، وأن مايشعرون به جاد. لم يفقده احترامه لآراء عبيده سلطة أو سطوة. كان المدرس هو من علمهم غير هذا. حقيقة ترفرف مثل خيال مآتة وسط نبات

الجاودار: أنهم كانوا فقط رجال سويت هوم فى سويت هوم. خطوة واحدة خارج تلك الأرض ليصبحوا منتهكى أراضى بين الجنس البشرى. كلاب حراسة بلا أسنان؛ ثيران مخصية بلا قرون؛ جياد جر مخصية لا يمكن ترجمة صهيلها إلى لغة يتكلمها بشر مسؤولون. كانت قوته تكمن فى معرفته بأن المدرس مخطىء. وكان الآن يتساءل . كان هناك ألفريد، جورجيا، كان هناك ديلاوير، كان هناك سيكسو، وكان مع ذلك يتساءل . إذا كان المدرس مصيباً فإن ذلك يفسر كيف وصل به الحال إلى أن يكون دمية من خرق - أن تختاره فتاة صغيرة من سن بناته ثم تعيده ثانية فى أى مكان فى أى زمان. أن يجامعها وهو مقتنع أنه لم يكن يريد. كلما رفعت مؤخرتها، أنهارت إرادته بفعل جموح شهوة شبابه (هل كان هذا هو الحال؟).لكن ماأذله كان أكثر من مجرد شهوته وجعله يتساءل عما إذا كان المدرس مصيباً. كان قدرتها على التأثير فى مشاعره، ووضعه فى المكان الذى تريده فيه، ولم يكن هناك شىء يستطيع أن يفعله فى هذا الشأن. لم يكن بوسعه أن يصعد درجات السلم البيضاء اللامعة فى المساء ولو كانت حياته متوقفة على هذا؛ لم يكن بوسعة أن يمكث فى المطبخ فى الحجرة الاحتياطية ، فى حجرة الخزين ولو كانت حياته متوقفة على هذا. وقد حاول.أمسك بأنفاسه بالطريقة التى أمسكها بها حين غاص فى الوحل؛ واستجمع شجاعته وجمّد قلبه على نحو مافعل عندما بدأ الارتجاف . لكن الأمر كان أسوأ من هذا ، أسوأ من دوامة الدم التى سيطر عليها بمطرقة ثقيلة . عندما نهض من على مائدة العشاء فى البيت رقم ١٢٤ ، واستدار

باتجاه الدرج، جاء الغثيان أولا ، ثم النفور . هو ، هو . هو الذى أكل لحمة نيئة لم تكد تنفق ، الذى طحن بأسنانه صدر يمامة قبل أن يكف قلبها عن النبض تحت أشجار الكرز التى كانت تتفجر بالأزهار . لأنه كان رجلا والرجل بإمكانه أن يفعل ما يشاء : أن يظل ساكنا فى بئر جافة لمدة ست ساعات حتى يجىء الليل ؛ أن يقاتل راكونا بيديه وينتصر ؛ أن يراقب رجلا آخر كان يحبه أكثر من أخويه يشوى بلا دمعة لمجرد أن يعرف من يشوون كيف يكون الرجل . ولقد كان هو ، **ذلك** الرجل الذى مشى من جورجيا إلى ديلاوير ، من لايستطيع أن يمضى أو يبقى حيث كان يريد فى البيت رقم ١٢٤ . ياللعار !

لم يستطع بول د. أن يسيطر على قدميه ، لكنه ظن أنه لايزال بوسعه أن يتكلم وقرر أن يفر بتلك الطريقة. سوف يخبر سيث عن الأسابيع الثلاثة الماضية : أن يتصيدها وحدها وهى عائدة من العمل فى حديقة الجعة التى كانت تسميها مطعما ويخبرها بكل شىء .

انتظرها . بدا العصر فى الشتاء أشبه بالشفق وهو يقف فى الحارة خلف مطعم سوير . وهو يتدرب ، يتخيل وجهها ويدع الكلمات تتدافع فى رأسه كأنها أطفال قبل أن ينتظموا فى طابور ليتبعوا قائدهم .

« حسنا ، آه ، ليس هذا هو الـ ، الرجل لا يستطيع ، يرى ، لكن أوه انصتى الآن ، الأمر ليس كذلك ليس كذلك حقا ، جارنر العجوز ، ماأعنيه هو ، ليس هذا ضعفا ، ذلك النوع من الضعف الذى أستطيع محاربته لأن شيئا يحدث لى ، الفتاة تفعله ، أعلم أنك

تظنين أننى لم أحبها بأى شكل أبدا، لكنها تفعله بى. تورطنى . سيث، لقد ورطتنى وأنا لاأستطيع الفكاك . »

ماذا ؟ رجل ناضج تورطه فتاة ؟ ولكن ماذا لو لم تكن الفتاة فتاة، لكن شيئا آخر متنكرا؟ شيء وضيع يبدو مثل فتاة صغيرة لطيفة لم تكن مضاجعتها أو عدم مضاجعتها هى لب الموضوع ، لم يكن عدم القدرة على البقاء أو الرحيل عن البيت رقم ١٢٤ ، وأن الخطر كان فى فقدان سيث لأنه لم يكن رجلا بما فيه الكفاية حتى يفر ، ولذا فإنه كان بحاجة إلى سيث ، لتساعده ، لتعرف الأمر ، وأنه يخزيه أن يضطر إلى أن يطلب من المرأة التى يريد أن يحميها أن تساعده على ذلك ، ليلعن الله الأمر فى الجحيم .

نفخ بول د.أنفاساً دافئة فى تجويف يديه المنقبضتين . انطلقت الريح على طول الحارة بسرعة ولفحت فراء أربعة كلاب تنتظر الفتات ، نظر إلى الكلاب . ونظرت الكلاب إليه .

أخيرا فتح الباب الخلفى وخرجت سيث وهى تمسك بوعاء فتات فى عقفة ذراعها . عندما رأته قالت ، أوه ، وكانت ابتسامتها تحمل سرورا ودهشة .

اعتقد بول د أنه بادلها الابتسام لكن وجهه كان باردا لدرجة أنه لم يكن متأكدا .

« يارجل ، إنك تجعلنى أشعر أننى فتاة ، وأنت تأتى لتلتقطنى بعد العمل . لم يفعل ذلك أحد قبل ذلك أبدا . يحسن بك أن تحذر ، فقد أبدأ فى التطلع إلى هذا . » طوحت بأكبر العظام فى التراب بسرعة حتى يعرف الكلاب أن هناك ما يكفى ولا تتقاتل فيما

بينها . ثم ألقت بجلود بعض أشياء ، ورءوس أشياء أخرى وأحشاء المزيد من الأشياء - مالم يكن المطعم ليستخدمه ومالم تكن هى لتستعمله - فى كومة يتصاعد منها البخار قرب أقدام الحيوانات .

قالت : « علىّ أن أغسل هذا ، ثم أكون معك فى الحال . »

اومأ وهى تعود إلى المطبخ .

أكلت الكلاب بلا صوت وفكر بول د أنها على الأقل نالت ماجاءت من أجله ، وما إذا كان لديها مايكفيها .

كانت قطعة القماش على رأسها من الصوف البنى ودفعتها لأسفل على مفرق رأسها تحسبا للريح .

« هل تغادر مبكرا أم ماذا ؟ »

« رحلت مبكرا » .

« هل فى الأمر شىء ؟ »

قال : « بمعنى ما »،ومسح شفتيه .

« لا تخفيض فى عدد العمال ؟ »

« لا ، لا . لديهم عمل كثير . فقط كنت . »

« همـ .. م ؟ »

« سيث ، لن يروق لك ما سأقوله . »

توقفت عندئذ وأدارت وجهها إليه باتجاه الريح الكريهة . كانت

أمرأة أخرى تنظر شذرا أو على الأقل تدمع إذا ساطت الريح وجهها مثلما ساطت وجه سيث . وربما صوبت إليه أمراة أخرى نظرة خوف أو توسل، بل حتى غضب، لأن ماقاله بدا بالتأكيد كأنه الجزء الأول من وداع ، سأرحل .

ألقت عليه سيث نطرة ثابتة ، هادئة مستعدة لتقبل رجل به حاجة أو مشكلة ، أو لاطلاق سراحه أو تلمس العذر له . توافق ، تقول حسنا ، على ما يرام ، مقدما ، لأنها لم تكن تعتقد أن أيا منهما - على الامتداد الزمنى - كان بإمكانه أن يكون على مستوى اللحظة . ومهما كان السبب ، فإنه على ما يرام . ليست غلطة . ليست غلطة أحد .

عرف ما يدور برأسها وعلى الرغم من أنها كانت مخطئة - فلم يكن سيرحل عنها ، ولم يكن ليرحل عنها مطلقاً - فإن ما كان يفكر فى إخبارها به سيكون أسوأ . ولذا فإنه حين رأى الأمل المتضائل فى عينيها ، الاكتئاب بلا تأنيب ، لم يستطع أن يقولها . لم يكن بوسعه أن يقول لهذه المرأة التى لم تضق عيناها فى الريح : « أنا لست رجلا » .

« حسنا ، قله يابول د ، سواء راقنى أم لا . »

ولما لم يكن باستطاعته أن يقول ما اعتزم أن يقوله ، فإنه قال شيئا لم يكن يعلم أنه يشغله . « أريدك أن تحملى ، ياسيث . هل تفعلين ذلك من أجلى ؟ »

كانت تضحك الآن وكذلك هو .
« أتيت إلى هنا لتطلب منى ذلك ؟ أنت رجل مخبول الرأس . أنت

على حق ؛ لا يروق لى هذا . ألا ترى أننى أكبر من أن أبدأ ذلك من جديد ؟ » دفعت أصابعها برفق فى يده تماما مثل الظلال المتماسكة الأيدى على جانب الطريق .

قال: « فكرى فى هذا . » وفجأة كان هذا حلا: طريقة للتشبث بها، أن يسجل رجولته وأن ينفض عنه سحر الفتاة - فى آن واحد . وضع أنامل سيث على وجنته . انتزعتها وهى تضحك خشية أن يراهما شخص يمر فى الحارة وهما يسيئان السلوك علانية ، فى ضوء النهار ، فى الريح .

ومع ذلك ، فقد حصل على مزيد من الوقت ، اشتراه ، فى الحقيقة ، وكان يأمل الا يحطمه الثمن . كأنه يدفع ثمن عصر يوم بعملة الحياة القادمة .

كفا عن العبث ، تركا أيديهما واندفعا إلى الامام حين تركا الحارة وبلغا الشارع . كانت الريح أهدأ هناك لكن البرد الجاف الذى خلفته جعل المارة أسرع حركة ، متصلبين داخل معاطفهم . لم يكن هناك رجال يستندون إلى أطر الأبواب أو واجهات عرض المحلات . كانت عجلات عربات البضائع التى تسلم العلف أو الخشب تصر كما لو كانت تتألم . وكانت الجياد المربوطة أمام الحانات ترتجف وتغمض عينيها . اقتربت أربع نسوة وهن يمشين كل أثنتين جنبا إلى جنب ، ووقع أحذيتهن عال على الرصيف الخشبى . لمس بول د مرفق سيث ليرشدها وهما ينزلان من على الشرائح الخشبية إلى التراب ليسمحا بمرور النسوة .

وبعد نصف ساعة ، حين بلغا طرف المدينة ، عاودت سيث

وبول د امساك أصابع أحدهما الآخر وانتزاعها ، وهما يختلسان ضربات خفيفة سريعة على المؤخرة . وهما مرتبكان بشكل ممتع أن يكونا ناضجين وشبانا إلى هذا الحد فى آن واحد .

فكر فى تصميمه . كان ذلك ماتطلبه الأمر ، ولم تكن فتاة بلا أم لتحطمه . لم يكن بإمكان جرو أمرأة كسول ضال أن يثنيه ، يجعله يشك فى نفسه ، يتعجب، يتوسل أو يعترف . ألقى ذراعه حول كتفى شيث، وهو مقتنع بهذه الحقيقة، أنه كان باستطاعته أن يفعل ذلك، واعتصر كتفها - تركت رأسها تلمس صدره ، ولما كانت اللحظة ثمينة بالنسبة لكليهما ، فقد توقفا ووقفا على هذه الحال - لا يتنفسان ، بل حتى لا يعبآن إذا مر بهما عابر. كان ضوء الشتاء ضئيلاً . أغمضت سيث عينيها . نظر بول د إلى الأشجار السوداء تشكل صفاً على جانب الطريق ، وأذرعها التى تحميها مرفوعة تحسبا لهجوم . وفجأة بدأ الثلج ينزل بنعومة كأنه هدية تهبط من السماء . فتحت سيث عينيها عليه وقالت : « نعمة » وبدا لبول د أنه كان كذلك - نعمة صغيرة - شيئا منح لهم عن عمد ليحدد ماكانا يشعران به حتى يتذكراه فيما بعد عندما يحتاجان ذلك .

راحت الندف الجافة تنزل ، كبيرة بما فيه الكفاية وثقيلة بما فيه الكفاية لأن تصطدم بالحجر كأنها قطع بخمس بنسات . كان يدهشه دائما كم كانت هادئة . لامثل المطر ، لكن مثل سر .

قال: « أجرى »

قالت: « أجرى أنت . فقد ظللت واقفة على قدمى طوال اليوم . »

« وأين كنت أنا ؟ جالسا ؟ » وجذبها على طول الطريق .

قالت : « قف ! قف ! ليست لدى رجلان لهذا »

قال : « إذن فأعطيهما لى » وقبل أن تنتبه رجع بظهره حتى اصطدم بها ، ورفعها على ظهره وراح يجرى على طول الطريق متجاوزا بها حقولا بنية اللون تتحول بيضاء .

توقف أخيرا لاهثا وأنزلها على قدميها ، وقد أضعفه الضحك .

« أنت بحاجة إلى بعض الأطفال ، شخص ما تلعب معه فى الثلج . » ثبتت سيث غطاء رأسها .

ابتسم بول د . وأدفأ يديه بتنفسه . « من المؤكد أننى أود أن أحاول . أحتاج إلى شريك راغب رغم هذا . »

قالت : « كنت لأقول راغب جدا ، جدا . »

كانت الساعة الرابعة الآن والبيت رقم ١٢٤ على بعد نصف ميل أمامهما، كان هناك شخص يدنو باتجاههما، لايكاد يرى فى الثلج الذى تذروه الريح، وعلى الرغم من أنه كان نفس الشخص الذى كان يلقى سيث لمدة أربعة شهور، إلا أن الاهتمام الذى كانت هى وبول د يوجهانه إلى نفسيهما كان كاملا إلى درجة إنهما شعرا بصدمة عندما رأياها قريبة منهما .

لم تنظر « محبوبة » إلى بول د ؛ كانت نظرتها الفاحصة موجهة إلى سيث . لم تكن ترتدى معطفا ، أو ملفحة ، ولا شىء على رأسها ، لكنها كانت تمسك فى يدها بشال طويل . حاولت أن تحيط به سيث وهى تمد ذراعيها .

قالت سيث : « أيتها الفتاة المحبوبة ، إنه أنت هنا فى الخارج

بلا شيء عليك . » وأخذت سيث الشال، وهي تبتعد عن بول د وتقف أمامه ، ولفته حول رأس « محبوبة » وكتفيها . أحاطتها بذراعها اليسرى وهي تقول: « عليك أن تتعلمي أن تكوني أكثر عقلا من ذلك.» كانت ندف الثلج تلطم بقوة الآن . شعر بول د ببرودة ثلجية في المكان الذي كانت سيث فيه قبل أن تأتي « محبوبة » . قاوم الغضب الذي انطلق في بطنه على طول الطريق إلى البيت ، وهو يمشي بتثاقل خلف المرأتين . عندما رأى خطوط دنفر الخارجية في ضوء المصباح في النافذة ، لم يملك إلا أن يفكر ، « حليفة من أنت ؟ »

كانت سيث هي التي فعلت هذا . وضعت حلا لكل شيء بضربة واحدة ، وهي لاتشك في شيء بالتأكيد .

« أعرف الآن أنك لن تنام هناك بالخارج الليلة يابول د ، أليس كذلك ؟ » ابتسمت له ، وكصديق عند الحاجة سعلت المدخنة من إندفاع البرد فيها من السماء . ارتجت أطر النوافذ في هبة هواء شتوي .

رفع بول د عينيه عن يخني اللحم .

قالت : «تأتي إلى الطابق العلوي. حيث تنتمي ...وتبقى هناك»

توقفت خيوط الخبث التي كانت تزحف نحوه، من جانب المائدة حيث كانت «محبوبة» تجلس، بلا أذى في دفء ابتسامة سيث . مرة واحدة قبل ذلك (ومرة واحدة فقط) شعر بول د بالامتنان

لامرأة. طرق أول باب خلفى وصل إليه فى القطاع الملون من ويلميختون، بعد أن زحف خارجا من الغابة، وقد زاغ بصره جوعًا ووحدة. أخبر المرأة التى فتحته أنه كان يسره أن يكسر لها كومة خشب، إذا كان بوسعها أن تستغنى له عن شىء يأكله. قاسته بنظراتها .

وقالت : «بعد قليل،» وفتحت الباب على اتساعه . أطعمته سجق لحم خنزير ، أسوأ مايمكن تقديمه لرجل يتضور جوعا ، لكن لاهو اعترض ولا اعترضت معدته. وفيما بعد، حين رأى الملاءات القطنية الباهتة ووسادتين فى حجرة نومها، كان عليه أن يدلك عينيه بسرعة ، بسرعة حتى لاترى الدموع الممتنة لرجل فى تجربته الأولى. التربة، العشب، الطين، القشر، أوراق الشجر، التبن، قوالح الذرة ، الاصداف البحرية - كل مانام عليه. لم يخطر له أبدا ملاءات قطنية بيضاء . تهاوى وهو يئن وساعدته المرأة على التظاهر بأنه كان يضاجعها هى لا ملاءات سريرها. أقسم فى تلك الليلة وهو ممتلىء بلحم الخنزير، غارق فى الرفاهية ، ألا يتركها أبدا. كان عليها أن تقتله لتخرجه من ذلك السرير. بعد ذلك بثمانية عشر شهرا، حين اشتراه بنك نورث بونيت وشركة السكك الحديدية، كان مايزال ممتنا لذلك التعريف بالملاءات .

كان الآن ممتنا مرة أخرى. شعر كما لو كان قد أقتلع من على وجه منحدر صخرى شاهق ووضع على أرض ثابته. وفى سرير سيث عرف أنه كان بإمكانه أن يحتمل فتاتين مخبولتين - طالما أعلنت سيث عن رغباتها. كان من السهل أن يطرد الشكوك التى حملته إلى الحارة خلف المطعم، وهو متمدد بطوله، يراقب ندف

الثلج تتدفق عابرة النافذة التى تعلو قدميه: كانت توقعاته لنفسه عالية، عالية للغاية. ماقد يسميه جبنا كان الآخرون يسمونه فطرة سليمة .

تذكرت سيث وجه بول د فى الشارع عندما سألها أن تحمل منه طفلا ، وهى مدسوسة فى تجويف ذراعه. وعلى الرغم من أنها ضحكت وتناولت يده، إلا أن الفكرة أفزعتها . فكرت بسرعة كم كان الجنس طيبا إذا كان ذلك مايريده ، لكنها كانت فزعة فى المقام الأول من فكرة أن يكون لها طفل مرة أخرى. وبحاجة إلى أن تكون جيدة بالشكل الكافى، يقظة بالشكل الكافى، قوية بالشكل الكافى، تلك العناية ـ مرة أخرى. أن يكون عليها أن تبقى حية طويلا إلى هذا الحد . قالت لنفسها ياآلهى، أنقذنى . فما لم يكن حب الأم خلى البال ، فإنه يصبح قاتلا . لماذا كان يريدها حاملا؟ ليتعلق بها ؟ أن يترك علامة أنه مر من هذا الطريق؟ ربما كان له أطفال فى كل مكان على أية حال. لابد أنه أسقط بضع ثمرات خلال ثمانية عشر عاما من التجوال. لا. كان مستاء من الأطفال الذين كانوا لها، ذلك هو السبب . وصححت نفسها ، الطفلة . الطفلة بالاضافة إلى «محبوبة» التى كانت تفكر فيها على أنها طفلتها، وكان ذلك مايستاء منه . أن يتقاسمها مع الفتاتين . أن يسمع ثلاثتهن يضحكن على شىء ليس له فيه نصيب. الشفرة التى كن يستخدمنها فيما بينهن والتى لم يكن بوسعه فك طلاسمها. بل ربما الوقت الذى تقضيه فى قضاء حاجاتهما لاحاجاته . كانوا عائلة بشكل ما ولم يكن ربها .

« هل يمكنك أن تخيطى لى هذا، ياطفلتى؟ »

أم هم! بمجرد أن أنتهى من هذا القميص الداخلى . لم يكن لديها سوى القميص الذى جاءت به إلى هنا وكل واحد يحتاج إلى غيار .

« هل هناك فطيرة باقية؟ »

« أحسب أن دنفر أكلت آخر واحدة » .

وهى لاتشكو ، بل لاتعبأ بأنه ينام فى طول البيت وعرضه الآن وهو ماوضعت له حدا الليلة بدافع المجاملة .

تنهدت سيث ووضعت يدها على صدره.كانت تعلم أنها تثير قضية ضده حتى تثير قضية ضد الحمل، وأخزاها هذا قليلا. لكنها كان لديها كل الأطفال الذين تريدهم . فلو عاد ابناها يوما ما ، وبقيت دنفر و«محبوبة» . حسنا، لكان هذا هو الحال المفروض أن تكون عليه الأشياء ، أليس كذلك؟ ألم تتغير الصورة مباشرة بعد أن شاهدت الظلال ممسكة بأيدى بعضها البعض على جانب الطريق؟ وفى اللحظة التى شاهدت فيها الرداء والحذاء جالسين فى الفناء الأمامى، تفجر ماؤها. بل لم تكن بحاجة إلى أن ترى الوجه يتوهج فى ضوء الشمس . فقد كانت تحلم به منذ سنين .

كان صدر بول د يرتفع ويهبط ، يرتفع ويهبط تحت يدها .

إنتهت دنفر من غسل الأطباق وجلست إلى المنضدة. وجلست «محبوبة»، التى لم تتحرك منذ غادرت سيث وبول د الغرفة، تمص سبابتها. راحت دنفر تراقب وجهها فترة ثم قالت: «إنها تحبه أن يكون هنا.»

ظلت «محبوبة» تسبر فمها بإصبعها . قالت: «لنجعله يرحل» .

« قد تغضب منك إذا رحل» .

خلعت «محبوبة» ضرسا، وهى تدخل إبهاما فى فمها مع السبابة.كان هناك دم بالكاد، لكن دنفر صاحت: « أووووه ، ألم يؤلمك ذلك؟»

نظرت «محبوبة» إلى الضرس وفكرت، هذا هو. فى المرة التالية ستكون ذراعها، يدها، إصبع من أصابع قدميها . سوف تتساقط أجزاء منها ربما جزءا فى كل مرة، ربما كلها فى آن واحد . أو فى صباح يوم من الأيام قبل أن تستيقظ دنفر، وبعد أن تغادر سيث سوف تتطاير أشلاء . فمن الصعب إبقاء رأسها على رقبتها، وساقيها ملتصقتين بردفيها عندما تكون وحدها. من بين الأشياء التى لاتستطيع أن تذكرها حين عرفت لأول مرة أنها بإمكانها أن تستيقظ أى صباح وتجد نفسها أشلاء . كان هناك حلمان يراودانها: أن تنفجر، وأن تبتلع . عندما خرج ضرسها. جزئية غريبة . آخر واحد فى الصف ـ ظنت أن الحالة تبدأ .

قالت دنفر . « لابد أنه ضرس العقل . ألا يؤلم ؟ »

« بلى. »

« إذن فلماذا لا تبكين ؟ »

«ماذا؟»

«إذا كان يؤلم ، فلماذا لاتبكين؟»

وفعلت . وهى تجلس هناك ممسكة بضرس صغير أبيض فى راحة يدها الناعمة . بكت بالشكل الذى كانت تريد البكاء به عندما خرجت السلحفاتان من الماء ، واحدة وراء الأخرى، بعد أن اختفى الطائر الأحمر بلون الدم فى داخل أوراق الشجرة مباشرة . بالطريقة التى كانت تود البكاء بها حين ذهبت اليه سيث، وهو يقف فى حوض الاغتسال تحت الدرج. بطرف إصبعها لمست الماء المالح الذى انزلق الى ركن فمها وتمنت أن تمنع ذراع دنفر التى كانت تحوط كتفيها ، هذين الكتفين من التساقط .

لم يسمع الاثنان فى الطابق العلوى، وقد اتحدا ، صوتا ، لكن الثلج ظل يتساقط ويتساقط ويتساقط تحتهما، فى الخارج، فيما حول البيت رقم ١٢٤ . وهو يتكوم ، يدفن نفسه . يعلو أكثر وأكثر. ويزداد عمقا أكثر فأكثر .

في ثنايا عقل بيبى سجز ربما كانت هناك فكرة أنه لو أفلح هال ، وليفعل الله مايشاء، فلسوف يكون هذا سببا لاقامة احتفال. لو أن هذا الابن الأخير استطاع فقط أن يفعل لنفسه ما فعله لها وللاطفال الثلاثة الذين أوصلتهم ايللا وجون إلى بابها ذات مساء صيفى. عندما وصل الأطفال بدون سيث، كانت خائفة وممتنة. ممتنة لأن الجزء الذى بقى على قيد الحياة من العائلة كان أحفادها - الأولين والوحيدين الذين ستعرفهم: صبيان وطفلة صغيرة كانت تحبو سلفا. لكنها هدأت من روع قلبها: ماذا عن سيث وهال؛ لماذا التأخير؟ لماذا لم تركب سيث أيضا؟ لم يكن بإمكان أحد أن يفلح بمفرده. لا لأن الصيادين كانوا يلتقطونهم وكأنهم صقور جارحة أو يصطادونهم بالشباك كأنهم أرانب فحسب، ولكن أيضا لأنك لم يكن بوسعك أن تجرى إذا لم تكن تعرف كيف تذهب. كان من الممكن أن تضيع إلى الأبد، إذا لم يكن هناك من يدلك على الطريق.

ولذلك حين وصلت سيث - وكل جزء فيها مهروس وممزق، ولكن مع حفيد آخر بين ذراعيها - فإن فكرة شهقة تحركت أقرب إلى الجزء الأمامى من عقلها. ولكن لما لم يكن هناك أثر لهال ولم تكن سيث نفسها تعلم ما حدث له، فإنها تركت الشهقة ترقد - وهى لاترغب أن تضيع فرصة يمكن أن تشكر الله فيها فى وقت مبكر جداً.

كان ستامب بيد هو من بدأ الأمر. فبعد عشرين يوما من وصول سيث إلى البيت رقم ١٢٤ جاء لزيارتهم ، ونظر إلى الطفلة التى ربطها فى سترة ابن أخيه ، ونظر إلى الأم التى ناولها قطعة من ثعبان السمك المشوى، ولسبب خاص به، انطلق بدلوين إلى مكان قريب من حافة النهر كان هو الوحيد الذى يعرفه حيث ينمو التوت الأسود، ذو المذاق الطيب السعيد حتى أن أكْله كان أشبه بالوجود فى الكنيسة. مجرد حبة توت واحدة وتشعر كأنك دُهنت بالزيت. سار ستة أميال إلى ضفة النهر؛ هبط وهو ينزلق ويجرى وينزلق إلى واد ضيق تسد الطريق اليه أجمة. بلغه عبر نبات العليق الذى تحف به أشواك تسيل الدماء سميكة مثل سكاكين راحت تمزق أكمام قميصه وسرواله. وهو يعانى طيلة الوقت من البعوض والنحل والزنابير والدبابير وأشد إناث العنكبوت خسة فى الولاية. شق طريقه وهو يناور، مخدوشا ، ممزقا، معضوضا، وأمسك بكل حبة توت بأنامل رقيقة حتى أنه لم يخدش واحدة. وفى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم عاد إلى البيت رقم ١٢٤ ووضع دلوين ممتلئين بالشرفة. عندما رأت بيبى سجز ثيابه المهلهلة، ويدية الداميتين، ووجهه وعنقه المتورمين جلست تضحك بصوت عال.

جاء بجلر وهوارد والمرأة التى ترتدى قلنسوة وسيث لينظروا ثم راحوا يضحكون مع بيبى سجز لمرأى العجوز الأسود الماكر الفولاذى: العميل والصياد والمراكبى وقصاص الأثر والمخلّص والجاسوس ، وهو يقف فى وضح النهار وقد جلده أخيرا دلوان من التوت الأسود . دون أن يأبه لهم تناول حبة توت ووضعها

فى فم دنفر ذات الأسابيع الثلاثة .

«إنها صغيرة جدا على ذلك ياستامب» .

«فى الأمعاء تصبح حساء» .

« تمرض المعدة » .

لكن عينى الطفلة المستثارة وشفتيها المتلمظتين جعلهم يحذون حذوه ، وهم يتخيرون من التوت . الذى له مذاق الكنيسة واحدة واحدة . وأخيرا صفعت بيبى سجز أيدى الصبيين بعيدا عن الدلو وأرسلت ستامب إلى الطلمبة خلف البيت ليغتسل. كانت قد قررت أن تصنع من الفاكهة شيئا جديرا بجهد الرجل وحبه . هكذا بدأ الأمر .

صنعت عجينة الفطائر وفكرت أنه ينبغى أن تخبر ايللا وجوز أن يحضرا لزيارتهم لأن ثلاث فطائر ، ربما أربع ، كانت أكثر مما يحتفظ به المرء لنفسه. وفكرت سيث أنه يحسن دعم ذلك بدجاجتين . سلم ستامب بأن سمك الفرخ والسلور كان يتواثب إلى القارب - وأنه لم يكن حتى محتاجا إلى إسقاط سنارة .

من عينى دنفر المستثارتين تضخم الأمر إلى وليمة لتسعين شخصا . كان البيت رقم ١٢٤ يهتز من أصواتهم فى وقت متأخر من الليل. تسعون شخصا أكلوا جيدا وضحكوا كثيرا إلى درجة جعلتهم غاضبين . استيقظوا فى اليوم التالى وتذكروا سمك الفرخ المقلى بالدقيق الذى كان ستامب بيد يقلبه بغصن جوزية، وقد بسط راحة يده اليسرى يتحاشى بها فرقعة الدهن المغلى

وانطلاقه، وبودنج الذرة بالقشدة، والأطفال المتعبين المتخمين نائمين على العشب، وبأيديهم ماتزال عظام دقيقة لأرنب مشوى.

واستبد بهم الغضب.

ارتفع عدد فطائر بيبى سجز من ثلاث (ربما أربع) إلى عشر (ربما أثنتى عشرة). أصبحت دجاجتا سيث خمسة ديوك رومية. أصبح لوح الثلج الذى جلب على طول الطريق من سنسناتى ـ الذى كانوا يصبون فوقه البطيخ المهروس بالسكر والنعناع ليصنعوا منه شرابا مسكرا ـ حمولة عربة من قطع الثلج لملء حوض اغتسال ملىء بعصير الفراولة. جعلهم البيت رقم ١٢٤، وهو يتأرجح من الضحك، والنية الطيبة وطعام لتسعين شخصا، غاضبين. قالوا لأنفسهم، هذا أكثر من اللازم. من أين حصلت بيبى سجز التقية عليه؟ لماذا تكون هى وعائلتها مركز الأشياء؟ كيف يتأتى لها أن تعرف دائما ماتفعله بالضبط ومتى؟ تبذل النصح؛ تنقل الرسائل؛ تشفى المرضى، تخفى الهاربين؛ تحب، تطبخ، تطبخ، تحب، تعظ، تغنى، ترقص وتحب كل واحد كما لو كانت تلك مهمتها ومهمتها وحدها.

والآن أن تأخذ دلوين من التوت الأسود وتصنع عشر فطائر، ربما اثنتى عشرة؛ أن يكون لديها من الديوك الرومية مايكفى للبلدة بأكملها تقريبا، وفاصوليا جديدة فى سبتمبر، وقشدة طازجة بدون بقرة، ثلج وسكر، وخبز باللبن المخضوض والبيض وبودنج بالخبز، وخبز مخمر، وكعك ناعم ـ أغضبهم هذا. كانت الأرغفة والسمك من معجزات المسيح ـ لم تكن تخص أمة سابقة من الممكن ألا تكون قد حملت أبدا مائة رطل إلى الميزان، أو

جمعت البامية بطفل على ظهرها من لم تساط أبدا بواسطة صبى أبيض فى العاشرة من عمره كما يعلم الله أنه حذث لهم. من لم تنج حتى من العبودية ـ بل **اشترى** حريتها ، فى الحقيقة ، ابن محب **ونقلت** إلى نهر أوهايو فى عربة ـ وأوراق حريتها مطوية بين ثدييها (يقودها نفس الرجل الذى كان سيدها، الذى دفع أجر إعادة توطينها ـ واسمه جارنر) ، وأجرت بيتا ذا طابقين وبئراً من آل بودوين ـ الأخ وشقيقته من البيض اللذين كانا يعطيان ستامب بيد وايللا وجون ملابس وسلعا وعدة للهاربين لأنهما كانا يكرهان العبودية أسوأ مما كانا يكرهان العبيد .

أغضبهم هذا . ابتلعوا صودا الخبز فى الصباح التالى ليهدئوا اتقاد مِعْداتهم الذى تسبب فيه السخاء ، الكرم الطائش المعروض فى البيت رقم ١٢٤ . تهامسوا فيما بينهم فى الأفنية عن الفئران السمان، والمصير والكبرياء الذى لاداعى له .

أثقلت رائحة استنكارهم الهواء . استيقظت بيبى سجز عليها، وتساءلت عما كانت وهى تغلى جريش الذرة لاحفادها . وفيما بعد،وهى تقف فى الحديقة ، تشق بالفأس التربة المتماسكة فوق جذور نباتات الفلفل ، شمت رائحته ثانية. وخلفها على بعد بضع ياردات إلى اليسار كانت سيث تجلس القرفصاء وسط الفاصوليا. كانت كتفاها مشوهتين من القماش القطنى الناعم المدهون بالشحم تحت ثوبها ليساعد على شفاء ظهرها . بالقرب منها فى سلة مكيال الحبوب كانت الطفلة ذات الأسابيع الثلاثة . رفعت بيبى سجز التقية عينيها إلى أعلى . كانت السماء زرقاء وصافية . ولالمسة موات فى خضرة أوراق الشجر المؤكدة.كان بوسعها أن

تسمع الطيور، وأن تسمع بشكل واهن مجرى الجدول فى المرعى. كان الجرو ، هيربوى، يدفن العظام الأخيرة المتبقية من حفل الأمس. من مكان ما بجانب البيت كانت تأتى أصوات بجلر وهوارد والطفلة التى تحبو . لم يبد أى شىء ناقصا ـ ومع ذلك كانت رائحة الاستنكار حادة. كانت قد زرعت قمحا فى الخلف فيما وراء حديقة الخضروات ، قرب الجدول ولكن فى ضوء الشمس الكامل. ومهما كان ما أقتطفوه للحفل كثيرا، كانت ماتزال هناك سنابل تنضج،بإمكانها أن تراها حيث كانت تقف. مالت بيبى سجز بمعزقتها على الفلفل وكرمات عنب العصير. اقتطعت ساق سذاب (نبات طبى أوراقه مرة) يظهر بإلحاح، بحرص بنصل الفأس وهو بزاوية قائمة . غرزت زهوره فى شق فى قبعتها؛ وطوحت بالباقى جانبا . ذكرتها أصوات قطع الخشب أن ستامب كان يؤدى العمل الذى وعد به فى الليلة السابقة. تنهدت وهى تعمل. وبعد ذلك بلحظة ، انتصبت قائمة وهى تتشمم الاستنكار مرة أخرى . ركزت انتباهها وهى تستريح على مقبض المعزقة . كانت معتادة على معرفة أن أحدا لم يكن يصلى من أجلها ـ لكن هذا النفور الذى يطفو فى الهواء طليقا كان شيئا جديدا. لم يكن البيض ـ كان بوسعها أن تدرك هذا القدر ـ ولذا فلابد أن يكون الملونون. وعندئذ عرفت . كان أصدقاؤها وجيرانها غاضبين منها لأنها تجاوزت حدها، وأعطت الكثير، وأساءت إليهم بإسرافها .

أغمضت بيبى سجز عينيها . لعلهم كانوا على حق. وفجأة شمت رائحة شىء آخر خلف رائحة الاستنكار ، خلفها بكثير .

غامض وقادم . شيء لم يكن بوسعها أن تصل إليه لأن الرائحة الأخرى أخفته .

اعتصرت عينيها بشدة لترى ماذا كان؛ لكن كل ماأمكنها أن تكشفه هو الحذاء العالى الرقبة الذى لم يرقها منظره .

راحت تشق بالمعزقة ، محبطة لكنها تتساءل . ماذا يمكن أن يكون؟ هذا الشيء الغامض القادم. ماالذى بقى ليؤلمها الآن؟ أنباء عن موت هال؟ لا . فقد استعدت لهذا أفضل مما أستعدت لحياته . آخر أطفالها ، الذى لم تكد تلقى عليه نظرة عندما ولد لأن الأمر لم يكن يستحق عناء محاولة أن تعرف ملامح لم تكن لتراها أبدا تتحول إلى سن النضوج على أية حال. كانت قد فعلت ذلك سبع مرات: أمسكت بقدم صغيرة ، تفحصت أطراف الأصابع السمينة بأطراف أصابعها - أصابع لم ترها أبدا تتحول إلى أيدٍ مذكرة أو مؤنثة تستطيع الأم أن تتعرف عليها فى أى مكان. لم تعلم حتى هذا اليوم شكل أسنانهم الدائمة؛ أو كيف كانوا يرفعون رءوسهم عندما يسيرون . هل فقدت باتى لثغتها؟ أى لون أكتسبه جلد فيماس أخيرا؟ هل كان ذلك طبع حسن فى ذقن جونى أو مجرد غمازة ستختفى ما أن يتغير عظم فكه؟ أربع بنات، وآخر مرة رأتهن فيها لم يكن تحت أذرعهن شعر . أما تزال آرديليا تحب ظهر الخبز المحترق؟ السبعة كلهم رحلوا أو ماتوا . ماجدوى النظر بشدة إلى ذلك الطفل الأصغر؟ لكنهم لسبب ما تركوها تحتفظ به. كان معها - فى كل مكان.

عندما آذت عظمة الحرقفة فى كارولينا كانت صفقة حقيقية (تكلفت أقل من هال، الذى كان عمره آنذاك عشر سنوات) بالنسبة

لمستر جارنر ، الذى أخذهما إلى كنتاكى إلى مزرعة يقال لها سويت هوم. وبسبب مفصل الورك كانت ترتج مثل كلب له ثلاثة أرجل عندما تمشى . ولكن فى سويت هوم لم يكن هناك حقل أرز أو رقعة تبغ على امتداد البصر، ولم يطرحها أحد،أى أحد، أرضا. ولامرة ، كانت ليليان جارنر تدعوها جينى لسبب ما لكنها لم تكن تدفعها مطلقا، أو تسبها سبا بذيئا.حتى عندما أنزلقت فى روث البقر وكسرت كل بيضة فى مئزرتها لم يقل أحد أنت - أيتها - البغى السوداء - ماذا دهاك ولم يطرحها أحد أرضا .

كان سويت هوم صغيرا جدا بالمقارنة إلى الأماكن التى ذهبت إليها. كان السكان جميعا يتألفون من مستر جارنر، مسز جارنر هى ، هال، وأربعة صبية،أكثر من نصفهم اسمهم بول. كانت مسز جارنر تدندن حين تعمل؛ كان مستر جارنر يتصرف كأن العالم لعبة من المفروض أن يلهو بها. لم يكن أيهما يريدها فى الحقل - فقد كان صبية مستر جارنر ، بما فيهم هال، يقومون بكل ذلك - وهو ما كان نعمة إذ أنها لم تكن تستطيع أن تتدبرها على أى حال. كان ما تفعله هو أن تقف بجوار مسز ليليان المدندنة وكلتاهما تطبخان ، تحفظان الفاكهة، تغسلان ، تكويان، تصنعان الشمع، الملابس، الصابون وعصير التفاح، تطعمان الدجاج ، الخنازير، الكلاب والبط، تحلبان الأبقار، تخضان الزبد، تصنعان دهن الخنزير، تشعلان المدافىء.... لاشىء آخر . ولم يكن أحد يطرحها أرضا .

كان مفصل وركها يؤلمها كل يوم - لكنها لم تكن تتحدث عنه مطلقا . هال فقط ، الذى كان يراقبها عن كثب خلال السنوات الأربع

السابقة، كان يعلم أنها كان عليها لتغادر السرير أن ترفع فخذها بكلتا يديها ، وهو السبب الذى خاطب مستر جارنر من أجله بشأن شراء حريتها من هناك حتى يمكنها أن تجلس من باب التغيير . الصبى اللطيف . الشخص الوحيد الذى فعل شيئا شاقا من أجلها: أعطاها عمله، حياته والآن أطفاله ، الذين كان بوسعها أن تميز أصواتهم وهى تقف فى الحديقة تتساءل عما هو الشىء الغامض القادم وراء رائحة الاستنكار . كان سويت هوم تحسنا ملحوظا . بلا جدال . ولايهم، لأن الحزن كان فى منتصفها البائس حيث سكنت الذات التى لم تكن ذاتا. ومهما كان محزنا أنها لم تكن تعلم أين كان أبناؤها مدفونين وكيف كانوا يبدون إذا كانوا أحياء، فالحقيقة أنها كانت تعلم عنهم أكثر مما كانت تعلم عن نفسها، إذ لم يكن لديها أبدا الخريطة التى تكتشف بها ماكانت عليه .

هل كان بإمكانها الغناء؟ (هل كان لطيفا أن تسمع عندما تغنى؟).هل كانت جميلة؟ هل كانت صديقة طيبة؟ هل كان يمكن أن تكون أما محبة؟ زوجة مخلصة؟ هل لى أخت وهل تفضلنى؟ لو عرفتنى أمى هل كانت لتحبنى؟

فى بيت ليليان جارنر، معفاة من العمل فى الحقل الذى كسر حرقفتها والإرهاق الذى بلد عقلها؛ فى بيت ليليان جارنر حيث لم يكن أحد يطرحها أرضا (أويرفعها)، كانت تصغى إلى المرأة البيضاء تدندن وهى تعمل؛ تراقب وجهها يضىء حين يأتى مستر جارنر وتقول لنفسها، هنا أفضل، لكننى لست أفضل. كان آل جارنر، فيما يبدو لها، يديرون عبودية من نوع خاص، إذ يعاملونهم كأنهم عمال يدفع لهم أجر ، ينصتون إلى مايقولون،

يعلمونهم مايريدون معرفته. ولم يكن يَسِمْ صبيانه . لم يكن يأتى بهم إلى كوخها بتعليمات أن « يرقدوا معها ، » مثلما كانوا يفعلون فى كارولينا، أو يؤجرون جنس عبيدهم بالخارج فى مزارع أخرى . كان هذا يدهشها ويسرها ، لكنه كان يقلقها أيضا. هل كان ليتخير لهم نساء أو ماذا كان يظن أنه سيحدث عندما يصطدم هؤلاء الصبية بعنف بطبيعتهم؟ كان يخطب ود خطر ما وكان يعلم ذلك بالتأكيد. والحقيقة ، أن الأمر الذى أصدره إليهم ألا يتركوا سويت هوم، إلا بصحبته ، لم يكن بسبب القانون بقدر ماكان بسبب العبيد المتسيبين الذين قام رجال على تربيتهم لهذا الغرض .

كانت بيبى سجز تتكلم قليلا بالقدر الذى يمكنها أن تفلت به ، فماذا كان هناك ليقال ويمكن لجذور لسانها أن تتحكم فيه ؟ وهكذا كانت المرأة البيضاء تدندن لنفسها وهى تعمل، وقد وجدت عبدتها الجديدة عونا ممتازا وإن كان صامتا .

عندما وافق مستر جارنر على الترتيبات مع هال، وعندما بدا هال أنه معنيا بأن تتحرر أكثر من أى شىء فى الوجود ، تركت نفسها تحمل عبر النهر. من بين أمرين شاقين ـ أن تقف على قدميها حتى تسقط أو أن تترك طفلها الأخير وربما الوحيد على قيد الحياة ـ اختارت الأمر الصعب الذى يجعله سعيدا، ولم تطرح عليه مطلقا السؤال الذى كانت تطرحه على نفسها: لماذا؟ لماذا تحتاج عبدة فى الستين ونيف من عمرها تسير مثل كلب بثلاثة أرجل إلى الحرية؟ وعندما وضعت قدمها على أرض حرة لم يكن بوسعها أن تصدق أن هال يعرف مالا تعرفه؛ أن هال ، الذى لم

يستنشق نفسا حرا واحدا، يعرف أن هذا لم يكن يدانيه شيء فى الوجود . كان هذا يفزعها.

فى الأمر شيء.ماذا هناك؟ ماذا هناك؟ سألت نفسها. لم تكن تعرف كيف تبدو ولم تكن فضولية . لكنها رأت يديها فجأة وفكرت بوضوح بسيط مثلما كان باهرا. «هذه الأيدى تخصنى . هاتان يداى؟» بعد ذلك شعرت بطرق فى صدرها وأكتشفت شيئا آخرا جديد: نبض قلبها . هل كان هناك طيلة الوقت؟ هذا الشيء الدقاق؟ شعرت أنها أشبه ببلهاء وبدأت تضحك بصوت عال. ألقى مسترجارنر عليها من فوق كتفه نظرة بعينين عسليتين واسعتين وابتسم لنفسه. «ماالذى يضحكك ياجينى؟»

لم تتمكن من التوقف عن الضحك قالت: «قلبى ينبض» .

وكان ذلك صحيحا .

ضحك مستر جارنر. «لاشيء يخيف فى هذا ، ياجينى . فقط حافظى على أساليبك نفسها، وستكونين على مايرام . »

غطت فمها لتمنع نفسها من الضحك بصوت عال .

« سوف يعطيك هؤلاء الناس الذين آخذك إليهم ما تحتاجينه من مساعدة. اسمهم بودوين . أخ وأخت . اسكتلنديان . ظللت أعرفهم عشرين عاما أو أكثر.»

رأت بيبى سجز أن الوقت مناسب لأن تسأله شيئا كانت تريد معرفته من زمن .

قالت: «مستر جارنر، لماذا تدعونى جينى؟»

«لان هذا ماهو موجود على بطاقة بيعك، يافتاة . أليس ذلك اسمك؟ ماسمك؟»

قالت: «لاشيء . لا أدعو نفسى شيئا» .

أحمر وجه مستر جارنر من الضحك. «عندما أخرجتك من كارولينا، أسماك ويتلو «جينى» وكانت فاتورته تقول جينى ويتلو ألم يكن يدعوك جينى؟»

«لا،ياسيدى . إذا كان يفعل ذلك فأنا لم أسمعه».

« لاى اسم كنت تستجيبين؟»

«أى شىء ، لكن اسم زوجى سجز».

«هل تزوجت،ياجينى؟ لم أكن أعرف.»

«على حد القول.»

«هل تعرفين أين هو، هذا الزوج؟»

« لا،ياسيدى . »

« هل هو والد هال؟»

« لا ياسيدى . »

« لماذا تسمينه سجز، إذن؟ فاتورة شرائه تقول ويتلو أيضا، تماما مثل فاتورتك» .

«سجز هو اسمى،ياسيدى. من زوجى . لم يكن يدعونى جينى . »

« ماذا كان يدعوك؟»

« بيبى . »

قال مستر جارنر ، ووجهه يتورد ثانية: «حسنا ، لوكنت مكانك لحافظت على جينى ويتلو . فليس مسز بيبى سجز اسما يلائم زنجية متحررة.»

قالت لنفسها، ربما لا ، لكن بيبى سجز كان كل مابقي لها من «الزوج» الذى زعمته . رجل جاد مكتئب علمها كيف تصنع أحذية. عقد الاثنان ميثاقا: أيهما واتته الفرصة للهرب عليه أن يغتنمها؛ الاثنان إذا أمكن ، ووحده إذا لم يكن بالإمكان ، ولاينظر خلفه. واتته فرصته، ولما لم تسمع عكس هذا أبدا فإنها اعتقدت أنه أفلح. والآن كيف كان بوسعه أن يكتشف أو أن يسمع عنها إذا كانت تسمى نفسها باسم فاتورة بيع؟

لم تتمكن من التغلب على المدينة . ناس أكثر من كارولينا ومايكفى من البيض لايقاف التنفس. فى كل مكان أبنية من طابقين، وأرصفة مصنوعة من شرائح خشبية مقطعة بإحكام وشوارع باتساع بيت جارنر كله .

قال مستر جارنر: «هذه مدينة مياه. كل شيء يسافر عن طريق الماء وما لايمكن للنهر أن يحمله تحمله القنوات. مدينة ملكة، ياجينى . كل ماحلمت به أبدا، يصنعونه هنا تماما. مواقد حديدية، أزرار ، سفن، قمصان، فرش شعر، طلاء ، آلات بخارية، كتب. نظام صَرف تجحظ له عيناك . أوه، هذه مدينة ، حقا . إذا كان عليك أن تعيشى فى مدينة ـ فهذه هى.»

كان آل بودوين يعيشون فى منتصف شارع يغص بالبيوت والأشجار. وثب مستر جارنر وربط حصانه إلى عمود حديدى صلب.

«هاقد وصلنا.»

التقطت بيبى صرتها وهبطت بصعوبة بالغة، بسبب حرقفتها وساعات من الجلوس فى عربة. كان مستر جارنر يسبقها على الرصيف وإلى الشرفة قبل أن تلمس الأرض، لكنها أختلست نظرة إلى وجه فتاة زنجية عند الباب المفتوح قبل أن تتبع الممر الذى يؤدى إلى خلف البيت. أنتظرت مابدا لها زمنا طويلا قبل أن تفتح نفس الفتاة باب المطبخ وتقدم لها مقعدا بجوار النافذة.

سألتها الفتاة: «هل أستطيع أن آتيك بشىء تأكلينه، ياسيدتى؟»

«لا، ياعزيزتى. أعتبره جميلا لو أتيت لى ببعض الماء رغم هذا.» ذهبت الفتاة إلى الحوض وضخت ملء قدح ماء. وضعته بين يدى بيبى سجز. «اسمى جانى ياسيدتى».

شربت بيبى كل نقطة ماء على الرغم من أنه كان له مذاق دواء خطير، وهى تعجب للحوض. قالت: «سجز،» وهى تجفف شفتيها بظهر يدها. «بيبى سجز».

« يسرنى أن ألقاك، يامسز سجز، هل ستبقين هنا؟»

« لا أدرى أين سأكون. مستر جارنر - هو ذلك الذى أتى بى إلى هنا - يقول إنه يرتب لى شيئا.» ثم، «أنا حرة، تعرفين.»

ابتسمت جانى: «أجل، ياسيدتى».

«هل يعيش أهلك فى هذه الناحية؟»

« نعم ياسيدتى.كلنا نعيش فى بلوستون».

قالت بيبى سجز : «نحن تفرقنا ، لكن ربما لن يدوم هذا طويلا.»

قالت لنفسها، ياالله العظيم، أين أبدأ؟ هل أدع أحدا يكتب إلى ويتلو العجوز. لأرى من أخذ باتى وروزالى . شخص اسمه دن أخذ أرديليا واتجه غربا، فيما سمعت. لاجدوى من محاولة البحث عن تايرى وجون. فقد هربا من ثلاثين سنة مضت، وإذا بحثت بجد وكانا مختبئين ، فالعثور عليهما سوف يسبب أذى أكثر مما يأتئ بخير. وقد ماتت نانسى وفيمص فى سفينة قرب ساحل فرجينيا قبل أن تقلع إلى سافاناه . كانت تعرف ذلك القدر . أتاها ملاحظ العمال الذى كان يعمل فى بيت ويتلو بالأنباء ، بدافع من رغبة فى أن يفعل بها ما يحلو له أكثر منه بدافع حنو قلبه. انتظر القبطان ثلاثة أسابيع فى الميناء، ليحصل على شحنة كاملة قبل أن يقلع . من بين العبيد الذين كانوا فى مخزن السفينة والذين لم ينجوا ، هكذا قال ، كان هناك طفلتان زنجيتان يمتلكهما ويتلو باسم ...

لكنها عرفت اسميهما . عرفت وغطت أذنيها بقبضتيها حتى لاتسمعه ينطق بهما.

سخنت جانى بعض الحليب وصبته فى طاس بجوار طبق به خبز ذرة . وبعد بعض الملاطفة جاءت بيبى سجز إلى المائدة وجلست. فتت الخبز فى الحليب الساخن واكتشفت أنها كانت أكثر

جوعا مما كانت طيلة حياتها على الإطلاق وكان ذلك يعنى شيئا .

«سوف يفتقدون هذا؟»

قالت جانى : «لا . كلى كل ماتريدين ؛ إنه لنا».

« هل يعيش هنا أحد آخر؟»

« أنا فقط . أما مستر وودرف فإنه يقوم بالأعمال الخارجية. وهو يأتى مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع».

«أنتما الاثنان فقط؟»

«نعم ، ياسيدتى . أنا أقوم بالطبخ والغسيل».

«ربما يعرف ناسك شخصا يبحث عن معاونة».

«سوف أسأل، لكننى أعرف أنهم يأخذون نساء فى السلخانة».

«ماذا يفعلون».

«لا أعرف».

« شيئا لايريد الرجال أن يفعلوه ، فيما أظن».

«ابنة عمى تقول أنك تحصلين على كل اللحم الذى تريدينه ، زائد خمسة وعشرين سنتا فى الساعة. هى تصنع السجق الصلب.»

رفعت بيبى سجز يدها إلى قمة رأسها . نقود؟ نقود؟ سوف يدفعون لها نقودا كل يوم؟ نقود؟

سألتها: «أين هذه السلخانة؟»

قبل أن تجيب جانى دخل آل بودوين المطبخ وخلفهما مستر جارنر يبتسم ابتسامة عريضة. أخ وأخت بشكل لايمكن إنكاره، كلاهما يرتدى ملابس رمادية؛ لهما وجهان شابان بالنسبة لشعرهما الأبيض بلون الثلج.

سأل الأخ. «هل أعطيتها شيئا تأكله يا جانى؟»

«نعم، يا سيدى.»

قالت الأخت: «أبقى جالسة ياجينى» وتطور هذا الخبر الطيب إلى ماهو أفضل.

عندما سألوها عن أى عمل يمكنها القيام به، سألت عن السلخانة، بدلا من أن تسرد مئات الأعمال التى قامت بها. قالا إنها أكبر من أن تتحمل هذا.

قال مستر جارنر: «إنها أفضل اسكافية ستراها فى حياتك».

رفعت الأخت بودوين حاجبيها السوداوين الكثيفين: «من علمك هذا؟»

قالت بيبى سجز «عبد علمنى».

«أحذية جديدة. أم مجرد إصلاح؟»

«جديدة، قديمة، أى شىء».

قال الأخ بودوين: «حسنا، ذلك مفيد، لكنك سوف تحتاجين إلى أكثر».

سألتها الأخت بودوين: «ماذا عن تلقى الغسيل؟»

« نعم ، ياسيدتى».

« سنتان للرطل».

« نعم ، ياسيدتى. ولكن أين التلقى؟»

« ماذا ؟»

«قلت تلقى الغسيل ' أين التلقى ؟ أين سأكون . »

قال مستر جارنر: «أوه ، أنصتى فقط لهذا، ياجينى، هذان الملاكان.لديهما بيت لك. مكان يملكانه من زمن بعيد.»

كان يخص جديهما قبل أن ينتقلا إلى المدينة . وكان قد أجر مؤخرا لإيداع طرد من الزنوج، الذين تركوا الولاية. كان بيتا أكبر من أن تسكن فيه جينى بمفردها، هكذا قالا (غرفتان بالطابق العلوى ، غرفتان بالطابق السفلى)، لكنه كان أفضل مايمكنهما عمله، والشىء الوحيد الذى يمكنهما عمله. كانا ليسمحا لها بالإقامة هناك فى مقابل غسل الملابس ، بعض أعمال الخياطة، قليل من التعليب وهكذا (أوه، الأحذية أيضا) . على شرط أن تكون نظيفة . فالطرد السابق من الملونين لم يكونوا نظيفين . وافقت بيبى سجز على الوضع ، آسفة أن ترى النقود تذهب ولكن مستثارة بشأن بيت له درج - ولايهم إن لم يكن باستطاعتها الصعود عليه. أخبر مستر جارنر آل بودوين أنها كانت طباخة رائعة مثلما هى اسكافية رائعة وأظهر كرشه والعينة التى بقدمية ضحك الجميع .

قالت الأخت: « إذا أحتجت أى شىء، بلغينا . نحن لانؤمن

بالعبودية ، حتى من نوعية عبودية جارنر.»

«أخبريهم ، ياجينى. هل عشت حياة أفضل فى أى مكان قبل بيتى؟»

قالت: «لا ، ياسيدى. لامكان.»

« كم بقيت فى سويت هوم؟»

« عشر سنوات ، أعتقد».

« هل جعت أبدا؟»

«لا ، ياسيدى . »

« شعرت بالبرد؟»

« لا، ياسيدى».

« هل مسك أحد بأذى؟»

« لا ياسيدى».

« هل سَمحتُ لهال أن يشتريك أم لا؟»

قالت: «نعم،ياسيدى ، فعلت ، » وهى تفكر ، لكن لديك ولدى، وأنا محطمة. سوف تظل تستأجره بعد أن أرحل إلى الأمجاد السماوية بوقت طويل.

قالوا إن وودرف سوف يحملها إلى هناك ، واختفى الثلاثة من باب المطبخ .

قالت جانى: «علىّ أن أعد العشاء الآن .»

قالت بيبى سجز: « سأساعدك. أنت أقصر من أن تبلغى النار. »

كان الظلام قد خيم حين جاء وودرف يطقطق بالحصان وهو يخب . كان شابا له لحية كثيفة ورقعة محترقة على فكه لم تخفها اللحية .

سألته بيبى سجز: «هل ولدت هنا؟»

«لا، ياسيدتى . فى فرجينيا . أنا هنا من سنتين».

«فهمت» .

« ستذهبين إلى بيت لطيف . كبير أيضا. كان هناك واعظ وأسرته.ثمانية عشر طفلا . »

«يالرحمة الله . أين ذهبوا؟»

« رحلوا إلى إلينوى . أعطاه الأسقف ألن أبرشيه هناك كبيرة . »

« أية كنائس حولنا هنا؟ لم أطأ واحدة خلال عشر سنوات.»

« كيف حدث هذا ؟ »

« لم يكن هناك واحدة. كنت أكره المكان الذى كنت فيه قبل المكان الأخير ، لكننى كنت أذهب إلى الكنيسة كل أحد بشكل ما. أراهن أن الرب لم ينس من أنا الآن. »

« اذهبى لرؤية الكاهن بايك. وسوف يعيد تعريفك» .

« لن أحتاجه لهذا . استطيع أن أقوم بتعريف نفسى. ما أحتاج إليه فيه هو أن يعيد تعريفى بأطفالى ، يستطيع أن يقرأ ويكتب . فيما أظن ؟ »

« بالتأكيد».

« طيب، لأن علىّ أن أقوم بكثير من التنقيب. » لكن الخبر الذى خرجوا به كان مثيرا للإشفاق إلى حد أنها كفت. بعد سنتين من الرسائل كتبها الواعظ بيده، سنتين من الغسيل، والخياطة والتعليب وعمل الأحذية، وفلاحة البساتين والجلوس فى الكنيسة. كان كل ماأكتشفته هو أن بيت ويتلو قد أنقضى وأنكِ لا يمكنكِ الكتابة «لشخص اسمه دن» إذا كان كل ماتعرفينه أنه اتجه غربا. كان الخبر الطيب، على أية حال، هو أن هال قد تزوج وأنه ينتظر طفلا. استقرت على هذا وعلى علامتها المميزة فى الوعظ، بعد أن قررت ماتفعله بقلبها الذى بدأ ينبض فى اللحظة التى عبرت فيها نهر أوهايو. وقد حقق هذا نجاحا، حقق نجاحا رائعا بحق، حتى تملكها الغرور وتركت مرأى زوجة ابنها وأطفال هال يغمرها - وقد ولدت واحدة منهم فى الطريق - وأقامت احتفالا بالتوت يتوارى بجانبه عيد الميلاد. فوقفت الآن فى الحديقة تشم رائحة الاستنكار، وتشعر بشيء غامض وقادم، وترى حذاء برقبة عالية لم يرق لها منظره على الإطلاق. على الإطلاق.

عندما جاء الفرسان الأربعة - المدرس ، وأحد صائدى العبيد ، وأحد أبناء الأخ ،والمأمور- كان البيت الذى يقع فى شارع بلوستون هادئا إلى درجة أنهم ظنوا أنهم جاءوا متأخرين . ترجل ثلاثة منهم، وظل واحد منهم فى الركاب، ببندقيته فى وضع استعداد، وهو يسدد عينيه من البيت إلى اليسار والى اليمين ، لأنه من المحتمل أن يندفع الهاربون اليه . على الرغم من أنك أحيانا ، ودون أن تعرف لماذا، قد تجدهم منطوين بإحكام فى مكان ما: تحت ألواح الأرضية الخشبية ، فى الكرار - وذات مرة فى المدخنة . حتى عندئذ كان الحذر واجبا ، لأن أشدهم هدوءا ، أولئك الذين كنت تجذبهم من خزانة ، مخزن تبن، أو كما حدث مرة من مدخنة ، كانوا يمضون بهدوء لثانيتين أو ثلاث . أما وقد قبض عليهم متلبسين، على حد القول ، فإنهم كانوا يبدون كما لوكانوا يعرفون عدم جدوى أن يفوقوا الرجل الأبيض دهاء وعجزهم عن النجاة من البندقية . بل يبتسمون، مثل طفل ضبط ويده فى جرة الجيلى، وعندما تمتد يدك إلى الحبل لتربطه، حسنا، حتى عندئذ لم تكن لتعرف. فإن نفس العبد الذى كانت رأسه تتدلى وابتسامة جرة الجيلى الصغيرة على وجهه كان ليزأر فجأة مثل ثور أو شىء من هذا القبيل، ويشرع فى اتيان أشياء لايصدقها عقل. يقبض على فوهة البندقية؛ يلقى بنفسه على من يمسك بها. أى شىء. لذا كان عليك أن تقف مبتعدا خطوة، وأن تدع شخصا آخر يقوم بربطه.

وإلا انتهى بك الأمر إلى قتل من قبضت ثمن إحضاره حيا فبخلاف ثعبان أو دب ، لم يكن بالإمكان سلخ جلد عبد ميت لتحقيق ربح ولم يكن يستحق ثمن وزنه ميتا .

كان ستة أو سبعة زنوج يقطعون الطريق إلى البيت: صبيان عن يسار الصائد وبعض النسوة عن يمينه. أشار اليهم ببندقيته أن يقفوا ساكنين ووقفوا فى أماكنهم . عاد ابن الأخ من إلقاء نظرة متلصصة داخل المنزل، وبعد أن لمس شفتيه مشيرا بالصمت، أشار بإبهامه ليقول إن من يبحثون عنهم كانوا فى الخلف. ترجل صائد الزنوج عندئذ ولحق بالآخرين . انتقل المدرس وابن الأخ إلى يسار المنزل؛ هو والمأمور إلى يمينه . وكان زنجى عجوز مخبول يقف وسط كومة الخشب ومعه فأس . كان بوسعك أن تعرف أنه مخبول على الفور لأنه يموء - يصدر أصواتا خافتة مثل أصوات القطط . وعلى بعد أثنتى عشرة ياردة وراء هذا الزنجى كان هناك آخر - أمرأة قد رشقت زهرة فى قبعتها . مخبولة أيضا ، ربما لأنها هى الأخرى كانت تقف ساكنة بلا حراك - لكنها تحرك يديها كالمروحة كما لو كانت تدفع خيوط عنكبوت بعيدا عن طريقها . كان كلاهما ، على أية حال ، يحدق فى نفس المكان - سقيفة . مشى ابن الأخ إلى الزنجى العجوز وأخذ منه الفأس . ثم اتجه الأربعة جميعا إلى السقيفة .

بالداخل ، كان صبيان يدميان فى نشارة الخشب والتراب عند أقدام أمة تضم بإحدى يديها طفلة غارقة فى الدماء إلى صدرها

وتمسك باليد الأخرى طفلة من عقبيها. لم تكن تنظر إليهما؛ كانت تؤرجح الطفلة الرضيعة لاغير باتجاه ألواح خشب الجدار، تخطىء الهدف وتحاول أن توصلها مرة ثانية، عندما اندفع الزنجى العجوز ، وهو مايزال يموء - فى نفس اللحظة التى قضاها الرجال محدقين فيما كان هناك ليحدقوا فيه - خلال الباب من خلفهم واختطف الطفلة الرضيعة بأن تلقفها بينما كانت أمها تؤرجحها .

وضح على الفور ، بالنسبة للمدرس على الأخص ، أنه لم يكن هناك مايطالب به . فالأطفال الثلاثة الزنوج (أربعة الآن - لأنها كانت على وشك ولادة الطفلة عندما هربت) الذين كانوا يأملون أنهم أحياء وبصحة طيبة ليعيدوهم إلى كنتاكى ، ليعيدوهم حتى يربوهم بشكل ملائم ليؤدوا العمل الذى كان سويت هوم فى حاجة ماسة إليه، لم يكونوا أصحاء. كان أثنان منهما يرقدان فى النشارة مفتوحى الأعين؛ والثالثة تضخ دما على ثوب الزنجية الرئيسية - المرأة التى كان المدرس يتباهى بها، المرأة التى كان يقول إنها تصنع حبرا رائعا ، وحساء طيبا للغاية ، وتكوى ياقاته بالشكل الذى يروق له إلى جانب أنها قادرة على الانجاب لعشر سنوات قادمة . لكنها الآن قد جنت ، بسبب إساءة معاملتها على يدى ابن أخيه الذى أوسعها ضربا وجعلها تفر وتهرب. كان المدرس قد وبخ ابن الأخ ذلك، قائلا له أن يفكر - مجرد أن يفكر - ماذا كان حصانه هو نفسه ليفعل إذا ضربته إلى أبعد من حدود التعليم.أو تشيير أو شمشون . افرض أنك ضربت كلاب الصيد إلى أبعد من هذا الحد بهذا الشكل. لم يكن بوسعك أن تثق فيها فى الغابة أو فى أى مكان آخر. ربما تطعمهم، وأنت تمد لهم قطعة

من أرنب فى يدك فيرتد الحيوان - ويقضم يدك حتى يبترها بترا. ولذلك عاقب ابن الأخ ذلك بأنه لم يسمح له أن ينضم إلى المطاردة. جعله يبقى هناك، يطعم الحيوانات، يطعم نفسه، يطعم ليليان ، ويرعى المحاصيل. ليرى كيف يروق له هذا ؛ لترى مايحدث عندما تتمادى فى ضرب مخلوقات جعلك الله مسؤولا عنهم - الازعاج الذى سببه والخسارة. المجموعة كلها فقدت الآن. خمسة. كان بوسعة أن يطالب بالطفلة التى تقاوم بين ذراعى العجوز الذى يموء، ولكن من كان ليُغْنى بها ؟ لأن المرأة - كان بها خلل. كانت تنظر اليه الآن ، ولو أن ابن أخيه الآخر كان بإمكانه أن يرى تلك النظرة لاستوعب الدرس بالتأكيد: أنت لاتستطيع بكل بساطة أن تسىء معاملة المخلوقات وتتوقع النجاح .

لم يكن ابن الأخ، الذى رضع لبنها بينما كان أخوه يثبتها إلى الأرض، يعلم أنه كان يرتجف. كان عمه قد حذره من ذلك النوع من الفوضى، ولكن يبدو أن التحذير لم يفلح. لماذا ذَهَبَتْ وفَعَلَتْ ذلك؟ بسبب علقة؟ ياللجحيم ، لقد نال مليون علقة وكان أبيض . ذات مرة أوجعه الضرب بشدة وجن جنونه حتى أنه كسر دلو البئر. ومرة أخرى انتقم لنفسه من شمشون - كان كل مافعله أن طوح بضع صخور. لكن لم يحدث أن جعلته علقة أبدا ... أعنى لم يكن هناك سبيل أن يستطيع ... لماذا ذَهَبَتْ وَفَعَلَتْ ذلك؟ وكان ذلك هو السؤال الذى طرحه على المأمور، الذى كان يقف هناك مذهولا مثل الآخرين ، ولكن دون أن يرتجف. كان يزدرد ريقه بصعوبة، مرارا وتكرارا . «لماذا تريد أن تذهب وتفعل ذلك؟»

استدار المأمور ثم قال للثلاثة الآخرين : «يحسن بكم جميعاً

أن تمضوا. يبدو أن مهمتكم أنتهت. وقد بدأت مهمتى.»

طرق المدرس قبعته على فخذه وبصق قبل أن يغادر سقيفة الخشب. تراجع الصائد وابن الأخ معه . لم ينظروا إلى المرأة الواقفة بين نباتات الفلفل وقد رشقت زهرة فى قبعتها،ولم ينظروا إلى الوجوه السبعة أو نحو ذلك التى زحفت ببطء إلى الامام رغم تحذير بندقية الصائد. فقد نالوا مايكفى من عيون الزنوج فى تلك اللحظة . عينا صبى زنجى صغير . مفتوحتان على اتساعهما وسط نشارة الخشب؛ عينا فتاة زنجية صغيرة تحدق من بين الأصابع المبللة التى كانت تمسك بوجهها حتى لايسقط رأسها. عينا طفلة زنجية صغيرة تتجعدان استعدادا للبكاء بين ذراعى الزنجية الكبيرة التى كانت عيناها لاشىء سوى شظيتين تنظران إلى قدميه. لكن أسوأ عينين كانتا عينى المرأة الزنجية التى بدت كما لو لم يكن لها أى عيون. فلما كان بياضهما قد أختفى ولما كانتا سوداوين بلون جلدها، فإنها بدت عمياء .

فكوا من حصان المدرس البغل المستعار الذى كان سيحمل المرأة الهاربة ليعيدها إلى حيث كانت تنتمى ، وربطوه فى السور. ثم راحوا يخبون مبتعدين ، والشمس متعامدة على رءوسهم، تاركين المأمور خلفهم وسط ألعن مجموعة زنوج رأوها على الإطلاق. كلهم شهادة على نتائج قليل من الحرية المزعومة المفروضة على قوم كانوا بحاجة لكل رعاية وارشاد فى الوجود لابقائهم بعيدا عن حياة آكلى لحوم البشر التى كانوا يفضلونها .

كان المأمور يريد أن يتراجع أيضا. أن يقف فى ضوء الشمس

خارج ذلك المكان المعد لإيواء الخشب والفحم والكيروسين - وقودا لبرد شتاء أوهايو الذى فكر فيه الآن، وهو يقاوم الدافع إلى الجرى إلى ضوء شمس أغسطس . لا لأنه كان خائفا. على الاطلاق . مجرد أنه كان يشعر بالبرد. ولم يكن يريد أن يلمس شيئا. كانت الطفلة التى بين ذراعى العجوز تبكى، وعينا المرأة التى اختفى بياضها تحدق أمامها مباشرة. كان من المحتمل أن يبقى الجميع على هذه الحال، متجمدين حتى يوم الخميس، فيما عدا أحد الصبيين على الأرضية الذى تنهد . كما لو كان قد غاص فى متعة نوم عميق لذيذ، زفر الزفرة التى دفعت المأمور إلى الحركة .

«سوف يكون علىّ أن آخذك إلى الحبس الآن. لامشاكل الآن. فقد فعلتِ مايكفى للحفاظ على حياتك . هيا بنا الآن.»

لم تتحرك .

«تعالى فى هدوء، تسمعين، ولن أضطر إلى أن أوثقك. »

ظلت ساكنة وكان قد قرر أن يقترب منها وأن يقيد بشكل ما يديها الحمراوين المبللتين عندما جعله ظل خلفه بالمدخل يستدير. دخلت المرأة التى رشقت فى قبعتها زهرة .

لاحظت بيبى سجز من كان يتنفس ومن لم يكن واتجهت رأسا إلى الصبيين الراقدين فى التراب . اتجه الرجل العجوز إلى المرأة

المحدقة وقال: «سيث، خذى حمل ذراعى وأعطنى حملك.»

استدارت إليه ،.وهى تلقى نظرة على الطفلة الرضيعة التى يحملها، وند عنها صوت خافت من حلقها كما لوكانت قد ارتكبت خطأ، نسيت أن تضيف الملح إلى الخبز أو شيئا من هذا القبيل.

قال المأمور: «سوف أذهب إلى الخارج وأرسل فى طلب عربة» وخرج إلى ضوء الشمس أخيرا.

لكن لم يكن بوسع بيبى سجز أو ستامب بيد أن يجعلاها تنزل ابنتها التى كانت تحبو سلفا؟ تشبثت بها وهى تغادر السقيفة، وتعود إلى البيت. كانت بيبى سجز قد قادت الصبيين إلى الداخل وكانت تغسل رأسيهما، وتدلك أيديهما، وترفع جفونهما، وهى تهمس: «معذرة! استميحكما عذرا!» طيلة الوقت. ربطت جراحهما وجعلتهما يستنشقان الكافور قبل أن توجه عنايتها إلى سيث. أخذت الطفلة الباكية من ستامب بيد وحملتها على كتفها دقيقتين كاملتين، ثم وقفت أمام أمها.

قالت: «حان وقت إرضاع صغيرتك».

مدت سيث ذراعها لتأخذ الطفلة دون أن تدع الطفلة الميتة تفلت منها.

هزت بيبى سجز رأسها وقالت: «واحدة واحدة،» وقايضت الطفلة الحية بالطفلة الميتة؛ التى حملتها إلى داخل الغرفة الاحتياطية. عندما عادت، كانت سيث تصوب حلمة دامية فى فم الطفلة. طرقت بيبى سجز قبضتها على المنضدة وصاحت: «تنظفى! نظفى نفسك!»

أقتتلنا عندئذ . أقتتلتا مثل متنافستين على قلب المحبوب.كل منهما تناضل من أجل الرضيعة. خسرت بيبى سجز حين انزلقت فى بركة حمراء صغيرة وسقطت . وهكذا رضعت دنفر لبن أمها مع دم أختها. وكانت هذه حالهما عندما عاد المأمور ، وقد صادر عربة أحد الجيران ، وأمر ستامب أن يسوقها .

وفى الخارج توقف حشد من الوجوه السوداء الآن، عن الهمهمة. تجاوزتهم سيث، وهى تحمل طفلتها، وسط صمتهم وصمتها. صعدت إلى العربة، وصورة وجهها الجانبية نظيفة مثل سكين على خلفية من سماء زرقاء بهيجة. صورة جانبية صدمتهم بوضوحها. هل كان رأسها مرتفعا أكثر من اللازم قليلا؟ ظهرها مستقيما أكثر من اللازم قليلا؟ ربما. وإلا لبدأ الغناء فى الحال، فى اللحظة التى ظهرت فيها فى مدخل البيت الذى يقع فى شارع بلوستون . كان رداء فضفاض ليلتف بها بسرعة، كأنه ذراعان تثبتان أقدامها على الطريق . الذى حدث أنهم أنتظروا حتى استدارت العربة، واتجهت غربا إلى البلدة . وعندئذ لا كلمات . همهمة . لا كلمات مطلقا .

كانت بيبى سجز تنوى أن تجرى ، أن تثب هابطة درجات الشرفة فى أثر العربة، وهى تصرخ. لا. لا. لا تدعوها تأخذ الطفلة الأخيرة أيضا. كانت تنوى ذلك. كانت قد شرعت تفعل ذلك، لكنها عندما نهضت من أرض الحجرة وبلغت الفناء كانت العربة قد مضت وعربة تتدحرج قادمة . قفز منها صبى أحمر الشعر وفتاة

شقراء وجريا خلال الحشد باتجاهها . كان الصبى يحمل نصف فلفلة خضراء باردة فى يد وفى اليد الأخرى زوج أحذية .

كان يمسك بهما معا من لسانيهما ويقول: «ماما تقول يوم الأربعاء . تقول إن عليك أن تصلحيهما فى حدود الأربعاء».

نظرت بيبى سجز إليه ، ثم إلى المرأة التى تمسك حصانا ينتفض وتوجهه إلى الطريق .

«تقول يوم الأربعاء ، أتسمعين؟ بيبى؟ بيبى؟»

تناولت منه الحذاء - عالى الرقبة وموحلا - وهى تقول: «معذرة. ياآلهى ، معذرة . سأفعل بالتأكيد».

راحت العربة تصر على طول شارع بلوستون حتى اختفت عن الانظار . لم يتكلم أحد فيها. كانت أرجحة العربة قد جلبت النوم للطفلة . وجففت الشمس الساخنة ثوب سيث حتى تصلب ، كأنه تصلب الموت .

ليس هذا فمها .

قد يظن من لا يعرفها، أو ربما شخص لمحها من خلال ثقب الباب فى المطعم، انه فمها، لكن بول د يعرفها معرفة وثيقة . أوه، حسنا ، شيء ضئيل حول الجبهة ـ هدوء ـ يذكرك بها نوعا ما. لكن مامن سبيل يجعلك تحسب هذا فمها وهو ماقاله. أخبر به ستامب بيد الذى كان يراقبه بعناية .

«لا أدرى ، يارجل . لايبدو لى أنه شبهه . فأنا أعرف فم سيث وليس هذا فمها . » ملس على قصاصة الورق بأصابعه وحدق فيها، دون أن ينزعج مطلقا.بدا من سيماء الرزانة التى بسط بها ستامب الورقة، ومن الرقة الكامنة فى أصابع الرجل العجوز وهو يربت طياتها ويسطحها، على ركبتيه أولا، ثم على قمة الدعامة المشقوقة، ماعرف منها بول د أن الأمر لابد أن يشوش تفكيره. أن ماكان مكتوبا بها مهما كان لابد أن يهزه .

كانت الخنازير تصرخ فى الأنبوب المائل. ظل بول د وستامب بيد وعشرون آخرون يدفعونها وينخسونها من القنال إلى الشاطىء إلى الأنبوب المائل إلى السلخانة . فعلى الرغم من أن سانت لويس وشيكاغو كانتا تلتهمان الكثير من هذه التجارة عندما انتقل مزارعو الحبوب غربا، إلا أن سنسناتى كانت ماتزال ميناء الخنازير فى أذهان سكان أوهايو . كانت مهمتها الأساسية

أن تستقبل وتذبح وتشحن الخنازير التى لم يكن الشماليون يريدون أن يعيشوا بدونها إلى أعلى النهر. ولمدة شهر أو بعض شهر فى الشتاء كان أى رجل مشرد يجد عملا ، إذا كان بإمكانه أن يستنشق نتن الذبائح وأن يقف على رجليه أثنتى عشرة ساعة، وهى مهارات تدرب عليها بول د . بشكل يدعو للاعجاب .

كانت قليل من فضلات الخنزير ، بعد غسلها من كل مكان يمكنه أن يلمسها ، تظل عالقة بحذائه ، وكان واعيا بها وهو يقف هناك بابتسامة ازدراء خفيفة على شفتيه الملتويتين . كان يترك حذاءه ذا الرقبة العالية فى الحظيرة عادة ويرتدى حذاء المشى مع ثياب النهار فى الركن قبل أن يعود إلى المنزل . وهو طريق كان يؤدى به مباشرة خلال منتصف جبانة قديمة قدم السماء ، حافلة بشغب موتى ميامى الذين لم يعودا قانعين بالراحة فى الروابى التى كانت تغطيهم . فوق رءوسهم كان يسير أناس غرباء،كانت الطرق تشق خلال وساداتهم الترابية؛ وكانت الآبار والبيوت تلكزهم لتعكر راحتهم الأبدية.ولما كانوا غاضبين من حماقتهم عندما صدقوا أن الأرض مقدسة أكثر من غضبهم من الازعاجات التى تهدم سلامهم، فقد كانوا يدمدمون على شواطىء نهر ليكنج، يتنهدون فى الأشجار فى شارع كاثرين ويركبون الريح فوق أفنية الخنازير. كان بول د يسمعهم لكنه بقى لأن العمل فى جملته لم يكن شيئا، خاصة فى الشتاء حين كانت سنسناتى تستعيد مكانتها كعاصمة الذبح والمراكب النهرية . كانت الرغبة الملحة فى لحم الخنزير تتطور إلى جنون فى كل مدينة فى البلاد. كان مزارعو الخنازير يكسبون، على شرط أن يكون بإمكانهم أن يقوموا

بتربية مايكفى وأن يبيعوها فى أماكن أبعد وأبعد . وكان الألمان الذين غمروا أوهايو الجنوبية قد جلبوا معهم طبخ الخنازير وطوروه إلى أرفع أشكاله. كانت مراكب الخنازير تزحم نهر أوهايو وكان صياح قباطنتها لأحدهم الآخر فوق أصوات قبع الماشية صوتا شائعا على المياه مثله مثل صوت البط الذى يطير فوق رءوسهم. وكانت الخراف والبقر والطيور تطفو أعلى ذلك النهر وأسفله ، وكل ماعلى الزنجى أن يفعله هو أن يظهر ليجد عملا: نخس، ذبح، تقطيع، سلخ، تعبئة صناديق وإنقاذ النفايات .

على بعد مائة ياردة من الخنازير الصارخة ، وقف الرجلان خلف حظيرة تقع فى شارع ويسترن رو واتضح السبب الذى كان ستامب بيد يرمق بول د. من أجله فى هذا الأسبوع الأخير من العمل ؛ لماذا توقف حين جاءت وردية المساء ، ليجعل حركات بول د تلحق بحركاته،كان قد قرر أن يريه هذه القطعة من الورق- من الجريدة - وبها رسم لصورة امرأة تشبه سيث فيما عدا أن ذلك لم يكن فمها . لا يشبهه فى شىء .

سحب بول د القصاصة من تحت راحة يد ستامب. كانت الأحرف المطبوعة لاتعنى له شيئا ولذلك لم يلق عليها حتى نظرة. نظر فقط إلى الوجه . وهو يهز رأسه بالنفى . لا . للفم، كما ترى. ولا لأى شىء كانت تلك الخدوش السوداء تقوله، ولا لأى شىء كان ستامب بيد يريد إطلاعه عليه.لأنه لم يكن هناك سبيل فى الجحيم أن يظهر وجه أسود فى جريدة إذا كانت القصة عن أى شىء يريد أى واحد أن يسمعه. كانت خفقة خوف تنبض فى سويداء القلب إذا أبصرت وجها زنجيا فى جريدة ، لأن الوجه لم

يكن هناك لأن الشخص كان له طفل صحيح الجسم، أو لأنه نجا من السوقة فى الشوارع . ولا كان هناك لأن الشخص قد قتل ، أو شوه أو قبض عليه أو أحرق أو سجن أو جلد أو طرد أو دمغ أو اغتصب أو خدع ، حيث أن ذلك لم يكن بإمكانه أن يؤهله لأن يكون خبرا فى صحيفة . كان لابد أن يكون شيئا غير عادى . شيئا يجده الناس مثيرا ، مختلفا حقا، يستحق بضع دقائق من تلمظ الأسنان إن لم يكن من الشهقات. ولابد أنه كان من العسير العثور على أخبار عن الزنوج تستحق شهقة مواطن أبيض من سنسناتى .

من كانت إذن هذه المرأة ذات الفم الذى لم يكن فم سيث، ولكن كانت عيناها هادئة مثل عينيها تقريبا؟ التى كانت رأسها تستدير على رقبتها بالشكل الذى كان يروق له إلى درجة أن تدمع عيناه لمرآه .

وقال هذا. «ليس هذا فمها.أعرف فمها وليس هذا فمها»،قالها قبل أن يستطيع ستامب بيد أن يتكلم وحتى وهو يتكلم قالها بول د مرة ثانية . أوه، سمع كل ماكان العجوز يقوله، ولكن كلما سمع، أصبحت الشفتان فى الرسم أكثر غرابة .

بدأ ستامب بيد بالحفل، الذى أقامته بيبى سجز. لكنه توقف وتراجع قليلا إلى الخلف ليخبره عن التوت - أين كان وماكان بالأرض يجعله ينمو هكذا .

« إنه يتفتح للشمس، ولكنه لايتفتح للطيور، لأن الثعابين هناك والطيور تعرف هذا، وهكذا.ينمو فقط - ممتلئا وحلوا - لا أحد

يزعجه ماعداى لأنه لاأحد يذهب إلى تلك القطعة من الماء إلا أنا وليست هناك أرجل كثيرة راغبة فى التزحلق إلى أسفل ذلك الشط لتحصل عليه. ولا أنا لكننى كنت راغبا فى ذلك اليوم. وبطريقة أو بأخرى كنت راغبا. وقد ساطنى، أقول لك. مزقنى تماما. لكننى ملأت دلوين على أى حال . وحملتهما إلى بيت بيبى سجز، وبدأ الحفل من تلك اللحظة . إنك لم تعد ترى أبدا مثل هذا الطبخ ، خبزنا ، وقلينا ، وغلينا كل شيء وضعه الله هنا. وجاء الجميع. أتخم الجميع. طبخنا كثيرا حتى لم يبق عود حطب لليوم التالى. تطوعت أن أفعل هذا. وفى صباح اليوم التالى ذهبت ، كما وعدت، لأفعل هذا . »

قال بول د : «لكن هذا ليس فمها. ليس فمها على الاطلاق . »

نظر ستامب بيد إليه . كان سيخبره كم كانت بيبى سجز قلقة فى ذلك الصباح، كيف كان لديها طريقة فى الاصغاء إلى ماحولها؛ كيف ظلت تتطلع ببصرها إلى مايتجاوز القمح بكثير ، إلى الجدول إلى حد أنه نظر أيضا. فيما بين أرجحات الفأس، راح يراقب المكان الذى كانت تراقبه بيبى. وهو السبب فى أنه فاتهما: كانا ينظران فى الاتجاه الخاطىء - باتجاه الماء - وطوال الوقت كان يأتى على طول الطريق. أربعة . يركبون متلاصقين، كأنهم حزمة، وصالحين . كان سيخبره بذلك ، لأنه ظن أنه مهم : لماذا فاتهما هو وبيبى سجز . وعن الجماعة أيضا ، لأن ذلك كان يفسر لماذا لم يسرع أحد إلى الأمام؟ لماذا لم يرسل أحد ابنا سريع العدو ليخترق حقلا بمجرد رؤيتهم للجياد الأربعة فى البلدة مربوطة لتشرب فى حين كان الراكبون يسألون أسئلة. لا ايللا، ولاجون،

ولا أحد جرى إلى شارع بلوستون، ليقول إن بعض البيض الجدد مع البصّاص قد دخلوا البلدة لتوهم البصّاص الصالح الذى تعلم كل زنجى أن يتعرف عليه مثلما يتعرف على ثدى أمه. كأنه علم مرفوع ، كان هذا الصلاح يبرق ويعلن عن حزمة العصى، السوط، قبضة اليد، الأكذوبه، قبل أن يصبح علنيا بكثير. لم يحذرهم أحد، وقد كان يعتقد دائما أنه لم يكن الارهاق من نهم يوم طويل هو ماأصابهم بالبلادة، ولكن شيئا آخر - مثل ، حسنا، الخسة - هو ماجعلهم ينتحون جانبا، أو لايعيرون اهتماما ، أو يخبرون أنفسهم أن شخصا آخر كان من الممكن ان يكون بالفعل فى سبيله إلى البيت الذى يقع فى شاعر بلوستون يحمل الخبر، حيث كانت أمرأة جميلة تعيش منذ شهر . شابة ورشيقة مع أربعة أطفال إحداهم ولدتها بنفسها قبل يوم من وصولها إلى هناك والتى كانت تتمتع الآن بكرم بيبى سجز وقلبها الكبير العجوز كاملين. ربما كانوا يريدون أن يعرفوا ما إذا كانت بيبى حقا شيئا خاصا ، مباركة بشكل لم يكونوا عليه. كان سيخبره أن ... ولكن بول د كان يضحك ويقول: «أه أه . لاسبيل . شبه ضئيل حول الجبهة ربما، لكن هذا ليس فمها» .

وهكذا لم يخبره ستامب بيد كيف طارت، تنتزع أطفالها كأنها صقر يحوم؛ كيف أنعقف وجهها، كيف عملت يداها كأنها مخالب، كيف جمعتهم بكل الطرق، واحدا على كتفها، وواحدا تحت ذراعها، وواحدا تمسك به من يده ، والآخر تصيح به أن يتقدم إلى الامام فى سقيفة الخشب التى تمتلىء بضوء الشمس فقط والنشارة الآن لأنه لم يكن هناك أى خشب. كان الحفل قد أتى عليه كله، وهو

السبب الذى من أجله كان يقطع بعضا منه. لم يكن هناك شىء فى تلك السقيفة ، هو يعرف، إذ كان هناك مبكرا فى ذلك الصباح. لاشىء سوء ضوء الشمس. ضوء الشمس، النشارة، وجاروف . كان هو نفسه قد أخرج الفأس . لم يكن هناك أى شىء آخر هناك سوى الجاروف . وبالطبع المنشار .

كان بول د يقول: «أنت تنسى أننى عرفتها من قبل. هناك فى كنتاكى . عندما كانت فتاة.لم أتعرف عليها فقط من بضعة شهور مضت . لقد عرفتها من زمن طويل. وأستطيع أن أخبرك بالتأكيد: ليس هذا فمها . قد يبدو شبيها به، لكنه ليس فمها .»

ولذلك لم يقل ستامب بيد كل شىء . فبدلا من ذلك جذب نفسا ومال باتجاه الفم الذى لم يكن فمها وقرأ على مهل الكلمات التى لم يكن بول د يستطيع قراءتها. وعندما انتهى، قال بول د بقوة أكثر نشاطا من المرة الأولى : «آسف ياستامب . هناك خطأ فى مكان ما لأن ذلك ليس فمها . »

نظر ستامب فى عينى بول د وجعله اليقين العذب فيهما يتساءل تقريبا ما إذا كان ذلك قد حدث على الاطلاق،منذ ثمانية عشر عاما، أنه فى حين كان هو وبيبى سجز ينظران فى الاتجاه الخاطىء وتعرفت أمة جميلة صغيرة على قبعة وغادرت المكان إلى سقيفة الخشب لتقتل أطفالها .

« كانت تحبو سلفا عندما وصلت إلى هنا، فى أسبوع أو أقل كانت الطفلة التى تجلس وتنقلب عندما وضعتها على العربة تحبو بالفعل : إذاقتنى الأمرين فى محاولة ابقائها بعيدا عن الدرج. فى هذه الأيام ينهض الأطفال ويمشون بمجرد أن تدلهم أمهاتهم، ولكن من عشرين سنة عندما كنت فتاة، كان الأطفال يظلون أطفالا وقتا أطول . لم يرفع هوارد رأسه حتى كان عمره تسعة أشهر . كانت بيبى سجز تقول إنه الطعام ، كما تعرف. إذا لم يكن لديك أى شئ إلا اللبن لاطعامهم، حسنا إنهم لايفعلون الاشياء بالسرعة الواجبة . كان اللبن هو كل ما أملك على الاطلاق . كنت أظن أن الاسنان تعنى أنهم جاهزون للمضغ.لم يكن هناك أحد لتسأله . مسز جارنر لم ترزق بأطفال مطلقا وكنا المرأتين الوحيدتين هناك .»

كانت تدور. حول الغرفة وتدور. تتخطى خزانة الجيلى؛ تتخطى النافذة، تتخطى الباب الأمامى، نافذة أخرى، الخوان ، باب الغرفة الاحتياطية ، البالوعة الجافة، الموقد ـ ثم تعود الى خزانة الجيلى. جلس بول د إلى المائدة يراقب انجرافها فى مرمى النظر ثم تختفى خلف ظهره ، وهى تدور كأنها عجلة بطيئة لكن سرعتها ثابتة. وفى مرات أخرى تمسك بأذنيها، تغطى فمها أو تعقد ذراعيها على ثدييها.وبين الآن والآخر كانت تدلك ردفيها، لكن العجلة لم تتوقف أبدا .

«تذكر العمة فيليس؟ من هناك قرب مينوفيل؟ أرسلكم مستر جارنر ذات مرة كلكم لاحضارها لكل واحد من أطفالى. ذلك هو الوقت الوحيد الذى كنت أراها فيه . كم من مرة أردت أن أذهب إلى حيث كانت. لمجرد الحديث . كانت خطتى أن أطلب من مسز جارنر أن تنزلنى عند مينوفيل أثناء ذهابها إلى الاجتماع . وأن تلتقطنى فى طريق عودتها . أعتقد أنها كانت لتفعل ذلك لوطلبت منها. لم أفعل أبداء لأن ذلك كان اليوم الوحيد لهال ولى الذى به ضوء شمس لكلينا حتى يرى كل منا الآخر فيه. ولذلك لم يكن هناك أحد. للحديث معه، أعنى، من يعرف متى يحين الوقت لمضغ شيء قليل وإعطائه لهم . هل كان ذلك مايساعد على ظهور الأسنان ، أو هل كان ينبغى عليك أن تنتظر حتى تأتى الاسنان وبعد ذلك يأتى الطعام الصلب؟ حسنا، أعرف الآن ، لأن بيبى سجز كانت تطعمها بالشكل الصحيح ، وبعد ذلك بأسبوع ، عندما وصلت إلى هنا كانت تحبو سلفا. ولا طريقة لايقافها . كانت تحب تلك الدرجات إلى حد أننا طليناها حتى تستطيع أن تتبين طريقها إلى قمتها» .

أبتسمت سيث، عندئذ ، لدى تلك الذكرى. ثم تمزقت الابتسامة نصفين وأصبحت شهقة مفاجئة ، لكنها لم ترتجف أو تغمض عينيها . راحت تدور .

«أتمنى لو أننى كنت أعرف أكثر، لكن، كما أقول ، لم يكن هناك . أحد للتحدث معه. أمرأة، أعنى. ولذلك حاولت أن أتذكر مارأيته هناك حيث كنت قبل سويت هوم. كيف كان النساء يتصرفن هناك أوه كن يعلمن كل شيء عنه . كيف تصنع ذلك الشيء الذى

تستخدمه لتعلق أطفالك فى الشجر - وهكذا تستطيع أن تتأكد أنهم بمنأى عن الخطر بينما أنت تعمل فى الحقول. كن يعطينهم ورقة شجر أيضا ليمضغوها . نعناع ، فيما أظن، أو غار . كافور، ربما. مازلت لا أعرف كيف كانوا ينشئون تلك السلة، لكننى لم أكن بحاجة اليها على أى حال، لأن كل عملى كان فى الجرن والبيت، لكننى نسيت ماذا كانت الورقة . كان بإمكانى أن استخدمها . كنت أربط بجلر عندما يكون لدينا كل لحم الخنزير ذلك لتبخيره . النار فى كل مكان وكان يدخل فى كل شىء. كان يحتمل أن أفقده مرات كثيرة جدا. **ذات مرة** وصل إلى أعلى البئر ، فوقه تماما . طرت . اختطفته فى الوقت المناسب تماما . ولذا **عندما كنت** أعرف أننا كنا سننقل ونقوم بالتبخير واننى لم يكن بوسعى أن أراقبه، حسنا، كنت أحضر حبلا وأربطه حول كاحله. طويلا بما يكفى لأن يلعب ويتحرك قليلا، ولكنه ليس طويلا بالقدر الذى يصل به إلى البئر أو النار. لم يكن يروقنى منظره، لكننى لم أكن أعرف ما أفعله غير هذا. هذا صعب، تعرف ما أعنيه؟ وأنت وحدك وليست هناك أمرأة تساعدك على تدبر أمرك. كان هال طيبا، ولكنه كان يعمل لسداد الدين فى المكان كله. وعندما كان يفكر فى الحصول على قليل من النوم، لم أكن أريد أن أزعجه بكل ذلك. كان سيكسو أكبر عون . لا أتوقع منك أن تتذكر هذا، لكن هوارد دخل فى قاعة الحليب وهرست ريدكورا فيما أعتقد يده. قلبت إبهامه إلى الوراء. عندما وصلت اليه، كانت تستعد لعضه. ولا أعرف حتى هذا اليوم كيف أخرجته . سمعه سيكسو يصرخ وهرع هل تعرف ماذا فعل؟ أدار الابهام الى مكانه ثانية

وربطه على راحة يده إلى خنصره. هل ترى ، لم أكن لافكر فى هذا أبدا. أبدا. علمنى الكثير ، سيكسو.»

أصابه هذا بالدوار.فى أول الأمر ظن أنه دورانها. تدور حوله بالطريقة التى كانت تدور بها حول الموضوع . تدور وتدور ، لاتغير اتجاهها ، وهو ما كان من المحتمل أن يساعد رأسه . ثم فكر . لا ، انه رنين صوتها . فهو أقرب من اللازم . كانت كل دورة تقوم بها على بعد ثلاث ياردات على الأقل من حيث يجلس ، لكن الإصغاء اليها كان أشبه بالإصغاء إلى طفل يهمس فى أذنك . وهو قريب إلى درجة أن بإمكانك أن تشعر بشفتيه تشكل الكلمات التى لم يكن بوسعك أن تفهمها لأنها كانت قريبة للغاية . كان يدرك أجزاء فقط مما تقوله ـ وهو ماكان رائعا، لأنها لم تكن قد وصلت إلى الجزء الرئيسى ـ الاجابة على السؤال الذى لم يسأله بشكل مباشر ، لكنه كان يكمن فى القصاصة التى أراها إياها . وكان يكمن فى الابتسامة أيضا، لأنه كان يبتسم أيضا، عندما أراها إياها، ولذلك فإنها عندما انفجرت فى الضحك على النكتة ـ خلط وجهها الذى وضع حيث كان يجب أن يكون وجه أمرأة ملونة أخرى ـ حسنا ، كان على استعداد لأن يشاركها الضحك ، كان يسألها : «هل يمكنك أن تكفى؟» وتقهقه: «لقد فقد ستامب عقله.»

لكن ابتسامته لم تواتها الفرصة مطلقا حتى تتسع. تعلقت هناك، ضئيلة ووحيدة، بينما راحت هى تتفحص القصاصة ثم ناولتها له ثانية .

ربما كانت الابتسامة أو ربما الحب الجاهز دائما الذى كانت

تراه فى عينيه ـ سهلا وواضحا، بالطريقة التى ينظر بها اليك الفتية الاغرار والمبشرون البروتستانتيون والأطفال: بحب ليس من الضرورى أن تستحقه-هو الذى جعلها تواصل وتخبره بما لم تخبر به بيبى سجز، الشخص الوحيد الذى شعرت بأنها مجبرة على أن تفسر لها أى شيء . والا لقالت ماقالت الصحيفة إنها قالته ولا أكثر من هذا . كان بوسع سيث أن تتعرف على خمس وسبعين فقط من الكلمات المطبوعة (التى ظهر نصفها فى قصاصة الجريدة) ، لكنها كانت تعرف أن الكلمات التى لم تفهمها لم يعد لها قوة أكثر مما كان عليها أن تفسره. كانت الابتسامة والحب الصريح هو ماجعلها تحاول .

« لست بحاجة إلى أن أخبرك عن سويت هوم ـ ماكان عليه ـ لكن ربما لاتعرف ماكان يعنيه بالنسبة لى أن أرحل من هناك .»

توقفت ، وقد غطت الجزء الاسفل من وجهها براحتى يديها، وهى تفكر مرة ثانية فى حجم المعجزة ؛ نكهتها .

«فعلتها . نجحت فى إخراجنا جميعا. بدون هال أيضا . حتى ذلك الوقت كان ذلك الشيء الوحيد الذى قمت به وحدى. قررت. وتم بطريقة صحيحة، كما كان مفروضا أن يتم. وصلنا.كل واحد من أطفالى وأنا أيضا. ولدتهم وأخرجتهم ولم تكن صدفة. فعلت ذلك.حصلت على مساعدة بالطبع، كثيرا من المساعدة ، ورغم ذلك فأنا التى قمت به؛ أنا التى قلت،**هيا** ، **والآن**. أنا التى كان علىَّ أن أنتبه. وأنا التى استعمل عقلى . لكن الأمر كان أكثر من ذلك- كان نوعا من الأنانية لم أعرف عنه شيئا من قبل. كان شعورا

طيبا. طيبا وصحيحا. كنت كبيرة، يابول د، وعندما كنت أفرد ذراعى على اتساعهما وعمقهما كان بوسع أطفالى كلهم أن يدخلوا بينهما. كنت بهذا القدر من الرحابة. يبدو أننى أحببتهم أكثر بعد أن وصلت إلى هنا. أو ربما لم يكن فى استطاعتى أن أحبهم بالشكل الملائم فى كنتاكى لأنهم لم يكونوا ملكى حتى أحبهم. لكن عندما وصلت هنا، عندما وثبت من فوق تلك العربة ـ لم يكن هناك أحد فى الوجود لا أستطيع أن أحبه إن شئت. تعرف ماأعنيه؟»

لم يجب بول د. لأنها لم تتوقع منه أو تريده أن يجيب، لكنه عرف بالفعل ماتعنيه. وهو يصغى الى اليمام فى ألفريد، جورجيا، وليس له الحق ولا الإذن بأن يستمتع به لأن الشبورة واليمام وضوء الشمس، وتراب النحاس، والقمر ـ كل شىء فى ذلك المكان كان يخص الرجال الذين يمتلكون بنادق. رجال صغار الحجم، رجال كبار الحجم أيضا، بإمكانه أن يقصم كل واحد منهم مثل غصن لو أنه أراد. رجال كانوا يعرفون أن رجولتهم تكمن فى بنادقهم ولم تكن معرفتهم بأن الثعلب كان ليسخر منهم بدون بنادقهم تسبب لهم أى ارتباك. وكان باستطاعة هؤلاء «الرجال» الذين كانوا يجعلون الذئبة تضحك أن يمنعوك، إذا سمحت لهم، من سماع اليمام أوحب ضوء القمر. ولذلك كنت تحمى نفسك وتحب حبا ضئيلا. كنت تختار أضأل النجوم فى السماء لتمتلكها؛ ترقد ورأسك ملتو حتى ترى النجم المحبوب فوق حافة الخندق قبل أن تنام. تختلس نظرات وجلة اليه من بين الاشجار عند رفع السلاسل. نصال العشب، حيوانات السلمندر، العنكبوت، نقار

الجشب ، الخنافس ، ومملكة من النمل. لم يكن أى شىء أكبر من هذا ليفى بحاجتك . أمرأة ، طفل ، أخ ـ حب كبير مثل هذا كان ليشقك نصفين فى الفريد، جورجيا . كان يعرف بالضبط ماتعنيه. أن تصل إلى مكان يكون بوسعك فيه أن تحب أى شىء تختاره -الا تحتاج الى إذن للرغبة ـ حسنا إذن ، **تلك** كانت الحرية .

كانت الآن تقرض شيئا آخر بدلا من الوصول الى لب الموضوع وهى تدور وتدور .

«كان هناك ذلك الجزء من المتاع الذى أعطتنى مسز جارنر إياه.قطعة قماش من الشيت.مرسوم عليها خطوط بينها أزهار صغيرة. حوالى ياردة ـ لاتكفى لأكثر من ربطة رأس . لكننى كنت أريد أن أصنع منها رداء فضفاضا لابنتى.كان لها ألوان غاية فى الجمال. لا أعرف حتى ماذا تسمى ذلك اللون: وردى ولكن به أصفر. كنت أعنى لوقت طويل أن أعملها لها وهل تعرف أننى مثل أية حمقاء نسيتها؟ لا أكثر من ياردة ، وظللت أؤجلها لاننى كنت متعبة وليس لدّى الوقت. وهكذا عندما وصلت إلى هناء حتى قبل أن يسمحوا لى بمغادرة السرير، حكت لها شيئا صغيرا من قطعة قماش كانت لدى بيبى سجز. حسنا، كل ما أقوله هو أن ذلك كان متعة أنانية لم تكن لدّى من قبل أبداً. لم أكن أستطيع أن أدع كل ذلك يعود إلى حيث كان،ولم أكن أستطيع أن أيامنهم يعيش فى ظل مدرس. كان ذلك قد أنتهى.»

كانت سيث تعرف أن الدائرة التى كانت تطوف فيها حول الغرفة، حوله ، حول الموضوع، ستظل واحدة. إنها لم تكن لتحيط

بها، أن تحددها لاى واحد يسألها . فإذا لم يدركوها على الفور، لم يكن بوسعها أن تفسرها مطلقا . لأن الحقيقة كانت بسيطة ، ليست سجلا مسهبا من الأردية الفضفاضة ذات الزهور، أقفاص الأشجار ، الأنانية ، أحبال الكاحلين والآبار. بسيطة: كانت تجلس فى الحديقة وعندما رأتهم قادمين وتعرفت على قبعة المدرس، سمعت أجنحة،غرزت طيور طنانة صغيرة مناقيرها الابرية خلال غطاء رأسها فى شعرها وراحت تصفق بأجنحتها. وإذا فكرت فى أى شىء ، فقد كان لا. لا. لا. لا لا لا لا لا. بسيطة. طارت فقط. جمعت كل جزء من حياة صنعته ، كل أجزائها الثمينة والرائعة والجميلة ، وحملتها ، شقت طريقها، سحبتها خلال الحجاب، إلى الخارج، بعيدا، إلى هناك حيث لم يكن بوسع أحد أن يؤذيها . هناك،خارج هذا المكان، حيث يكونوا فى أمان. وظلت الطيور الطنانة تخفق بأجنحتها . توقفت سيث فى دائرتها مرة أخرى ونظرت من النافذة. تذكرت حين كان للغناء سور به بوابة يفتح مزلاجها ويغلقه شخص ما دائما فى الزمن الذى كان فيه البيت رقم ١٢٤ محطة على الطريق.لم تر الرجال البيض الذين هدموه، انتزعوا الأعمدة وحطموا البوابة تاركين البيت موحشا ومكشوفا فى نفس الساعة التى توقف فيها الجميع عن زيارته. كانت أعشاب شارع بلوستون التى تصل إلى إرتفاع الكتف هى كل ماجاء باتجاه البيت.

عندما عادت من السجن، كانت مسرورة لأن السور قد ذهب. كان هذا هو المكان الذى ربطوا فيه جيادهم - حيث رأت قبعة المدرس تطفو فوق الحاجز وهى تجلس القرفصاء فى الحديقة.

وما أن حان موعد مواجهتها له، ونظرت فى عينه مباشرة، كان بين ذراعيها شىء ألزمه مكانه . أخذ خطوة إلى الخلف مع كل وثبة من وثبات قلب الطفلة حتى لم يعد هناك أخيرا أى منها .

قالت،وهى تحدق فى المكان الذى كان السور قائما فيه أوقفته ، أخذت أطفالى ووضعتهم حيث يكونون فى أمان .

لم يمنع الهدير الذى كان يدور برأس بول د من سماع النقرة الخفيفة التى رنت فى كلمتها الأخيرة، وخطر له أن ما أرادته لاطفالها كان بالضبط الشىء المفتقد فى البيت رقم ١٢٤: الامان. وهو ماكان الرسالة الأولى تماما التى بلغته يوم خطا داخلا من الباب. ظن أنه قد جعله آمنا ، أنه قد تخلص من الخطر؛ طرد منه الهراء؛ طرده خارج المكان وبين له وللجميع الفرق بين البغل والمحراث. ولأنها لم تكن قد فعلت ذلك بنفسها قبل أن يصل، ظن أن هذا لأنها لم تكن قادرة على ذلك. أنها كانت تعيش مع البيت رقم ١٢٤ فى استسلام عاجز تبريرى لأنها لم يكن لديها خيار؛ أنها بدون زوجها وأبنائها وحماتها ، هى وابنتها البطيئة الفهم كان عليهما أن يعيشا هناك وحدهما دون أن يحركا ساكنا . أن الفتاة الشائكة الخسيسة النظرات من سويت هوم التى عرفها بصفتها فتاة هال كانت مطيعة (مثل هال)، خجولة (مثل هال)، مجنونة بالعمل (مثل هال) . كان مخطئا . كانت هذه السيث الموجودة هنا جديدة . لم يكن الشيخ فى بيتها يزعجها لنفس السبب الذى من أجله كانت ساحرة مقيمة إقامة كاملة موضع ترحيب.كانت هذه السيث تتكلم عن الحب مثل أية أمرأة أخرى ؛ تتكلم عن ملابس الأطفال مثل أى أمرأة أخرى ، لكن ماتعنيه بوسعه أن

يخترق العظام.كانت سيث هذه تتكلم عن الأمان حيث يتوقف العالم وتبدأ هى. فجأة رأى ما أراده ستامب بيد أن يراه: أن ماتطالب به سيث أكثر أهمية مما فعلته . أفزعه هذا .

قال ، وهو يفكر : « إن حبك وافر للغاية . » تلك البغى تنظر الىّ ؛ إنها فوق رأسى تماما تنظر من خلال أرضية الحجرة الىّ .

قالت ، وهى تفكر فى الساحة الخالية حيث كانت وصايا بيبى سجز تسقط البراعم عن أشجار الكستناء «الحب كائن أو غير كائن. الحب المخفف ليس حبا على الاطلاق.»

سألها: «آه. لم يفلح ، أليس كذلك؟ هل أفلح؟»

قالت ، « أفلح . »

« كيف؟ رحل ولداك إلى حيث لاتعلمين. وماتت أبنة، والأخرى لاتغادر الفناء. كيف أفلح؟»

« إنهم ليسوا فى سويت هوم . لم يحصل عليهم المدرس . »

« ربما كان هناك ما هو أسوأ . »

« ليست مهمتى أن أعرف ماهو أسوأ. مهمتى أن أعرف ماهو كائن وأن أحفظهم مما أعرف أنه رهيب ، وقد فعلت هذا . »

« أعرف أنه رهيب وقد فعلت هذا . »

« ما فعلته خطأ ، يا سيث . »

«كان ينبغى أن أعود إلى هناك؟ أن أعيد أطفالى إلى هناك؟»

«كان من الممكن أن تكون هناك طريقة . طريقة أخرى . »

«أى طريقة؟»

قال : « إن لك قدمين ، يا سيث ، لا أربعا ، » وفى تلك اللحظة نبتت بينهما غابة ، غير مطروقة وهادئة .

فيما بعد سوف يتساءل ماالذى جعله يقول هذا . جموح شهوة شبابه؟ أو اعتقاده بأنه كان مراقبا من خلال السقف؟ كم أنتقل بسرعة من عاره إلى عارها - من سر كوخ التبريد الخاص به الى حبها الوافر للغاية .

فى تلك الأثناء كانت الغابة تغلق المسافة بينهما، تعطيها شكلا وثقلا .

لم يرتد قبعته فى الحال. راح يطرقها بأصابعه أولا، وهو يقرر كيف سيكون ذهابه ، كيف يجعل منه مخرجا لامهربا. نهض واستدار وألقى نظرة على أعلى الدرج الأبيض. كانت هناك بلاريب.تقف منتصبة القامة كأنها خط وظهرها اليه. لم يندفع إلى الباب.تحرك ببطء وعندما بلغه فتحه قبل أن يسأل سيث أن تضع له عشاءه جانبا لأنه قد يتأخر قليلا فى العودة. عند ذاك فقط ارتدى قبعته .

قالت لنفسها، لطيف.لابد أنه يظن أننى لا أحتمل سماعه وهو يقولها. أن «وداعا» ، بعد كل ماأخبرته به وبعد أن أخبرنى.كم قدما لى ، سوف تمزقنى أشلاء . أليس ذلك لطيفا.

همهمت من الجانب البعيد للأشجار : «الى اللقاء.»

٢

كان صوت البيت رقم ١٢٤ عاليا. كان بإمكان ستامب بيد أن يسمعه حتى من الشارع . مشى إلى البيت رافعا رأسه إلى أعلى قدر الامكان حتى لايسميه من يراه متلصصا، على الرغم من أن عقله القلق يجعله يشعر أنه متلصص . فمنذ أن عرض قصاصة الجريدة تلك على بول د وعلم أنه قد أنتقل من البيت فى نفس ذلك اليوم، شعر ستامب بيد بارتباك. وبعد أن صارع مسألة ما إذا كان عليه أن يخبر رجلا عن امرأته ، وبعد أن أقنع نفسه أنه ينبغى عليه أن يفعل ذلك، بدأ عندئذ يقلق على سيث. هل منع عنها جرعة السعادة الوحيدة التى كان بإمكان رجل طيب أن يهبها لها؟ هل أوجعتها الخسارة، وإحياء النميمة الطليقة والتى لم يكن لها داع على يد الرجل الذى ساعدها على عبور النهر وكان صديقها مثلما كان صديق بيبى سجز؟

قال لنفسه: «إننى أكبر من أن أفكر تفكيرا صافيا. أنا عجوز للغاية وقد رأيت الكثير جدا» كان قد ألح على السرية أثناء إفشاء السر فى فناء السلخانة ـ وكان الآن يتساءل عمن كان يحمى. كان بول د الوحيد فى البلدة الذى لم يكن يعلم. كيف تصبح معلومات نشرت فى الجريدة سرا من الضرورى أن يهمس به فى فناء الخنازير؟ سر على من ؟ سيث، تلك هى.لقد ذهب من خلف ظهرها، مثل متسلل.لكن التسلل كان عمله ـ حياته؛ على الرغم من انه كان

دائما من أجل هدف واضح ومقدس. كل مافعله قبل الحرب كان التسلل: إخفاء الهاربين فى أماكن سرية، والمعلومات السرية لأماكن عامة. تحت ستار خضرواته. كان البشر المهربون الذين كان يعبر بهم النهر. حتى الخنازير التى كان يعمل بها فى الربيع كانت تخدم أغراضه. عائلات بأكملها كانت تعيش على العظام والاحشاء التى كان يوزعها عليهم. كان يكتب خطاباتهم ويقرأ لهم الخطابات التى يتسلمونها. كان يعرف من يعانى من الاستسقاء ومن كان بحاجة إلى خشب للموقد؛ أى أطفال وصلتهم هدية وأيهم كان بحاجة للتأديب.كان يعرف أسرار نهر أوهايو وضفتيه؛ المنازل الخاوية والممتلئة؛ أفضل الراقصين ، أسوأ المتحدثين، أصحاب الاصوات الجميلة والذين لايستطيعون أن يغنوا لحنا. لم يكن بين ساقيه أى شىء يثير الاهتمام،لكنه يذكر متى كان هناك ـ عندما كان ذلك الحافز يطارد المطاردين ـ وكان هذا هو السبب فى تفكيره طويلا وعميقا قبل أن يفتح صندوقه الخشبى ويبحث عن قصاصة عمرها ثمانية عشر عاما ليريها لبول د كدليل.

وبعد ذلك ـ لاقبله ـ فكر فى مشاعر سيث فى هذا الموضوع. وكان تأخر هذا الاعتبار هو ماجعله يشعر بهذا الضيق.ربما كان ينبغى عليه أن يترك الأمر وشأنه؛ ربما لم يكن جندى المسيح صاحب المبادىء السامية كما كان يظن بنفسه، ولكن طفيليا عاديا بسيطا أعترض شيئا مستمرا بشكل طيب تماما من أجل الحقيقة والتحذير مقدما ، وهى أشياء كان يقدرها كثيرا.والآن عاد البيت رقم ١٢٤ إلى سابق عهده قبل أن يأتى بول د الى البلدة ـ يقلق سيث ودنفر بمجموعة من الأشباح كان بإمكانه أن

يسمعها من الطريق . حتى لوكانت سيث قادرة على التعامل مع عودة الشبح، لم يكن ستامب بيد يصدق أن ابنتها قادرة . كانت دنفر بحاجة إلى شخص سوى فى حياتها. ولحسن الحظ أنه كان هناك عند مولدها ذاته تقريبا - قبل أن تعرف أنها حية - وجعله هذا متحيزاً لها. إن رؤيتها حية،إن كنت لاتعرف ، وصحيحة بعد ذلك بأربعة أسابيع هو ما أثلج صدره للغاية حتى أنه جمع كل ماأمكنه حمله من أفضل حبات التوت فى البلاد وغرز حبتين فى فمها أولا قبل أن يقدم المحصول الصعب إلى بيبى سجز. وإلى اليوم راح يعتقد أن التوت (الذى أشعل شرارة الوليمة وتقطيع الأخشاب الذى تلاه) هو السبب فى أن دنفر ماتزال على قيد الحياة. لو لم يكن هناك يقطع خشب الوقود، لنثرت سيث مخ الطفلة على اللوح الخشبى . ربما كان عليه أن يفكر فى دنفر، إن لم يكن فى سيث ، قبل أن يعطى بول د الخبز الذى دفعه إلى الهرب، الشخص السوى الوحيد فى حياة الفتاة منذ أن ماتت بيبى سجز. هناك بالضبط كانت الشوكة .

أعمق من هذا وأكثر إيلاما من قلقه المتأخر على دنفر أو سيث، كانت ذكرى بيبى سجز - الجبل الشامخ فى سمائه ، تلسع روحه مثل دولار فضى فى جيب أحمق. كانت ذكراها والاجلال الذى تستحقه هما ماجعله يمشى مرفوع الرقبة وهو يدلف إلى فناء البيت رقم ١٢٤ ، على الرغم من أنه كان يسمع أصواته من الطريق .

كانت قدمه قد وطئت هذا البيت مرة واحدة بعد الشقاء (وهو ما أطلقه على استجابة سيث الخشنة لمشروع قانون الهاربين)

وهو ماخلص بيبى سجز التقية منه. عندما تلقاها بين ذراعيه، بدت له مثل فتاة ، وتلقى السعادة التى كانت ستنعم بها وهى تعلم أنها لم تكن مضطرة إلى أن تسحق حرقفتها بعد ذلك - أن انسانا كان يحملها أخيرا. لو أنها فقط أنتظرت قليلا لرأت نهاية الحرب، ونتائجها القصيرة الزاهية . كان بوسعهما أن يحتفلا معا؛ ولذهبا معا ليستمعا إلى المواعظ العظيمة التى ألقيت بهذه المناسبة . ولما كان الأمر هكذا، فإنه ذهب وحده من بيت إلى بيت مبتهجا يشرب ماقدم له. لكنها لم تنتظر وحضر جنازتها مضطربا أكثر منه مفتقدا لها . كانت عيون سيث وابنتها جافة فى تلك المناسبة. لم يكن لدى سيث تعليمات سوى: «احملها إلى الساحة الخالية . » وهو ما حاول أن يفعله ، لكن منعه قانون ابتكره البيض بشأن الأماكن التى ينبغى أن يستقر فيها الموتى.دفنت بيبى سجز بجوار الطفلة المذبوحة - وهو جوار لم يكن ستامب متأكدا من استحسان بيبى سجز له .

أقيم العزاء فى الفناء فما كان أحد غيره ليدخل البيت رقم ١٢٤ - وهو أذى ردت عليه سيث بأذى آخر. بأن رفضت أن تحضر الصلاة العامة التى رأسها الكاهن بايك. ذهبت بدلا من ذلك إلى موقع القبر، الذى تنافست معه فى الصمت وهى تقف هناك لاتنضم الى التراتيل التى رتلها الآخرون من أعماق قلوبهم. وولدت تلك الاهانة إهانة أخرى من جانب المعزين: فعندما عادوا إلى الفناء أكلوا الطعام الذى أتوا به ولم يمسوا طعام سيث التى لم تمس طعامهم ومنعت ديفر أن تمسه.وهكذا دفنت بيبى سجز التقية، بعد أن كرست حياتها المحررة لتحقيق الانسجام، وسط

رقصة مألوفة من الكبرياء والخوف والادانة والحقد. كان كل واحد فى البلدة تقريبا يتوق إلى أن تلقى سيث أياما صعبة. بدا أن ادعاءاتها الشائنة واكتفاءها الذاتى تتطلب ذلك، وتساءل ستامب بيد الذى لم يشعر طيلة حياته الناضجة بقطرة من الخسة، ما اذا كانت توقعات أهل البلدة بأن «الكبرياء يسبق السقوط» قد تركت بصمتها عليه على أية حال - وهو مايفسر لماذا لم يأخذ فى اعتباره مشاعر سيث أو احتياجات دنفر عندما أظهر القصاصة لبول د .

لم يكن لديه أدنى فكرة عما يفعله أو يقوله حين تفتح، واذا فتحت، سيث الباب وأدارت عينيها فى عينية . كان راغبا فى تقديم المساعدة ، إذا كانت تحتاج لأى مساعدة منه، أو أن يتلقى غضبها، إذا كانت تضمر أى غضب ضده. وفيما وراء ذلك، فإنه اتكل على غرائزه فى أن تصلح ماأفسده لقريبة بيبى سجز، وأن ترشده إلى داخل وخلال طراد الشبح المتزايد الذى كان البيت رقم ١٢٤ عرضة له، كما يدل على ذلك الأصوات التى سمعها من الشارع. وفيما عدا هذا فإنه كان ليعتمد على قدرة يسوع المسيح على التعامل مع أشياء أقدم، وإن لم تكن أقوى مما كان هو نفسه .

ماسمعه، وهو يتحرك باتجاه الشرفة، لم يفهمه. فى الخارج فى شارع بلوستون ظن أنه سمع حريقا هائلا من أصوات متسارعة - عالية ، ملحة، كلها تتكلم فى نفس الوقت حتى أنه لم يستطع أن يتبين عما كانت تتكلم أو لمن. لم يكن الكلام هراء بالضبط، ولاكان ألسنة. لكن هناك شىء خاطىء فى ترتيب

الكلمات ولم يستطع أن يصفه أو يفك شفرته لينقذ حياته.كل ماستطاع إن يتبينه هو كلمة **ملكي** . وظل الباقى فيما وراء متناول عقله. لكنه واصل تقدمه. عندما بلغ الدرج، تلاشت الأصوات فجأة إلى أقل من همسة. منحته لحظة صمت. فقد أصبحت همهمة عرضية. مثل الأصوات الداخلية التى تحدثها **الأمر برقة وراء ظهرك** . لا أن تعترف بالنصيحة التى أسدتها لها عملها: أصوات مثل «سيث» عندما تخطىء ثقب الأبرة ؛ أنّة ناعمة عندما ترى كسرا فى حافة طبقها الجيد الواحد؛ المناقشة الخافتة الودودة التى تحي بها دجاجاتها لاشيء وحشى أو مفزع مجرد ذلك الحديث الخاص.الأبدى الذى يدور بين النساء وبين أعمالهن .

رفع ستامب بيد قبضته ليدق الباب الذى لم يدقه أبدا (لأنه كان دائما مفتوح له أو من أجله) ولم يستطع أن يفعل ذلك. كان الاستغناء عن تلك الشكلية كل الأجر الذى يتوقعه من زنوج مدينين له. فما أن يحضر لك ستامب بيد معطفاً ، أو يصلح لك الخزان أو ينقذ حياتك حتى يعطى نفسه حرية الدخول من باب بيتك كما لو كان بيته. ولما كانت كل زياراته مفيدة، فإن خطوته أو صيحته خلال مدخل البيت كانت تقابل بترحيب صاف. وبدلا من أن يخسر الامتياز الذى كان يطالب به لنفسه، أنزل يده وغادر الشرفة .

حاول مرارا وتكرارا: قرر أن يزور سيث؛ اخترق الاصوات العالية المتسارعة التى تهبط إلى غمغمة وتتوقف، وهو يحاول أن يحسب مايفعله عند الباب، تخلى عن طريقه الاعتيادى ست مرات فى ستة أيام وحاول أن يدق على البيت رقم ١٢٤، لكن برودة الايماءة - إشارتها إلى أنه كان حقا غريبا بالبوابة - أربكه. تنهد

وهو يرجع من حيث أتى وسط الثلوج؛ راغبا بالروح؛ ضعيفا بالجسد.

وبينما كان ستامب يقرر أن يزور البيت رقم ١٢٤ من أجل خاطر بيبى سجز، كانت سيث تحاول أن تتقبل نصيحتها: **اَطرحى** الأمر برقة وراء ظهرك لا أن تعترف بالنصيحة التى أسدتها لها بيبى سجز، ولكن أن تتقبلها فعلا. وبعد أربعة أيام من تذكير بول د لها بكم قدم كانت لها، فتشت فى أحذية الغرباء لتجد مزلجى التزحلق على الجليد وهى واثقة أنهما هناك. أزدرت نفسها وهى تفتش فى الكومة لأنها وثقت إلى هذا الحد، لأنها أسرعت إلى الاستسلام إلى هذا الحد عند الموقد حين قبل بول د ظهرها. كان عليها أن تعرف أنه سيتصرف مثل أى واحد آخر فى البلدة بمجرد أن يعلم. الثمانية وعشرون يوما التى كانت لها فيها صديقات، حماة، وكل أطفالها معا، التى كانت فيها جزءا من الناحية؛ التى حظيت فيها بجارات على الاطلاق تستطيع أن تسميهن جاراتها - كل ذلك مضى ولن يعود أبدا. لم تعد هناك مناقشات، عاصفة أو هادئة، حول المعنى الحقيقى لمشروع قانون الهاربين، أجر الاستيطان، أساليب الله ومقاعد خشبية طويلة فى كنيسة للملونين؛ الحركة المناهضة للعبودية، العتق من العبودية، التصويت للملونين، الجمهوريون، درِيد سكوت، تعلم القراءة، عربة المقيمين العالية العجلات، نساء ديلاوير الملونات، أوهايو، وقضايا أخرى لها وزنها تبقيهن جالسات فى كراسيهن، أو

يكشطن ألواح الأرضية أو يذرعنها فى ألم أو بهجة. لا انتظا
متلهف لجريدة «نورث ستار» أو أخبار عن الاستعادة. لا زفر
عند سماع خيانة جديدة أو تصفيق لانتصار صغير.

تلك الأيام الثمانية والعشرين تلتها ثمانى عشرة سنة م
الإنكار وحياة انفرادية.ثم بضعة أشهر من حياة تتناثر فيه
الشمس وعدتها بها ظلال تمسك بأيديها على الطريق؛ حياة ف
السرير لنفسها ؛ تحيات مؤقتة من ملونين آخرين وهى فى صحب
بول د. فيما عدا صديقة دنفر، أختفى كل جزء منها. هل كان ذل
هو النسق؟ تساءلت . أن يعترض كل ثمانية عشر أو عشرين عام
من حياتها التى ستحياها مجد قصير الأجل؟

حسنا، إذا كان الأمر على هذا المنوال ـ فليكن على هذ
المنوال.

كانت راكعة على ركبتيها تنظف الأرضية ودنفر فى أعقابه
بخرق التجفيف، عندما ظهرت «محبوبة» تقول: «ماذا تفعل هذ
الأشياء ؟» نظرت إلى الفتاة والمزلجين اللتين تمسك بهما، وهى
راكعة على ركبتيها وفرشة التنظيف فى يدها . لم تكن سي
تستطيع التزحلق قيد شعرة لكنها فى تلك اللحظة قررت أن تتقبل
نصيحة بيبى سجز : **اطرحى الأمر كله** . تركت الدلو فى مكانه
أخبرت دنفر أن تخرج الشيلان وشرعت تبحث عن المزلجين
الآخرين اللذين كانت واثقة أنهما فى مكان ما فى تلك الكومة
لسوف يكتشف أى شخص يشعر بالأسى لها، أى شخص يتجول
قرب المكان ليختلس نظرة من ثقب الباب ويرى كيف تسير

أحوالها (بما فى ذلك بول د .) أن المرأة التى تتكوم حولها الأشياء البالية لأنها تحب أطفالها - تلك المرأة كانت تبحر سعيدة على جدول متجمد .

بسرعة وإهمال راحت تطوح الأحذية. عثرت على نصل واحد- نصل رجل .

قالت : «حسنا . سوف نتبادل . واحدة تلبس المزلجين؛ وواحدة تلبس مزلجا ؛ وحذاء التزلق للأخرى . »

لم يرهن أحد وهن يقعن .

رحن يدرن فوق الجليد، وهن يمسكن بيد إحداهن الاخرى ، يتساندن. لبست «محبوبة» المزلجين؛ لبست دنفر مزلجا واحدا ، وهما تنزلقان على الجليد الغادر . ظنت سيث أن حذاءيها سوف يكبحانها ويثبتانها. كانت مخطئة. فبعد خطوتين على الجدول، فقدت توازنها واستقرت على مؤخرتها. لحقت الفتاتان بها على الجليد وهما تصرخان ضحكا. جاهدت سيث أن تقف واكتشفت لا أن بوسعها أن تقوم بحركة فتح الساقين على اتساعهما فحسب، ولكن أن هذا مؤلم أيضا. برزت عظامها فى أماكن غير متوقعة، وكذلك الضحك . لم يستطعن أن يبقين منتصبات القامة لدقيقة واحدة وهن يدرن فى دائرة أو يتزحلقن فى خط مستقيم. ولكن أحدا لم يرهن يقعن .

كانت كل منهن تبدو كما لو كانت تساعد الأخرى أن تبقى منتصبة القامة، لكن كل سقطة كانت تضاعف متعتهن. أحاطت بهن أشجار البلوط الحية وحفيف أشجار الصنوبر وأمتصت ضحكاتهن وهن يقاومن الجاذبية بحثا عن يد إحداهن الأخرى.

طارت تنوراتهن كأنها أجنحة وتحول جلدهن إلى لون القصدير في البرد والضوء الخابي.

لم يرهن أحد يقعن.

رقدن على ظهورهن أخيرا وقد أعياهن المجهود. ليستعدن أنفاسهن. كانت السماء فوقهن بلدا آخر. وقد بزغت نجوم الشتاء قبل المغيب وهي قريبة إلى درجة يمكن معه لعقها. وللحظة دخلت سيث السلام الكامل الذي قدمته وهي شاخصة ببصرها إلى أعلى ثم نهضت دنفر وحاولت القيام بتزحلق طويل معتمدة على نفسها أصطدم طرف مزلجها المفرد بنتوء جليدي، وبينما كانت تقع كانت رفرفة ذراعيها جامحة ويائسة حتى ضحك الثلاثة جميعا سيث و« محبوبة» ودنفر - إلى أن سعلوا. نهضت سيث على ركبتيها ويديها، والضحك مايزال يهز صدرها ، ويبلل عينيها. ظلت على هذه الحال فترة على أطرافها الأربعة.ولكن عندما تلاشى ضحكها لم تتلاش دموعها ومضى بعض الوقت قبل أن تعرف «محبوبة» ودنفر الفرق. وعندما فعلتا لمستا كتفيها برفق.

طوقت سيث كل فتاة تسير إلى جنبها بإحدى ذراعيها، وطوقت خصر كل منهما بذراع. تعثرن وهن يسرن فوق الجليد الصلب، وكان عليهن أن يتشبثن بأحداهن الأخرى بإحكام - لكن أحد لم يرهن وهن يقعن.

وبداخل البيت اكتشفن أنهن يشعرن بالبرد. خلعن أحذيتهن وجواربهن المبللة ولبسن جوارب صوفية جافة. غذت دنفر النار. دفأت سيث قدرا من اللبن ومزجت معه عصير قصب وفانيليا.

رحن يشربن ، ويمسحن أنوفهن ويشربن ثانية، وهن ملتفات بألحفة وبطاطين أمام نار الموقد .

قالت دنفر: «يمكننا أن نشوى بعض البطاطس»

قالت سيث: «غدا . حان موعد النوم»

صبت لكل منهما مزيدا من اللبن الحلو الساخن. زأرت نيران الموقد .

سألتها «محبوبة»: «هل أنتهيت من عينيك».

ابتسمت سيث: «نعم، أنتهيت من عينى . اشربا... حان وقت النوم»

لكن لم تكن أيهن تريد مغادرة دفء البطاطين والنار والأقداح إلى برودة سرير غير دافىء . واصلن رشفهن ومراقبة النار .

عندمات جاءت الطقطقة لم تعرف سيث كنهها. وبعد ذلك اتضح وضوح النهار أن الطقطقة جاءت فى البداية ذاتها نقرة تقريبا، قبل أن تبدأ، قبل أن تسمع ثلاث نغمات ؛ حتى قبل أن يصبح اللحن واضحا . كانت « محبوبة » تدندن بنعومة ، وهى تميل إلى الأمام قليلاً .

عندئذ ، عتدما انتهت «محبوبة» من الدندنة ، تذكرت سيث الطقطقة ـ استقرار الاجزاء فى أماكن صممت وصنعت خصيصا من اجلها. لم ينسكب لبن من قدحها لأن يدها لم تكن ترتجف، أدارت رأسها ببساطة ونظرت إلى الصورة الجانبية لوجه «محبوبة».الذقن، الفم، الأنف، الجبهة، وقد نسخت وبولغ فيها فى

الظل الضخم الذى ألقته النيران على الحائط خلفها. كان شعرها الذى جدلته دنفر فى عشرين أو ثلاثين ضفيرة ينحنى نحو كتفيها كأنه أذرع. من مكانها فى جلستها لم يكن بإمكان سيث أن تتفحصه، لامفرق الشعر، ولا الحاجبين، ولا الشفتين، ولا ..

كانت بيبى سجز قد قالت: «كل ما أذكره هو كم كانت تحب ظهر الخبز المحترق. وماكنت لاعرف يديها الصغيرتين لو أنها صفعتنى .»

... لا الوحمة ، ولا لون اللثة، ولا شكل الأذن ، ولا ...

« هنا انظرى هنا . هذه أمك . إذا كنت لا تستطيعين التعرف علىَّ من وجهى ، انظرى هنا . »

... لا الأصابع ، ولا أظافرها ، ولا حتى ..

لكن مازال هناك متسع من الوقت. كانت الطقطقة قد طقطقت؛ كانت الأشياء حيث يجب أن تكون أو متوازنة ومستعدة لأن تنزلق فى مكانها .

قالت سيث: «لقد ابتكرت أنا تلك الأغنية. ابتكرتها وكنت أغنيها لأطفالى. لا أحد يعرف تلك الأغنية إلا أناوأطفالى ».

استدارت «محبوبة» لتنظر إلى سيث. قالت: «أنا أعرفها» .

إن علبة مجوهرات صغيرة رصعت بمسامير قصيرة أكتشفت فى تجويف شجرة يجب أن تلاطف قبل أن تفتح . فقد يكون قفلها قد صدأ أو كسر مشبكها. ومع ذلك فيجب أن تلمس رءوس المسامير، وأن تختبر ثقلها . بلا تحطيم برأس فأس حتى

تستخرج بالشكل اللائق من القبر الذى أخفاها كل هذا الوقت. ولا شهقة لمعجزة هى حقا خارقة لأن السحر يكمن فى حقيقة أنك كنت تعرف أنها هناك فى انتظارك طوال الوقت.

مسحت سيث الطبقة البيضاء اللامعة التى تغطى الجدار الداخلى للقدر، وأحضرت وسائد من الغرفة الاحتياطية لتضعها تحت رأسى الفتاتين. لم تكن هناك ارتعاشة فى صوتها وهى تصدر إليهما تعليمات بالمحافظة على النار - وإلا ، أن يصعدا إلى الطابق العلوى.

وبهذا ، لملمت بطانيتها حول مرفقيها وصعدت الدرج الأبيض بياض السوسن كأنها طائر. فى الخارج تصلب الجليد فى أشكال رشيقة. وبدا سلام نجوم الشتاء دائما.

أقترب ستامب بيد من البيت رقم ١٢٤ مرة أخرى، وهو يلمس بأصابعه شريطا ويتشمم جلدا.

قال لنفسه: «لقد تعب نخاعى . لقد عشت أيامى متعبا، متعب العظام، لكن التعب الآن فى النخاع. لابد أن شعور بيبى سجز كان هكذا حين رقدت وراحت تفكر فى اللون بقية حياتها.»

عندما أطلعته على هدفها ، ظن أنها كانت تشعر بالخزى وأنها كانت أشد خزيا من أن تعترف بهذا. كانت سلطتها على المنبر، رقصها فى الساحة الخالية، صيحتها القوية (فلم تكن تلقى مواعظ أو تعظ - وتصر على أنها كانت أجهل من أن تقوم بهذا - كانت

تصيح فيسمع السامعون) ـ كل ذلك قد أصبح موضع سخري
وتأنيب من خلال سفك الدم فى فنائها الخلفى . كان الله يحيره
وكانت أشد خزيا من أن تعترف بهذا. وبدلا من ذلك أخبر
ستامب بيد أنها ذاهبة إلى السرير لتفكر فى ألوان الأشياء. حاول
أن يثنيها. كانت سيث فى السجن مع رضيعتها ، الطفلة التى
أنقذها. وكان ولداها يمسكان بأيدى أحدهما الآخر، فزعين من
أن يتركا أيديهما. كان الغرباء والمعارف يزورونهم ليسمعو
كيف حدث مرة أخرى ، وفجأة أعلنت بيبى سجز السلام . كان كل
ما فعلته أنها نهضت واستسلمت . وما أن حان وقت إطلاق سراح
سيث حتى كانت قد استنفدت اللون الأزرق وقطعت شوطاً طويلا
فى طريقها إلى اللون الأصفر .

فى أول الأمر كان يراها فى الفناء من آن لآخر ، أو وهى تسلم
طعاما فى السجن ، أو تسلم أحذية فى البلدة. ثم أقل فأقل. اعتقد
عندئذ أن الاحساس بالعار قد ألجأها إلى السرير. والآن ، بعد
ثمانية أعوام من جنازتها المثيرة للنزاع وثمانية عشر عاما بعد
الشقاء ، غير رأيه. لقد تعب نخاعها وكان هذا دليلا على القلب
الذى كان يغذيه حتى أنها استغرقت ثمانية أعوام لتلقى أخيرا
اللون الذى تتوق اليه. دهمها التعب بهذا الشكل فجأة، لكنه دام
أعواما. بعد ستين عاما من فقدان أطفالها للقوم الذين مضغوا
حياتها وبصقوها كأنها أشواك سمك؛ وبعد خمسة أعوام من
الحرية التى منحها لها ابنها الأخير، الذى ابتاع مستقبلها
بمستقبله، بادله على حد القول ، حتى تتمكن من أن يكون لها
مستقبل سواء كان له مستقبل أو لم يكن ـ أن تفقده هو الآخر؛

أن تكتسب ابنة وأحفادا وترى تلك الابنة تذبح أطفالها (أو تحاول ذلك) ؛ أن تنتمى إلى مجتمع من الزنوج الأحرار الآخرين - أن تحبهم ويحبونها ، أن تبذل لهم ويبذلون لها المشورة، أن تحميهم وتحتمى بهم، أن تطعمهم ويطعموها - ثم أن يتراجع ذلك المجتمع ويتباعد - حسنا إنه كان ليبلى حتى بيبى سجز التقية .

قال لها : «انصتى إلى ، يافتاة ، لايمكنك أن تتخلىْ عن الكلمة. لقد مُنحت لك لتتكلمى. لايمكنك أن تتخلى عن الكلمة، أنا لا أبالى بكل ماحدث لك .»

كانا يقفان فى شارع ريتشموند، مغروزين حتى كواحلهما فى أوراق الأشجار. المصابيح تضىء نوافذ الطوابق السفلى لبيوت رحبة وتجعل الساعات الأولى من المساء تبدو أدكن مما كانت. كانت رائحة الأوراق المحترقة رائعة. فجأة بالصدفة، وهو يضع حافة بنس فى جيبه لقاء توصيل خطابات ، نظر عبر الشارع وتعرف فى المرأة المتواثبة على صديقته القديمة.لم يكن قد رآها من أسابيع. عبر الشارع بسرعة، وهو يخوض بقدميه فى أوراق الشجر أثناء مشيه . عندما استوقفها بتحية، بادلته إياها بوجه خلا من الاهتمام . كان من الممكن أن تكون طبقا. انتظرت حتى يبدأ ، أن يشرع فى حديث أو أن يتقاسمه، وهى تحمل مخلاة مليئة بالاحذية فى يدها. لو أن عينيها كان بها حزن لفهم، لكن اللامبالاة كانت تقيم حيث يجب أن يكون الحزن .

قال لها: «لقد غبت عن الساحة الخالية ثلاثة أيام سبت متوالية» .

أدارت وجهها وراحت تتفحص البيوت على طول الطريق .

قال: «جاء الناس».

أجابته: «الناس يأتون ؛ والناس يذهبون».

« هيا دعينى أحمل هذا.» حاول أن يأخذ المخلاة منها لكنها لم تدعه».

قالت: « علىّ أن أقوم بتسليم أشياء فى مكان ما هنا اسمه تكر.»

قال: « هناك . شجرتا كستناء توءمتان فى الفناء مريضتان أيضا».

سارا قليلا. وتباطأت خطوته لتلائم وثبتها .

« حسنا ؟»

« حسنا ، ماذا ؟»

« السبت القادم. هل ستناديهم أم ماذا؟»

« إذا ناديتهم وجاءوا ، فأى شىء سأقول؟»

« قولى الكلمة ! «كبح صيحته متأخرا أكثر من اللازم. أدار رجلان أبيضان يحرقان أوراق الشجر رأسيهما فى اتجاههما. مال عليها وهمس فى أذنها: الكلمة . الكلمة».

قالت: «هذا شىء آخر سُلِبته،» وكان ذلك حين راح ينصحها، يتوسل اليها ألا تتخلى، مهما كان الأمر . لقد مُنِحت الكلمة لها وكان عليها أن تقولها . كان لزاما عليها ..

كانا قد بلغا شجرتى الكستناء التوءمتين والبيت الأبيض الذى يقع خلفهما .

قال: « هل ترين ماأعنيه؟ أشجار ضخمة كهذه، وكلتاهما معا ليس بهما أوراق شجرة بتولا حديثة العمر.»

قالت: « أفهم ماتعنيه، لكنها حدقت بدلا من هذا فى البيت الأبيض .»

قالت: « عليك أن تقومى به. لزاما عليك. ليس هناك من ينادى مثلك. عليك أن تكونى هناك.»

« ماعلى أن أفعله هو أن أدخل سريرى وأرقد. أريد أن أختار شيئا غير ضار فى هذا العالم.»

« أى عالم تتكلمين عنه. أليس هناك شيء غير ضار هنا؟»

«نعم هناك. الأزرق . ذلك لايؤذى أحدا. ولا الأصفر.»

« تدخلين السرير لتفكرى فى اللون الأصفر؟»

« أنا أحب اللون الأصفر.»

« ثم ماذا ؟ ثم ماذا عندما تنتهين من الأزرق والأصفر؟»

« لا أستطيع أن أقول . هذا شيء لايمكن تخطيطه.»

قال: « هل تلومين الله؟ هذا ماتفعلينه.»

« لا، ياستامب . أنا لا أفعل هذا.»

« أتقولين أن البيض كسبوا؟ هل ذلك ماتقولينه؟»

« أنا أقول إنهم جاءوا إلى فنائى.»

« لاتقولين شىء يهم».

« أقول إنهم جاءوا إلى فنائى.»

« سيث هى من فعلت هذا.»

« واذا لم تكن قد فعلته؟»

« هل تقولين ان الله تخلى ؟ ولم يعد لنا إلا أن نريق دمنا؟»

« أنا أقول إنهم جاءوا إلى فنائى»

« أنت تعاقبينه ، أليس كذلك ؟»

« لا كما عاقبنى . »

« لايمكنك أن تفعلى هذا، يابيبى. هذا ليس صحيحا.»

« كان هناك زمن عرفت فيه معنى هذا.»

« مازلت تعرفين . »

« ما أعرفه هو ماأراه: امرأة زنجية تنقل أحذية . »

« أوه ، بيبى . » لعق شفتيه وهو يبحث بلسانه عن الكلمات التى تثنيها ، تخفف حملها .

« علينا أن نكون راسخين . هذه الأشياء أيضاً سوف تمضى؛ ما الذى تبحثين عنه؟ معجزة؟»

قالت: « لا ، أنا أبحث عما وضعت هنا لكى أبحث عنه: الباب

الخلفى،» وتواثبت اليه رأسا. لم يسمحوا لها بالدخول. تناولوا الأحذية منها وهى تقف على الدرج وأراحت حرقفتها على الحاجز فى حين راحت المرأة البيضاء تبحث عن بنسين.

أعاد ستامب بيد ترتيب طريقته. راح يراقبها للحظة واستدار ليمضى قبل أن يصل الوجه الأبيض اليقظ فى نافذة البيت المجاور إلى استنتاج، وهو أشد غيظا من أن يصحبها إلى بيتها وينصت للمزيد.

أسف على ذلك الحديث، وهو يحاول الآن أن يصل إلى البيت رقم ١٢٤ للمرة الثانية: النبرة العالية التى اتخذها؛ رفضه أن يرى تأثير الإنهاك النخاعى فى امرأة كان يعتقد أنها جبل. الآن فهمها حين لاينفع الفهم. لم يكن القلب الذى يفيض حبا والفم الذى ينطق بالكلمة مهمين. فقد جاءوا إلى فنائها على أى حال ولم تكن قادرة على الموافقة على اختيار سيث الصعب أو إدانته. ربما كان واحد أو آخر سينقذها، لكنها ذهبت إلى السرير وقد قهرها متطلبات الاثنين وأرهقتها جماهير البيض آخر الأمر.

وهو فى عام ١٨٧٤ وكانت جماهير البيض مايزالون طلقاء من قيود الأخلاق والنظام. مدن بأسرها محى منها الزنوج؛ سبع وثمانون عملية إعدام بدون محاكمة قانونية فى عام واحد فقط فى كنتاكى؛ إحراق أربع مدارس للملونين وإبادتها من الوجود؛ رجال ناضجون يجلدون كأنهم أطفال؟ وأطفال يجلدون كأنهم ناضجون، النساء الزنجيات يغتصبهن البحارة؛ الممتلكات يستولى عليها، والرقاب تكسر. كان يشم جلدا، جلدا ودما حارا. كان الجلد

شيئا، ولكن طبخ الدم البشرى فى نار الاعدام بلا محاكمة كان شيئا آخر تماما. فاحت رائحة النتن. فاحت من صفحات جريدة «نورث ستار» ، من أفواه الشهود، حفرت بخط ملتو فى خطابات سلمت باليد. فاحت فى وثائق تفصيلية والتماسات حافلة بكلمة «فى حين» قدمت لأية هيئة قانونية قرأنها. لكن شيئا من هذا لم ينهك نخاعه. لاشىء من ذلك . كان الشريط . وهو يربط قاربة المسطح القاع إلى ضفة نهر ليكنج، ويثبته ماأمكنه، لمح شيئا أحمر على قاعه. ظن ، وهو يمد يده اليه، أنه كان ريشة من طائر الكردينال لصقت بقاربه. جذبها وكان ماخرج فى يده شريط أحمر معقود حول خصلة من شعر مبلل صوفى ، ماتزال ملتصقة بقطعة من فروة رأس. فك الشريط ووضعه فى جيبه، وأسقط الخصلة فى الأعشاب البرية . فى طريقه إلى بيته، توقف لاهثا تدور رأسه. انتظر حتى زالت النوبة قبل أن يواصل طريقه. بعد ذلك بلحظة، لهث ثانية. فى هذه المرة جلس بجوار سور. نهض واقفا بعد أن استراح، لكنه استدار قبل أن يخطو خطوة ليلقى نظرة على الطريق الذى كان يرتحل فيه، وقال لطينه المتجمد وللنهر فيما وراءه: «ماهم هؤلاء الناس؟ خبرنى ، يايسوع . ماهم؟»

وعندما بلغ بيته كان التعب قد نال منه حتى لم يستطع تناول الطعام الذى أعدته له أخته وابنا أخته.جلس فى الشرفة فى البرد بعد حلول الظلام بوقت طويل وأوى إلى سريره فقط لأن صوت أخته وهو يناديه كان عصبيا. احتفظ بالشريط؛ ورائحة الجلد تناكده، ونخاعه الذى ضعف جعله يتأمل فى رغبة بيبى سجز فى أن تفكر فيما هو غير ضار فى العالم. وتمنى لو أنها تشبثت

بالأزرق، الأصفر، ربما الأخضر، وألا تكون قد اختارت اللون الأحمر.

وبعد أن أخطأ فهمها، وأنبها، وأضمر لها، كان بحاجة الآن إلى أن يدعها تعرف أنه عرف، وأن يصحح الأمر معها ومع أقاربها. ولهذا فإنه على الرغم من نخاعه المنهك، فإنه واصل طريقه خلال الأصوات وحاول مرة أخرى أن يطرق باب البيت رقم ١٢٤ . وعلى الرغم من أنه لم يكن بوسعه أن يفك شفرة حتى كلمة واحدة فى تلك المرة، إلا أنه اعتقد أنه عرف من كان ينطق بها. الناس ذوو الرقاب المكسورة، ذوو الدم المطبوخ فى النار والفتيات الزنجيات اللاتى فقدن شرائطهن.

أى هدير صاخب

•

آوت سيث إلى سريرها وهى تبتسم ، متلهفة إلى الرقاد والكشف عن الدليل على الاستنتاج الذى توصلت إليه سلفا. أن تهدهد يوم وصول «محبوبة» وظروفه ومعنى تلك القبلة فى الساحة الخالية من الأشجار. وبدلا من ذلك نامت واستيقظت ، وهى ماتزال تبتسم، على صباح مشرق، به من البرودة مايكفى لأن تتبين أنفاسها. تريثت لحظة لتستجمع الشجاعة على طرح البطانيات والنزول إلى أرضية الغرفة الباردة . وللمرة الأولى كانت ستذهب إلى عملها متأخرة.

فى الطابق السفلى رأت الفتاتين نائمتين حيث تركتهما، ولكن

ظهرا إلى ظهر الآن، وكل منهما ملتفة بإحكام بالبطانيات ، تتنفس فى وسادتها . كانت المزالج الثلاثة ترقد قرب الباب الخارجى، ولم تكن الجوارب التى علقت على مسمار خلف موقد الطبخ لتجف قد جفت بعد .

ألقت سيث نظرة على وجه «محبوبة» وابتسمت .

دارت حولها بهدوء وحرص لتحيى النار. قطعة ورق أولا، ثم قليل من الضرام - لأكثر من اللازم - مجرد مذاق حتى تصبح قوية بما فيه الكفاية لتلقى المزيد. غذت رقصتها حتى أصبحت جامحة وسريعة. عندما خرجت لتجمع مزيدا من الخشب من السقيفة، لم تلاحظ آثار أقدام الرَجل المتجمدة. دارت إلى الخلف وهى تسحق الثلج بقدميها، إلى مقياس الحطب وقد تكوم الثلج عاليا فوقه. وبعد أن كشطته تماما، ملأت ذراعيها بأكبر قدر ممكن من الخشب الجاف . بل إنها نظرت إلى السقيفة مباشرة، وهى تبتسم ، تبتسم للأشياء التى لم يكن عليها أن تتذكرها الآن. وهى تفكر، « إنها ليست حتى غاضبة منى . ولامثقال ذرة» .

من الواضح أن الظلال المتماسكة الأيدى التى رأتها على الطريق لم تكن بول د. ودنفر وهى، ولكن «نحن الثلاثة». الثلاثة اللاتى كن يتشبثن بإحداهن الأخرى وهن يتزحلقن فى الليلة الماضية، الثلاثة اللاتى كن يرشفن اللبن المضاف اليه نكهة. وحيث أن الأمر كان على هذه الحال - إذا كانت ابنتها تستطيع أن تعود من ذلك المكان السرمدى - فمن المؤكد أن ولديها يستطيعان ويريدان أن يعودا من حيثما ذهبا .

غطت سيث أسنانها الأمامية بلسانها من البرد. سارت عائدة حول المنزل إلى الشرفة، وقد تقوست إلى الأمام تحت الثقل الذى كانت تحمله بين ذراعيها - دون أنّ تلاحظ الآثار المتجمدة التى خطت فيها .

بالداخل ، كانت الفتاتان ماتزالان نائمتين، على الرغم من أنهما غيرتا وضعهما فى غيبتها ، وقد انجذبتا إلى النار. جعلهما إسقاط حمل الذراعين فى صندوق الخشب تتحركان دون أن تستيقظا. أشعلت سيث موقد الطبخ بهدوء ما أمكنها، غير راغبة فى إيقاظ الشقيقتين وسعيدة بأن تراهما نائمتين تحت قدميها بينما هى تعد الافطار. سىء جدا أنها ستتأخر على عملها - سىء جدا ، جدا. مرة فى ستة عشر عاما. ذلك سىء جدا .

كانت قد خفقت بيضتين فى جريش الذرة ، وشكلت منها فطائر صغيرة وقلتها مع بعض قطع من لحم الخنزير قبل أن تستيقظ دنفر تماما وتئن .

« ظهرك متصلب»؟

« أووه نعم.»

« من المفروض أن النوم على الأرضية مفيد لك .»

قالت دنفر: « إنه يؤلم كثيرا.»

«ربما كانت السقطة التى سقطتها . »

ابتسمت دنفر: « كان ذلك لهوا.» استدارت لتلقى نظرة على « محبوبة » وهى تشخر بشكل خفيف . « هل ينبغى أن أوقظها ؟ »

« لا ، دعيها تسترح.»

« إنهاتحب أن تودعك فى الصباح.»

قالت سيث: « سوف أحرص على أن تفعل،» وقالت لنفسها ، سيكون لطيفا أن أفكر أولا، قبل أن أتكلم معها، أن أدعها تعرف أننى أعرف ـ أن أفكر فى كل ما لن أكون مضطرة إلى أن أتذكره بعد الآن . أن أفعل كما قالت بيبى: فكرى فيه ثم اطرحيه ـ إلى الأبد. لقد أقنعنى بول د.أن هناك عالما بعيدا هناك، وأن بإمكانى أن أعيش فيه. كان ينبغى أن أكون أكثر فطنة. فطنة أكثر . فمهما كان مايجرى خارج بابى ليس لى. العالم فى هذه الغرفة. ماهنا هو كل مايوجد وكل مايحتاج أن يوجد .

أكلتا مثل الرجال، بنهم وتركيز . وهما تتكلمان قليلا، قانعتان كل منهما بصحبة الأخرى وفرصة النظر فى عينيها .

عندما لفت سيث رأسها وحزمت نفسها لتذهب إلى البلدة، كان النهار قد انتصف بالفعل. وحين غادرت البيت لا هى رأت آثار الأقدام ولا سمعت الأصوات التى كانت تحيط بـ البيت رقم ١٢٤ كأنها أنشوطة .

وبينما كانت سيث تمشى مجهدة فوق الآثار التى خلفتها العجلات فيما سبق ، كانت مستثارة إلى درجة الدوار من الأشياء التى لم يعد ينبغى لها أن تذكرها .

لست مضطرة إلى تذكر شىء . بل لست مضطرة إلى التفسير. فهى تفهم الأمر كله. أستطيع أن أنسى كيف انهار قلب بيبى سجز؛ كيف أتفقنا على أنه السل دون أدنى علامة عليه. عيناها حين

كانت تحضر لى الطعام، أستطيع أن أنسى هذا، وكيف أخبرتنى أن هوارد وبجلر كانا على مايرام لكنهما ماكانا ليتركا أيدى أحدهما الآخر . كانا يلعبان بهذا الشكل : يبقيان بهذا الشكل خاصة وهما نائمان . كانت تناولنى الطعام فى سلة ؛ أشياء ملفوفة بدقة بحيث تنفذ من القضبان ، وهى تهمس بأخبار : مستر بودوين سيسعى أعرف أو تعرف هى. لقد صاغت سيدات ديلاوير الملونات، أوهايو، التماسا ليحلن دون شنقى. أن واعظين أبيضين قد جاءا ويريدان التحدث الىّ والصلاة من أجلى . أن صحفيا جاء أيضا.

كانت تنقل إلىّ الأخبار وأنا أخبرها أننى كنت بحاجة إلى شىء للفئران. كانت تريد دنفر أن تخرج وصفقت براحتى يديها عندما لم أقبل أن أدعها تخرج. قالت: «أين قرطيك . سوف أحفظهما لك» أخبرتها أن السجان قد أخذهما، ليحمينى من نفسى . ظن أننى بإمكانى أن أفعل شيئا بالسلك . غطت بيبى سجز فمها بيدها . قالت: « لقد غادر المدرس البلدة. رفع دعوى وركب جواده ورحل» قالت: «سوف يسمحون لك بالخروج لحضور الدفن ، لا الجنازة، مجرد الدفن.» وفعلوا. اصطحبنى المأمور وأدار وجهه وأنا أرضع دنفر فى العربة . لم يسمح لى هوارد أو بجلر بالاقتراب منهما، ولا حتى أن ألمس شعرهما. أعتقد أن قوما كثيرين كانوا هناك، لكننى رأيت الصندوق فقط. تكلم الأب المبجل بايك بصوت عال حقا، لكننى لم أسمع كلمة ـ فيما عدا الكلمتين الأوليين، وبعد ذلك بشهرين أو ثلاثة حين كانت دنفر مستعدة لتناول طعام صلب وأطلقوا سراحى نهائيا، ذهبت واشتريت لك شاهد قبر، لكن لم يكن لدى مايكفى من المال للنقش ولذا بادلت (قد تقولين ،

قايضت) مالدى ومازلت آسفة إلى هذا اليوم-أننى لم أفكر مطلقا أن أطلب منه الشىء كله: كل ما سمعته مما قاله المبجل بايك «محبوبة» الغالية ، وهو ماتمثلينه بالنسبة لى ولست مضطرة إلى ان أكون آسفة بشأن كتابة كلمة واحدة، ولست مضطرة إلى أن أتذكر السلخانة وفتيات يوم السبت اللاتى كن ينظفن فناءه. بإمكانى أن أنسى مافعلته بحياة بيبى سجز. لاساحة خالية ، لاصحبة. مجرد الغسيل والأحذية . بإمكانى أن أنسى كل هذا الآن لأننى ما أن ركبت شاهد القبر فى مكانه حتى أعلنت عن وجودك فى البيت وأزعجتنا جميعاً إلى درجة الخبل. لم أفهم الأمر عند ذاك.ظننتك غاضبة منى. والآن أعرف أنك لو كنت ، فإنك لست غاضبة الآن لأنك عدت إلى هنا، وأننى كنت على حق طيلة الوقت: فليس هناك عالم خارج بابى غير أننى أريد أن أعرف شيئا واحدا. إلى أى حد الندبة سيئة؟

فى حين راحت سيث تسير، متأخرة على عملها للمرة الأولى على مدى ستة عشر عاما وهى متشحة بحاضر سرمدى، كان ستامب بيد يقاوم الارهاق وعادة لازمته طوال عمره. رفضت بيبى سجز أن تذهبَ إلى الساحة الخالية لأنها كانت تعتقد أنهم كسبوا؛ ورفض هو أن يعترف بمثل هذا النصر. لم يكن لدى بيبى أى باب خلفى؛ ولذلك كان يتحدى البرد وحائطا من الحديث ليطرق الباب الذى كان لديها . قبض على الشريط الأحمر فى جيبه طلبا للقوة. بنعومة فى أول الأمر، ثم بقوة . وفى آخر الأمر طرق بعنف - وهو لايصدق أن ذلك من الممكن أن يحدث. ألا ينفتح باب خلفه ملونون على مصراعيه فى حضوره. ذهب إلى النافذة وأراد

أن يبكى. كانا هناك بكل تأكيد، دون أن تتجه واحدة منهما إلى الباب. استدار العجوز وهبط الدرج، وهو يفرك قصاصة الشريط ليحولها إلى مزق. انضم حب استطلاعه الآن الى احساسه بالعار وبالدين . كان هناك ظهران منثنيان بعيدا عنه حين نظر من النافذة. كان لواحد رأس يعرفه، كان الآخر يقلقه . لم يكن يعرفها أو يعرف من تكون. لا أحد، ولكن لم يكن أحد يزور ذلك البيت .

وبعد إفطار كريه ذهب لرؤية ايللا وجون ليكتشف مايعرفان. ربما استطاع هناك أن يكتشف، بعد كل تلك السنين من الوضوح، ما إذا كان قد أخطأ فى تسمية نفسه، وأن هناك دين آخر عليه مايزال. ولد باسم جوشوا، وأعاد تسمية اسمه حين سلم زوجته لابن سيده. سلمها بمعنى أنه لم يقتل أحدا، وبالتالى نفسه، لأن زوجته طلبت منه أن يبقى حيا. وإلا، كما جادلت، فالى أين تعود وإلى من عندما ينتهى منها الصبى؟ وبتلك الهدية قرر أنه لم يكن مدينا لأحد بشىء . ومهما كانت التزاماته ، فقد سددها ذلك الفعل. ظن أن عدم المديونية سيجعله صعب المراس، مرتدا ، بل حتى سكيرا، وقد فعل بشكل ما. ولكن لم يكن هناك مايفعله بشأنه. اشتغل جيدا؛ اشتغل على نحو هزيل. اعمل قليلا؛ لاتعمل على الاطلاق . افهم ؛ لاتفهم . نم ، استيقظ ؛ أحب شخصا ما، أكره الآخرين . لم يبد أنها طريقة جيدة للحياة ولم تجلب له أى رضا. وهكذا مد عدم إحساسه بالدين، إلى اناس آخرين عن طريق مساعدتهم أن يثأروا لما كانوا مدينين به فى تعاستهم وأن يسددوه. الهاربون المهزومون؟ كان يعبر بهم ويجعلهم مدفوعى الثمن؛ يعطيهم فاتورة بيعهم، على حد القول. «لقد دفعته؛ والحياة

مدينة لك الآن . » وكان الوصل ، على حد القول ، بابا يرحب به لم يكن مضطراً أبدا إلى طرقه، مثل باب ايللا وجون الذى وقف أمامه وقال: « من هناك؟» مرة واحدة فقط وكانت تجذب الباب ليدور على مفصلته .

« أين كنت تختبىء؟ قلت لجون إن الجو لابد بارد إذا بقى ستامب بالداخل؟»

خلع قلنسوته ودلك فروة رأسه وقال: « أوه ، كنت بالخارج؟»

قالت ايللا وهى تعلق زوجين من الملابس الداخلية على حبل خلف الموقد: « بالخارج أين؟ ليس قريبا من هنا؟»

« ذهبت إلى بيت بيبى سجز هذا الصباح.»

سألته ايللا : «وما الذى تريده من هناك ؟ هل دعاك أحد ؟ »

« إنهم أقارب بيبى. ولست بحاجة إلى دعوة لأرعى أهلها.»

لم تتأثر ايللا: « سث؟» لقد كانت صديقة بيبى سجز وسيث أيضا حتى جاء الوقت الصعب وفيما عدا ايماءة فى الكرنفال، فانها لم تكن تعر سيث التفاتا .

« هناك شخص جديد هناك . امرأة . ظننت أنك قد تعرفين من هى . »

قالت: « ليس هناك زنوج جدد فى هذه البلدة لا أعلم بهم. مامنظرها؟ ألست متأكدا أنها دنفر؟»

«أعرف دنفر. هذه الفتاة نحيلة.»

« متأكد؟»

« أعرف ماأراه.»

« ربما ترى أى شيء على الإطلاق فى البيت رقم ١٢٤ .»

«صحيح.»

قالت: «يحسن بك أن تسأل بول د.»

قال ستامب: « لا أستطيع أن أحدد مكانه،» وهو ما كان صحيحا على الرغم من أن جهوده للعثور على بول د كانت هزيلة. لم يكن على استعداد لمواجهة الرجل الذى غير حياته بمعلوماته التى أدلى له بها فى الجبانة .

قالت ايللا: « إنه ينام فى الكنيسة.»

صدم ستامب بيد وأحس بألم شديد وقال: «الكنيسة!»

« آه.اسأل المبجل بايك إذا كان بإمكانه أن يقيم فى القبو.»

«إن الجو هناك بارد مثل الصدقة.»

« أتوقع أن يعرف هذا.»

«لماذا فعل ذلك ؟»

« يبدو لى أنه معتز بذاته قليلاً . »

« ليس مضطرا إلى فعل ذلك ! كثيرون على استعداد لأن يستضيفوه . »

استدارت ايللا لتنظر إلى ستامب بيد: «ألا يستطيع أحد قراءة

الأفكار من بعيد . كل ما عليه أن يسأل شخصا ما . »

« ولماذا؟ لماذا عليه أن يسأل؟ ألا يستطيع أحد أن يعرض؟ ما الذى يجرى ؟ حيث أن زنجيا جاء إلى البلدة يجد نفسه مضطرا إلى المبيت فى قبو كأنه كلب.»

« لا تغضب ، يا ستامب . »

« لست أنا. سأظل غاضبا حتى يدرك أحد ويتصرف على الأقل كمسيحى.»

«إنه لم يكن هناك إلا منذ بضعة أيام.»

« لايجب أن يمتد الأمر أياما: أنت تعرفين كل شىء عن الأمر، ولاتمدين له يد المساعدة؟ ليس هذا من صفاتك، ياايللا؟ فلقد ظللت أنا وأنت نخرج الملونين من الماء أكثر من عشرين عاماً. وتخبرينى الآن أنك لاتستطيعين أن تقدمى لرجل سريراً ورجل عامل ، أيضا! رجل لايستطيع أن يعيش دون أن يتورط فى الدين.»

« إذا سأل ، لأعطيته أى شىء.»

« لماذا يصبح هذا ضروريا فجأة تماماً؟»

« أنا لا أعرفه معرفة طيبة إلى هذا الحد.»

« تعرفين أنه ملون !»

« ستامب ، لاتمزقنى هذا الصباح. لست مستعدة لهذا.»

« إنها هى ، أليس كذلك؟»

« هى من؟»

« سيث . فقد صادقها وأقام هناك وأنت لاتريدين شيئا ـ»

« انتظر . لاتتعجل إذا لم تكن ترى القاع.»

« يافتاة ، كفى . فلقد كنا أصدقاء زمنا أطول من أن يسمح لنا أن نتصرف هكذا.»

« حسنا، من يستطيع أن يدرك كل ماكان يجرى هناك؟ اسمع، أنا لا أعرف من هى سيث ولا أيا من أهلها . »

« ماذا؟»

« كل ماأعرفه هو أنها تزوجت من ابن بيبى سجز وأنا لست متأكدة أننى أعرف ذلك. أين هو، هه؟ إن بيبى لم تقع عيناها عليها إلا حين حملها جون إلى الباب ومعها طفلة ربطتها إلى صدرها.»

« لقد ربطت **أنا** تلك الطفلة ! وكنت أنت قد أوغلت فى الدرب بتلك العربة. إن أطفالها يعرفون من هى حتى لو لم تكونى تعرفين.»

« ماذا إذن؟ أنا لا أقول إنها لم تكن أمهم، لكن من ذا الذى يقول إنهم أحفاد بيبى سجز؟ كيف ركبت المركب ولم يركب زوجها؟ وقل لى هذا ، كيف ولدت تلك الطفلة فى الغابات وحدها؟ قالت إن امرأة بيضاء جاءت من بين الأشجار وساعدتها. هراء. هل تصدق هذا؟ امرأة **بيضاء**؟حسنا، أعرف أى نوع من البياض كان ذلك . »

« أوه ، لا، يا ايللا.»

« أى شىء يتجول فى الغابة - إذا لم يكن معه بندقية ، هذا شى لا أريد أن يكون لى علاقة به!»

« كنتم جميعا أصدقاء.»

« آه ، حتى ظهرت.»

« ايللا.»

« ليس لى أصدقاء يحملون منشارا يدويا لاطفالهم ذاتهم.»

« أنت مخطئة للغاية ، يافتاة.»

« أه أه. إننى على أرض صلبة وسوف أظل هناك. أنت المخطىء.»

« ماعلاقة أى شىء مما تقولين ببول د؟»

« ما الذى دفعه إلى الهرب؟ قل لى هذا.»

« أنا دفعته إلى الهرب.»

« أنت؟»

« أخبرته عن - أريته الجريدة ، عن - مافعلته سيث. قرأته له. وغادر فى نفس ذلك اليوم.»

« أنت لم تخبرنى بهذا. كنت أظنه يعرف»

« لم يكن يعرف شيئا . إلا هى ، من وقت أن كانا فى ذلك المكان الذى كانت بيبى سجز فيه.»

«كان يعرف بيبى سجز؟»

«بالتأكيد كان يعرفها. وولدها هال أيضا.»

«وغادر حين أكتشف مافعلته سيث؟»

«يبدو أنه قد يجد مكانا يقيم فيه آخر الأمر.»

« ما تقوله يلقى ضوءا مختلفا . كنت أظن. »

لكن ستامب بيد كان يعرف ماتظن .

قالت: « أنت لم تحضر إلى هنا لتسأل عنه. حضرت لتسأل عن فتاة ما جديدة.»

« هذا صحيح.»

« حسنا ، لابد أن بول د يعرف من هى أو **ما** هى . »

« إن عقلك محمل بالأشباح. وحيثما نظرت تجدين شبحا.»

« أنت تعرف مثلما أعرف أن من يموتون ميتة سيئة لايبقون فى الأرض.»

لم يستطع أن ينكر ذلك.فيسوع المسيح نفسه لم يبق، ولهذا أكل ستامب قطعة رغيف ايللا المحشو بلحم رأس الخنزير المتبل ليبين أنه لم يكن يحمل لها مشاعر سيئة، ورحل ليعثر على بول د. وجده على درج كنيسة المفتدى المقدس، وقد وضع رسغيه بين ركبتيه وقد بدا محتقن العينين .

صرخ سوير فيها حين دخلت المطبخ ، لكنها أدارت إليه ظهرها ومدت يدها لتتناول مئزرها. لم يكن هناك مدخل اليها الآن. لا شق ولا صدع متاح. لقد جاهدت أن تبقهم خارجها ، لكنها تعلم تمام العلم أن بإمكانهم، أن يزلزلوا كيانها فى أى لحظة، أن يقطعوا عنها حبل الأمان، أن يرسلوا الطيور تعاود تغريدها فى شعرها. أن يستنزفوا لبن الأم فيها، وقد فعلوا ذلك سلفا. أن يشقوا ظهرها إلى حياة نباتية - وذلك فعلوه أيضا. أن يطردوها إلى الغابة وهى منتفخة البطن - وقد فعلوا ذلك. كانت كل أخبارهم عفنا . لقد لطخوا وجه هال بالزبد؛ أعطوا بول د. الحديد ليأكله؛ قصموا ظهر سيكسو؛ شنقوا أمها - لم تكن تريد أية أخبار عن البيض، لم تكن تريد أن تعرف ماتعرفه ايللا وجون وستامب بيد عن العالم الذى أقامه البيض بالشكل الذى يحبونه . كان ينبغى أن تتوقف كل أخبار عنهم مع توقف تغريد الطيور فى شعرها .

ذات يوم، منذ زمن بعيد، كانت ناعمة، واثقة . كانت تثق فى مسز جارنر وزوجها أيضا. عقدت الأقراط فى قميصها الداخلى لتأخذها معها . لا لترتديها وإنما لتحتفظ بها . أقراط جعلتها تعتقد أن بإمكانها أن تميز بينهم. أنه فى مقابل كل مدرس سيكون هناك ايمى؛ وفى مقابل كل تلميذ جارنر أو بودوين، أو حتى مأمور. كانت لمسته لمرفقها رقيقة وأدار رأسه عندما أرضعت. لكن لقد وصل بها الأمر إلى تصديق كل كلمة من كلمات بيبى سجز الأخيرة ودفنت كل ذكرى عنهم وكل ما لاقته من حظ.وقد نبشها بول د. ورد عليها جسدها ، وقبَّل ظهرها المشقوق ، وأثار ذكرياتها وجلب اليها مزيدا من الأخبار: عن اللبن المخضوض والحديد

وابتسامة الديك الرئيس، لكنه عندما سمع أنباءها عدّ قدميها ولم يقل حتى وداعا .

« لاتكلمنى، يامستر سوير. لاتقل لى شيئا فى هذا الصباح.»

« ماذا ؟ ماذا؟ ماذا؟ تردين على ؟»

« أنا أقول لك لاتقل لي شيئا.»

« يحسن بك أن تصنعى تلك الفطائر.»

لمست سيث الفاكهة والتقطت سكينة التقشير .

عندما دخل عصير الفطائر إلى قاع الفرن وأصدر هسيسا، كانت قد قطعت شوطا فى سلطة البطاطس. دخل سوير وقال: «لاتجعليها حلوة أكثر من اللازم. أنت تجعليها أحلى من اللازم حتى أنهم لايأكلونها.»

« إننى أصنعها كما كنت أصنعها دائما.»

« نعم . حلوة أكثر من اللازم.»

لم تكن أى من أصابع السجق ترجع . كان للطباخ طريقة فى صنعها ولم يكن ليتبقى سجق فى مطعم سوير. وإذا أرادت سيث أيا منها، فإنها كانت تضعها جانبا بمجرد أن تصبح جاهزة . لكن كان هناك بعض اليخنى المقبول. كانت المشكلة أن فطائرها كانت تباع أيضا. فقط كان الأرز باللبن يبقى ونصف مقلاة من كعكة الجنزبيل التى لم تخرج على نحو صحيح . لو أنها كانت تلقى بالا بدلا من أحلام اليقظة طوال الصباح، لما راحت تنبش حولها

بحثا عن طعام عشائها مثل سرطان البحر. لم يكن بإمكانها أن تقرأ الوقت على وجه ساعة الحائط جيدا، لكنها كانت تعرف أنه متى كان العقربان يتعانقان فى صلاة أعلى وجه الساعة فقد أنهت يومها. كانت تأتى بجرة ذات غطاء معدنى ، وتملؤها باليخنى وتلف كعكة الجنزبيل فى ورق قصاب، وتسقط تلك الأشياء فى جيوب تنورتها الخارجية وتشرع فى غسيل الصحون. لم يكن أيا منها مثل ما كان الطباخ والنادلان يسرقونه . كان مستر سوير يضمن طعام الغداء فى شروط الوظيفة - مع ٣,٤ دولار فى الأسبوع - وأفهمته منذ البداية أنها ستأخذ غداءها الى البيت. لكنها كانت من حين إلى آخر تأخذ ثقابا ، بعض الكيروسين أحيانا ، قليلا من الملح ، والزبد أيضا ، وتشعر بالخزى لأنها كان بإمكانها إن تتكفل بشرائها؛ لكنها لم تكن تريد أن تقع فى حرج الانتظار خارج ظهر متجر فيلبس مع الآخرين حتى يُخدَم كل أبيض فى أوهايو قبل أن يلتفت صاحب المتجر إلى ذلك الحشد من وجوه الزنوج الذين يتطلعون من خلال ثقب فى بابه الخلفى . كانت تشعر بالخزى أيضا ، لأن ذلك كان سرقة وكانت حجة سيكسو فى هذا الموضوع تضحكها ، لكنها لم تغير شعورها ؛ تماما مثلما لم تغير رأى المدرس .

« هل سرقت ذلك الخنزير الصغير؟ أنت سرقت ذلك الخنزير.» كان المدرس هادئا لكن حازما، كما لوكان يعرض اقتراحا للتصويت، ولايتوقع إجابة مهمة. جلس سيكسو هناك، دون أن يقف حتى ليترافع أو لينفى. جلس هناك فقط وشريحة اللحم فى يده، والغضروف متعنقد فى الطبق القصديرى كأنه جواهر - خشن،

غير مصقول، لكنه غنيمة رغم ذلك .

«سرقت ذلك الخِنّوص، أليس كذلك؟»

قال سيكسو : «لا ، ياسيدى ، » لكنه كان لديه من اللياقة ما يكفى لأن يحتفظ بعينيه مركزتين على اللحم .

« أنت تخبرنى بأنك لم تسرق، وأنا أنظر اليك تماما؟»

« لا ، ياسيدى أنا لم أسرقه.»

ابتسم المدرس: « هل ذبحته؟»

« نعم، ياسيدى ذبحته.»

« هل قسمته؟ »

« نعم، ياسيدى»

« هل طبخته؟»

« نعم ، ياسيدى.»

«حسنا ، إذن هل أكلته ؟ »

« نعم ، ياسيدى.بالتأكيد فعلت.»

« وتخبرنى أن هذا ليس سرقة؟»

« لا ، ياسيدى إنه ليس كذلك.»

« ماهو إذن؟»

« تحسين ممتلكاتك ، ياسيدى.»

« ماذا ؟»

« سيكسو يزرع الجادوار ليعطى لقطعة الأرض العالية فرصة أفضل. سيكسو يأخذ ويغذى التربة، ويعطيك محصولا أكبر. سيكسو يأخذ . غذّ . سيكسو يعطيك عملا أكثر . »

بارع لكن المدرس ضربه على أية حال ليريه أن التعريفات تخص القائمين على التعريف ـ لاعلى الأشياء التى يقومون بتعريفها. وبعد أن مات مستر جارنر بثقب فى أذنه، قالت مسز جارنر إنه انفجار فى طبلة الأذن بسبب ضربة وقال سيكسو إنه بسبب البارود ، كان كل مايلمسونه يعد سرقة. لامجرد سرقة ذرة، أو بيضتين من الفناء لم تذكرهما حتى الدجاجة، أى شىء. أخذ المدرس البنادق من رجال سويت هوم، وشرع الرجال، وقد حرموا من الطرائد ليكملوا بها غذاءهم من الخبز والفاصوليا وجريش الذرة والخضراوات وقليل إضافى فى وقت الذبح، يسرقون بشكل جاد، ولم يعد ذلك حقهم فقط بل واجبهم .

كانت سيث تفهم هذا عند ذاك ، لكنها الآن وقد حصلت على عمل يعود عليها بأجر وصاحب عمل من الطيبة بحيث يستأجر سجينة سابقة، فإنها كانت تحتقر نفسها بسبب الكبرياء الذى جعل السرقة أفضل من الوقوف فى طابور عند نافذة المتجر مع كل الزنوج الآخرين . لم تكن تريد أن تدافعهم بمنكبها أو يدافعونها بمناكبهم. أن تشعر بحكمهم أو إشفاقهم عليها، وعلى الأخص الآن . انتهى يوم العمل، وكانت تشعر بالاثارة سلفا. لم تكن قد شعرت بمثل هذه الحيوية منذ ذلك الهروب الآخر. زمت

شفتيها وهى تلقى الفضلات لكلاب الحارة وتراقب سعارهم. سيكون اليوم يوما تقبل فيه أى توصيلة، إذا عرضها عليها أى شخص على عربة . مضت ستة عشر عاما لم يكن أحد ليعرض ، عليها هذا، ولم يسمح لها كبرياؤها أن تسأل. لكن اليوم. أوه، اليوم. الآن كانت تريد السرعة ، أن تتواثب على طول الرصيف إلى البيت وأن تكون هناك .

عندما حذرها سوير من التأخير مرة أخرى، سمعته بالكاد. كان رجلا لطيفا.صبورا، رقيقا فى معاملاته مع مساعديه. ولكنه عاما بعد عام، بعد موت ابنه فى الحرب، كان يكتسب نزوات أكثر وأكثر غرابة. كما لو كان وجه سيث الداكن هو المسئول .

قالت : « هه ، وهى تتعجب كيف يمكنها أن تتعجل الزمن لتصل إلى حيث لا زمن ينتظرها . »

لم تكن بحاجة إلى أن تقلق . عندما بدأت رحلة العودة إلى بيتها ، وهى ماتفة بإحكام تغذ خطاها ، كان عقلها مشغولا بالأشياء التى يمكنها أن تنساها .

شكرا لله أننى لست فى حاجة إلى تذكر شىء وقوله لأنك تعرفينه . كله . تعرفين أننى ما كنت لأتركك . أبدا . كان ذلك كل مااستطعت أن أفكر فى فعله. كان علىّ أن أكون مستعدة عندما يأتى القطار. كان المدرس يعلمنا أشياء ليس بوسعنا أن نتعلمها. لم أكن أهتم قلامة ظفر بخيط القياس. كنا جميعا نضحك منه ـ ماعدا سيكسو لم يكن يضحك من شىء.لكننى لم أكن أهتم. كان المدرس يلف ذلك الخيط فوق رأسى كله، حول أنفى،حول مؤخرتى. يعد أسنانى. كنت أظنه أحمق. وكانت الأسئلة التى يطرحها أكثر

الأشياء حمقا .

ثم جئت أنا وأخواك من رقعة الأرض الثانية. كانت الأولى قريبة من البيت حيث تنمو الأشياء السريعة: الفاصوليا، البصل، البازلاء، كانت الرقعة الثانية الأبعد للأشياء التى تدوم طويلا البطاطس، اليقطين ، البامية . لم يكن كثير منها قد ظهر بعد هناك. كان الوقت مايزال مبكرا. انتزعنا الاعشاب البرية وعزقنا الأرض قليلا لنعطى كل شيء بداية طيبة. ثم صعدنا إلى البيت . كانت الأرض ترتفع من الرقعة الثانية. لم يكن تلا بالضبط لكنه تل نوعا ما. مايكفى لأن يجرى هوارد وبجلر عليه صاعدين ويتدحرجان نازلين، يصعدان جريا ويتدحرجان نزولا. هكذا كنت أراهما فى أحلامى ، يضحكان، وأرجلهما السمينة القصيرة تجرى صاعدة التل. كلما أراه الآن هو ظهراهما وهما يسيران على طول شريط السكة الحديدية . مبتعدين عنى. مبتعدين عنى دائما. لكنهما كانا فى ذلك اليوم سعيدين، يصعدان جريا ويتدحرجان إلى أسفل. كان الوقت مايزال مبكرا - كان موسم النماء قد بدأ، ولكن لم يكن الكثير قد ظهر بعد. أذكر أن الفاصوليا كانت ماتزال مزهرة. كان العشب طويلا رغم ذلك ، مليئاً ببراعم بيضاء وتلك الزهور الحمراء الطويلة التى يسميها الناس دايان، وشيء هناك به أضأل قدر من الزرقة - خفيفة ، مثل القرنبيط لكنه باهت، باهت. باهت حقا. ربما كان ينبغى علىّ أن أسرع لاننى تركتك خلفى فى سلة بفناء البيت. بعيدا عن المكان الذى ينبش فيه الدجاج لكنك لاتعرفين بتاتا. على أى حال مشيت على مهل وأنا أعود لكن أخويك لم يصبرا علىّ وأنا أحدق فى الزهور

والسماء فى كل خطوتين أو ثلاث خطوات . راحا يعدوان أمامى وتركتهما. فى ذلك الوقت من السنة يحيا فى الهواء شىء عذب، وإذا كان النسيم صحيحا، فمن الصعب البقاء فى البيت. عندما عدت كان بإمكانى أن أسمع هوارد وبجلر يضحكان بجوار المسكن . وضعت معزقتى واخترقت الفناء لأصل اليك. كان الظل يتحرك، ولهذا كانت الشمس تتألق عليك تماما عندما وصلت.فى وجهك تماما، لكنك لم تكونى قد استيقظت بعد على الاطلاق.كنت ماتزالين نائمة أردت أن ألتقطك بين ذراعى كما أردت أن أنظر اليك وأنت نائمة أيضا. الا تعلمين؛ كان لك أجمل وجه. وهناك، ليس بعيدا عنك، كانت تعريشة عنب صنعها مستر جارنر. كان دائما مليئا بمشروعات كبيرة، وكان يريد أن يصنع نبيذه ليسكر منه. ولم يحصل منه بتاتاً على أكثر من غلاية جيلى. لا أعتقد أن التربة كانت صالحة للعنب. كان أبوك يعتقد أنه المطر، لا التربة. وكان سيكسو يقول إنها الحشرات . كانت حبات العنب صغيرة للغاية وجامدة. ولكن كانت هناك منضدة صغيرة. وهكذا رفعت سلتك وحملتك إلى تعريشة العنب. كان المكان هناك رطبا وظليلا. وضعتك على المنضدة وفكرت أنه لو كان لدىّ قطعة من الموسلين لما وصلت الحشرات والأشياء اليك . ولو كانت مسز جارنر لاتحتاج الىّ هناك فى المطبخ تماما، كنت أستطيع أن آتى بكرسى ونستطيع أنا وأنت أن نذهب إلى هناك فى حين كنت أنظف الخضروات . أتجهت إلى الباب الخلفى لآتى بالموسلين النظيف الذى كنا نحتفظ به فى خزانة المطبخ.كان ملمس العشب طيبا على قدمى. وصلت إلى قرب الباب وسمعت أصواتا . كان المدرس يجعل تلميذيه يجلسان ويتعلمان فى الكتب لفترة ما

عصر كل يوم. فاذا كان الجو لطيفا، كانوا يجلسون فى الشرفة الجانبية.ثلاثتهم جميعا.كان يتكلم وهما يكتبان. أو كان يقرأ وهما يكتبان مايقول. لم أخبر أحد بذلك مطلقا . لا أباك، ولا أحد. كدت أخبر مسز جارنر.لكنها كانت ضعيفة للغاية عندئذ وتزداد ضعفا. هذه أول مرة أقولها وأقولها لك لأنها قد تساعد على تفسير شيء لك، رغم أننى أعلم أنك لست بحاجة إلى أن أفعل هذا. أن أقولها أو حتى أن أفكر فيها. لست مضطرة حتى الى الانصات، إذا لم تريدى. كان يخاطب تلميذيه وسمعته يقول، «أيهم تناسبكما ؟» وقال أحد الولدين، «سيث .» عندئذ توقفت لأننى سمعت اسمى، ثم أخذت بضع خطوات إلى حيث يمكننى أن أرى مايحدث. كان المدرس يقف فوق أحدهما وإحدى يدية خلف ظهره. لعق سبابته مرتين وقلب بضع صفحات. ببطء. كنت على وشك أن أستدير وأواصل طريقى إلى حيث كان الموسلين، عندما سمعته يقول: «لا، لا . ليست هذه هى الطريقة. أخبرتكم أن تضعوا صفاتها الانسانية على اليسار؛ وصفاتها الحيوانية على اليمين. ولا تنسوا أن تضعوها فى صفين . » شرعت أمشى إلى الوراء ، لم أنظر حتى خلفى لاكتشف إلى أين أتجه . فقط كنت أرفع قدمى واندفع إلى الوراء. عندما اصطدمت بشجرة كانت فروة رأسى شائكة. كان أحد الكلاب يلعق وعاء فى الفناء . وصلت إلى تعريشة العنب بأقصى سرعة،لكن لم يكن معى الموسلين. حط الذباب على وجهك كله وهو يفرك أياديه. كانت رأسى تدعونى إلى حكها بعنف.كأن شخصا ما كان يغرز إبرا دقيقة فى فروة رأسى. لم أخبر هال مطلقا ولا أحد. لكننى سألت مسز جارنر فى ذلك اليوم

نفسه عن جزء منه كانت ضعيفة عندئذ لا بدرجة الضعف التى أنتهت اليها، لكنها تتدهور. كان هناك كيس من نوع ما ينمو تحت فكها . لم يكن يبدو كما لو كان يؤلمها، لكنه كان يضعفها. كانت تنهض نشيطة أولا فى الصباح، وما أن يحين موعد الحلب الثانى حتى لاتستطيع أن تقف على قدميها. وبعد ذلك تعودت على النوم متأخرة. وفى اليوم الذى صعدت إليها فيه كانت فى السرير طيلة اليوم، وفكرت فى أن أحمل اليها بعض حساء الفاصوليا البيضاء وأسألها عندئذ. عندما فتحت باب حجرة النوم نظرت إلى من تحت قلنسوة النوم. كان من الصعب سلفا أن تلمحى الحياة فى عينيها . كان حذاؤها وجوربها على أرضية الحجرة وهكذا عرفت أنها قد حاولت ارتداء ثيابها.

« قلت: أحضرت لك بعض حساء الفاصوليا البيضاء.»

قالت : « لا أظن أننى أستطيع أن أبلع هذا.»

قلت لها : «جربى قليلاً . »

« إنه سميك جدا. أنا واثقة أنه سميك جدا.»

« هل تريدين أن أخففه بقليل من الماء ؟ »

« لا خذيه بعيدا. أحضرى لى بعض الماء البارد، هذا كل مافى الأمر . »

« نعم، ياسيدتى. سيدتى؟ هل يمكننى أن أسألك شيئا؟»

« ماهو ، ياسيث؟»

« ماذا تعنى صفات؟»

«ماذا؟»

«كلمة . صفات.»

« أوه » حركت رأسها على الوسادة . «ملامح. من علمك ذلك ؟»

« سمعت المدرس يقولها.»

« غيرى الماء ، ياسيث. هذا دافىء»

« نعم، ياسيدتى . ملامح؟»

« الماء ، ياسيث . ماء بارد»

وضعت الابريق على الصينية مع حساء الفاصوليا البيضاء وهبطت إلى الطابق السفلى. وعندما عدت بالماء الطازج أمسكت برأسها وهى تشرب . استغرقت بعض الوقت لأن ذلك الورم كان يجعل من الصعب عليها أن تبلع . عادت إلى الرقاد ومسحت فمها. ويبدو أن الشرب أرضاها لكنها قطبت جبينها وقالت: «لايبدو أننى قادرة على الاستيقاظ ياسيث. كل مايبدو أننى أريده هو أن أنام . »

قلت لها: «إذن فافعلى ذلك، سوف أعتنى بالأمور».

ثم أردفت: ماذا عن هذا؟ ماذا عن ذلك؟ قالت إنها تعرف أن هال لم يكن مشكلة، لكنها كانت تريد أن تعرف إن كان المدرس يعامل آل بول كما ينبغى وسيكسو.

قلت : « نعم، ياسيدتى ، يبدو ذلك.»

« هل يفعلون مايأمرهم به؟»

« إنهم ليسوا بحاجة إلى أمر.»

« طيب. تلك رحمة.ينبغى أن أنزل إلى الطابق السفلى فى يوم أو يومين.أنا فقط بحاجة إلى راحة.حان موعد عودة الطبيب . غدا، أليس كذلك؟»

« هل قلت ملامح ، ياسيدتى؟»

« ماذا ؟»

« ملامح؟»

« أم م ! مثل، أحد ملامح الصيف هو الحرارة . الصفة ملمح. شىء طبيعى لشىء.»

« هل يمكن أن يكون لك أكثر من واحد؟»

« يمكن أن يكون لك عدد منها. تعرفين.مثلا أن الطفل يمص إبهامه. ذلك واحد، لكنه لديه ملامح أخرى أيضا. أبعدى بيلى عن ريد كورا . إم مستر جارنر لم يكن يسمح لها مطلقا أن تعشر مرة كل سنتين . سيث هل تسمعينى؟ ابعدى عن تلك النافذة وانصتى».

« نعم ياسيدتى»

« أطلبى من زوج أخت زوجى أن يصعد بعد العشاء.»

« نعم ، يا سيدتى . »

« لو أنك غسلت شعرك لتخلصت من ذلك القمل . »

« ليس هناك قمل فى رأسى ، يا سيدتى . »

« مهما كان، فإن مايحتاجه هو تنظيف جيد، لا الحك. لاتقولى إن الصابون نفد . »

« لا ، ياسيدتى.»

« حسنا الآن . لقد أنتهيت. الكلام يتعبنى.»

« نعم ، يا سيدتى . »

« وأشكرك ، يا سيث . »

« نعم . يا سيدتى . »

كنت أصغر من أن تعرفى المسكن. كان أخواك ينامان تحت النافذة. وكنت أنا وأنت وأبوك ننام بجوار الجدار . فى الليلة التالية سمعت سبب قياس المدرس لى، ووجدت مشكلة فى النوم. عندما جاء هال سألته رأيه فى المدرس . قال إنه لم يكن هناك شىء يستحق التفكير فيه. قال، هو أبيض ، أليس كذلك؟ قلت، لكننى أعنى هل هو مثل مستر جارنر؟

« ماذا تريدين أن تعرفيه ، ياسيث؟»

قلت: « هو وهى، إنهما ليس مثل البيض الذين رأيتهم من قبل. الناس الذين كانوا فى البيت الكبير الذى كنت فيه قبل أن آتى إلى هنا . »

سألنى: «كيف يختلف هؤلاء؟»

قلت: «حسناً، إنهم يتكلمون بشكل هادىء من ناحية.»

« لا يهم ، يا سيث فما يقولونه واحد . بصوت عال أو بصوت خافت . »

قلت: « سمح لك مستر جارنر، أن تشترى حرية أمك.»

« آه . فعل ذلك.»

« حسنا؟»

« لو لم يفعل ، لسقطت فى موقد طبيخه.»

«ومع ذلك فعل هذا. سمح لك أن تعمل لقاء السداد . »

« أه هـه . »

« استيقظ، ياهال.»

«قلت ، أه هـه.»

« كان بإمكانه أن يقول لا . لم يقل لك لا.»

« لا ، لم يقل لى لا . لقد عملت هنا عشر سنوات. فلو عملت عشر سنوات أخرى هل تظنين أنه كان ليفعلها؟ اننى أدفع له مقابل سنواتها الأخيرة، وفى مقابل ذلك حصل عليك وعلىَّ وعلى ثلاثة آخرين يكبرون. أمامى سنة أخرى من العمل لسداد الدين . وقد أخبرنى ذلك المدرس أن أكف عنه. قال إن السبب وراء هذا العمل لم يعد قائما. علىّ أن أعمل العمل الاضافى هنا فى سويت هوم.»

« هل سيدفع لك لقاء العمل الاضافى؟»

« لا. »

«إذن فكيف ستسدده؟ كم المبلغ؟»

« ١٢٣,٧ دولار.»

« ألا يريد استردادها؟»

«إنه يريد شيئا . »

« ماذا؟»

« لا أعرف . شيئا ما. لكنه لايريدنى أن أذهب خارج سويت هوم بعد الآن. يقول إنه غير مجز أن أعمل فى مكان آخر بينما الولدان صغيران.»

« ماذا عن المبلغ الذى تدين به؟»

« لابد أن لديه طريقة أخرى للحصول عليه.»

« أى طريقة؟»

« لا أعلم ، ياسيث.»

« إذن فالسؤال الوحيد هو كيف؟ كيف سيحصل عليه؟»

« لا . هذا سؤال . وهناك سؤال آخر . »

« ماهو ؟»

استند على مرفقه والتفت الىّ ، وهو يلمس وجنتى بمفاصل قبضته. «السؤال الآن هو، من سيشترى حريتك؟ أو حريتى؟ أو حريتها؟» وأشار إلى حيث كنت ترقدين .

« ماذا ؟»

« إذا كان كل عملى فى سويت هوم ، بما فى ذلك العمل الإضافى،

فماذا بقى لى لأبيعه؟»

وعندئذ استدار وعاد إلى النوم وظننت أننى لن أنام ولكننى فعلت لفترة . ربما كان شىء ما قاله ، أو شىء ما لم يقله هو ما أيقظنى . جلست كأن أحدا قد ضربنى، واستيقظت أنت أيضا وشرعت فى البكاء . أرجحتك قليلا، ولكن لم يكن هناك مجال كبير، ولذلك خطوت خارج الباب لأنزهك وظللت أروح جيئة وذهابا . جيئة وذهابا. كان كل شىء مظلما ماعدا ضوء مصباح فى النافذة العليا من البيت . لابد أنها كانت ما تزال مستيقظة . لم أستطع أن أفرغ عقلى من الشىء الذى أيقظنى: « بينما الولدان صغيران.» كان ذلك ماقاله وطقطق فى رأسى فأيقظنى . لاحقنى طوال اليوم وأنا أقتلع الاعشاب، أحلب، أحضر خشب الوقود. مؤقتا . مؤقتا .

كان ذلك حين ينبغى علينا أن نبدأ فى التخطيط. لكننا لم نفعل. لا أعرف ما كنانفكر فيه ـ لكن الهرب كان مسألة مالية بالنسبة لنا. أن نشترى حريتنا . لم يكن الهرب يشغل عقولنا. كلنا؟ بعضنا؟ إلى أين؟ كيف نذهب؟ كان سيكسو هو من أثار الموضوع، أخيرا، بعد بول ف. باعته مسز جارنر، وهى تحاول المحافظة على الأمور. كانت قد عاشت بالفعل سنتين من ثمنه.لكنه نفد، فيما أظن، ولذا كتبت إلى المدرس ليحضرويتولى الأمور . أربعة من رجال سويت هوم، ومع ذلك كانت تعتقد أنها لايجب أن تكون وحدها مع لا شىء إلا الزنوج . وهكذا جاء بقبعة كبيرة ونظارات وعربة محملة بالأوراق. يتكلم بهدوء ويراقب بشدة. ضرب بول أ. لاضربا مبرحا ولا طويلا ، لكنها كانت المرة الأولى،

التى فعل أى شخص فيها هذا ، لأن مستر جارنر لم يسمح بالضرب. المرة التالية التى رأيته فيها كان بصحبة أجمل أشجار رأتها عيناك على الاطلاق . بدأ سيكسو يراقب النجوم. كان الوحيد الذى يتسلل بالليل وقد قال هال إن هذه هى الطريقة التى علم بها عن القطار .

كان هال يشير إلى ما فوق حظيرة الجياد وقال : « هذا الاتجاه إلى حيث أخذ سيدتى. يقول سيكسو إن الحرية فى هذا الاتجاه. قطار كامل يسير وإذا استطعنا أن نصل إلى هناك فلن نحتاج إلى شراء حريتنا.»

سألته: «قطار ؟ ماهذا؟»

« توقفوا عن الكلام أمامى عندئذ . حتى هال. لكنهم كانوا يهمسون فيما بينهم وسيكسو يراقب السماء . لا الجزء العالى ، الجزء المنخفض حيث تلامس السماء الأشجار . كان بإمكانك أن تدركى أن عقله قد ذهب بعيدا عن سويت هوم .

كانت الخطة جيدة ، لكن حين حان موعدها، كنت حاملا بدنفر. ولهذا غيرناها قليلا. قليلا. مايكفى لأن يلطخ وجه هال بالزبد، هكذا يقول بول د. ولأن يضحك سيكسو أخيرا .

لكننى هربتك ، ياطفلتى، والولدين أيضا.عندما جاءت الاشارة الخاصة بالقطار، كنتم جميعا الأشخاص الوحيدين الجاهزين . لم أستطع أن أجد هال ، أو أى واحد. لم أعرف أن سيكسو احترق وأن بول د.كان يرتدى ياقة لن تصدقيها . ليس قبل بعض الوقت. وهكذا أرسلتكم جميعا إلى العربة مع المرأة التى كانت تنتظر

وسط الذرة . هاها . لا دفتر لأطفالى ولا خيط قياس . وما كان علىّ أن أخوضه فيما بعد خضته من أجلكم . مررت مباشرة بجوار أولئك الأولاد وهو يتدلون من الأشجار. كان أحدهم يرتدى قميص بول أ . ولكن لم يكن له قدماه أو رأسه . واصلت السير إلى الأمام لأننى وحدى. كان لدى لبنكم،ويفعل الله مايشاء ، كنت بسبيلى إلى إحضاره لكم. أنت تذكرين ذلك ألا تذكرين؛ أننى فعلت هذا ؟ أننى حين وصلت إلى هنا كان لدى.لبن يكفى الجميع؟

بقى فى الطريق منحنى واحد، وكان بإمكان سيث أن ترى مدخنتها ، لم تعد تبدو وحيدة. كان شريط الدخان يرتفع من نار تدفىء جسما عاد اليها ـ تماما كما لو كان لم يرحل، ولم يكن بحاجة بتاتا إلى شاهد قبر. وأن القلب الذى يدق بداخله لم يتوقف لحظة بين يديها .

فتحت الباب ، ودخلت وأغلقته خلفها بإحكام .

فى اليوم الذى رأى فيه ستامب بيد الظهرين من خلال النافذة ثم أسرع يهبط الدرج ، أعتقد أن اللغة التى لا يمكن حل شفرتها وتصطخب حول البيت كانت غمغمة الموتى السود الغاضبين. كان عدد قليل جدا قد مات فى السرير، مثل بيبى سجز ، ولم يكن أى ممنْ عرفهم، بما فى ذلك بيبى، قد عاشوا حياة تستحق العيش. حتى الملونين المتعلمين: الناس الذين قضوا فى المدرسة زمنا الاطباء ، المدرسون، كتاب الصحف ورجال الأعمال كان عليهم أن يشقوا طريقا صعبا. فبالاضافة إلى أنهم كان عليهم أن

يستخدموا عقولهم ليشقوا طريقهم ، كان لديهم ثقل الجنس كله يجثم هناك . كنت بحاجة إلى عقلين حتى تفعل ذلك.فقد كان البيض يعتقدون أنه مهما كان السلوك فتحت كل جلد داكن تكمن غابة . مياه سريعة لاتصلح للملاحة ، قردة ضخمة تصرخ وتتأرجح ، ثعابين نائمة، ولثات حمراء في إنتظار دمهم الأبيض العذب.وظن أنهم كانوا على حق بشكل ما. فكلما أجهد الملونون أنفسهم في محاولة لاقناعهم كم كانوا دمثين، كم كانوا أذكياء ومحبين، كم كانوا انسانيين، وكلما استهلكوا أنفسهم ليقنعوا البيض بشيء كان الزنوج يعتقدون أنه لم يكن موضع شك، تنامت الغابة بشكل أعمق وأكثر تشابكا بداخلهم. لكنها لم تكن الغابة التي جلبها السود معهم إلى هذا المكان من المكان الآخر (اللائق بالحياة). كانت الغابة التي زرعها البيض فيهم. وتنامت . إنتشرت. إنتشرت في الحياة وخلالها وبعدها، حتى غزت البيض الذين صنعوها.لمست كل واحد فيهم . غيرتهم وبدلتهم . جعلتهم أكثر دموية ، وسخفا، أسوأ مما كانوا يريدون، فقد كانوا فزعين من الغابة التي صنعوها . عاش القرد الضخم الصارخ تحت جلودهم البيضاء؛ وكانت اللثات الحمراء لثاتهم هم .

وفي تلك الأثناء ، كان السر الذائع عن هذا النوع الجديد من غابة البيض مختبأ، صامتا ، فيما عدا مرة بين الحين والحين عندما كان بإمكانك أن تسمع غمغمتها في أماكن مثل البيت رقم ١٢٤ .

تخلى ستامب بيد عن محاولاته في الاستفسار عن سيث، بعد ألم الطرق دون أن يحظى بالدخول ، وحين فعل، كان البيت رقم

١٢٤ يفعل مايشاء. عندما أغلقت سيث الباب، كان النساء الثلاث حرائر اخيرا فى أن يفعلن ماشئن، أن يرين مايرين وأن يقلن مايشغل عقولهن .

تقريبا كانت أفكار نساء البيت رقم ١٢٤ ، أفكارا لايمكن التعبير عنها أو النطق بها، ممتزجة مع الأصوات التى تحيط بالبيت، التى تعرف عليها ستامب بيد، ولم يتمكن من فك شفرتها .

«محبوبة» ، هى ابنتى.هىّ لى.أنظر. عادت إلى بمحض إرادتها ولست مضطرة إلى تفسير شىء. لم يكن لدىّ وقت للتفسير قبل هذا لأن هذا كان يتطلب أن يتم بسرعة . بسرعة . كان لابد أن تكون فى أمان ولهذا وضعتها حيث تكون آمنة . لكن حبى كان صارما وقد عادت الآن. طردها بول د. ولذا لم يكن أمامها خيار إلا أن تعود إلى فى الجسد. أراهنك أن بيبى سجز، فى الجانب الآخر قد ساعدت. لن أدعها تمضى أبدا.سوف أشرح لها، حتى ولو لم أكن مضطرة إلى ذلك . لماذا فعلتها . كيف أننى إذا لم أقتلها لماتت وهو شىء لم أكن أحتمل أن يحدث لها. عندما أشرحه سوف تفهم، لأنها تفهم كل شىء سلفا. سوف أرعاها كما لم ترع أم طفلا ، ابنة أبدا ـ لن يحصل أحد على لبنى بعد اليوم أبدا سوى أطفالى. لم أكن مضطرة إلى اعطائه لأى شخص آخر ـ والمرة الوحيدة التى فعلت فيها هذا أخذوه منى غصبا ـ ثبتونى بالأرض وأخذوه. لبن يخص طفلتى . كان على نان أن ترضع أطفالا بيضا وأنا أيضا لأن أمى كانت تعمل فى زراعه الأرز. كان الأطفال البيض الصغار يحصلون عليه أولا وأحصل أنا على ما تبقى. أو لاشىء. لم يكن هناك لبن رضاعة أدعيه لنفسى . أعرف كيف يكون الحال بدون اللبن الذى يخصك؛ أن يكون عليك أن تقاتل وأن تصيح من أجله، وأن يبقى لك القليل. سوف أخبر «محبوبة» بهذا؛ سوف تفهم. إنها أبنتى. الابنة التى نجحت فى أن يكون لها لبن وأن أوصله اليها

حتى بعد أن سرقوه؛ بعد أن عاملونى كما لو كنت البقرة ، لا، العنزة، خلف الاسطبل لأنه كان مقرفا أن أبقى مع الجياد. لكننى لم أكن مقرفة إلى الحد الذى لا أطبخ فيه طعامهم أو ألا أعنى بمسز جارنر. رعيتها كما كان يمكن أن أرعى أمى ذاتها إذا احتاجت الىّ. إذا أخرجوها من حقل الأرز، لاننى كنت الطفلة التى لم تنبذها. لم يكن بامكانى أن أفعل لتلك المرأة أكثر مما كنت لافعل لامى ذاتها إذا مرضت واحتاجت الىّ وكنت لابقى معها حتى تشفى أو تموت.وكنت لابقى بعد ذلك غير أن نان جذبتنى الى الخلف. قبل أن أستطيع التحقق من العلامة. كانت هى حقاً لكننى لم أصدق لزمن طويل.بحثت فى كل مكان عن ذلك.تأتأت بعد ذلك. لم أتوقف الا حين رأيت هال. أوه لكن ذلك كله انتهى الآن. أنا هنا. بقيت وابنتى عادت الى البيت.الآن استطيع أن أنظر إلى الأشياء ثانية لانها هنا لتراها أيضا.بعد السقيفة توقفت. والآن فى الصباح عندما أشعل النار أعنى أن أنظر من النافذة لأرى ماتفعله الشمس باليوم هل ترتطم بمقبض الطلمبة أولا أو بالحنفية . لأرى إذا كان العشب أخضر رماديا أو بنيا أو ماذا . الآن أعرف لماذا كانت بيبى سجز تفكر فى الألوان فى سنى عمرها الأخيرة. لم يكن لديها وقت أبدا لترى من قبل، ناهيك عن أن تستمتع به. استغرقت وقتا طويلا حتى تقطع علاقتها باللون الأزرق، ثم الأصفر، ثم الأخضر. .وقطعت شوطا مع القرنفلى حين ماتت. لا أعتقد أنها كانت تريد أن تصل إلى الأحمر وأفهم لماذا لأننى أنا و«محبوبة» تفوقنا على أنفسنا فيه. حقيقة واقعة، تلك وكان شاهد قبرها القرنفلى آخر لون أذكره . الآن

سوف انتبه . أفكر فيما يأتى به الربيع لنا؟ سوف أزرع جزرا لمجرد أن تستطيع أن تراه. ولفتا . هل رأيت أبدا جزرة ، ياطفلتى؟ لم يخلق الله شيئا أجمل منها أبدا. أبيض وأرجوانى بذيل رقيق ورأس صلبة. ملمسها طيب حين تمسكيها فى يدك ولها رائحة الجدول حين يفيض، مر لكنه سعيد. سوف نشمه معا. «محبوبة» . «محبوبة» . لأنك لى وعلىّ أن أريك هذه الأشياء ، وأعلمك مايجب على الأم أن تعلمه. غريب كم تغيب عن أبصارنا أشياء ونتذكر أشياء أخرى. لن أنسى أبدا يدى الفتاة البيضاء. ايمى . لكننى أنسى لون كل الشعر الذى كان على رأسها . رغم ذلك فلابد أن العينين كانتا رماديتين . يبدو أننى أذكر ذلك . كانت عينا مسز جارنر عسلية خفيفة - حين كانت بصحة جيدة. أصبحت داكنة حين مرضت. كانت امرأة قوية. عندما كانت تهذى، كانت تقولها. «كنت قوية مثل بغل ، ياجينى» كانت تنادينى باسم «جينى» حين تهذى، وأستطيع أن أشهد على هذا. طويلة وقوية. كنا نحن الاثنين ونحن نرفع مقياس حطب مثل رجلين. آلمها ألما مبرحا ألا تستطيع أن ترفع رأسها عن الوسادة. مع ذلك مازلت لا أستطيع أن أتخيل لماذا ظنت أنها بحاجة إلى المدرس. أتساءل عما لو أنها بقيت مثلما بقيت . آخر مرة رأيتها فيها لم تملك إلا أن تبكى، ولم أستطع أن أفعل لها شيئا سوى أن أمسح وجهها حين أخبرتها بما فعلوه بى ، كان لابد أن يعرف أحد . أن يسمعه شخص ما. ربما بقيت. لم يكن المدرس ليعاملها مثلما عاملنى . كانت أول علقة نلتها هى الأخيرة. لن يمنعنى عن أطفالى أحد. لو لم أكن أنا التى أعنى بها لعرفْت ربما بما حدث. ربما كان

هال يحاول الوصول الىّ . وقفت بجوار سريرها أنتظرها حتى تفرغ من جرة الحساء. عندما أعدتها إلى السرير قالت إنها تشعر بالبرد. كانت ساخنة مثل اللهيب وأرادت ألحفة . قلت لها لا. كانت تريد الغطاء؟ وكنت أريد النسيم. كنت على مايرام طالما راحت تلك الستائر الصفراء ترفرف طويلا. كان يجب أن احتاج إليها . ربما كان مادوّىْ مثل رصاصات هو رصاصات فعلا. ربما كنت لأرى شخصا أو شيئا. ربما . على أية حال، أخذت أطفالى إلى الذرة، هال أولا هال. يايسوع. عندما سمعت قعقعة تلك المرأة. .-قالت ، هل من مزيد؟ قلت لها إننى لا أعرف . قالت، لقد كنت الليل بطوله هنا. لايمكننى الانتظار. حاولت أنْ أجعلها تنتظر . قالت، لا أستطيع أن أفعل هذا. هيا. هوو! لم يكن قربنا رجل. كان الأولاد مذعورين. كنت أنت نائمة على ظهرى. ودنفر تنام فى بطنى . شعرت أننى منقسمة إلى اثنين . أخبرتها أن تأخذكم جميعا؛ كان على أن أرجع . إذ ربما يحدث شىء . نظرت إلىّ فقط. قالت ، امرأة ؟قضمت قطعة من لسانى حين شقوا ظهرى . كانت متعلقة بمزقة . لم أكن أقصد أن أفعل . شددت عليه باحكام، فانفصل تماما.قلت لنفسى، ياالله، سوف آكل نفسى. حفروا حفرة لبطنى حتى لايؤذوا الطفل. دنفر لاتحب أن أتحدث عن هذا . تكرة أى شىء عن سويت هوم ماعدا كيف ولدت . لكنك كنت هناك وحتى لو كنت أصغر من أن تتذكرى، أستطيع أن أخبرك به. تعريشة العنب. هل تذكرين ذلك؟ جريت بسرعة؛سبقنى الذباب اليك. كنت لأعلم على الفور من أنت عندما محت الشمس وجهك بذلك الشكل عندما أخذتك إلى تعريشة العنب. كنت لأعرف على الفور عندما تفجر مائى. فى اللحظة التى رأيتك تجلسين فيها على جدعة

الشجرة ، تفجر. وعندما رأيت وجهك بدت عليه أكثر من أمارة تنم عما يمكن آن يكون عليه منظرك بعد كل تلك السنين. كنت لأعرف من كنت على الفور، لأن الماء الذى شربته قدحا بعد قدح آثبت وارتبط بحقيقة آن لعابك الصافى سال على وجهى يوم وصلت أنا إلى البيت رقم ١٢٤. كنت لأعرف على الفور، لولا أن شتت بول د انتباهى . وإلا لرأيت آثار أظافرى هناك مباشرة على جبهتك ليراها العالم كله. منذ آن رفعت رأسك، هناك فى السقيفة . وبعد ذلك ، حين سألتنى عن الأقراط التى كنت أدليها لك لتلعبى بها، كنت لأتعرف عليك على الفور، لولا بول د . يبدو لى أنه كان يريدك أن ترحلى منذ البداية ، لكننى لم أسمح له. مارأيك؟ وانظرى كيف جرى عندما اكتشف السر عنى وعنك فى السقيفة . كان أقسى من أن ينصت إليه . قال ، وافر للغاية . كان حبى وافرا للغاية . ما الذى يعرفه عنه ؟ من تراه راغبا فى أن يموت من أجله لأى سبب؟ هل كان ليعطى أشياءه الشخصية لغريب من أجل نقش؟ قال ثمة طريقة ما أخرى . لا بد أن كانت هناك طريقة ما أخرى. أن أدع المدرس يسحبنا، فيما أظن، ليقيس مؤخرتك قبل أن يمزقها إربا؟ لقد أحسست بذلك الشعور ولن يجعلك مخلوقا يمشى أو يتمدد تشعرين به أنت أيضا . لا أنت ، ولا أى من أطفالى ، وعندما أقول لك أنك لى ، فأنا أعنى أيضا أننى لك . ما كنت لاتنفس الهواء بدون أطفالى . قلت ذلك لبيبى سجز وركعت على ركبتيها لتسأل الله العفو عنى. ومع ذلك ، هكذا كان. كانت خطتى أن أذهب بنا جميعا إلى الجانب الآخر حيث توجد أمى. منعونى وحالوا دون وصولنا إلى هناك، لكنهم لم

يمنعوك من المجيء إلى هنا . هاها. عدت رأسا كفتاة طيبة، كابنة وهو ماكنت أريده أن يكون وماكان ليكون لو أن أمى أمكنها أن تخرج من حقل الأرز قبل أن يشنقوها ويتركونى وحدى . هل تعرفين شيئا؟ كانت قد عرفت الشكيمة عدداً كبيرا من المرات لدرجة أنها ابتسمت. عندما لم تكن تبتسم ابتسمت ، ولم أر مطلقا ابتسامتها ذاتها . إننى لأتساءل ماذا كن يفعلن عندما قبض عليهن. تظنين أنهن كن يهربن؟ لا . ليس ذلك. لأنها كانت أمى وأم الواحدة لاتهرب وتترك طفلتها ، هل تفعل ذلك؟ هل تفعل ذلك؟ تتركها فى الفناء مع امرأة بذراع واحدة؟ حتى ولو لم تكن قادرة على إرضاع الطفلة لأكثر من أسبوع أو أسبوعين وكان عليها أن تسلمها إلى ثدى امرأة أخرى لم يكن به مايكفى الجميع . قالوا إن الشكيمة هى ماجعلها تبتسم حين لم تكن تريد. مثل فتيات يوم السبت اللاتى يعملن فى فناء السلخانة . عندما خرجت من السجن رأيتهن بوضوح . كن يأتين عندما تتغير الوردية يوم السبت عندما كان الرجال يتقاضون أجورهم وكن يعملن خلف الاسوار ، فى ظهر المرحاض الخارجى. كان بعضهن يعملن وهن واقفات مستندات إلى باب مبنى الآلات - كن يعطين بعضاً من أعشار وأخماس سنتاتهم إلى رئيس العمال وهن يغادرن ولكن عندئذ كانت ابتساماتهن قد اختفت.كان بعضهن يشربن شراباً مسكرا ليحول دون شعورهن بما كن يشعرن به. وبعضهن لم يكن يشربن قطرة. كن يسلمن مايكسبنه إلى فيلبس ليدفعن ثمن مايحتاجه أطفالهن أو أمهاتهن. يعملن فى فناء الخنازير . لابد أن يكون هذا شيئا بالنسبة لامرأة حتى تفعله . كنت على وشك أن أصل اليه أنا نفسى عندما خرجت من السجن واشتريت على

حد القول، اسمك. لكن آل بودوين حصلا لي على وظيفة الطبخ في محل سوبر وتركاني قادرة على الابتسام وحدي مثل الآن حين أفكر فيك .

لكنك تعرفين كل ذلك لأنك ذكية كما قال الجميع لأنك كنت تحْبين سلفا حين أتيت بك إلى هنا. تحاولين صعود الدرج . دهنته بيبي سجز باللون الأبيض حتى تستطيعين أن تتبيني طريقك إلى أعلاه في الظلام حيث لم يكن ضوء المصباح يصل. يا الهي ، لقد كنت تحبين درجات السلم.

اقتربْت . اقتربْت . من أن أكون فتاة من فتيات يوم السبت . كنت قد عملت سلفا في محل بناء. وكانت خطوة واحدة إلى السلخانة لتكون خطوة قصيرة. عندما أقمت ذلك الشاهد أردت أن أرقد هناك معك. أضع رأسك على كتفي وأجلب لك الدفء ، وكنت لأفعل ذلك لو أن هوارد وبجلر ودنفر لم يكونوا بحاجة إليّ، لأن عقلي كان شريدا عندئذ. لم يكن بوسعي أن أرقد معك عندئذ.مهما أردت.لم يكن بوسعي أن أرقد في أي مكان في سلام، في ذلك الوقت . الآن أستطيع . أستطيع أن أنام مثل الغرقى ، وليرحمني الله . لقد عادت إلي ، ابنتي ، وهي لي .

«محبوبة» أختى. ابتلعتُ دمها مع لبن أمى رأساً. وأول ماسمعت بعد أن كففت عن سماع أى شىء كان صوت حبوها وهى تصعد الدرج. كانت رفقتى السرية قبل أن يأتى بول د. طردها إلى الخارج. منذ نعومة أظافرى كانت رفقتى وأعانتنى على انتظار أبى . كنت أنا وهى ننتظره. أحب أمى لكننى أعرف أنها قتلت إحدى بنتيها ، ورغم أنها رقيقة معى، إلا أننى أفزع منها لسبب ذلك . أخطأت قتل أخواى وكانا يعرفان ذلك . كانوا يقصون على قصص موت الساحرة؛ قصصا توضح لى الطريقة لأفعل مثلها ، إذا احتجت اليها أبدا . ربما كان وصولهم إلى شفا الموت هو ما جعلهم يريدون أن يقاتلوا فى الحرب . ذلك ما قالا لى أنهما سيفعلانه . أظن أنه الأجدر بهما التجوال لقتل الرجال لا لقتل النساء. ومن المؤكد أن بها شىء مايجعلها ترى قتل أطفالها أمراً صائبا . وطوال الوقت ، أخشى أن يحدث ثانية ذلك الشىء الذى جعل من الصواب تماما أن تقتل أمى أختى . لا أعرف ماهو، لا أعرف من هو، لكن ربما كان هناك شىء آخر رهيب بما يكفى لأن تفعلها ثانية.أنا بحاجة إلى أن أعرف ماذا يمكن أن يكون، لكننى لا أريد. فمهما كان، فهو يأتى من خارج هذا البيت، من خارج الفناء، ويمكنه أن يصل إلى الفناء مباشرة إذا أراد. ولذلك لا أغادر هذا البيت بتاتا وأراقب الفناء، حتى لايمكنه أن يحدث

ثانية وتضطر أمى إلى قتلى أنا أيضا . لم أغادر البيت رقم ١٢٤ وحدى منذ أن ذهبت إلى بيت مس ليدى جونز . أبدا. وفى المرات الأخرى الوحيدة ـ وهى كلها مرتين ـ كنت مع أمى . مرة لأرى جدتى بيبى توضع إلى جوار «محبوبة»، وهى أختى . المرة الأخرى ذهب معنا بول د . أيضا وعندما عدنا كنت أظن أن البيت سيكون مازال خاليا منذ ألقى بشبح أختى إلى الخارج . عندما عدت إلى البيت رقم ١٢٤ كانت هناك «مجبوبة .» تنتظرنى متعبة من رحلة عودتها الطويله مستعدة لان يعتنى بها: مستعدة لأن أحميها . فى هذه المرة على أن أبقى أمى بعيدا عنها. هذا عسير، لكن ينبغى علىّ. الأمر كله متوقف علىّ. لقد رأيت أمى فى مكان مظلم ، مع أصوات خربشة. من ثوبها كانت تفوح رائحة . كنت معها حيث شىء صغير يراقبنا من الأركان . ولمسنا . أحيانا كان يلمسنا.لم أذكره زمنا طويلا حتى جعلنى نلسون لورد أذكره. سألتها إذا كان ذلك صحيحا ولم أستطع أن أسمع ما قالته ولم تكن هناك فائدة من العودة إلى ليدى جونز إذا لم يكن بإمكانك أن تسمعى ما كان أى واحد يقوله . هدوء كامل.جعلنى مضطرة إلى ان أقرأ الوجوه وأن أتعلم كيف أحسب مايفكر فيه الناس، ولذا لم أكن بحاجة إلى سماع ما يقولونه. ذلك هو السبب فى أن «محبوبة» وأنا نستطيع أن نلعب معا. لا أن نتحدث. فى الشرفة. بجوار الجدول . فى البيت السرى. الأمر كله رهن بى الآن، لكنها تستطيع الاعتماد علىّ . ظننت أنها كانت تحاول قتلها فى ذلك اليوم فى الساحة الخالية من الأشجار . أن تعود إلى قتلها . لكنها قبلت رقبتها عندئذ وعلىّ أن أحذرها من ذلك. لا تحبيها أكثر من اللازم . لا . ربما كان ذلك الشىء الذى

يجعل قتلها لأطفالها مايزال فيها. على أن أخبرها . على أن أحميها .

كانت تقطع رأسى كل ليلة. أخبرنى هوارد وبجلر أنها كانت لتفعل ذلك وقد فعلته. عيناها الجميلتان تنظران الىّ كما لو كنت غريبة. ليست وضاعة أو أى شىء، ولكن كما لو كنت شخصا وجدته وشعرت بالأسى من أجله. كما لو كانت لاتريد أن تفعله ولكنها مضطرة إليه ولن يكون مؤلما. أن ذلك مجرد شىء يقوم به الناس الناضجون - مثل جذب شظية من يدك ؛ أن تلمس عينك بطرف منشفة إذا دخل فيها رماد. إنها تتفحص هوارد وبجلر - لترى إن كانا على مايرام . ثم تأتى إلى جانبى . أعرف أنها ستكون بارعة فيه، حريصة . أنها حين تقطعه ستفعله بالشكل الصحيح؛ لن يؤلم. وبعد أن تفعله أرقد هناك برأسى فقط. ثم تحمله إلى الطابق السفلى لتضفر شعرى . أحاول ألا أبكى لكن تمشيطه يؤلم جدا. عندما تنتهى من التمشيط وتبدأ فى التضفير، أشعر بالنعاس . أريد أن أخلد إلى النوم لكننى أعلم أننى إذا فعلت فلن أستيقظ . ولهذا علىّ أن أظل مستيقظة حتى تنتهى من شعرى، وعندئذ أستطيع أن أنام. الجزء المفزع هو انتظارها أن تأتى وتفعله . لاحين تفعله ، لكن حين انتظرها أن تفعله . المكان الوحيد الذى لاتستطيع أن تصل الىّ فيه بالليل هو حجرة بيبى سجز . الحجرة التى ننام فيها فى الطابق العلوى كانت المكان الذى تنام فيه الخادمة عندما كان البيض يعيشون هنا. كان لديهم مطبخ بالخارج، أيضا. لكن جدتى بيبى حولته إلى سقيفة للحطب والأدوات عندما انتقلت اليه. وسمرت الباب الخلفى الذى كان

يؤدى اليه بألواح لأنها قالت إنها لاتريد أن تقوم بتلك الرحلة بعد ذلك. وأقامت بناء حوله لتعمل مخزنا، ولهذا فإن أردت أن تدخل البيت رقم ١٢٤ فعليك أن تمر عليها. قالت إنها لم تكن تبالى بما يقوله الناس عن تعديلها لبيت ذى طابقين بشكل كوخ حيث تطبخ بالداخل. قالت إنهم أخبروها بأن الزائرات اللاتى يرتدين ثيابا جميلة لايردن الجلوس فى نفس الحجرة مع موقد الطبخ والقشور والدهن والدخان.لم تكن لتبالى بهن، هكذا قالت. كنت آمنة بالليل هناك معها . كل ماكنت أسمعه هو تنفسى ولكن أحيانا بالنهار لم أكن أستطيع أن أتبين ماإذا كنت أنا التى أتنفس أو شخص بجوارى.كنت أراقب بطن هيربوى تعلو وتهبط، تعلو وتهبط لأرى ما اذا كانت تتماشى مع بطنى؛ وأمسك بأنفاسى لاختلف مع إيقاعه، ثم أطلقها لاتوافق مع ايقاعه . لمجرد أن أرى تنفس من كان . ذلك الصوت الذى **يشبه** مايحدث حين تنفخ بهدوء فى زجاجة بشكل منتظم . منتظم . هل أصدر أنا ذلك الصوت؟ هل هو هوارد؟ من؟ كان ذلك حين يكون الجميع هادئين ولا أستطيع أن أسمع أى شيء يقولونه.لم أكن حتى أبالى لأن الهدوء كان يجعلنى أحلم بأبى بشكل أفضل. كنت أعلم دائما أنه قادم. كان هناك شيء يعوقه . كان يواجه مشكلة مع الحصان . النهر فاض؛ القارب غرق وكان عليه أن يصنع واحدا آخر. وأحيانا كنت أحلم بالرعاع يقومون بالاعدام أو بعاصفة . كان قادما وكان ذلك سرا. بذلت كل ذاتى الخارجية أحب أمى حتى لاتقتلنى، أحبها حتى وهى تضفر رأسى بالليل. لم أدعها تعرف أبدا أن أبى سيأتى لى. كانت جدتى بيبى تعتقد أنه سيعود، أيضا . ظلت على أعتقادها هذا

لفترة، تم توقفت . لم أفعل ذلك أبدا . حتى عندما فر هوارد وبجلر. ثم جاء بول د الى هنا. سمعت صوته فى الطابق السفلى، وأمى تضحك ، ولهذا ظننت أنه هو ، أبى . فلم يعد أحد يحضر إلى هذا البيت.ولكن عندما وصلت إلى الطابق السفلى كان بول د ولم يكن قد أتى من أجلى؛ كان يريد أمى فى أول الأمر. ثم أراد اختى، أيضا ، لكنها أخرجته من هنا وأنا سعيدة للغاية أنه ذهب. الآن نحن فقط وأستطيع أن أحميها حتى يصل أبى ليساعدنى على الحذر من أمى ومن أى شىء يأتى إلى الفناء .

إن أبى ليفعل أى شىء فى سبيل البيض المقلى السائل. يغمس خبزه فيه. كانت جدتى تحكى لى عن أمور حياته . قالت إن أى وقت كانت تستطيع أن تعد له طبقا من البيض المقلى السائل كان عيد ميلاد، يجعله سعيدا للغاية. قالت إنها كانت دائما تخاف قليلا من أبى. قالت ، كان طيبا للغاية . قالت، إنه كان منذ البداية أطيب من أن يصلح للعالم. كان يخيفها . وكانت تعتقد أنه لن يفلح أبدا من خلال لا شىء . ولابد أن البيض كانوا يعتقدون هذا أيضا ، لأنهم لم يتصدعوا أبدا ، ولذلك واتتها الفرصة لتعرفه ، وترعاه ، وكانت طريقته فى حب الأشياء تفزعها . الحيوانات والأدوات والمحاصيل والأبجدية . كان يمكنه العد على الورق. علمه رئيس العمال. عرض أن يعلم الأولاد الآخرين لكن أبى فقط أراد أن يتعلم. قالت إن الأولاد الآخرين قالوا لا. قال أحدهم يحمل رقما بدلا من اسم إنه قد يغير عقله ـ يجعله ينسى أشياء لايجب أن ينساها وأن يستظهر أشياء لايجب أن يستظهرها ولم يكن يريد أن يتشوش عقله. لكن أبى قال ، إذا لم تستطع العد فقد يغشوك.

وإذا لم تكن تستطيع القراءة فإن بإمكانهم أن يضربوك . ظنوا ذلك مضحكا . قالت جدتى إنها لم تكن تعرف، ولكن لان أبى كان يستطيع العد على الورق فإنه استطاع أن يشترى حريتها من هناك.وقالت إنها كانت ترغب دائما لو أنها كانت تستطيع قراءة الأنجيل مثل الوعاظ الحقيقيين. ولذلك فإنه من المستحسن أن أتعلم كيف، وفعلت حتى حط الهدوء وكان كل مايمكننى سماعه هو تنفسى وتنفس شخص آخر أطاح بجرة اللبن الموضوعة على المنضدة . لم يكن أحد قريبا منها. جلدت أمى بجلر لكنه لم يلمسها. ثم عبث بكل الملابس المكوية ووضع يديه فى الكعكة . ويبدو أننى كنت الوحيدة التى عرفت على الفور من هى. تماما مثلما حدث حين عادت عرفت من هى أيضا. لا على الفور، ولكن ما أن تهجت اسمها ـ لا اسمها الذى كانت تحمله ، بل الاسم الذى دفعت أمى ثمنها للحفار لأننى ـ عرفت . وعندما تساءلت عن أقراط أمى ـ وهو امر لم آكن أعلم عنه شيئا ـ حسنا، جعل هذه الأشياء تترابط: لقد عادت أختى لتساعدنى على انتظار أبى .

كان أبى ملاكاً. كان بإمكانه أن ينظر اليك ويخبرك أين آذيت نفسك وأن يصلحه أيضا . صنع لجدتى بيبى شيئا تتعلق به حتى إذا نهضت واقفة صارت مستوية. قالت جدتى إنها كانت دائما تخشى أن يطرحها رجل أبيض أرضا أمام أولادها. فكانت تتصرف وتفعل كل شىء بالشكل الصحيح أمام أولادها لأنها لم تشأ لهم أن يروها مطروحة أرضا . قالت إن ذلك جعل أطفالها متلهفين إلى رؤية ذلك. لم يفعل أحد هذا أوقال إنه كان ليفعله فى سويت هوم، ولذلك فإن أبى لم ير ذلك أبدا ولم يتلهف وأراهن

أنه حتى فى هذه اللحظة يحاول أن يعود إلى هنا. فإذا كان بول د يستطيع فإن أبى يستطيع هو الآخر. الرجل الملاك. يجب أن نكون جميعا معا. أنا وهو و«محبوبة»، تستطيع أمى أن تبقى أو أن تذهب مع بول د إن أرادت . مالم يكن أبى يريدها هو نفسه، لكن لا أظن أنه يريد الآن، إذ أنها سمحت لبول د أن ينام فى سريرها. قالت جدتى بيبى إن الناس كانوا يحتقرونها لأنها رزقت بثمانية أطفال من رجال مختلفين. كل من الملونين والبيض يحتقرونها لهذا . فليس من المفروض أن يكون للعبيد مشاعر سارة خاصة بهم؛ وأجسادهم ليس من المفروض أن تكون كذلك، ولكن كان عليهم أن يرزقوا بأكبر عدد من الأطفال لارضاء من يمتلكهم . ومع ذلك ، فلم يكن مفروضا أن تكون لديهم رغبة فى أعماقهم. قالت لى ألا أصغى إلى ذلك كله. أننى ينبغى على أن أصغى لجسدى وأن حبه .

البيت السرى. عندما ماتت ذهبت إلى هناك .لم تشأ أمى أن تدعنى أذهب إلى الخارج فى الفناء وأن آكل مع الآخرين. مكثنا بالداخل . كان ذلك مؤلما . أعرف أن جدتى بيبى كانت لتحب الجمع والناس الذين يأتون اليه، لأنها أصيبت بالاكتئاب لأنها لم تعد ترى أحدا أو تذهب إلى مكان - تشعر بالحزن فقط وتفكر فى الألوان وكيف أنها ارتكبت خطأ. كان ذلك مافكرت فيه من أن مايفعله القلب والجسد يمكن ان يكون خاطئاً . جاء البيض على أية حال. الى فنائها . كانت قد فعلت كل شىء صحيح وجاءوا إلى فنائها على أية حال. ولم تعرف كيف تفسره. كان كل مابقى لها هو قلبها وقد كسروه إلى درجة أن الحرب لم تكن قادرة على

اثارتها .

حكت لى عن أمور أبى جميعها.كم كان يعمل بجد ليشتريها. وبعد أن فسدت الكعكة وعُبثَ بالملابس المكوية، وبعد أن سمعت أختى تحبو صاعدة الدرج لتعود إلى سريرها، حكت لى عن أمورى أيضا. أننى كنت مرقية . حدثت ولادتى وأنقذت طوال الوقت، وأننى لايجب أن أخاف من الشبح . كان علىّ فقط أن أحذر منه لأنه كان شبحاً نهما وبحاجة إلى الكثير من الحب، وهو ماكان أمرا طبيعيا، إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار. وأنا أفعل ذلك. أحبها. أحبها حقا . كانت تلعب معى وتأتى دائما لتكون معى حيثما كنت أحتاجها . إنها لى «محبوبة» إنها لى .

أنا «محبوبة» وهى لى . أراها تقطف أزهارا من أوراق الشجر تضعها فى سلة مستديرة الأوراق ليست لها تملأ السلة تفتح العشب أود أن أساعدها لكن السحب تحول بيننا كيف يمكننى أن أقول أشياء هى صور لست منفصلة عنها ليس هناك مكان أتوقف فيه وجهها هو وجهى وأريد أن أكون حيث يوجد وجهها وأن أنظر اليه أيضا شيء ساخن .

كلمة الآن الآن دائما لن يكون هناك أبدا وقت لا أربض فيه وأراقب الآخرين الرابضين أيضا أنا دائما رابضة الرجل علىٰ وجهى ميت وجهه ليس وجهى رائحة فمه طيبة لكن عيناه مقفلتان .

بعض من يأكلون كريهون هم أنفسهم أنا لا آكل الرجال بلا جلد يحضرون. إلينا ماء صباحهم لنشربه ليس لدينا أى منه فى الليل لا أستطيع أن أرى الرجل الميت على وجهى ضوء النهار يدخل من الشقوق وأستطيع أن أرى عينيه المقفلتين لست كبيرة الحجم الفئران الصغيرة لاتنتظرنا حتى ننام شخص مايَجْلد لكن ليس هناك متسع لو كان لدينا مزيد من الماء لنشرب لصنعنا دموعا لانستطيع أن نصنع عرقا أو ماء للصباح ولهذا فإن الرجال الذين لاجلد لهم يحضرون

ماءهم   مرة يحضرون الينا صخرا حلوا لنمصه   كلنا نحاول أن نترك أجسادنا خلفنا   لقد فعلها الرجل الذى على وجهى من الصعب أن نجعل أنفسنا نموت إلى الأبد   تنام نوما قصيرا ثم تعود   فى البداية بوسعنا أن نتقيأ   الآن لانفعل.

الآن لايمكننا   أسنانه نقط بيضاء جميلة   شخص مايرتجف   أستطيع أن أشعر به هنا   إنه يجاهد حتى يترك جسده الذى هو طائر صغير يرتجف   ليس هناك متسع للارتجاف ولذلك فهو ليس قادرا على أن يموت   رجلى الميت يُنتزع من على وجهى   افتقد نقطه البيضاء الحلوة.

-

لسنا رابضين الآن   نحن واقفون لكن ساقى تشبه عينى رجلى الميت   لايمكننى أن أسقط لانه ليس هناك متسع للسقوط الرجال الذين بلا جلد يحدثون جلبة صاخبة   لست ميتة الخبز بلون البحر   أنا أشد جوعا من أن آكله   الشمس تغمض عينى   القادرون على الموت مكومون   لا أستطيع أن أجد رجلى   الرجل الذى أحببت أسنانه   شيء ساخن   التل الصغير من الموتى   شيء ساخن   الرجال الذين بلا جلود يدفعونهم بأعمدة   المرأة ذات الوجه الذى أريده هناك   الوجه الذى هو وجهى   يسقطون فى البحر الذى له لون الخبز   ليس بأذنيها شيء   لو كان لى أسنان الرجل الذى مات على وجهى لقضمت الدائرة التى حول عنقها   افصلها   أعرف أنها

لا تحبها . هناك الآن متسع للربض ولمراقبة الرابضين الآخرين
إنه الربض الذى لا يحدث دائما الآن بالداخل المرأة
التى لها وجهى موجودة فى البحر شىء ساخن .

فى البداية كان بإمكانى أن أراها لم يكن باستطاعتى أن أساعدها لأن السحب كانت تحول بيننا فى البداية كان بإمكانى أن أراها التألق فى أذنيها لاتحب الدائرة التى توجد حول عنقها أعرف هذا أنظر بشدة اليها حتى تعرف أن السحب تحول بيننا أنا واثقة أنها رأتنى أنظر اليها حتى ترانى تفرغ عينيها أنا هناك فى المكان الذى يوجد فيه وجهها وأخبرها أن السحب الصاخبة كانت تسد طريقى تريد قرطيها تريد سلتها المستديرة أريد وجهها شىء ساخن .

فى البداية النساء بعيدات عن الرجال والرجال بعيدون عن النساء العواصف تؤرجحنا وتخلط الرجال فى النساء والنساء فى الرجال يحدث هذا حين أبدأ فى أن أكون على ظهر الرجل لمدة طويلة أرى عنقه وكتفيه العريضتين فقط فوقى
أنا صغيرة الحجم أحبه لأن لديه أغنية عندما استدار ليموت أرى الاسنان التى كان يغنى من خلالها كان غناؤه ناعما غناؤه عن المكان الذى تأخذ فيه أمرأة أزهارا من أوراقها وتضعها فى سلة مستديرة قبل السحب هى تربض بالقرب منا لكننى لا أراها حتى تغمض عينيها وتموت على

وجهى   نحن على ذلك الحال   ليس هناك تنفس يأتى من فمه والمكان الذى يجب أن يكون به نفس حلو الرائحة   الآخرون لايعرفون أنه ميت   أنا أعرف   ضاعت أغنيته   الآن أحب أسنانه الصغيرة. الجميلة بدلا من ذلك.

لايمكننى أن أفقدها ثانية   كان رجلى الميت يعترض سبيلى مثل السحب الصاخبة   عندما يموت على وجهى أستطيع أن أرى وجهها   سوف تبتسم لى   سوف تبتسم   أختفت أقراطها الحادة   الرجال الذين بلا جلود يصدرون أصواتا عالية يدفعون رجلى   لايدفعون المرأة التى لها وجهى   تدخل   هم لايدفعونها   تدخل   أختفى التل الصغير   كانت ستبتسم لى   كانت ستبتسم   شىء ساخن.

إنهم ليسوا رابضين الآن   نحن رابضون   هم يطفون على الماء   يكسرون التل الصغير ويدفعونه   لا أستطيع أن أجد أسنانى الجميلة   أرى الوجه الأسمر الذى سيبتسم لى   إنه وجهى الأسمر الذى سيبتسم لى   الدائرة الحديدية حول رقبتنا   ليس لديها أقراط حادة فى أذنيها أو سلة مستديرة تدخل فى الماء   مع وجهى.

أنا أقف فى المطر وهو ينزل   أخذ الآخرون   لم يأخذنى
أحد   أنزل مثلما ينزل المطر   أراقبه وهو يأكل   أربض
بالداخل لأحفظ نفسى من السقوط مع المطر   سوف أتحطم
أشلاء   إنه يؤلم حيث أنام   يضع إصبعه هناك   أسقط
الطعام وأتحطم أشلاء   أخذت وجهى بعيدا   ليس هناك من
يريدنى   ليقول اسمى   أنتظر على الجسر لأنها تحته   هناك
ليل وهناك نهار مرة أخرى مرة أخرى ليل نهار   ليل نهار
أنا أنتظر   لا توجد دائرة حديدية حول عنقى   لا قوارب تبحر
على هذا الماء   لا رجال بدون جلد   رجلى الميت لا يطفو هنا
أسنانه هناك أسفل حيث الزرقة والعشب   وهكذا الوجه الذى
أريده   الوجه الذى سيبتسم لى   سوف يبتسم   بالنهار
توجد الماسات فى الماء حيث توجد هى وسلحفات بحرية
بالليل أسمع مضغا وابتلاعا وضحكا   إنه يخصنى   هى
الضحكة   أنا الضحك   أرى وجهها الذى هو وجهى   إنه
الوجه الذى كان سيبتسم لى فى المكان الذى كنا نربض فيه
الآن ستبتسم   وجهها يأتى من خلال الماء   شىء ساخن
وجهها هو وجهى   هى لاتبتسم   هى تمضغ وتبلع   يجب
أن أحصل على وجهى   أدخل   ينفتح العشب   هى تفتحه
أنا فى الماء وهى تأتى   ليس هناك سلة مستديرة   لا دائرة
حديدية حول رقبتها   هى تصعد إلى حيث توجد الماسات
أتبعها   نحن فى الماسات التى هى أقراطها الآن   وجهى
يأتى   يجب أن أحصل عليه   أبحث عن الاتصال   أحب
وجهى جدا   وجهى الأسمر قريب منى   أريد أن أنضم
تهمس لى   أمد يدى اليها   تلمسنى وهى تمضغ وتبلع

تعرف أننى أريد أن أنضم اليها   تمضغنى وتبلعنى أختفيت   أنا الآن وجهها   غادرنى وجهى   أرانى أسبح بعيدا   شيء ساخن   أرى باطن قدمى   أنا وحدى   أريد أن أكون كلينا   أريد الاتصال .

أخرج من الماء الأزرق   بعد أن يسبح باطن قدمى بعيدا عنى أرتفع   أنا بحاجة إلى مكان أوجد فيه   الهواء ثقيل   لست ميتة   لست   هناك بيت   هناك ماهمست لى به   أنا حيث أخبرتنى   لست ميتة   أجلس   الشمس تغلق عينى   عندما أفتحهما أرى الوجه الذى فقدته   سيث هى الوجه الذى تركنى   سيث ترانى أراها وأرى الابتسامة   وجهها المبتسم هو المكان لى   إنه الوجه الذى فقدته   هى وجهى يبتسم لى   يفعل ذلك أخيرا   شيء ساخن   الآن يمكننا أن نكون معا   شيء ساخن .

أنا «محبوبة» وهى لى . سيث هى المرأة التى كانت تقطف الزهور، زهورا صفراء فى المكان قبل الربض . قطفتها من أوراقها الخضراء. هى على اللحاف الآن حيث ننام. كانت على وشك أن تبتسم لى حين جاء الرجال الذين بلا جلد ورفعونا إلى ضوء الشمس مع الموتى ودفعوهم فى البحر. غاصت سيث فى البحر. ذهبت هناك. لم يدفعوها .ذهبت إلى هناك. كانت تستعد للابتسام لى وعندما رأت الموتى يُدفعون فى البحر ذهبت هى أيضا وتركتنى هناك بلا وجه وبدون وجهها. سيث هى الوجه الذى وجدته وفقدته فى الماء تحت الجسر. عندما غصت، رأيت وجهها يأتى الىّ وكان وجهى أيضا. أردت أن أنضم، لكنها صعدت متناثرة شظايا من الضوء على صفحة الماء . فقدتها ثانية ، لكننى وجدت البيت الذى همست به لى وكانت هناك، تبتسم أخيرا. وهذا طيب،لكننى لا أستطيع أن أفقده ثانية . كل ما أريد أن اعرفه هو لماذا غاصت فى الماء فى المكان الذى كنا نربض فيه ؟ لماذا فعلت ذلك حين كانت على وشك أن تبتسم لى ؟ كنت أريد أن أنضم اليها فى البحر لكننى لم أستطع الحركة؛ كنت أريد أن أساعدها وهى تقطف الزهور، لكن سحب دخان المدافع أعمتنى وفقدتها . فقدتها ثلاث مرات: مرة مع الزهور بسبب سحب الدخان الصاخبة؛ مرة حين غاصت فى البحر بدلا من أن تبتسم لى؛ مرة تحت الجسر حين غصت لانضم اليها وجاءت نحوى لكنها

لم تبتسم . همست لى، مضغتنى، وسبحت بعيدا. الآن وجدتها فى هذا البيت. هى تبتسم لى وهو وجهى يبتسم . لن أفقدها ثانية. هى لى .

●●●

خبريني بالحقيقة . هل جئت من الجانب الآخر؟

نعم.كنت فى الجانب الآخر .

هل عدت من أجلى؟

نعم .

هل تذكرينى؟

نعم . أذكرك .

ألم تنسينى أبدا؟

وجهك وجهى.

هل تصفحين عنى؟ هل ستبقين؟ هل أنت آمنة هنا الآن؟

أين الرجال الذين بلا جلود؟

هناك بالخارج . بعيدا .

هل يمكنهم الدخول هنا؟

لا.لقد حاولوا ذلك مرة ، لكننى أوقفتهم. لن يعودوا أبدا .

كان أحدهم فى البيت الذى كنت فيه . آلمنى .

لايستطيعون أن يؤذونا بعد الآن .

أين قرطاك؟

أخذوهما منى .

أخذهم الرجال الذين بلا جلود؟

نعم .

كنت سأساعدك لكن السحب حالت بيننا .

ليست هناك سحب الآن .

إذاً وضعوا دائرة حديدية حول عنقك فسوف أقضمها .

« محبوبة . »

سوف أصنع لك سلة مستديرة .

لقد عدت . لقد عدت .

هل ستبتسم لى؟

ألا ترين أننى أبتسم؟

أحب وجهك .

لعبنا بجوار الجدول .

كنت هناك فى الماء .

لعبنا فى الوقت الهادىء .

كانت السحب صاخبة وتحول بيننا .

عندما احتجت اليك، جئت لتكونى معى .

كنت بحاجة إلى أن يبتسم وجهها .

كنت أستطيع أن أسمع تنفسها فقط .

لقد ذهب التنفس؛ بقيت الأسنان فقط .

قالت إنك لن تؤذينى .

لقد آذتنى .

سوف أحميك .

أريد وجهها . .

لاتحبيها كثيرا .

أنا أحبها أكثر من اللازم .

أحذريها ؛ بإمكانها أن تعطيك أحلاما .

إنها تمضغ وتبلع .

لاتخلدى للنوم وهى تضفر شعرك .

هى الضحك؛ أنا الضحكة .

أنا أراقب البيت؛ أراقب الفناء .

لقد تركتنى .

سوف يأتى أبى من أجلنا .

شىء ساخن .

« محبوبة . »

أنت أختى

أنت ابنتى

أنت وجهى، أنت أنا

لقد وجدتك ثانية

أنت محبوبتى

أنت لى

أنت لى

أنت لى

لدى لبنك

لدى ابتسامتك

سوف أعتنى بك

أنت وجهى؛ أنا أنت . لماذا تركتينى وأنا أنت؟

لن أتركك ثانية

لاتتركينى ثانية أبدا

لن تتركينى ثانية أبدا

أنت غصت فى الماءْ

شربت دمك

أحضرت لك لبنك

نسيتى أن تبتسمى

أحببتك

آلمتنى

عدت إلىّ

أنت تركتينى

انتظرتك

أنت لى

أنت لى

أنت لى

كانت كنيسة بالغة الصغر ليست أكبر من بهو رجل غنى . لم يكن للمقاعد ظهور، ولما كان جمع المصلين هم أيضا جوقة المنشدين، فلم تكن بحاجة إلى مذبح. كان أعضاء معينون قد كلفوا بمهمة تشييد منصة ترفع الواعظ بضع بوصات فوق المصلين . لكنها كانت مهمة أقل إلحاحا ، إذ أن المرتفع الرئيسى ، صليب أبيض من خشب البلوط، كان قد أخذ مكانه بالفعل. قبل أن تصبح كنيسة المفتدى المقدس، كانت محلا للسلع الجافة ليس بحاجة إلى نوافذ عرض جانبية، مجرد نوافذ أمامية للمعروضات . ألصقت أوراق فوقها فى حين راح الاعضاء يفكرون ما إذا كانوا يطلونها أو يعلقون عليها ستائر - كيف يحصلون على الخصوصية بدون فقدان الضوء القليل الذى قد يريد أن يشرق عليهم.فى الصيف كانت الأبواب تترك مفتوحة للتهوية . فى الشتاء كان هناك موقد حديدى فى الممر يؤدى عمله قدر استطاعته. أمام الكنيسة كانت هناك شرفة متينة اعتاد الزبائن أن يجلسوا فيها، والأطفال يضحكون من الولد الذى انحشرت رأسه بين قوائم الحاجز. وفى يوم مشمس بلا رياح فى يناير كان الجو أدفأ فعلا هناك بالخارج عنه بالداخل، إذا كان الموقد الحديدى باردا . وكان القبو الرطب دافئا لحد ما، لكن لم يكن هناك ضوء يضىء حشية القش أو حوض الاغتسال أو المسمار الذى كان يمكن تعليق ملابس الرجل عليه. وكان وجود مصباح غاز فى قبو أمرا محزنا، لذلك كان

بول د يجلس على درجات الشرفة ويحصل على دفء إضافى من زجاجة خمر محشورة فى جيب سترته . دفء وعينان حمراوان. احتفظ برسغه بين ركبتيه، لا ليحافظ على يديه ساكنة ولكن لأنه لم يكن هناك شيء آخر يتشبث به. وكانت علبة تبغه المفتوحة تنثر محتوياتها التى راحت تطفو بحرية وتجعله لعبتها وضحيتها .

لم يكن قادرا على حساب السبب الذى جعل الأمر يستغرق طويلا. كان يحسن به أن يقفز فى النار مع سيكسو وكان بإمكانهما أنْ يضحكا طويلا. كان الاستسلام قادما على أية حال، فلماذا لا يلقاه بضحكة ، وهو يصيح سبعة ـ صفر . لم لا ؟ لماذا التأخير؟ كان قد رأى أخاه يلوح له وداعا من على ظهر عربة واطئة، بجيبه دجاجة مشوية، وبعينيه دموع . الأم. الأب. لم يذكر واحدا. لم ير الآخر أبدا. كان أصغر ثلاثة إخوة نصف أشقاء (نفس الأم ـ آباء مختلفون) بيعوا لجارنر وبقوا هناك، محرم عليهم ترك المزرعة ، لمدة عشرين عاما. ذات مرة ، فى مريلاند، التقى بأربع أسر من العبيد كانوا جميعا معا لمدة مائة سنة: أجداد أجداد، وأجداد، أمهات ، آباء ، عمات، أعمام، أبناء أعمام، أطفال نصف بيض، بيض جزئيا، كلهم سود، ممتزجون بدم هندى. راح يراقبهم بإجلال وحسد، وفى كل مرة كان يكتشف فيها عائلات كبيرة من السود كان يجعلهم يعرفون أنفسهم مرارا وتكرارا من كان كل واحد فيهم، ماذا كانت علاقاته، من كان فى الحقيقة ينتمى لمن .

« المرأة التى هناك عمتى. وهذا الولد هنا ابنها. وهناك ابن عم أبى. تزوجت أمى مرتين ـ هذه أختى نصف الشقيقة وهؤلاء

طفلاها . والآن ، زوجتى ...»

لم يحدث له شيء من هذا ولما كان قد كبر وترعرع فى سويت هوم فإنه لم يفتقده. كان لديه أخوان، وصديقان ، بيبى سجز فى المطبخ، رئيس عرّفهم كيف يطلقون البنادق ويصغى إلى ماالديهم ليقولوه. سيدة كانت تعمل لهم الصابون ولاترفع صوتها أبدا. عاشوا جميعا عشرين عاما فى ذلك المهد، حتى رحلت بيبى، وجاءت سيث، وتزوجها هال. صنع عائلة معها، وكان سيكسو مصمما تصميما أكيدا على صنع عائلة مع امرأة الثلاثين ميلا. عندما لوح بول د. مودعا أخاه الأكبر ، كان الرئيس قد مات، والسيدة عصبية والمهد منشقا بالفعل . قال سيكسو إن الطبيب هو الذى جعل من مسز جارنر مريضة. قال إنه كان يعطيها لتشرب ماتشربه فحول الجياد حين تكسر رجلا حيث لافائض من البارود، ولو لم تكن القواعد التى وضعها المدرس، لقال لها هذا. ضحكوا منه. كان لدى سيكسو حكاية يحكيها العليم ببواطن الأمور. بما فى ذلك سكتة مستر جارنر الدماغية ، التى قال عنها إنها طلقة فى أذنه أستقرت هناك بفعل جار غيور .

سألوه : «أين الدم؟»

لم يكن هناك دم . جاء مستر جارنر إلى البيت مائلا على رقبة حصانه، يتصبب عرقا ولونه أبيض وأزرق. ولانقطة دم. زمجر سيكسو ، الوحيد من بينهم الذى لم يأسف على رحيله . فيما بعد، على أية حال، أسف أسفا عظيما، وأسفوا جميعا .

سأل بول د: «لماذا استدعته. لماذا احتاجت إلى المدرس؟»

قال هال : «تحتاج إلى شخص يمكنه أن يحسب . »

« أنت بامكانك أن تتعامل مع الأرقام»

«ليس بهذا الشكل»

قال سيكسو : « لا ، يارجل. هى بحاجة إلى رجل أبيض آخر فى المكان . »

«لماذا؟»

«ماذا ترى ؟ ماذا ترى ؟»

حسنا، كان هذا هو الحال. لم يحسب أحد حسابا لموت جارنر . لم يظن أحد أنه يستطيع أن يموت . مارأيك فى هذا؟ كل شيء كان يعتمد على بقاء جارنر حيا. فبدونه تتمزق حياة كل منهم أشلاء. والآن أليست تلك هى العبودية أو قل لى ماهى؟ فى قمة قوته ، وهو أطول من الرجال الطوال القامة، وأقوى من معظهم ، جرّوه ، بول د. أخذوا بندقيته أولا ، ثم أفكاره ، لأن المدرس لم يكن يتقبل النصح من زنوج . كان يسمى المعلومات التى يعرضونها ردا وقحا استحدث تشكيلة من طرق التأديب (سجلها فى دفتره) ليعيد تعليمهم. كان يشكو من أنهم يأكلون كثيرا، ويستريحون كثيرا ، ويتكلمون كثيرا، وهو ماكان صحيحا بالتأكيد بالمقارنة إليه ، لأن المدرس كان يأكل قليلا ، ويتكلم أقل ولم يكن يستريح على الاطلاق . ذات مرة رآهم يلعبون ـ لعبة قذف ـ وكانت نظرته التى تنم عن ألم عميق كافية لأن تجعل بول د . يطرف

بعينيه . كان قاسيا على تلميذيه مثلما كان قاسيا عليهم- فيما عدا التأديب .

ظل بول د يعتقد لسنوات أن المدرس عمد إلى تحطيم من رباهم جارنر ليكونوا رجالا حتى يعودوا أطفالا . وكان ذلك ما جعلهم يفرون . راح يتساءل الآن ، وقد أزعجته محتويات علبة تبغه ، كم كان الأمر حقا قبل المدرس وبعده . فقد سماهم جارنر رجالا وأعلن أنهم رجال - ولكن في سويت هوم فحسب، وبإذنه . هل كان يسمى مايراه أم يخلق مالم يره؟ كان هذا تعجب سيكسو؛ بل حتى هال؛ كان من الواضح لبول د دائما أن هذين الاثنين كانا رجلين سواء قال جارنر هذا أو لم يقله وكان يزعجه أنه بخصوص رجولته لم يكن قادرا على إقناع نفسه بهذه النقطة أوه، كان يفعل أشياء رجولية ، ولكن هل كان ذلك هدية جارنر أو إرادته هو ؟ ماذا كان يمكن أن يكون على أية حال - قبل سويت هوم - بدون جارنر؟ في بلد سيكسو ، أو بلد أمه؟ أو، ليساعده الله، في القارب؟ هل كان قول رجل أبيض هذا يجعل الأمر هكذا؟ لنفترض أن جارنر استيقظ ذات صباح وغير رأيه؟ سلبهم الكلمة. هل كانوا ليفرون إذن؟ وإذا لم يفعل ، هل كان آل بول ليمكثون هناك طيلة حياتهم؟ لماذا احتاج الإخوة إلى ليلة كاملة حتى يقرروا؟ لمناقشة ما إذا كانوا سينضمون إلى سيكسو وهال. لأنهم كانوا معزولين في أكذوبة رائعة،يرفضون حياة هال وبيبي سجز قبل سويت هوم على أنها حظ سيء.جاهلين بقصص سيكسو القاتمة أو متسلين بها . مقتنعون أنهم شيء خاص وفي هذا حماية لهم . لا يشكون مطلقا في مشكلة ألفريد ، جورجيا ؛ واقعين للغاية في حب مظهر

العالم ، متحملين لكل شيء وأى شيء ، لمجرد أن يبقوا أحياء فى مكان حيث يطل قمر ليس له حق فيه ولكنه هناك رغم ذلك . يحبون حباً صغيراً وفى سرية كان حبه الصغير شجرة ، بالطبع ، لكنها ليست مثل «الأخ»- عجوزا ، واسعة ومغرية .

فى ألفريد ، جورجيا ، كانت هناك شجرة حور أصغر من أن تسمى شجيرة . مجرد فرع جديد ليس أطول من وسطه. ذلك النوع من الأشياء التى يقطعها الرجل ليسيط بها جواده.قتْل الأغنية وشجرة الحور. ظل حيا ليغنى أغانى تقتل الحياة، ويراقب شجرة حور تؤكدها ، ولم يصدق مطلقا لدقيقة واحدة أنه كان بإمكانه أن يهرب . حتى أمطرت . وبعد ذلك ، بعد أن أشار الشيروكى وأرسله يعدو نحو الزهور ، أراد ببساطة أن يتحرك ، يذهب ، يكسب رزقه يوما ويكون فى مكان آخر فى اليوم التالى مستسلما لحياة بلا عمات ، أولاد عم ، أطفال . حتى بدون امرأة ، حتى جاءت سيث .

ثم حركت مشاعره تماما حين سد الطريق على الشك والأسى وكل سؤال لم يسأله، بعد أن اعتقد لزمن طويل أنه أراد لنفسه الوجود، فى ذات الزمن والمكان الذى كان يريد أن يمد فيه جذوره. نقلته من حجرة إلى حجرة . مثل دمية من خرق .

كان بإمكانه أن تداخله هذه الأفكار وهو جالس فى شرفة كنيسة السلع الجافة، مخمورا قليلا وليس هناك مايفعله أفكار بطيئة عن «ماذا لو» تخترق أعماقه لكنها لاتصيب شيئا صلبا يمكن للرجل أن يتشبث به. ولذلك احتفظ برسغه. إن مروره بحياة تلك

المرأة ودخوله فيها والسماح لها بأن تدخل فيه هو ما هيأه لهذه السقطة ..كانت رغبته فى أن يقضى كل حياته مع أمرأة كاملة شيئا جديدا، وجعله فقدان هذا الشعور راغبا فى أن يبكى وأن يفكر أفكارا عميقة لم تصب شيئا صلبا . عندما كان كل منجرفاً ، يفكر فقط في الوجبة التالية ونوم الليلة ، عندما كان كل شىء محزوما بإحكام فى صدره، لم يكن لديه أى إحساس بالفشل، بأن الأشياء لم تكن تعمل بنجاح . كان أى شىء يعمله على الإطلاق يعمل بنجاح. والآن راح يتساءل عما أخفق ، وبدءاً من الخطة كان كل شىء قد أخفق . كانت خطة جيدة أيضا. عملت بنجاح فى التفصيلات مع استبعاد كل احتمال للخطأ .

سيكسو يتكلم الانجليزية مرة أخرى ، وهو يشد وثاق الجياد، ويخبر هال بما قالته له أمرأة الثلاثين ميلا. أن سبعة زنوج من المكان الذى تعيش فيه كانوا سينضمون إلى اثنين آخرين متجهين شمالا. ان الاثنين الآخرين قد فعلا ذلك من قبل ويعرفان الطريق. أن أحد الاثنين ، أمرأة ، كانت ستنتظرهم فى الذرة عندما تصبح عالية - ليلة ونصف اليوم التالى ستنتظر، وأنهم إذا جاءوا ستأخذهم إلى القافلة، حيث يختبىء الآخرون . انها كانت ستقعقع، وأن تلك هى الاشارة.كان سيكسو ذاهبا، وأمرأته ذاهبة، وهال سيصطحب كل عائلته . الأخوان بول يقولان إنهما بحاجة للوقت للتفكير فى هذا. أن هناك متسع من الوقت للتفكير فى أين سينتهى بهم الأمر ؛ كيف سيعيشون . أى عمل ؛ من سوف يستضيفهم ؛ هل ينبغى أن يحاولا الوصول إلى بول ف ؛ الذى يعيش مالكه ، فيما يتذكران ، فى شىء يسمى « الأثر » ؟ يقتضى الأمر منهما ليلة

يتحدثان فيها ليقررا .

كل ماعليهم الآن أن يفعلوه هو أن ينتظروا خلال الربيع، حتى تصبح الذرة عالية وقد بلغت أقصى إرتفاع لها ويكون القمر مكتملا .

وأن يخططوا . هل من الأفضل أن يرحلوا فى الظلام ليحصلوا على بداية أفضل ، أم أن يذهبوا عند الفجر ليتمكنوا من رؤية الطريق بشكل أفضل؛ يبصق سيكسو على الاقتراح. فالليل يعطيهم مزيدا من الوقت وحماية اللون. لايسألهم إن كانوا خائفين . ينجح فى القيام ببعض جولات من العدو إلى الذرة ليلا، ليدفن بطانيات وسكينتين قرب الجدول.ترى هل ستتمكن سيث من عبور الجدول سباحة ؟ يسألونه. يقول سوف يكون جافا، عندما تكون الذرة عالية ليست هناك طعام لإدخاره ، لكن سيث تقول إنها سوف تحصل على جرة عصير قصب أو دبس السكر وبعض الخبز عندما يقترب وقت الرحيل،هى تريد فقط أن تتأكد أن البطانيات موجودة حيث ينبغى أن تكون،لأنهم سيحتاجونها لربط طفلتها على ظهرها ولتغطيتهم أثناء الرحلة. ليست هناك ملابس سوى مايرتدونه ولا أحذية بالطبع . ستساعدهم السكاكين على الأكل،لكنهم يدفنون حبلا وقدرا أيضا.خطة جيدة .

يراقبون ويستظهرون مواعيد مجىء المدرس وتلميذيه وذهابهم: مايريدونه متى وأين؛ كم يستغرق من الوقت أن مسز جارنر . وهى قلقة بالليل، تغوص فى النوم كل الصباح . فى بعض الأيام يذاكر التلميذان ومدرسهم دروسهم حتى موعد الإفطار . فى

يوم من أيام الأسبوع يتخطون الافطار تماما ويسافرون عشرة أميال إلى الكنيسة، وهم يتوقعون غداء ضخما عند عودتهم. المدرس يكتب فى دفتره بعد العشاء؛ التلميذان ينظفان الأدوات أو يصلحانها أو يسنانها. عمل سيث هو أكثر الأشياء غير المحددة لأن مسز جارنر تستدعيها فى أى وقت عندما يصبح الألم أو الضعف أو الوحدة الصرفة فوق طاقة احتمالها . ولذلك: فإن سيكسو وآل بول سوف يذهبون بعد العشاء وينتظرون فى الجدول أمرأة الثلاثين ميلا. وسوف يحضر هال سيث والأطفال الثلاثة قبل الفجر ـ قبل طلوع الشمس، قبل أن تحتاج الدجاجات والأبقار إلى العناية بها ، وهكذا ماأن يحين الموعد الذى ينبغى فيه أن يأتى الدخان من موقد الطبخ، فإنهم سوف يكونون فى الجدول أو قربه مع الآخرين . وبهذه الطريقة فإن سيث سوف تكون هناك لتستجيب إذا احتاجت إليها مسز جارنر فى الليل ونادتها .

ولكن كانت سيث حاملا فى الربيع وسوف تكون فى أغسطس مثقلة بالطفل حتى أنها قد لايُمكنها أن تجارى الرجال، الذين يستطيعون حمل الأطفال ولكنهم لايستطيعون حملها .

ولكن . أن الجيران الذين لم يكونوا يلقون تشجيعا من مستر جارنر عندما كان حيا يشعرون بأنهم أحرار الآن فى زيارة سويت هوم وقد يظهرون فى المكان الصحيح فى الوقت الخاطىء .

ولكن. أطفال سيث لا يمكنهم اللعب فى المطبخ بعد الآن، وهكذا تندفع جيئة وذهابا بين البيت والمسكن ـ متململة ومحبطة تحاول أن تقيهم من أى أذى . وهم أصغر من أن يقوموا بأعمال الرجال ،

والطفلة عمرها تسعة شهور. وبدون معاونة مسز جارنر يتضاعف عملها كما تتزايد طلبات المدرس.

ولكن. بعد الحديث عن الخنوص سيكسو مقيد مع الماشية عند حلول الليل، والأقفال توضع على الصناديق والحظائر ، والأكواخ وعشش الدجاج وحجرة حفظ الأدوات وباب الجرن - فليس هناك مكان للاندفاع اليه أو التجمع فيه.إن سيكسو يحتفظ فى فمه الآن بمسمار ، ليساعده على فك الحبل حين يضطر إلى هذا .

ولكن . لقد صدرت الأوامر إلى هال أن يقوم بعمله الاضافى فى سويت هوم وليس مطلوبا منه أن يكون فى أى مكان سوى حيث يطلب المدرس منه أن يكون.سيكسو فقط، الذى ظل يتسلل ليقابل أمرأته ، وهال ، الذى ظل يستؤجر سنوات ، يعرفان ما يقع خارج سويت هوم وكيف يمكن الوصول اليه .

إنها خطة جيدة. يمكن تنفيذها تحت سمع وبصر التلميذين اليقظين ومدرسهم .

لكن . اضطروا إلى تغييرها - قليلا فقط ،أولا يغيرون الرحيل يستظهرون التعليمات التى يلقيها عليهم هال. على سيكسو،الذى يحتاج إلى وقت حتى يفك قيوده،أن يفسخ الباب وألا يزعج الجياد، وأن يرحل فيما بعد، ليلحق بهم عند الجدول مع أمرأة الثلاثين ميلا. وسوف يذهب أربعتهم إلى الذرة مباشرة. ويقرر هال،الذى يحتاج أيضا إلى مزيد من الوقت الآن بسبب سيث، أن يحضر سيث والأطفال عند حلول الليل ، وألا ينتظر حتى أول ضوء . سوف يذهبون رأساً إلى الذرة ولا يتجمعون عند الجدول .

إن الذرة ترتفع إلى مستوى أكتافهم ـ لن ترتفع أبدا أكثر من ذلك . القمر يتضخم . لن يكون لديهم وقت لجمع الذرة من الحقل أو أن يقطعوا بفأس ، أو أن يزيلوا ، أو أن يجذبوا أحدهم الآخر لينصتوا إلى صليل ليس صليل ثعبان أو طائر . ثم يسمعون الصوت فى منتصف صباح . أو يسمعه هال ويبدأ فى غنائه للآخرين : «صمتا ، صمتا . أحدهم ينادى باسمى . صمتاً ، صمتا . أحدهم ينادى باسمى . أوه يا آلهى ، أوه يا آلهى ماذا سأفعل ؟ »

فى وقت راحته لتناول الغداء يغادر الحقل عليه أن يفعل هذا. عليه أن يخبر سيث أنه قد سمع الاشارة.فلقد ظلت مع مسز جارنر ليلتين متتاليتين ولايمكنه أن يجازف بألا تعرف أنها لايمكنها أن تظل معها الليلة.آل بول يرونه يذهب من تحت ظل الشجرة «الأخ» حيث يمضغان كعكة ذرة، يريانه يستدير ويمضى مؤرجحا ذراعيه . والخبز طيب المذاق. يلعقان الطعم الحلو من على شفاههما ليعطوها نكهة مملحة أكثر . المدرس والتلميذان موجودون بالفعل فى البيت يتناولون الغداء.يستدير هال. هو لايغنى الآن.

لايعلم أحد ماذا حدث . ففيما عدا الممخضة، كان ذلك آخر مارآه أحد من هال . ماكان بول د يعرفه هو أن هال اختفى، لم يخبر سيث بشىء، ثم شوهد بعد ذلك يجلس القرفصاء فى الزبد. ربما سمع المدرس رنة قلق فى صوته ـ تلك الرنة التى كانت لتجعله يلتقط بندقيته الجاهزة أبدا ـ عندما وصل إلى البوابة وطلب رؤية سيث. ربما ارتكب هال خطأ قول «زوجتى» بشكل يجعل عينى المدرس تلمعان.تقول سيث الآن إنها سمعت صوت

طلقات ، لكنها لم تنظر من نافذة حجرة نوم مسز جارنر لكن هال لم يقتل أو يجرح فى ذلك اليوم لأن بول د . رآه فيما بعد ، بعد أن هربت بدون مساعدة أحد؛ بعد أن ضحك سيكسو واختفى أخوه. رآه ملطخا بالزبد وعيناه باردتان مثل سمكة . ربما أطلق المدرس الرصاص فى أثره أطلقه على قدميه ، ليذكره بانتهاك حرمة المكان. ربما دخل هال الجرن، واختفى هناك وحبس مع بقية مواشى المدرس. ربما أى شيء.فقد أختفى وأصبح كل واحد وحده.

يعود بول د إلى نقل الخشب بعد الغداء . من المفروض أن يلتقوا فى المسكن لتناول العشاء.لايظهر بتاتا. يغادر بول د باتجاه الجدول فى الوقت المحدد، وهو يعتقد ، ويأمل أن بول أ قد سبقه، من المؤكد أن المدرس قد علم بشيء.يصل بول د إلى الجدول وهو جاف كما وعدهم سيكسو . ينتظر هناك مع أمرأة الثلاثين ميلا فى انتظار سيكسو وبول أ. يظهر سيكسو فقط، ورسغاه يدميان، ولسانه يلعق شفتيه كأنه لهبه.

« هل رأيت بول أ ؟»

« لا.»

« هال ؟»

« لا.»

« لا أثر لهما؟»

« لا أثر . لايوجد فى المسكن سوى الأطفال».

« سيث ؟»

« أطفالها نائمون . لابد أنها مازالت هناك».
« لا أستطيع الرحيل بدون بول أ» .

« لايمكنني مساعدتك» .

« هل ينبغي أن أعود وأبحث عنهم؟»

« لايمكنني مساعدتك» .

« ماذا ترى ؟»

« أظن أنهم اتجهوا إلى الذرة مباشرة» .

عندئذ يستدير سيكسو إلى المرأة ويمسكان بأحدهما الآخر ويهمسان . هي تضيء الآن بتوهج ما ، بإشراق ما ، ينبع من داخلها . لم تكن قبل ذلك شيئا حين كانت راكعة مع بول د . على حصى الجدول ، شكلا في الظلام يتنفس بخفة .

سيكسو على وشك أن يزحف خارجا ليبحث عن السكينين المدفونين.يسمع شيئا.لايسمع شيئا. إنس السكينين . الآن. يصعد ثلاثتهم إلى أعلى الشط والمدرس وتلميذاه وأربعة آخرون من البيض يتحركون نحوهم . بمصابيح . يدفع سيكسو أمرأة الثلاثين ميلا وتجرى بعيدا فى قاع الجدول.يجرى بول د وسيكسو فى الاتجاه الآخر نحو الغابة . يُحاط بهما ويُربطان .

يصبح الهواء عذبا عندئذ . معطراً بالأشياء التى يحبها النحل . يشعر بول د . ، وهو مقيد مثل بغل ، بالعشب نديا ومغريا . هو يفكر فى هذا وفى أين يمكن أن يكون بول أ عندما يستدير سيكسو ويقبض على فوهة أقرب بندقية مصوبة.يشرع فى الغناء يدفع أثنان آخران بول د ويربطانه إلى شجرة.المدرس يقول: «حيا .

حيا . أريده حيا . » يستدير سيكسو ويكسر أضلاع واحد ، لكنه لايستطيع وهو مقيد اليدين أن يحصل على السلاح فى وضع يمكنه من استخدامه بأى شكل آخر.كل ماعلى الرجال البيض أن يفعلوه هو أن ينتظروا.ربما لكى تنتهى أغنيته؟ خمس بنادق مصوبة اليه وهم يصغون.لايستطيع بول د أن يراهم عندما يخطون بعيدا عن ضوء المصباح.أخيرا يضرب واحد منهم سيكسو على رأسه ببندقيته، وعندما يفيق يجد أمامه نارا من أخشاب الجوزية وهو مربوط من وسطه إلى شجرة . فقد غير المدرس رأيه: « لن يكون هذا العبد مناسبا . » لابد أن الأغنية قد أقنعته .

تظل النار تخبو والبيض مغتاظون من أنفسهم لأنهم غير مستعدين لهذا الطارئ . لقد جاءوا ليأسروا ، لاليقتلوا . فما يمكنهم أن يدبروه يكفى فقط لطبخ جريش الذرة.حزم الأخشاب الجافة نادرة والعشب ذلق مع الندى .

يشد سيكسو قامته فى ضوء نار الجريش. لقد انتهى من أغنيته يضحك . صوت متموج مثل الصوت الذى يحدثه أطفال سيث حين يقعون فى التبن أو ينثرون ماء المطر. أقدامه تُطبخ؛ وقماش سرواله يتصاعد منه الدخان . يضحك.هناك شىء مضحك. يخمن بول د المعنى المقصود عندما يقطع سيكسو ضحكه ليصيح: « سبعة - صفر ! سبعة - صفر ! »

نار عنيدة يتصاعد منها الدخان.يطلقون عليه النار ليسكتوه. لابد .

يسمع بول د الرجال يتكلمون،وهو مقيد يسير خلال الأشياء

العطرة التى يحبها النحل، ولأول مرة يعرف قدر نفسه. لقد كان دائما يعرف ، أو يعتقد أنه يعرف،قيمته ـ بصفته عاملا يمكنه أن يحقق ربحا فى مزرعة ـ لكنه يكتشف الآن قدره، وهو مايعنى القول بأنه يعرف ثمنه. القيمة الدولارية لوزنه، قوته، قلبه، عقله، ذكره ومستقبله .

وما أن يصل الرجال البيض إلى حيث قيدوا جيادهم ويمتطوها، حتى يصبحوا أهدأ، يتكلمون فيما بينهم عن الصعوبة التى يواجهونها . المشكلات،تُذكّر الأصوات المدرس بالافساد الذى حدث لهؤلاء العبيد بالذات على يدى جارنر . هناك قوانين ضد ما فعل: أن يدع الزنوج يؤجرون وقتهم ليشتروا جريتهم . بل إنه سمح لهم بأن يكون لهم بنادق! وهل تظن أنه كان يزاوج هؤلاء الزنوج ليحصل على مزيد منهم؟ ياللجحيم لا! كان يخطط لهم أن يتزوجوا ! إذا لم يكن هذا يفوق كل شيء ! يتنهد المدرس، ويقول الا يعرف هو ذلك؟ لقد جاء ليصلح المكان. والآن يواجه المكان دمارا أعظم مما تركه جارنر له، بسبب فقدان زنجيين، على الأقل، وربما ثلاثة لأنه ليس واثقا أنهم سيجدون الزنجى المدعو هال. إن زوجة أخ زوجته أضعف من أن تساعده واللعنة إن لم يكن مواجها الآن بفرار جماعى كامل.سيكون مضطرا إلى بيع هذا الزنجى لقاء ٩٠٠ دولار إذا أستطاع الحصول عليها، وأن يشرع فى تأمين المرأة الولود ، وأمهارها والعبد الآخر، إن وجده. وبالنقود التى يحصل عليها لقاء «هذا العبد هنا» بإمكانه أن يحصل على عبدين صغيرين فى الثانية عشرة أو الخامسة عشرة. وربما بالمرأة الولود، وأطفالها الزنوج الثلاثة والمهر القادم مهما

كان ، يكون له ولأولاد أخيه سبعة زنوج ويصبح سويت هوم يستحق العناء الذى يسببه له .

«هل يبدو لك أن ليليان سوف تجتاز الأزمة؟»

«وضعها خطر. وضعها خطر . »

« كنت متزوجا من أخت زوجها ، أليس كذلك؟»

«كنت . »

«هل هى ضعيفة البنية أيضا؟»

«قليلا . قضت عليها الحمى . »

«حسنا، لست بحاجة إلى أن تظل أرمل فى هذه النواحى .»

«إن تفكيرى الآن بالتحديد منصب على سويت هوم . »

« لا أستطيع أن أقول أننى ألومك . فامتداده كبير . »

وضعوا طوقا ذا ثلاثة مكابح عليه حتى لا يستطيع الرقاد وأوثقوا كاحليه معا بسلسلة . فى رأسه الآن العدد الذى سمعه بأذنيه . اثنان. اثنان؟ زنجيان فقدا؟ يظن بول د أن قلبه يتواثب . إنهم سوف يبحثون عن هال، لا بول أ . لابد أنهم وجدوا بول أ . وإذا وجدك رجل أبيض فمن المؤكد أنك مفقود .

ينظر المدرس اليه لفترة طويلة قبل أن يغلق باب الكوخ . ينظر بعناية . لايبادله بول د النظرة . السماء تمطر الآن رذاذا. مطر أغسطس المعذِّب الذى يثير آمالا لإيمكنه أن يحققها . يفكر أنه كان ينبغى عليه أن يغنى معه. عاليا ، شيئا عاليا،وهادرا يتمشى مع لحن سيكسو، لكن

الكلمات أزعجته ـ لم يفهم الكلمات. على الرغم من أن هذا لم يكن ينبغى أن يكون مهما لأنه كان يفهم الصوت: كراهية متحررة من كل قيد إلى حد أنها كانت مزهوة.

الرذاذ الدافىء يأتى ويروح، يأتى ويروح. يظن أنه يسمع نشيجا يبدو كما لو كان يأتى من نافذة مسز جارنر، لكنه يمكن أن يكون أى شىء؛ أى واحد، بل حتى قطة تعلن عن شبقها. يدع ذقنه تستريح على الطوق، وقد تعب من الحفاظ على رأسه مرفوعة، ويتأمل كيف يمكنه أن يتواثب ليصل إلى فحم المدفأة، ليغلى قليلا من الماء يلقى فيه حفنة طحين. وذلك ما كان يفعله عند دخول سيث، وقد بللها المطر وانتفخت بطنها، تقول إنها ستهرب. لقد عادت لتوها من اصطحاب أطفالها إلى الذرة. والبيض لم يكونوا حول المكان. أنها لم تستطع أن تجد هال. من الذى قُبِضَ عليه؟ هل هرب سيكسو؟ بول أ؟

يخبرها بما يعرفه: سيكسو مات؛ أمرأة الثلاثين ميلا هربت؛ وهو لايعلم ماحدث لبول أ أو هال. تسأله: «أين يمكنه أن يكون؟»

يهز بول د كتفيه لأنه لايستطيع أن يهز رأسه.

«رأيت سيكسو يموت؟ متأكد؟»

«أنا متأكد».

«كان مستيقظا. مستيقظا وضاحكا.»

«سيكسو ضحك؟»

«كان يجب أن تريه، ياسيث.»

ثوب سيث يتصاعد منه البخار أمام النار الضئيلة التى يغلى فوقها الماء. من الصعب أن يتحرك حول المكان بكاحلين مقيدين والجواهر حول رقبته تقيده. ووسط عاره يتجنب عينيها، لكنه حين لايفعل ذلك يرى فيهما السواد فقط. لابياض. تقول إنها ستذهب، ويظن أنها لن تفلح أبدا فى الوصول إلى البوابة، لكنه لايثنيها عن عزمها. يعرف أنه لن يراها ثانية، وهناك عندئذ تماما توقف قلبه.

لابد أن التلميذين أخذاها إلى مخزن الحبوب عقب ذلك مباشرة للعبث بها، وعندما أخبرت مسز جارنر أنزلا جلد البقر. من فى الجحيم أو على هذه الأرض كان ليظن أنها ستهرب على أية حال؟ لابد أنهم كانوا يعتقدون أنها، ببطنها وظهرها، لن تذهب إلى أى مكان. لم يندهش حين علم أنهم تعقبوها إلى سنسناتى، لان ثمنها، حين فكر فيه الآن، كان أعظم من ثمنه؛ ملكية تتناسل بلا تكلفة.

تساءل ماذا يمكن أن يكون ثمن سيث، وهو يتذكر ثمنه هو إلى آخر سنت كان المدرس قادرا على الحصول عليه ثمنا له. ماذا كان ثمن بيبى سجز؟ بكم كان هال مايزال مدينا بالإضافة إلى عمله؟ كم حصلت مسز جارنر ثمنا لبول ف؟ أكثر من تسعمائة دولارا؟ كم دولارا أكثر؟ عشرة دولارات؟ عشرين؟ كان المدرس ليعرف. كان يعرف قيمة كل شىء. كان هذا يفسر الأسف الحقيقى حين أصدر حكمه بان سيكسو غير مناسب. منذا الذى يُخدع فى شراء زنجى مغن ببندقية؟ يصيح سبعة ـ صفر! سبعة ـ صفر! لأن أمرأة الثلاثين ميلا قد فرت ببذرته المزدهرة. يالها من ضحكة متموجة وحافلة بالمرح الى حد

أنها أطفأت النار. وكانت ضحكة سيكسو هى التى تشغل عقله، لا الشكيمة فى فمه، عندما ربطوه إلى العربة ذات العجلات الأربع . ثم رأى هال، والديك يبتسم كما لوكان يقول، أنت لم تر شيئا بعد . كيف أمكن لديك أن يعرف عن الفريد ، جورجيا؟

«كيف حالك ؟»

كان ستامب بيد لايزال يداعب بأصابعه الشريط مما آثار حركة خفيفة فى جيب سرواله .

رفع بول د عينيه ، لاحظ اهتياج الجيب الجانبى وشخر. «أنا لَا أستطيع القراءة . هل لديك مزيد من الصحف لى ، هذا مجرد اضاعة وقت.»

سحب ستامب الشريط وجلس على درجات السلم .

دعك قطعة القماش الحمراء بين إبهامه وسبابته وقال: « لا. هذا شىء آخر . شىء آخر ».

لم يقل بول د أى شىء وهكذا جلس الرجلان يخيم عليهما الصمت لبضع لحظات .

قال ستامب : « هذا صعب علىّ . لكن علىّ أن أفعله . على أن أقول لك شيئين . سوف أبدأ بالسهل أولا».

ضحك بول د ضحة خافتة: «إذا كان صعبا عليك ، فقد يقتلنى .»

« لا ، لا . لا شىء من هذا . جئت أبحث عنك لاستميحك عفوا . أعتذر . »

« عن ماذا ؟ » ومد بول د يده فى سترته ليخرج زجاجته .

« أنتق أى بيت ، أى بيت يعيش فيه ملونون . فى كل سنسناتى . أختر أى واحد وأنت مُرحَب بك فى البقاء هناك . وأنا أعتذر لأنهم لم يعرضوا عليك أو يخبروك . لكنك مُرَحب بك حيث تريد أن تكون. بيتى هو بيتك أيضا. جون وايللا ، مس ليدى ، ايبل وودرف ، ويلى بايك - أى واحد. أنت تختار . لست مضطرا الى النوم فى أى قبو ، وأنا أعتذر عن كل ليلة نمتها. لا أعرف كيف سمح لك هذا الواعظ بعمل هذا . فقد عرفته منذ كان صبيا».

« توقف ، ياستامب ، لقد عرض . »

« عرض ؟ حسنا ؟»

«حسنا ، أردت ، لم أرد ، كنت أريد فقط أن أكون بعيدا وحدى لفترة. لقد عرض. وكل مرة أراه فيها يعرض مرة أخرى.»

« هذا يخفف عنى حملا. ظننت أن الجميع قد جنوا» .

هز بول د رأسه : « أنا فقط . »

« هل تنوى أن تفعل شيئا بهذا الخصوص ؟ »

« أوه، نعم .لدى مخططات عظيمة.» ثم جرع جرعتين من الزجاجة .

قال ستامب لنفسه ، إن أى تخطيط يخرج من زجاجة هو تخطيط قصير الأجل ، لكنه كان يعرف من خبرته الشخصية عدم جدوى مطالبة رجل سكير بألا يفعل ذلك . صفى جيوبه الأنفية

وشرع يفكر فى كيفية الوصول إلى الشىء الثانى الذى جاء ليقوله. كان ناس قليلون للغاية فى الخارج اليوم. كان القنال متجمدا حتى أن حركة النقل أيضا توقفت . سمعا وقع حوافر حصان يقترب. كان راكبه يجلس فوق ركاب عال يصنع فى الأجزاء الشرقية لكن كل ماعدا ذلك حوله كان يوحى بوادى أوهايو . وفيما كان يمضى بالقرب منهما ألقى عليهما نظرة ثم جذب لجام حصانه فجأة، وجاء إلى الرصيف المؤدى إلى الكنيسة. مال إلى الأمام .

قال: «هاى».

وضع ستامب شريطه فى جيبه: «نعم ، ياسيدى؟»

« إننى أبحث عن فتاة اسمها جودى. تعمل بالقرب من السلخانة .»

« لا أعتقد أننى أعرفها . لا ، ياسيدى . »

« قالت إنها تعيش فى شارع بلانك . »

« شارع بلاك . نعم، ياسيدى.ذلك هنا بعيدا. ميل ربما . »

« ألا تعرفها؟ جودى.تعمل فى السلخانة . »

« لا ، ياسيدى، لكننى أعرف شارع بلانك. حوالى ميل على طول ذلك الطريق . »

رفع بول د زجاجته وجرع . نظر الراكب اليه ثم عاود النظر إلى ستامب بيد. أرخى اللجام الأيمن ، وأدار حصانه نحو

الشارع، ثم غير رأيه وعاد .

قال لبول د : « أنظر ها هو ذا صليب فوق هناك ، ولذا أظن أن هذه كنيسة أو كانت.يبدو لى أنه يجب عليك أن تبدى شيئا من الاحترام ، هل تفهمنى؟»

وقال ستامب: «أجل ، ياسيدى. أنت محق فى ذلك . وهذا بالضبط ماجئت من أجله إلى هنا لأتحدث معه فيه. هذا بالضبط . »

فرقع الراكب بلسانه وراح يخب بحصانه. رسم ستامب دوائر صغيرة فى راحة يده اليسرى باصبعين من يده اليمنى. قال: «عليك أن تختار. اختر أى واحد. سوف يتركونك وشأنك إذا كنت تريدهم أن يفعلوا ذلك. بيتى. ايللا . ويلى بايك. ليس لدى أى منا الكثير، لكننا جميعا لدينا متسع لشخص آخر. أدفع شيئا قليلا حين تستطيع ، ولاتدفع حين لا تستطيع . فكر فى هذا . أنت رجل ناضج.لايمكننى أن أجعلك تفعل ما لا تريد، لكن فكر فى الأمر» .

لم يقل بول د شيئا .

« إذا كنت قد أضررت بك ، فأنا هنا لأصحح الضرر . »

« لست بحاجة إلى ذلك. لست بحاجة بتاتا . »

مشت أمرأة معها أربعة أطفال بالقرب منهم فى الجانب الآخر من الطريق. لوحت بيدها وهى تبتسم . « هوو ـ وو. لايمكننى التوقف. أراكم فى الاجتماع .

رد ستامب على تحيتها: « سأكون هناك.» وقال لبول د: «هاك واحدة أخرى. سكريتبشر وودرف، أخت إيبل . تعمل فى مصنع

الفُرَش والشحم. سوف ترى . إذا لبثت هنا فى هذه الناحية وقتا طويلا كافيا، سوف ترى أنه لا مجموعة من الملونين فى أى مكان ألطف مما يوجد هنا تماما. كبرياء ، حسنا، ذلك يضايقهم بعض الشيء. قد يرتبكون عندما يظنون أن شخصا ما بالغ الكبرياء، لكنهم فى نهاية الأمر ناس طيبون وأى واحد سوف يستضيفك.»

«ماذا عن جودى؟ هل تستضيفنى؟»

« هذا يتوقف. ماذا يدور برأسك؟»

« هل تعرف جودى؟»

« جوديث. أعرف الجميع . »

« هناك فى شارع بلانك؟»

« الجميع . »

« حسنا ؟ هل تستضيفنى؟»

مال ستامب وفك رباط حذائه . أثنا عشر كلاَّباً أسود لتثبيت الأزرار، ست فى كل ناحية فى الجزء السفلى، تؤدى إلى أربعة أزواج من العيون فى الجزء العلوى. فك الأربطة على طول المسافة حتى الجزء السفلى، وسوى اللسان بحرص ولفها مرة ثانية. عندما بلغ العيون لف أطراف الأربطة بأصابعه قبل أن يدخلها .

« دعنى أخبرك كيف حصلت على اسمى.» كانت العقدة محكمة وكذلك كانت الربطة . قال: «كانوا يسموننى جوشوا. وأعدت تسمية نفسى، وسوف أخبرك لماذا فعلت ذلك»، وأخبره عن

فاشتى. » لم ألمسها أبدا طيلة ذلك الوقت. ولامرة . سنة تقريبا . كنا نزرع حين بدأ الأمر ونقلع حين توقف. بدا زمنا أطول . كان يجب أن أقتله. قالت لا، لكن كان يجب أن أقتله. لم يكن لدى الصبر الذى لى الآن، لكننى حسبت أن ربما كان هناك شخص آخر لم يكن لديه صبر كثير أيضا ـ زوجته ذاتها. خطر لى أن أرى إن كانت تتقبل الأمر بشكل أفضل منى. كنا، فاشتى وأنا ، فى الحقول معا بالنهار ومن آن لآخر كانت تذهب طول الليل. لم ألمسها أبدا وملعون أنا إن كنت أكلمها ثلاث كلمات فى اليوم. كنت أنتهز أى فرصة تسنح لى لاقترب من البيت الكبير لأراها، زوجة السيد الصغير . لاشىء أكثر من صبى . سبع عشرة، ربما عشرين. لمحتها أخيرا، تقف فى الفناء الخلفى وبيدها كوب ماء. كانت تشرب منه وتحدق فى الخارج من فوق الفناء. دخلت. وقفت بعيدا وخلعت قبعتى. قلت : (عفوا ، ياسيدتى . عفوا؟) استدارت لتنظر . أنا ابتسم. وعفوا . هل رأيت فاشتى؟ زوجتى فاشتى؟« كانت شيئا ضئيلا صغيرا. شعرها. أسود وجهها ليس أكبر من يدى. قالت، وماذا؟فاشتى؟ » أقول : (نعم ، ياسيدتى . فاشتى . زوجتى . تقول إنها مدينة لكم جميعا ببعض البيض. هل تعرفين إن كانت قد أحضرته؟ ستعرفينها حين ترينها. ترتدى شريط أسود على رقبتها.) تضرج وجهها عندئذ وعرفت أنها كانت تعرف. كان قد أعطى فاشتى ذلك لترتديه . حجر كريم ذو نقش بارز على شريط أسود. كانت ترتديه فى كل مرة تذهب فيها اليه . عدت إلى ارتداء قبعتى . » إذا رأيتها أخبريها أننى محتاج إليها . أشكرك . أشكرك ياسيدتى ».رجعت إلى الخلف قبل أن تتمكن من أن تقول شيئا. ولم أجرؤ على أن أنظر إلى الخلف حتى دخلت خلف بعض الأشجار

كانت تقف حيث تركتها تماما، تنظر فى كوب مائها. كنت أظن أن ذلك سوف يمنحنى إرتياحا أكثر مما فعل. كنت أظن أيضا أنها قد تضع حدا لذلك، لكنه استمر. حتى جاءت فاشتى ذات صباح وجلست بجوار النافذة. يوم أحد. كنا نعمل فى رقاع أرضنا يوم الأحد. جلست بجوار النافذة تنظر إلى الخارج. قالت: «لقد عدت. لقد عدت يا جوش. » نظرت فى مؤخر عنقها. كان لها عنق صغير حقا، قررت أن أكسره. تعرف، كما تكسر غصنا صغيرا ـ مجرد أن تقصفه. كنت منحطا لكنه كان أقصى درجة انحطاط وصلت اليها أبدا.

« هل فعلت ؟ قصفت رقبتها؟»

« أه أه. غيرت اسمى. »

« كيف خرجت من هناك؟ كيف وصلت إلى هنا؟»

« القارب. صعودا فى نهر المسيسيبى حتى ممفيس. ومشيت من ممفيس إلى كمبرلاند.»

« فاشتى أيضا؟»

« لا. ماتت. »

« أوه، يارجل. اربط حذاءك الآخر.»

« ماذا ؟»

« اربط حذاءك الملعون ! إنه يجلس أمامك مباشرة! اربطه!»

« هل يريحك ذلك؟»

« لا.» طوح بول د بالزجاجة على الأرض وحدق فى العربة الذهبية على بطاقتها . لاجياد، مجرد عربة ذهبية مكسوة بقماش أزرق .

« قلت إن لدى شيئين لاخبرك بهما. وقد أخبرتك بواحد فقط. علىّ أن أخبرك بالثانى .»

« لا أريد أن أعرف . لا أريد أن أعرف شيئا. فقط إذا كانت جودى ستستضيفنى أم لا.»

« لقد كنت هناك، يابول د .»

« كنت أين؟»

«هناك فى الفناء. عندما فعلتها.»

« جودى؟»

« سيث . »

« ياللمسيح . »

« إنه ليس ماتظن . »

« أنت لاتعرف ماأظن . »

« إنها ليست مخبُولة. فهى تحب أولئك الأطفال. كانت تحاول أن تتفوق على معذبها بتعذيبه أكثر .»

« دعك من هذا .»

« وأن تنشره . »

« ستامب، دعنى وشأنى . كنت أعرفها وهى فتاة. إنها تفزعنى وكنت أعرفها حين كانت فتاة . »

« أنت لست فزعا من سيث . أنا لا أصدقك . »

« سيث تفزعنى. وأنا أفزع نفسى. وتلك الفتاة فى بيتها تسبب لى أشد الفزع . »

« من هى تلك الفتاة؟ من أين جاءت؟»

« لا أدرى . مجرد أنها ظهرت ذات يوم جالسة على جدعة شجرة . »

« هه. يبدو أن أنت وأنا الوحيدان خارج البيت رقم ١٢٤ اللذان أبصراها .»

« إنها لاتذهب إلى أى مكان. أين رأيتها؟»

«نائمة على أرضية المطبخ . اختلستُ النظر اليها . »

« فى أول دقيقة رأيتها فيها لم أرد أن أكون فى أى مكان حولها. شىء غريب يحيط بها . تتكلم كلاما غريبا. تتصرف تصرفات غريبة.» دفع بول د أصابعه تحت قلنسوته ودلك فروة الرأس التى تقع فوق صدعه ثم استطرد قائلا: « تذكرنى بشىء. شىء يبدو أن من المفروض أن أتذكره.»

« ألم تقل أبدا من أين أتت ؟ أين أهلها ؟ »

« هى لا تعرف ، أو تقول إنها لا تعرف . كل ما سمعتها تقوله هو شىء عن سرقة ملابسها والعيش فوق جسر . »

« جسر من أى نوع؟»

« ومن تسأل؟»

« ليس هناك جسور حولنا هنا لاأعرف عنها شيئا. لكن لاأحد يعيش فوقها. أو حتى تحتها. منذ متى وهى تعيش هناك مع سيث . »

« أغسطس الماضى. يوم الكرنفال.»

« تلك علامة سيئة. هل كانت فى الكرنفال؟»

« لا . عندما عدنا، كانت هناك ـ نائمة على جدعة شجرة. وثوب حريرى . حذاء جديد تماما. سوداء بلون النفط. »

« لاتقل. هه. كانت هناك فتاة محبوسة فى البيت مع رجل أبيض بالقرب من ديركريك. وجدوه ميتا فى الصيف الماضى وقد اختفت الفتاة. ربما كانت هى. يقول الناس إنه كان يحتفظ بها هناك منذ أن كانت جروا» .

« حسنا، هى الآن كلبة» .

« هل هى ما دفعك للهرب؟ لا ماقلته لك عن سيث؟»

مرت رجفة خلال بول د. تقلص بارد برودة العظام جعله يقبض على ركبتيه، لم يعرف ما إذا كان الويسكى الردىء، الليالى التى قضاها فى القبو، حمى الخنازير، الشكيمات الحديدية، الديكة الباسمة، الاقدام المحترقة، الموتى الضاحكون، العشب الذى يفح، المطر، زهر التفاح، جواهر الرقبة، جودى فى السلخانة، هال فى

الزبد، الدرجات البيضاء بياض الأشباح، أشجار الكرز البرى، الدبابيس التى تحمل أحجار كريمة منقوشة، أشجار الحور، وجه بول أ، السجق أو فقدان قلب أحمر أحمر .

« قل لى ، ياستامب.» كان عينا بول د ترشحان. «قل لى هذا الشيء الواحد. كم من المفروض أن يتحمل الزنجى؟ قل لى. كم؟»

قال ستامب بيد: «كل مايستطيع . كل مايستطيع».

« لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟»



كان البيت رقم ١٢٤ هادئا. دهشت دنفر، التى كانت تظن أنها تعرف كل شىء عن الصمت، أن تعلم أن الجوع يمكنه أن يفعل ذلك: أن يهدئك وأن ينهكك . لم تكن سيث أو «محبوبة» تعرف شيئا عنه أو تهتم به بشكل أو بآخر. كان أكثر انشغالا باختزان قوتهما من أجل أن تحارب إحداهما الأخرى. ولذلك كان عليها هى أن تخطو خارج حافة العالم وأن تموت لأنها إذا لم تفعل، فإنهم جميعا يموتون . كان اللحم بين سبابة أمها وإبهامها رقيقا مثل الحرير الصينى ولم تكن هناك قطعة من الملابس فى البيت لا تتهدل حولها. كانت «محبوبة» تمسك برأسها بين راحتى يديها، وتنام حيثما تصادف أن تكون، وتنتحب طلبا للحلوى على الرغم من أنها تتضخم وتصبح أكثر امتلاء يوما بعد يوما. كل شىء قد راح ماعدا دجاجتين تضعان بيضا، ولابد أن يتخذ أحد آجلا قرارا ماإذا كانت بيضة واحدة من آن لآخر تساوى أكثر من دجاجتين مقليتين. وكلما ازداد جوعهم، ازدادوا ضعفا، وكلما ازدادوا ضعفا، ازدادوا هدوءا - وهو ماكان أفضل من المناقشات العاصفة، أو ارتطام قضيب اذكاء نار الفرن بالحائط، وكل الصراخ والبكاء الذى تلى لعبهما معا ذات يوم من أيام شهر يناير السعيد. كانت دنفر قد أنضمت إلى اللعب، وهى تكبح نفسها قليلا على غير عادتها، رغم أنه كان أشد لهو عرفته فى حياتها. لكن

ماأن رأت سيث الدبة، التى كانت دنفر تنظر إلى قمتها و « محبوبة » تخلع ثيابها ـ ظل ابتسامة صغيرة مقوس تحت ذقنها فى المكان الذى كانت تدغدغ فيه ـ ماأن رأته سيث وربتته بإصبعها وأغمضت عينيها لفترة طويلة ، حتى استبعد كلاهما دنفر من الألعاب. ألعاب الطبخ، ألعاب الخياطة ، ألعاب الشعر وارتداء الملابس . وهى ألعاب أحبتها أمها كثيرا حتى أنها تعودت على الذهاب إلى العمل أكثر وأكثر تأخيرا حتى حدث ما يمكن التنبؤ به: أخبرها سوير ألا تعود. وبدلا من أن تبحث سيث عن عمل آخر، راحت تلعب بمثابرة أكبر مع «محبوبة» التى لم تكن تشبع من أى شيء: أغانى المهد، غرز جديدة ، قاع طاس الكعكة، قشدة اللبن. وإذا وضعت الدجاجة بيضتين فقط، حصلت على كليهما . بدا الأمر كما لو كانت سيث قد فقدت عقلها، مثل الجدة بيبى وهى تنادى فى طلب لون قرنفلى ولا تقوم بأداء الاشياء التى اعتادت أن تفعلها . لكنها مختلفة لأنها، بخلاف بيبى سجز، استبعدت دنفر نهائيا. حتى الأغنية التى اعتادت أن تغنيها لدنفر راحت تغنيها «لمحبوبة» وحدها : «تواثب إلى أعلى ، يا جونى ، تواثب بعيدا ، يا جونى ، لا تترك مكانك بجانبى ، يا جونى . »

فى أول الأمر لعبن معا. شهرا كاملا وأحبت دنفر ذلك. منذ الليلة التى تزحلقن فيها على الجليد تحت سماء مثقلة بالنجوم وشربن اللبن الحلو بجوار الموقد، إلى ألغاز الخيط التى أدتها سيث لهما فى ضوء العصر، وصور الظل فى الغسق. ورغم أنف الشتاء كانت سيث تصنع خريطة خضروات وزهور ، وعيناها متألقتان تألق الحمى ـ وهى تتحدث وتتحدث عن الألوان التى ستكون عليها. كانت تلعب بشعر دنفر، تضفره ، تنفخه، تربطه ، تدهنه بالزيت

حتى جعل هذا دنفر عصبية وهى تراقبها . كانتا تغيران الأسرة وتتبادلان الملابس. تسيران وقد تشابكت ذراعاهما وتبتسمان طيلة الوقت . وعندما أصبح الجو صحوا ركعا على ركبتيهما فى الفناء الخلفى يضعان تصميما لحديقة فى تراب أصلب من أن يشق. أنفقت الثمانية والثلاثون دولارا من مدخرات العمر على إطعام أنفسهن بطعام مترف وتزيين أنفسهن بشرائط وأقمشة فصلتها . وحاكتها سيث كما لو كن ذاهبات إلى مكان ماعلى عجل. ملابس زاهية الألوان ـ بخطوط زرقاء وأشكال مطبوعة أنيقة. كانت تسير الأميال الأربعة إلى محل جون شيليتو لتشترى شرائط صفراء، أزرارا لامعة وقطعا من الدانتيللا السوداء . وبنهاية شهر مارس بدا ثلاثتهم مثل نساء الكرنفال ليس لديهن مايفعلنه. وعندما أصبح من الواضح أنهن مهتمات فقط بإحداهن الأخرى، بدأت دنفر تنجرف بعيدا عن اللعب، لكنها راحت تراقبه، وهى يقظة لأى علامة على أن «محبوبة» كانت فى خطر. وبعد أن أقتنعت أخيرا أنه لم يكن هناك أى خطر، ورأت أمها سعيدة إلى ذلك الحد، مبتسمة إلى ذلك الحد ـ كيف يمكن أن يحدث شيء خاطىء؟ ـ خففت من حراستها وحدث. كانت مشكلتها فى أول الأمر أن تكتشف من كان المخطىء . كانت عينها على أمها، إنتظارا لعلامة على أن الشيء الذى كان بداخلها قد خرج، وأنها كانت لتقتل ثانية. لكن كانت «محبوبة» هى من تفرض متطلباتها. كانت تحصل على أى شيء تريده، وعندما نفدت الأشياء التى تعطيها سيث لها، أخترعت «محبوبة» الرغبة. كانت تريد صحبة سيث لساعات تراقب فيها طبقة الأوراق البنية وهى تلوح لهن من قاع الجدول، فى نفس المكان الذى كانت دنفر تلعب فيها معها

فى صمت وهى فتاة صغيرة. وماأن أكتمل ذوبان الجليد حتى راجت «محبوبة» تحدق فى وجهها الذى يحدق فيها، وهو يتموج، ينطوى، يتمدد، يختفى فى أوراق الشجر تحتها . كانت تطرح نفسها على الأرض ، فتتسخ خطوط ثوبها الزاهية، وتلمس الأوجه المتأرجحة لوجهها . تملأ سلة بعد سلة بأول الأشياء التى يطلقها الجو الأدفأ فى الأرض - الهندباء البرية، البنفسج، زهرة الفورسيتية - وتقدمها إلى سيث التى كانت ترتبها، تغرزها، وتلفها فى أرجاء البيت كله. كانت تربت جلدها براحة يدها، وهى ترتدى ثياب سيث . راحت تقلد سيث، تتكلم بالطريقة التى تتكلم بها، تضحك ضحكتها وتستخدم جسدها بنفس الطريقة حتى فى طريقة المشى، بالطريقة التى تحرك بها سيث يديها، تتنهد بها من خلال أنفها أو ترفع بها رأسها. وأصبح من الصعب على دنفر أن تتبين واحدة من الأخرى وهى تفاجئهما أحيانا وهما يصنعان كعكات على شكل رجال ونساء أو يثبتان قصاصات من القماش على لحاف بيبى سجز القديم .

ثم تغيرت حالة المزاج وبدأت المناقشات. ببطء فى أول الأمر. شكوى من «محبوبة»، اعتذار من سيث. تقليص فى المتعة التى تأتى من محاولة خاصة تقوم بها المرأة الأكبر سنا. ألم يكن الجو باردا إلى درجة لاتحتمل البقاء فى الخارج؟ كانت «محبوبة» تلقى نظرة تقول: أيه يعنى؟ ألم يتجاوز الوقت موعد النوم، ألم يكن الضوء لايلائم الخياطة؟ لم تكن «محبوبة» تتحرك؛ كانت تقول: «أكملى»، وتوافق سيث. كانت تأخذ أفضل الأشياء - أولا. أفضل كرسى، أكبر قطعة، أجمل طبق، أكثر الشرائط تألقا لشعرها،

وكلما ازدادت الأشياء التى تأخذها،بدأت سيث تتكلم، تفسر، تصف كم عانت ، مامرت به، فى سبيل أطفالها، وهى تهش الذباب فى تعريشات العنب، تزحف على ركبتيها إلى البيت المائل الجدار. لم يكن أى من ذلك يحدث التأثير المفروض أن يحدثه. كانت «محبوبة» تتهمها أنها نسيتها. لم تكن لطيفة معها، لاتبتسم لها. تقول إنهما متشابهتان، لهما نفس الوجه، فكيف أمكنها أن تتركها؟ وسيث تبكى، تقول إنها لم تفعل ذلك أبدا، أو تعنى أن تفعل ذلك - إنها كانت مضطرة إلى إخراجهم بعيدا، إنها كان لديها اللبن طوال الوقت والمال أيضا للشاهد وإن لم يكن كافيا. إن خطتها كانت دائما أن يكونوا معا فى الجانب الآخر، إلى الأبد. لم تبد «محبوبة» اهتماما. كانت تقول حين تبكى إنه لم يكن هناك أحد. إن رجالا موتى كانوا يقتلونها. إنها لم يكن لديها ماتأكله. أن أشباحا بلا جلود كانوا يدسون أصابعهم فيها ويقولون محبوبة فى العتمة وعاهرة فى الضوء. وكانت سيث تلتمس الصفح، تعدد، تعد قائمة مرة بعد مرة بالاسباب التى دفعتها: أن «محبوبة» كانت أكثر أهمية، تعنى بالنسبة لها أكثر من حياتها. أنها كانت لتقايض مكانيهما فى أى يوم. أن تتخلى عن حياتها، كل دقيقة وساعة فيها، لتسترد مجرد دمعة من دموع «محبوبة» . هل كانت تعلم أنها تتألم عندما كان البعوض يلدغ طفلتها؟ أن تركها لها على الأرض لتعدو إلى البيت الكبير كان يدفعها إلى الجنون؟ أن «محبوبة» كانت تنام على صدرها كل ليلة قبل رحيلها عن سويت هوم أو تلتف حول ظهرها؟ أنكرت «محبوبة» هذا. لم تأت سيث اليها ، لم تقل لها كلمة ، لم تبتسم أبدا وأسوأ من كل

هذا لم تلوح لها وداعا أو حتى تنظر اليها قبل هروبها منها .

وحين حاولت سيث مرة أو مرتين أن تؤكد ذاتها ـ أن تكون الأم التى لاتسأل والتى كانت كلمتها قانونا والتى كانت تعرف الصالح ـ كانت «محبوبة» تصفق الأشياء ببعضها تنظف المائدة من الاطباق ، ترمى الملح على الأرض ، تكسر زجاج نافذة .

لم تكن مثلهما. كانت طريدة برية، ولم يقل أحد، أخرجى من هنا، يابنت، وعودى حين تكتسبين بعض الادراك. لم يقل أحد، أنت ترفعين يدك فى وجهى وسوف أطيح بك إلى منتصف الأسبوع القادم. أقطع جذع الشجرة بالفأس. تموت الأطراف. أكرم أباك وأمك حتى تطول أيامك على الأرض التى وهبها لك الرب إلّهك . سوف ألفك حول مقبض الباب، ألا يعمل أحد من أجلك والله لايحب الطرق القبيحة .

لا، لا. كن يصلحن الأطباق ، يكنسن الملح، وشيئا فشيئا أشرق فى عقل دنفر أنه إذا لم تستيقظ سيث ذات صباح وتلتقط سكينا، فإن « محبوبة » قد تفعل ذلك. وعلى الرغم من ذعرها من ذلك الشىء فى سيث الذى يمكن أن يخرج ، إلا أنها أحست بالخجل من رؤيتها لأمها وهى تخدم فتاة لم تكن تكبرها بكثير. وعندما كانت تراها تحمل دلو «محبوبة» الليلى إلى الخارج. كانت دنفر تهرع لتريحها منها. لكن الألم لم يعد محتملا حين نفد الطعام، ودنفر تراقب أمها تروح وتغدو بلا طعام. تلتقط الفتات من على حواف المائدة والموقد: جريش الذرة الذى التصق بالقاع، كسرات الخبز وقشور الأشياء. وذات مرة رأتها تدس أطول أصابعها فى

جرة مربى فارغة قبل أن تغسلها وتضعها فى الخزانة.

تعبن، حتى «محبوبة» التى كانت تتضخم بدت رغم هذا مرهقة مثلهما . لكنها على أى حال استبدلت الزمجرة أو مص الأصابع بالتلويح بقضيب إذكاء النار وأصبح البيت رقم ١٢٤ هادئا. رأت دنفر، وهى فاترة الهمة وناعسة من الجوع، اللحم بين سبابة أمها وإبهامها يذوى. رأت عينى سيث متألقتين لكنهما ميتتين، يقظتين لكن خاويتين، وهى تهتم بكل ماحول «محبوبة» - كفيها بلا خطوط، وجبهتها والابتسامة تحت فكها ملتويتين وأطول من اللازم - كل شيء ماعدا بطنها الممتلىء. رأت أيضا أكمام بلوزتها تغطى أصابعها؛ وحاشية ثوبها التى كانت تظهر كاحليها يوما ماتكنس الأرضية. رأت أنفسهن هزيلات، مطروحات أرضا، عرجاوات وجوعانات لكنهن مرتبطات بحب ينهك الجميع. ثم بصقت سيث شيئا لم تأكله وهز ذلك كيان دنفر كأنه طلقة رصاص. تغيرت المهمة التى بدأت بها، حماية «محبوبة» من سيث، إلى حماية سيث من «محبوبة».بدأ الآن واضحا أن أمها من الممكن أن تموت وتتركهما وماذا كانت «محبوبة» لتفعل عندئذ؟ ومهما كان مايحدث، فإن الأمر كان يتطلب ثلاث - اثنتين - ولما كانت «محبوبة» وسيث لا تكترثان بما يأتى به اليوم التالى (فسيث سعيدة حين تكون «محبوبة».سعيدة؛ و«محبوبة» تلعق الاخلاص مثلما تلعق القشدة)، فقد عرفت دنفر أن العبء يقع عليها. كان عليها أن تغادر الفناء؛ أن تخطو خارج حافة العالم، أن تترك الاثنتين خلفها وأن تذهب لتسأل شخصا ما العون.

من يكون؟ من كان بإمكانهما أن تقف أمامه فلا يشعرها بالخزى عندما يعلم أن أمها كانت تجلس بالبيت مثل دمية من خرق ، معطلة أخيرا من محاولة الرعاية والتعويض . كانت دنفر تعرف عن عديد من الناس، من سماع حديث أمها وجدتها. لكنها كانت تعرف شخصيا اثنين فقط: رجلا عجوزا ذا شعر أبيض يدعى ستامب . وليدى جونز. حسنا، بول د. بالطبع . وذلك الصبى الذى أخبرها عن أمها. لكنهم غير ذى نفع على الاطلاق. دق قلبها واحست بيرقان فى حلقها جعلها تبتلع لعابها كله. لم تكن حتى تعرف إلى أين تذهب. عندما كانت سيث تعمل فى المطعم وعندما كان مايزال لديها مال للتسوق، كانت تنحرف يمينا. وفيما مضى عندما كانت دنفر تذهب إلى مدرسة ليدى جونز، كانت تتجه يسارا .

كان الجو دافئا واليوم جميلا. كان ابريل وكل شىء حى ومؤقت . لفت دنفر شعرها وكتفيها . وقفت فى شرفة البيت رقم ١٢٤ مستعدة لأن يبتلعها العالم فيما وراء حافة الشرفة، وهى ترتدى أزهى ثياب الكرنفال وحذاء أحد الغرباء . هناك بالخارج حيث الأشياء الصغيرة تخدش وأحيانا تمس. حيث يمكن أن تقال كلمات تجعل أذنيك تنغلقان . حيث يتملكك الشعور، إن كنت وحدك، ويلتصق بك مثل ظل. هناك بالخارج حيث توجد أماكن حدثت فيها أشياء سيئة للغاية حتى أنك لو أقتربت منها لحدثت مرة أخرى. مثل سويت هوم حيث لم يكن الزمن يمر وحيث كان السوء ينتظرها أيضا، كما قالت أمها. كيف تعرف هذه الأماكن؟ وأكثر من هذا ـ أكثر بكثير ـ هناك حيث يوجد البيض وكيف يمكننك أن

تدركهم؟ كانت سيث تقول من الفم وأحيانا من اليدين . وقالت الجدة بيبى إنه لم تكنْ هناك حماية ـ كان بإمكانهم أن يجوسوا كيفما يشاءون ، ويبدلوا رأيا برأى، وحتى حين يظنون أنهم يتصرفون بلياقة، كان هذا أبعد مايكون عما يفعله البشر الحقيقيون.

ذات مرة قالت سيث لبيبى سجز : «لقد أخرجونى من السجن.»

أجابتها: « ووضعوك فيه أيضا . »

« لقد عبروا بك النهر . »

« على ظهر ابنى . »

« أعطوك هذا البيت . »

«لم **يعطنى** أحد شيئا.»

« حصلت على وظيفة منهم . »

« لديه طباخ منهم، يافتاة . »

« أوه ، بعضهم يحسنون معاملتنا . »

« وكل مرة تثير الدهشة، أليس كذلك ؟»

« لم تتعودى أن تتكلمى بهذا الأسلوب . »

« لا تلاكمينى . لقد أغرقوا منا أكثر ممن عاش منهم جميعا من بدء الزمن . القى سيفك . فليست هذه معركة إنها هزيمة منكرة . »

وقفت دنفر فى الشرفة فى الشمس ولم تستطيع أن تغادرها، وهى تتذكر تلك الأحاديث وكلمات جدتها الأخيرة والنهائية . شعرت بحكة فى حلقها؛ دق قلبها ـ ثم ضحكت بيبى سجز ضحكة صافية كل الصفاء، «تعنين أننى لم أخبرك بشى أبدا عن كارولينا؟ عن أبيك ؟ ألا تذكرين شيئا عن كيف أصبحت أسير هكذا. وعن قدمى أمك، ناهيك عن ظهرها؟ ألم أخبرك بكل شىء؟ هل هذا هو السبب فى أنك لايمكنك هبوط الدرج؟ ياالّهى .»

لكنك قلت إنه ليست هناك حماية .

« ليس هناك » .

إذن ماذا أفعل؟

« أعرفيه ، وأذهبى إلى خارج الفناء. هيا أذهبى» .

●●●

عاد اليها. مضي اثنا عشر عاما وعاد الطريق. إلى اليمين أربعة بيوت ، تقف معا متجاورة فى صف واحد كأنها طيور صغيرة. البيت الأول له درجتان وكرسى هزاز فى الشرفة؛ الثانى له ثلاث درجات ومقشة مسندة إلى عمود الشرفة، وكرسيان مكسوران وأجمة من شجيرات الفورسيتية على الجانب. لانافذة فى الواجهة. كان هناك ولد صغير يجلس على الأرض يمضغ عصا. كان للبيت الثالث مصاريع صفراء على نافذتيه الأماميتين وأصيص بعد أصيص من أوراق خضراء ذات قلوب بيضاء أو حمراء. كان بوسع دنفر

أن تسمع الدجاج وارتطام بوابة ذات مفصلات سيئة. عند البيت الرابع كانت براعم شجرة الجميز قد تساقطت على السطح وجعلت الفناء يبدو.كما لو كان العشب ينمو هناك. رفعت أمرأة تقف عند الباب المفتوح يدها إلى منتصف المسافة بالتحية، ثم جمدتها عند كتفها وهى تميل إلى الأمام لترى لمن كانت تلوح. طأطأت دنفر رأسها. بعد ذلك كانت هناك رقعة أرض صغيرة مسورة بها بقرة. تذكرت الرقعة ولم تتذكر البقرة. تحت غطاء رأسها كانت فروة رأسها مبللة من التوتر . فيما وراءها انسابت أصوات، أصوات ذكور، تقترب منها مع كل خطوة تخطوها . احتفظت دنفر بعينيها على الطريق تحسبا من أن يكونوا بيضا؛ تحسبا من أن تنقاد خطواتها إلى حيث يريدون هم أن يسيروا؛ تحسبا من أن يقولوا شيئا ويكون عليها أن تجيبهم. ماذا لو انقضوا عليها، وأمسكوا بها، وقيدوها. كانوا يقتربون أكثر . ربما ينبغى عليها أن تعبر الشارع ـ الآن. هل كانت المرأة التى لوحت لها نصف تلويحة ما تزال بالباب المفتوح؟ هل كانت لتخف إلى نجدتها، أو تمسك عنها مساعدة لأنها غاضبة من أن دنفر لم ترد عليها تلويحها؟ ربما يحسن بها أن تستدير، وأن تقترب من بيت المرأة. وقبل أن تحزم أمرها، كان الوقت قد فات ـ كانوا أمامها تماما. رجلان، زنجيان. تنفست دنفر الصعداء. لمس الرجلان قلنسويتهما وهمهما: « صباح الخير. صباح الخير».اعتقدت دنفر أن عينيها نطقتا بالعرفان لكنها لم تفتح فمها فى الوقت المناسب لترد. تحركا عن يسارها وواصلا طريقهما .

شجعها هذا اللقاء غير المنتظر وشد أزرها، فدبت فيها

السرعة وبدأت تنظر بترو إلى الناحية التى تحيط بها، أصابتها صدمة وهى ترى كم كانت الأشياء الكبيرة صغيرة: كانت الصخرة الضخمة التى تقوم على حافة الطريق والتى لم يكن باستطاعتها أن ترى ماوراءها صخرة للجلوس عليها. الممرات المؤدية إلى المنازل لم تكن أميالا فى طولها. لم تبلغ الكلاب حتى ركبتيها. كانت الحروف التى حفرها عمالقة فى أشجار الزان والبلوط على مستوى النظر الآن.

كانت لتعرفه فى أى مكان. السور المصنوع من أعمدة وخشب فضالة رصاصى الآن، وليس أبيض، لكنها كانت لتعرفه فى أى مكان. الشرفة الحجرية الواقعة وسط حاشية من اللبلاب؛ الستائر الصفراء الباهتة على النوافذ؛ الممر المكسو بطوب أحمر والذى يؤدى إلى الباب الأمامى وألواح الخشب التى تحيط به وتؤدى إلى الباب الخلفى، وتمر تحت النوافذ حيث وقفت على أطراف أصابع قدميها لترى فوق حافتها. كانت دنفر على وشك أن تفعل ذلك مرة أخرى، عندما أدركت كم كان سخيفا أن يعثر عليها أحد وهى تحدق مرة ثانية فى بهو مسز ليدى جونز. تبخر السرور الذى داخلها لعثورها على البيت وتحول فجأة إلى شك. ماذا لو لم تعد تعيش هناك؟ أو تتذكر تلميذتها السابقة بعد كل هذا الوقت؟ ماذا كانت لتقول؟ أصابت دنفر رجفة داخلية، ومسحت العرق من على جبهتها وطرقت الباب.

ذهبت ليدى جونز إلى الباب وهى تتوقع بعض الزبيب. ربما كان طفلا، من نعومة الطرقة، ارسلته أمه بالزبيب الذى كانت تحتاج اليه اذا كان أسهامها فى العشاء يستحق العناء. سوف

يكون هناك أى عدد من الكعكات السادة ، وفطائر البطاطس. فقد تطوعت على مضض بطبقها الخاص الذى ابتكرته، لكنها قالت إنها لم يكنْ لديها زبيب، وهكذا قررت الرئيسة أن توفر لها الزبيب ـ فى وقت مبكر كاف حتى لاتكون هناك أعذار. وكانت مسز جونز تأمل أن تكون قد نسيت، فهى تخشى تعب خفق اللبن المخضوض والبيض. وقد ظل فرن الخبيز الخاص بها بارداً طوال الأسبوع ـ وسوف يكون الوصول به إلى الحرارة الصحيحة مريعاً. فمنذ مات زوجها وأعتمت عيناها، كانت قد تركت تدبير شئون البيت يتضاءل. كان لها رأيان فى خبز شىء للكنيسة. فمن ناحية ، تريد أن تذكر الجميع بما تقدر على عمله فيما يختص بالطبخ؛ ومن ناحية أخرى ، لم تكن تريد أن تضطر الى ذلك. وعندما سمعت الطرق على الباب تنهدت وذهبت اليه وهى تأمل أن يكون الزبيب على الأقل قد غسل .

كانت أكبر سنا ، بالطبع ، وترتد ثيابا مثل سنجاب ، لكن ليدى جونز تعرفت على الفور على الفتاة. كان طفل كل واحد مرسوما على ذلك الوجه : العينان المستديرتان استدارة السنتات الخمسة ، جريئة لكنها متشككة ؛ الأسنان الكبيرة القوية بين شفتين سمراوين منحوتتين لايغطيانها، وعبر أرنبة الأنف، فوق الأجنتين كانت تكمن بعض القابلية للأذى. ثم الجلد. بلاعيب، ومقتصد - مايكفى منه لتغطية العظم بلا أدنى زيادة. لابد أنها تبلغ الآن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، هكذا ظنت ليدى جونز وهى تنظر إلى الوجه الحدث إلى درجة أن يبدو فى الثانية عشرة. حاجبان كثيفان، رموش طويلة ، ونداء الحب الجلى الذى كان

يتألق حول الأطفال حتى يكتشفوا الحياة .

قالت : « ياالله ، يادنفر . لقد كَبرت . »

كان على ليدى جونز أن تمسك بيدها وأن تجذبها للداخل، لأن الابتسامة كانت فيما يبدو كل ما أمكن للفتاة أن تفعله . كان الآخرون يقولون إن هذه الطفلة بسيطة، لكن ليدى جونز لم تصدق هذا أبدا. كانت تعرفها معرفة أفضل، بعد أن علمتها، وراقبتها وهى تلتهم صفحة ، قاعدة، رقما. وعندما توقفت فجأة عن المجيء، ظنت ليدى جونز أن السبب هو السنتات الخمسة.اقتربت ذات يوم من الجدة الجاهلة فى الطريق، وهى واعظة فى الغابة كما تعمل بإصلاح الأحذية، وأخبرتها أنه لايهم إذا كانت مدينة لها بمال . وقالت المرأة إن الأمر لم يكن كذلك؛ فالفتاة صماء، وظلت ليدى جونز تظن أنها ماتزال صماء حتى قدمت لها مقعدا وسمعت دنفر ذلك .

« لطيف منك أن تأتى لزيارتى. ما الذى جاء بك .»

لم تجب دنفر .

« حسنا، لايحتاج المرء إلى سبب للزيارة. دعينى أصنع لك بعض الشاى .»

كانت ليدى جونز مهجّنة عينان رماديتان وشعر أشقر صوفى، تكره كل شعره منه وإن كانت لاتدرى ما الذى تكرهه اللون أو النسيج . كانت قد تزوجت أسوء رجل يمكنها العثور عليه ، ورزقت بخمسة أطفال من ألوان قوس قزح وأرسلتهم جميعا إلى

ويلبرفورس، بعد أن علمتهم كل ماتعرفه مع الآخرين الذين كانوا يجلسون في بهوها. وقد رشحها جلدها الخفيف اللون لمدرسة فتيات ملونات عادية في بنسلفانيا وردت الدين بتعليم من لم يقع عليهم الاختيار. علمت الأطفال الذين كانوا يلعبون في التراب حتى يصبحوا كبارا بما يكفي لأن يقوموا بأداء الأعمال. كان لسكان سنسناتي الملونون جبانتان وست كنائس، ولكن لما لم يكن هناك مدرسة أو مستشفى مضطرة إلى خدمتهم، فإنهم كانوا يتعلمون ويموتون في بيوتهم. آمنت في أعماقها بأن العالم كله (بما في ذلك أطفالها)، فيما عدا زوجها، كان يزدريها ويزدري شعرها. ظلت تسمع «كل ذلك الشعر الأشقر الذي ذهب هباء» و «زنجية بيضاء» منذ كانت فتاة في بيت حافل بأطفال سود بلون الطمي، ولذلك كرهت الجميع قليلا لأنها اعتقدت أنهم يكرهون شعرها. وبذلك التعليم المسجل والمركز بإحكام، استغنت عن الضغينة، كانت مهذبة مع الجميع بلا تمييز، تدخر عاطفتها الحقيقية لأطفال سنسناتي الذين لم يقع عليهم الاختيار، الذين كانت واحدة منهم تجلس أمامها وهي ترتدي ثوبا صارخا يتضاءل معه لون المقعد المطرز بالابرة.

«سكر؟»

«نعم. أشكرك.» شربته دنفر عن آخره.

«مزيد من الشاي؟»

«لا، ياسيدتي.»

«هاك هيا.»

« نعم ، يا سيدتى » .

« كيف حال عائلتك ، ياعزيزتى ؟»

توقفت دنفر فى منتصف جرعة. ليس هناك من سبيل إلى أن تخبرها كيف كانت عائلتها ، ولذلك قالت ماكان يشغل عقلها .

« أريد عملا، يامس ليدى .»

« عمل؟»

« نعم، ياسيدتى . أى شىء» .

ابتسمت ليدى جونز. «ماذا يمكنك أن تعملى».

«لايمكننى أن أعمل شيئا، لكن بإمكانى أن أتعلم من أجلك إذا كان لديك أى عمل إضافى .»

« إضافى؟»

« طعام. أمى ليست فى حالة صحية جيدة .»

قالت مسز جونز: «أوه، ياطفلتى. أوه، يا طفلتى .»

رفعت دنفر عينيها اليها. لم تعرف عندئذ ، لكن كلمة «ياطفلتى» التى قيلت بنعومة وبمثل هذا الحنان دشنت حياتها فى العالم كأمرأة. كان الطريق الذى سلكته لتصل إلى ذلك المكان العذب الشائك مصنوعا من قصاصات ورق تحتوى أسماء الآخرين المدونة بخط اليد. أعطتها ليدى جونز بعض الأرز، أربع بيضات وقليلا من الشاى. هل يمكنها أن تؤدى أعمالا فى الصباح؟ أخبرتها ليدى جونز أن لاأحد، لاهى، ولا أى واحد تعرفه،

بإمكانه أن يدفع أى شيء لأى شخص عن عمل يقومون به هم أنفسهم «لكن إذا كان كل ماتحتاجينه حتى تستعيد أمك عافيتها هو الطعام، فعليك فقط أن تقولى هذا .» وذكرت لجنة كنيستها التى أنشئت حتى لا يجوع أحد . هز ذلك ضيفتها التى قالت : «لا،لا» كما لو كان طلب المعونة من أغراب أسوأ من الجوع. ودعتها ليدى جونز وطلبت منها أن تعود فى أى وقت. «أى وقت على الإطلاق.»

بعد ذلك بيومين وقفت دنفى فى الشرفة ولاحظت شيئا موضوعا على جدعة الشجرة على حافة الفناء. ذهبت لتلقى نظرة ووجدت جوالا من الفاصوليا البيضاء. ومرة أخرى طبقا من لحم الأرانب البارد. وذات صباح كانت هناك سلة بيض. عندما رفعتها، رفرفت قصاصة ورق إلى أسفل. التقطتها ونظرت اليها. كان اسم « م. لوسيل ويليامز» مكتوبا بحروف كبيرة ملتوية. وعلى الظهر كان هناك نقطة عجين من ماء ودقيق. وهكذا قامت دنفر بزيارة ثانية إلى العالم خارج الشرفة، على الرغم من أن كل قالته حين أعادت السلة كان : «أشكرك».

قال م. لوسيل ويليامز : « على الرحب والسعة »

ومن آن لآخر، خلال الربيع كله، كانت أسماء تظهر قريباً من هدايا الطعام أو بداخلها . من الواضح أنها كانت من أجل إعادة الوعاء أو الطبق أو السلة ؛ ولكن أيضا لتعلم الفتاة ، إذا كانت حريصة على ذلك، من المتبرع ، لأن بعض الطرود كانت ملفوفة فى ورق، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك ما تعيده، إلا أن الاسم كان هناك رغم ذلك. حمل كثير منها حرف « س » مع تصميمات

فنية حوله، وحاولت ليدى جونز أن تحدد صاحب الطبق أو الوعاء أو المنشفة . عندما كانت لا تستطيع إلا التخمين ، كانت دنفر تتبع توجيهاتها وتذهب لتقول شكرا على أى حال ـ سواء كان ذلك المحسن الصحيح أم لا. وعندما تخطىء ، ويقول الشخص: «لا، يا حبيبتى . ليست هذه منشفتى . منشفتى لها دائرة زرقاء عليها ،» يدور حديث قصير. كان الجميع يعرفون جدتها بل إن بعضهم رقصوا معها فى الساحة الخالية . تذكر آخرون الأيام التى كان البيت رقم ١٢٤ فيها محطة على الطريق، المكان الذى يتجمعون فيه لتلقى أخبار، لتذوق حساء ذيل الثور، لترك أطفالهم، لقص تنورة. تذكر أحدهم الشراب المقوى الذى مزج هناك وشفى قريبا له. أراها أحدهم حاشية كيس وسادة، أعضاء تذكير زهورها الزرقاء الشاحنة التى عقدت فى مطبخ بيبى سجز على ضوء مصباح الجاز أثناء مناقشة رسم الاستيطان. تذكروا الحفل الذى قُدم فيه اثنا عشر ديكا روميا وأحواض استحمام من عصير الفراولة. قالت واحدة إنها لفت دنفر عندما كان عمرها يوما واحد وقصت حذاء ليناسب قدمى أمها المدمرتين . ربما كانوا آسفين لها. أو من أجل سيث. ربما كانوا آسفين لسنوات ازدرائهم لها . ربما كانوا مجرد ناس لطاف أمكنهم أن يحتفظوا بدناءتهم تجاه أحدهم الآخر لفترة فقط وعندما انطلق العناء بينهم على فرس غير مسرج، فعلوا بسرعة وبساطة ما بوسعهم حتى يوقعوه. بدا لهم، على أية حال، أن الكبرياء الشخصى، والادعاء الصلف الذى رابطوا به عند البيت رقم ١٢٤ ، قد بلغ مداه . تهامسوا . طبعا ، تساءلوا ، هزوا رءوسهم . بل إن بعضهم ضحك بغير تحفظ على ملابس دنفر الخليعة ، لكن هذا لم يمنعهم من الاهتمام بما إذا

كانت دنفر قد أكلت . ولم يضع حدا للسرور الذى كان يداخلهم لدى سماع قولها الناعم، «أشكرك» .

كانت مرة على الأقل كل اسبوع تزور ليدى جونز، التى تهم بإعداد رغيف بالزبيب خصيصا لها . كانت دنفر مصممة على الأشياء الحلوة. أعطتها كتاب آيات انجيلية وأنصتت اليها وهى تغمغم بالكلمات أو تصيح بها. وبحلول شهر يونيو كانت دنفر قد استظهرت كل الصفحات الأثنتين والخمسين ـ صفحة لكل أسبوع من السنة .

وكما تحسنت حياة دنفر الخارجية ، ساءت حياتها المنزلية. فلو أن البيض فى سنسناتى قد سمحوا بدخول الزنوج فى مستشفى الأمراض العقليلة الخاصة بهم لوجدوا مرشحات فى البيت رقم ١٢٤. أما وقد استعدن قوتهن بفضل هدايا الطعام ، الذى لم تتساءل سيث أو «محبوبة» عن مصدره، فقد وصلت النساء إلى هدنة يوم دينونة وضع تصميمها الشيطان. كانت «محبوبة» تجلس فى أرجاء البيت، تذهب من سرير إلى سرير. أحيانا تصرخ: «مطر! مطر!» وتخدش حنجرتها حتى تتفتح هناك يواقيت دم، يجعلها جلدها الداكن أشد لمعانا. عندئذ كانت سيث تصيح: «لا!» وتقلب الكراسى لتصل اليها وتمسح الجواهر. وفى أحيان أخرى كانت «محبوبة» تتكور على الأرض، رسغاها بين ركبتيها، وتظل كذلك لساعات . او قد تذهب إلى الجدول ، تغمس قدميها فى الماء وتنثره إلى أعلى ساقيها . وبعد ذلك تذهب إلى سيث، وتمرر أصابعها على أسنان المرأة والدموع تنزلق من عينيها السوداوين الواسعتين. عندئذ كان يبدو لدنفر أن الأمر قد انتهى: «محبوبة»

تبدو وهى تميل فوق سيث كأنها الأم، وسيث الطفلة التى تطلع أسنانها ، فبخلاف تلك المرات التى تحتاج إليها فيها دنفر ، كانت سيث تحبس نفسها فى كرسى بالركن. وكلما ازدادت «محبوبة» تضخما ، تضاءلت سيث حجما؛ وكلما ازدادت عينا «محبوبة» تألقا، أصبحت تلكما العينان التى لم تكن تلتفت أبدا شقوقا من الأرق. لم تعد سيث تمشط شعرها أو تنثر الماء على وجهها. كانت تجلس فى الكرسى تلعق شفتيها كأنها طفلة مؤنبة فى حين راحت «محبوبة» تلتهم حياتها، تمتصها، تتضخم بها، تزداد طولا وعليها . وكانت المرأة الأكبر سنا تتخلى عنها بلا همهمة .

كانت سيث تقوم على خدمتهما . تغسل ، تطبخ ، ترغم أمها وتتملقها لتأكل قليلا بين الحين والآخر، وتوفر «لمحبوبة» أشياء حلوة كثيرا، ماأمكنها، لتهدئها. كان من العسير معرفة ماقد تفعله من دقيقة لأخرى. وعندما تشتد الحرارة، قد تتجول فى البيت عارية أو ملتفة فى ملاءة، وبطنها بارز مثل بطيخة فازت بجائزة .

ظنت دنفر أنها تفهم الرابطة التى تجمع بين أمها و«محبوبة»: كانت سيث تحاول أن تعوض عن المنشار؛ و « محبوبة » تجعلها تدفع الثمن. ولكن دون أن تكون لذلك نهاية أبدا، وتملكها الخزى والغضب وهى ترى أمها قد تضاءلت. ومع ذلك فقد كانت تعرف أن خوف سيث الأعظم هو نفس الخوف الذى تملك دنفر فى البداية - أن ترحل « محبوبة . » أن ترحل « محبوبة » قبل أن تستطيع سيث أن تجعلها تفهم مايعنيه الأمر - ماتطلبه أن تجر أسنان المنشار تحت الذقن الصغيرة؛ أن تشعر بدم الطفلة يضخ مثل النفط

فى يديها؛ أن تمسك برأسها حتى تبقى الرأس؛ أن تعتصرها حتى يمكنها امتصاص تقلصات الموت التى انطلقت فى ذلك الجسد المعبود، وهو ممتلىء بالحياة وعذب أن ترحل قبل أن تتمكن سيث من أن تجعلها تدرك أن أسوأ من هذا ـ أسوأ بكثير ـ هو ما ماتت بيبى سجز به، ماعرفته ايللا، مارآه ستامب وماجعل بول د يرتجف . أن أى أبيض كان بإمكانه أن يأخذ حياتك كلها مقابل أى شىء يخطر على باله. لا مجرد أن يستخدمك أويقتلك أو يشوهك بل أن يوسخك . أن يوسخك بشكل سىء حتى لايمكنك أن تكونى نفسك بعدها. وعلى الرغم من أنها هى وآخرين تمكنوا من البقاء على قيد الحياة وتغلبوا على هذا، إلا أنها كان لايمكنها أن تدعه يحدث لأطفالها أبدا. أن أفضل مافيها هو أطفالها. قد يوسخها البيض تماما، لكن ليس أفضل شىء لديها، أفضل شىء جميل وسحرى ـ الجزء النظيف منها. لا أحلام لايمكن الحلم بها عما إذا كان الجذع الذى بلا رأس ولا أقدام المتدلى من الشجرة كان زوجها أو بول أ ؛ ما إذا كانت ابنتها ضمن الفتيات الممتلئات بالحرارة فى حريق مدرسة الملونين الذى أشعله الوطنيون ؛ ما إذا أقتحمت عصابة من البيض أجزاء ابنتها الخاصة، ووسخوا سيقان ابنتها وألقوا بابنتها من العربة. قد تضطر هى إلى العمل فى فناء السلخانة ، لكن ابنتها لا .

ولا أن يدون أى واحد، أى واحد على ظهر هذه الأرض، صفات ابنتها على الجانب الحيوانى من الورقة . لا. أوه لا . ربما كان بوسع بيبى سجز أن تقلق بشأن هذا، أن تعايش احتمال حدوثه، فقد رفضت سيث ـ وكانت ماتزال ترفض .

سمعتها دنفر تقول هذا وأكثر من هذا بكثير من كرسيها فى الركن، وهى تحاول أن تقنع «محبوبة»، الشخص الواحد والوحيد الذى كان عليها أن تقنعه بأن مافعلته كان صحيحا لأنه جاء من حب حقيقى.

كانت «محبوبة»، بقدميها السمينتين الجديدتين المسندتين إلى قاعدة كرسى أمام الكرسى الذى تجلس فيه ويديها اللتين لا تحملان خطوطا، المستقرتين على معدتها، تنظر اليها. لاتفهم شيئا سوى أن سيث كانت المرأة التى أخذت وجهها، وتركتها رابضة فى مكان مظلم مظلم، ونسيت أن تبتسم.

ولما كانت دنفر ابنة أبيها فى آخر الأمر، فقد قررت أن تقوم بعمل اللازم. قررت أن تكف عن الاعتماد على كرم يتمثل فى ترك شىء على جدعة الشجرة. سوف تعمل لقاء أجر فى مكان ما، ورغم أنها كانت تخشى ترك سيث و«محبوبة» وحدهما طوال اليوم وهى لاتعلم أية كارثة قد تخلقها أية واحدة منهما، إلا أنها أدركت أن وجودها فى ذلك المنزل لم يكن له أى تأثير على ماتفعله أى من المرأتين. كانت تبقيهما أحياء وكانتا تتجاهلانها. تدمدمان متى شاءا؛ تتجهمان، تفسران، تطلبان، تتأتآن، تقعيان، تبكيان وتستفزان أحداهما الأخرى إلى حافة العنف، ثم ينتهى كل شىء. وقد بدأت تلاحظ أن سيث حتى حين تكون هادئة، حالمة، مهتمة بأمورها هى، كانت تستفزها ثانية. فتروح تهمس، تغمغم «المحبوبة» ببعض التبرير، ببعض المعلومات التى توضح وتفسر كيف كان الأمر، ولماذا وكيف حدث. بدا الأمر كما لو كانت سيث لاتريد الصفح حقا؛ بل تريد رفض الصفح. وساعدتها

«محبوبة» على ذلك .

كان لابد من انقاذ أحد، ولكن مالم تذهب دنفر إلى العمل، فلن يكون هناك من تنقذه ، من تعود للبيت اليه ، ولا حتى دنفر . كان خاطرا جديدا، أن يكون لها ذات تحرص وتحافظ عليها. ولم يكن هذا ليخطر لها مالم تلتق بنيسون لورد وهو يغادر بيت جدته ودنفر تدخل لتوجه شكرها على نصف فطيره. كان كل مافلعه هو أن ابتسم وقال : « أعتنى بنفسك ، يا دنفر . » لكن ما قاله بدا كما هو كان هذا ماصنعت من أجله اللغة . فآخر مرة خاطبها فيها أوصدت كلماته أذنيها . والآن فتحت عقلها. وبينما كانت تجتث الحشائش من الحديقة، تنتزعُ الخضروات ، تطبخ، تغسل، وضعت خطة لما تفعله الآن. الاحتمال الأكبر أن يقدم لها آل بودوين العون حيث أنهم فعلوا ذلك مرتين. مرة لبيبى سجز ومرة لامها. فلم لايفعلون ذلك للجيل الثالث أيضا؟

تاهت فى شوارع سنسناتى مرات كثيرة ولم تصل قبل منتصف النهار ، على الرغم من أنها بدأت رحلتها عند شروق الشمس. كان البيت يقع بعيدا عن الرصيف بنوافذ كبيرة تطل على شارع صاخب ملىء بالحركة. قالت المرأة التى فتحت الباب الأمامى: «نعم؟»

« هل يمكن أن أدخل؟»

« ماذا تريدين؟»

« أريد أن أرى مستر ومسز بودوين . »

« مس بودوين فهما أخ وأخت . »

« أوه. »

« ماذا تريدين منهما ؟ »

« أنا أبحث عن عمل ، وكنت أفكر أنهما قد يعرفان شيئا . »

« أنت قريبة بيبى سجز، أليس كذلك؟ »

« بلى ، ياسيدتى . »

« ادخلى أنت تدعين الذباب يدخل.» قادت دنفر إلى المطبخ، وهى تقول : « أول ما يجب أن تعرفيه هو أى باب تطرقين . » لكن دنفر سمعتها نصف سماع فقط لأنها تخطو على شىء ناعم وأزرق. كل ماحولها سميك، ناعم وأزرق. خزانات زجاجية مليئة بأشياء لامعة. كتب على المناضد والرفوف. مصابيح فى بياض اللؤلؤ ذات قواعد معدنية لامعة. ورائحة مثل الكولونيا التى كانت تصبها فى البيت الزمردى ، وإن كانت أفضل .

قالت المرأة: « اجلسى . هل تعرفين اسمى ؟ »

« لا ، ياسيدتى . »

« جانى . جانى واجون . »

« كيف حالك؟ »

« لا بأس . سمعت أن أمك مريضة ، هل هذا صحيح ؟ »

« نعم ، ياسيدتى . »

« من يعتنىْ بها ؟ »

« أنا . لكن علىّ أن أجد عملا . »

ضحكت جانى: «هل تعرفين ؟ لقد ظللت هنا منذ أن كنت فى الرابعة عشرة، وأذكر كما لو كان بالأمس حين جاءت بيبى سجز التقية إلى هنا وجلست حيث أنت جالسة تماما. أحضرها الرجل الأبيض وكان ذلك كيف حصلت على ذلك البيت الذى تعيشون فيه جميعاً وأشياء أخرى أيضا . »

« نعم ، يا سيدتى . »

« ما مشكلة سيث؟» استندت جانى إلى حوض داخلى وعقدت ذراعيها .

كان ثمنا زهيدا، لكنه بدا كبيرا لدنفر. فلن يساعدها أحد مالم تقل - كل شىء . كان من الواضح أن جانى لن ولن تدعها ترى آل بودوين بغير هذا. أخبرت دنفر تلك الغريبة بما لم تخبر به ليدى جونز، وفى مقابل ذلك اعترفت جانى بأن آل بودوين بحاجة إلى مساعدة ، على الرغم من أنهما لايعرفان ذلك. كانت هناك وحدها، أما وقد كان مستخدماها يكبران فى السن، فلم تكن هى قادرة على رعايتهما كما اعتادت أن تفعل. وأكثر من هذا أنها مطلوب منها أن تقضى الليل هناك. ربما كان بإمكانها أن تقنعهما بأن يسمحا لدنفر بالقيام بنوبة الليل، أن تأتى بعد العشاء مباشرة، مثلا، وربما تحصل على الافطار. بتلك الطريقة كان بإمكان دنفر أن تعتنى بسيث فى النهار وأن تكسب شيئا قليلا بالليل، مارأيك فى ذلك؟

قالت دنفر موضحة أن الفتاة التى توجد فى بيتها وتعذب أمها هى ابنة عم جاءت للزيارة، ومرضت أيضا وأزعجت كلا منهما.

بدت جانى أكثر اهتماما بحالة سيث، ومما قالته دنفر بدا أن المرأة قد فقدت عقلها. لم تكن تلك سيث التى تذكرها. لقد فقدت هذه السيث عقلها أخيراً كما كانت جانى تعرف أنه سيحدث لها ـ وهى تحاول أن تفعل كل شىء وحدها وقد صعرت خدها. تلوت دنفر من انتقاد أمها، وهى تتململ فى كرسيها وتحتفظ بعينيها على الحوض الداخلى. وواصلت جانى واجون حديثها عن الكبرياء حتى وصلت إلى بيبى سجز، التى لم يكن لها عندها شىء إلا كلمات لطيفة. «لم أذهب مطلقا إلى الصلوات التى كانت تقيمها فى الغابة، لكنها كانت دائما. لطيفة معى. دائما. لن يتكرر مثلها أبدا.»

قالت دنفر: «إننى أفتقدها.»

«أراهن أنك تفتقدينها. الجميع يفتقدونها. كانت امرأة طيبة.»

لم تقل دنفر شيئا آخر وألقت جانى نظرة على وجهها لبعض الوقت. «ألم يعد واحد من أخويك أبدا ليطمئن على حالكم جميعا.»

«لا، يا سيدتى.»

«ألا تصلك أخبارهما؟»

«لا، يا سيدتى. لا شىء.»

«أظن أنهما قضيا وقتا صعبا فى ذلك البيت. خبرينى، هذه المرأة التى ببيتكم. ابنة العم. هل لديها خطوط فى يديها؟»

قالت دنفر. «لا.»

قالت جانى: « حسنا، أظن أن هناك إله فى النهاية . »

انتهى اللقاء بأن أخبرتها جانى أن تعود بعد بضعة أيام. كانت بحاجة إلى وقت لاقناع مستخدميها ماهما بحاجة اليه: المساعدة الليلية لأن عائلة جانى بحاجة اليها . «لا أريد أن أترك هؤلاء الناس ، لكنهم لايمكنهم أن يحصلوا على كل أيامى وليالى أيضا .»

ماذا كان على دنفر أن تفعله بالليل؟

« أن تكونى هنا . فى حالة ما إذا . . »

فى حالة ماذا؟

هزت جانى رأسها . « فى حالة ما إذا احترق البيت.» ا بتسمت عندئذ «أو إذا نشر الجو الردىء الوحل فى الطرقات بشكل لا أستطيع معه أن أصل مبكرا اليهم. فى حالة ما إذا احتاج ضيوف آخر الليل أن تقومى على خدمتهم أو أن تقومى بالتنظيف بعد ذلك. أى شىء . لاتسأليني مايحتاج اليه البيض بالليل.»

« هل كانوا بيضا طيبين؟»

« أوه ، نعم . هم طيبون . لا أستطيع أن أقول إنهم ليسوا طيبين. ماكنت لاقايضهما بزوج آخر، أقول لك ذلك.»

وبتلك التأكيدات، رحلت دنفر، ولكن ليس قبل أن ترى فم طفل ملىء بالنقود، وهو يجلس على رف بجوار الباب الخلفى. كانت رأسه ملقاه إلى الخلف أكثر مما يمكن أن تبلغه الرأس، يداه مدسوستان فى جيبه. كانت عيناه البارزتان كأنهما قمران

باتساع الوجه فوق فمه الأحمر المفتوح. كان شعره مجموعة من نقط مرتفعة متباعدة مصنوعة من رءوس مسامير. وكان جاثيا على ركبتيه. كان فمه الواسع مثل قدح، يحتفظ بالعملات اللازمة لدفع ثمن تسليم أشياء أو خدمة ما صغيرة أخرى، لكن بإمكانه أيضا أن يحتفظ بأزرار ودبابيس أو الجيلى المصنوع من التفاح البرى. وقد طليت على القاعدة التى يركع عليها كلمات، «فى خدمتك.»

نشرت جانى الأخبار التى حصلت عليها بين النساء الملونات الأخريات. لقد عادت ابنة سيث الميتة، التى ذبحت ، لتنتقم منها . كانت سيث منهكة، مبقعة، تختضر، تتدهور بسرعة ، تغير أشكالها وقد سحرت بوجه عام. أن تلك الأبنة تضربها، تقيدها إلى السرير وتنزع كل شعرها. تطلب الأمر بعض الوقت حتى يضخمن القصة كما ينبغى ويستثرن انفسهن ثم يهدأن ويقيمن الموقف. انقسمن إلى ثلاث مجموعات: من آمن بأسوأ الأشياء؛ من لم يصدقن شيئا؛ ومن يتحققن من الأمر، مثل ايللا .

« ايللا . ماهذا كله الذى أسمعه عن سيث؟» .

«يقولون لى إنها هناك معها . ذلك كل ما أعرفه . »

« الأبنة ؟ المقتولة؟»

« ذلك مايقولونه لى . »

« كيف يعرفون أنها هى؟»

« إنها تقيم هناك. تنام، تأكل، وتثير المتاعب. وتسوط سيث كل يوم.»

« لا أصدق . طفلة؟»

« لا. ناضجة . العمر الذى كان يمكن أن تبلغه لو أنها عاشت . »

« هل تتكلمين عن جسم من لحم وعظم؟ »

« أتكلم عن جسم من لحم وعظم . »

« تسوطها؟»

« كأنها لبن مخضوض وبيض مخفوق .»

« أظن أن ذلك كان لابد أن يحدث لها.»

« لا أحد يجب أن يحدث له ذلك . »

« ولكن ، يا ايللا .»

« ولا لكن ؟ ما هو عادل ليس بالضرورة صحيحاً . »

« لايمكنك أن تقومى وتقتلى أطفالك . »

« لا ، ولايمكن للأطفال أن يقوموا ويقتلوا أمهاتهم . »

كانت ايللا أكثر من أى واحدة أخرى هى التى أقنعت الأخريات بأن الانقاذ بات لازما. كانت أمرأة عملية تؤمن بأن لك مرض جذر يتعين مضغه أو تجنبه . أن التفكير، كما أسمته، يغبّش الأشياء ويحول دون الفعل. لم يكن أحد يحبها وماكانت ليروق لها هذا لو أنهم أحبوها، لأنها كانت تعتبر الحب ضعفا خطيرا. فقد قضت

فترة مراهقتها فى بيت تقاسمها فيه أب وابن ، أطلقت عليهما « أحط الناس حتى الآن . » كان « أحط الناس حتى الآن » هم من ولدوا فيها أشمئزازا من الجنس ومن كانت تقيس عليهما كل البشاعات اعتادت أن تنصت وتومىء برأسها إلى أى حادث قتل أو اختطاف أو اغتصاب أو أى شىء . لم يكن هناك شىء بالمقارنة إلى «أحط الناس حتى الآن . » لقد فهمت غضبة سيث الشديدة فى الكوخ منذ عشرين سنة، وإن لم تفهم رد فعلها عليه، وهو مارأت أنه مشحون بالكبرياء وموجها توجيها خاطئا، وأن سيث نفسها معقدة للغاية. فعندما خرجت من السجن ولم تقم بأية ايماءة لأى شخص، وعاشت كما لو كانت وحيدة، نبذتها ايللا ولم تكن لتعيرها أدنى التفات .

أبدت الأبنة، على أية حال، شيئا من الادراك السليم فى نهاية الأمر. فقد خطت خارج الباب على الأقل، طلبت المساعدة التى تحتاجها ، وأرادت أن تعمل. وعندما سمعت ايللا أن البيت رقم ١٢٤ قد احتله شىء أو آخر يوسع سيث ضربا، أثار هذا غضبتها وأعطاها فرصة أخرى لقياس مايمكن تماما أن يكون الشيطان نفسه على « أحط الناس حتى الآن . » كان هناك شىء شخصى جدا فى غضبها فمهما كان مافعلته سيث، إلا أن ايللا لم ترق لها فكرة أن تستحوز أخطاء الماضى على الحاضر . كانت جريمة سيث صاعقة وتجاوز كبرياؤها حتى ذلك؛ لكنها لم يكن فى استطاعتها أن تواجه احتمال انطلاق الاثم فى البيت، وقحا بلاقيد . كانت الحياة اليومية تأخذ كل مالديها . المستقبل غروب شمس ؛ والماضى شيىء نطرحه وراء ظهورنا. وإذا لم يبق وراء ظهورنا ،

حسنا فقد تضطر إلى سحقه. حياة العبودية؛ حياة التحرر ـ كان كل يوم تجربة ومحاولة. لم يكن هناك شيء يمكن الاعتماد عليه في عالم أنت فيه مشكلة حتى حين تكون حلا.«يكفي اليوم مابه من شر،» ولم يكن أحد بحاجة إلى مزيد؛ لم يكن أحد بحاجة إلى شر ناضج يجلس إلى المائدة وهو يحمل في قلبه ضغينة. كانت إيللا تحترم الشبح، طالما أنه ظهر من مكانه الشبحي ـ يرج الأشياء ويبكي ويحطم وما إلى ذلك. لكنه إذا اكتسى لحما وجاء إلى عالمها ، حسنا ، فهناك خطأ ما. لم تكن تبالي بقليل من الاتصال بين العالمين، لكن هذا كان غزوا.

سألتها النساء: «هل نصلي؟»

قالت ايللا: «أه هه ، أولا . ثم نتصرف . »

في اليوم الذي كانت دنفر ستقضي فيه أول ليلة لها عند آل بودوين، كان على مستر بودوين أن يقضي مهمة على حدود المدينة وأخبر جاني أنه سوف يلتقط الفتاة الجديدة قبل العشاء. جلست دنفر على درجات الشرفة وبحجرها صرة ، وقد بهت ثوبها الكرنفالي إلى ألوان طيف أهدأ . كانت تنظر إلى اليمين ، في الاتجاه الذي يأتي منه مستر بودوين . لم تر النساء يقتربن ، يتجمعن على مهل في مجموعات من اثنتين وثلاث من الجهة اليسرى . كانت دنفر تنظر إلى الجهة اليمنى. كانت قلقة قليلا بخصوص ما إذا كانت لتثبت أنها مرضية بالنسبة لآل بودوين، ومضطربة أيضا لأنها استيقظت من حلم بزوج أحذية يجريان وهي تبكي. لم تتمكن من التخلص من حزن الحلم، وكانت الحرارة تسبب لها غما وهي تقوم بأعمال البيت. وفي وقت مبكر للغاية

لفت ثوب نوم وفرشاة للشعر فى صرة . راحت تعبث بالعقدة، فى عصبية، وتنظر إلى اليمين .

أحضر بعض منهن ما أمكنهن وما كن يعتقدن أنه نافع. وهو محشو فى جيوب مآزرهن، معلق حول رقابهن، أو راقد فى المسافة بين نهودهن. أحضرت أخريات ايمانهن المسيحى - مثل الدرع والسيف . وأحضرت غالبيتهن قليلا من الاثنين. لم يكن لديهن أية فكرة عما سيفعلن عندما يصلن إلى هناك. بدأن الرحلة فقط، وسرن على طول شارع بلوستون ووصلن فى الوقت المتفق عليه معا. ولكن بعض النسوة اللاتى وعدن بأن يذهبن الزمتهن الحرارة فى بيوتهن. لم تشأ أخريات ممن صدقن القصة أن يكون لهن أى دور فى المواجهة ولم يكن ليحضرن مهما كانت حالة الجو. وكان هناك من لم يصدقن القصة، مثل ليدى جونز، وكرهن جهل من صدقن . وهكذا تألفت تلك الجماعة من ثلاثين امرأة سرن ببطء، ببطء إلى البيت رقم ١٢٤ .

كانت الساعة الثالثة عصرا فى يوم جمعة رطب وحار إلى درجة أن نتن سنسناتى ارتحل إلى الريف: من القنال، من اللحم المعلق والأشياء المنتنة فى جرار؛ من حيوانات صغيرة ميتة فى الحقول، ومن مواسير صرف البلدة والمصانع. النتن، الحرارة ، الرطوبة، وثقه بأن الشيطان سيعلن عن وجوده . وفيما عدا هذا بدا اليوم تقريبا مثل يوم عمل عادى. كان من الممكن أن يبدين كما لوكن ذاهبات إلى المغسلة فى ملجأ الايتام أو مستشفى الأمراض العقلية؛ أو لتقشير الذرة فى الطاحون ؛ أو لتنظيف السمك ، لغسل نفايات الحيوانات ، لهز مهد الأطفال البيض ، لمسح

المحلات التجارية ، لكشط جلد الخنازير ، لعصر دهن الخنزير ، لتعبئة السجق فى صناديق أو ليختبئن فى مطابخ الحانات حتى لا يضطر البيض إلى رؤيتهن وهن يمسكن بطعامهن

لكن ليس اليوم .

عندما أدركت إحداهن الأخرى ، الثلاثون جميعا ، ووصلن إلى البيت رقم ١٢٤ ، كان أول ما رأيته لا دنفر تجلس على الدرج ، ولكن أنفسهن . أكثر شبابا ، أقوى ، بل حتى مثل فتيات صغيرات يرقدن فى العشب نائمات . كان سمك السلور يتفجر دهنا فى المقلاة ورأين أنفسهن يغرفن سلطة البطاطس فى أطباقهن . فطائر الفاكهة تتحلب عصيرا أرجوانيا يلون أسنانهم. جلسن فى الشرفة ، عدون إلى الجدول ، عابثن الرجال ، رفعن الأطفال على عجائزهن أو ، إذا كن الأطفال ركبن على كواحل الرجال الطاعنين فى السن الذين كانوا يمسكون بأيديهن وهم يلعبون معهم لعبة ركوب الجياد . كانت بيبى سجز تضحك وتتواثب بينهم ، تحثهم على المزيد . والأمهات ، المتوفيات الآن ، يحركن أكتافهن على أنغام قيثارة النفخ . كان السور الذى كن يستندن إليه ويتسلقن من فوقه قد اختفى . جدعة شجرة الجوز قد انشقت مثل مروحة. لكنهن كن يلعبن شابات وسعيدات فى فناء بيبى سجز ، لايشعرن بالحسد الذى طفا الى السطح فى اليوم التالى .

سمعت دنفر غمغمة ونظرت الى اليسار . وقفت عندما رأتهن . تجمعن ، وهن يغمغمن ويهمسن ، لكنهن لما يطأن الفناء بأقدامهن . لوحت لهن دنفر . لوحت لها بضع منهن لكنهن لم يقتربن . عادت دنفر إلى الجلوس وهى تتساءل عما يجرى .

ركعت امرأة على ركبتها . حذا نصف الأخريات حذوها . رأت دنفر رؤساً مطأطئة ، لكنها لم تستطع أن تسمع من تؤم الصلاة ـ مجرد مقاطع الموافقة الجادة التى تسندها : نعم ، نعم ، نعم ، أوه نعم . اسمعنى . اسمعنى . اسمعنى . أيها الخالق ، اسمعنى . نعم من بين أولئك اللاتى لم يكن راكعات ، اللاتى وقفن يحملقن غضبا فى البيت رقم ١٢٤ بنظرة ثابتة ، كانت ايللا ، تحاول أن تنفذ بنظرتها فى الجدران، خلف الباب، إلى ما كان هناك حقيقة . هل كان صحيحا أن الابنة الميتة قد عادت ؟ أم أنه إدعاء ؟ هل كانت تجلد سيث بالسياط ؟ كانت ايللا قد ضربت بكل شىء إلا أنها لم تقهر . تذكرت الأسنان السفلى التى فقدتها لآلة سحق الكتان والندوب السميكة بسمك الحبل التى أحدثها بها الجرس حول وسطها ، ولقد ولدت ، لكنها لم تكن لترضع ، شيئا أبيض مشعر ، ولدا « لأحط الناس حتى الآن .» عاش خمسة أيام دون أن يبدر منه صوت . إن فكرة عودة ذلك الجرو ليجلدها هى أيضا جعل فكها يصطك ، ثم صاحت ايللا .

وفى الحال انضمت الراكعات والواقفات إليها . توقفن عن الصلاة وأخذن خطوة للخلف إلى البداية . فى البداية لم تكن هناك كلمات. فى البداية كان الصوت ، وكن جميعا يعرفن رنين هذا الصوت .

كان ادوارد بودوين يسوق عربةعلى طول شارع بلوستون . كان ذلك يثير استياءه قليلا لأنه كان يفضل شخصه ممتطيا برنسيس . انحنى فوق يديه ، وأمسك باللجام على نحو جعله يبدو بعمره الحقيقى. لكنه قد وعد أخته أن ينعطف ليصطحب فتاة

جديدة . لم يكن بحاجة إلى التفكير فى الطريق ـ كان متجها الى البيت الذى ولد فيه ، ربما كانت وجهته هى ما وجه أفكاره إلى الزمن ـ الطريقة التى كان يقطر بها أو يجرى . لم يكن قد رأى البيت لمدة ثلاثين عاما . لا شجرة الجوز فى الواجهة ، ولا الجدول الذى يجرى خلفه ولاصف البيوت فيما بينهما . ولاحتى المرعى عبر الطريق . تذكر قليلا جدا من التفصيلات الداخلية لأنه كان فى الثالثة من عمره عندما انتقلت عائلته إلى المدينة. لكنه تذكر أن الطبخ كان يدور خلف البيت ؛ وكان من المحرم عليه أن يلعب قرب البئر ، وأن نساء دُفِن هناك : أمه ، جدته ، عمه وأختا كبرى قبل أن يولد . انتقل الرجال (أبوه وجده) معه وأخته الطفلة إلى شارع كورت منذ سبعة وستين عاما مضت كانت الأرض ، بالطبع ، ثمانون هكتارا منها على جانبى بلوستون ، الشىء الرئيسى ، لكنه كان يداخله شىء أعذب وألطف خاص بالبيت وهو ما دعاه إلى تأجيره مقابل شىء زهيد إن استطاع الحصول عليه ، لكنه لم يكن يزعجه ألا يحصل منه مطلقا على ايجار طالما أن المستأجرين يحافظون عليه بحيث لايكون بحاجة إلى ترميم يستلزم التخلى الكامل عنه .

جاء وقت كان يدفن فيه أشياء هناك . أشياء ثمينة يريد الحفاظ عليها ـ فى سنى طفولته كانت كل حاجة من حاجياته التى يمتلكها متاحة له ويمكن تفسيرها لأسرته . كانت الخصوصية تدليلا خاصا بالكبار ، لكنه عندما أصبح ناضجا ، لم يعد فيما يبدو بحاجة إليه .

راح الحصان يخب على طول الشارع وادوارد بودوين يرطب

شاربه الجميل بأنفاسه . كان من المتفق عليه بشكل عام بين النساء فى المجتمع أن شاربه،فيما عدا يديه، أكثر ملامحة جاذبيه . ويضاعف من جماله الداكن، القطيفى الملمس، ذقنه القوى الحليق . لكن شعره كان أشيب، مثل شعر أخته. وقد كان كذلك منذ شبابه . جعله أشد شخص وضوحا وبروزا فى كل جمع، وكان الطابع المسرحى المميز لشعره الأبيض وشاربه الأسود يلفت انتباه رسامى الكاريكاتير حينما كانوا يصورون العداء السياسى المحلى . فمنذ عشرين سنة مضت حين بلغ المجتمع ذروة معارضته للعبودية، بدا كما لو كان لونه هو لب الموضوع . كان أعداؤه يطلقون عليه «الزنجى المبيض»، وفى رحلة إلى أركنساس امسك به بعض الرجال العاملين على نهر المسيسيبى الساخطين على رجال القوارب الزنوج الذين كانوا ينافسونهم، وسودوا وجهه وشعره بورنيش الأحذية.لقد مضت الآن الأيام المتهورة ؛ وبقى وحل سوء النية ؛ آمال محطمة ومصاعب لا سبيل إلى إصلاحها . جمهورية هادئة ؟ حسنا، ليس فى حياته .

حتى الجو أصبح أكثر مما يحتمل. يشعر بالحر الشديد أو بالتجمد، وكان هذا اليوم لاذعا . ضغط قبعته ليبعد الشمس عن عنقه، حيث كانت ضربة الشمس احتمالا حقيقيا . ولم تكن مثل هذه الأفكار الأخلاقية جديدة عليه (فقد تجاوز السبعين الآن)، لكنها مازالت لها القدرة على إزعاجه.وبينما كان يقترب من بيت الآباء والأجداد، المكان الذى ظل يطفو فى أحلامه، كان أشد وعيا بالطريقة التى يتحرك بها الزمن . كان بطيئا بالقياس إلى الحروب التى عاش خلالها ولم يحارب فيها (ضد سكان ميامى،

والأسبان ، والانفصاليين) . ولكنه بالقياس إلى دفن أشيائه الخاصة كان طرفة عين . أين كان صندوق الجنود القصديريين ، على وجه التحديد ؟ سلسلة الساعة بلا ساعة ؟ وعمن كان يخفيها ؟ ربما أباه ، وهو رجل بالغ التدين يعرف ما يعرفه الله ويخبر الجميع به . كان ادوارد بوردوين يراه رجلا شاذ الأطوار ، بأشكال كثيرة ، لكنه صاحب توجه واحد واضح : أن الحياة الإنسانية مقدسة ، كلها . وأن ابنه مايزال يؤمن ، على الرغم من أن أسباب الإيمان كانت تتضاءل وتتضاءل . منذ ذلك الوقت لم يعد هناك شيء مثير للنشاط مثل الأيام القديمة بما فيها من خطابات ، وعرائض ، واجتماعات ، ومناظرات ، وتجنيد ، ومشاجرات وانقاذ وتحريض مباشر على العصيان . ومع ذلك فقد نجحت ، إن قليلا أو كثيرا ، وعندما لم تكن تنجح ، كان هو وأخته يوفران نفسيهما للعوائق التى تحيط بهما.مثلما فعلا حين كانت زنجية هاربة تعيش فى بيت أجداده مع حماتها وتورطت فى عالم من المشكلات. تمكنت الجمعية من إثارة مسألة قتل الأبناء والشكوى من الوحشية ، وأن تقيم قضية لإلغاء العبودية . كانت سنين طيبة ، حافلة بالبصق والاقتناع . ولم يكن يريد آنذاك سوى أن يعرف أين كانت جنوده وسلسلته التى لاتحمل ساعة . سيكون هذا كافيا لهذا اليوم القائظ الحر : أن يحضر الفتاة الجديدة وأن يتذكر أين يرقد كنزه بالضبط . ثم البيت والعشاء ، وبإذن الله تنحدر الشمس لتعطيه نعمة ليلة نوم طيبة .

كان الطريق ينحنى مثل مرفق ، وسمع المرتلات وهو يقترب قبل أن يراهن .

عندما تجمعت النساء خارج البيت رقم ١٢٤ ، كانت سيث تكسر كتلة من الثلج إلى قطع . ألقت ملقاط الثلج فى جيب مئزرتها لتفرق القطع فى حوض ماء . وعندما تسللت الموسيقى من النافذة كانت تعصر قطعة قماش رطبة لتضعها على جبهة « محبوبة » . كانت « محبوبة » متمددة على السرير وقد باعدت مابين ساقيها فى الغرفة الاحتياطية ، وهى تتصبب عرقا بغزارة ، وبيدها قطعة ملح صخرى . سمعتها كلتا المرأتين فى نفس الوقت ورفعت رأسها . ولما تزايد ارتفاع الأصوات ، نهضت « محبوبة » ، لعقت الملح ودخلت الحجرة الأكبر . تبادلت هى وسيث النظرات واتجهتا إلى النافذة . رأيتا دنفر تجلس على الدرج وفيما وراءها ، حيث يلتقى الفناء بالشارع ، وجوه ثلاثين من نساء الناحية غارقة فى التأمل . كانت عيون بعضهن مغمضة ؛ أخريات يتطلعن فى السماء الصافية الحارة . فتحت سيث الباب ومدت يدها لتتناول يد « محبوبة . » وقفتا معا بالباب . بالنسبة لسيث بدا الأمر كما لو كانت الساحة الخالية من الأشجار قد جاءت إليها بكل حرارتها واوراقها التى تغلى برفق، حيث كانت أصوات النساء تبحث عن التركيب الصحيح ، المفتاح ، الشفرة ، الصوت الذى يقصم ظهر الكلمات ؛ تركب صوتا على صوت حتى وجدنه ، وعندما حدث كانت موجة من الصوت عريضة بما يكفى لأن تسير غور المياه العميقة وأن تسقط البراعم من على أشجار الكستناء . تكسرت فوق سيث وارتجفت مثل طفل يعمد فى ماء غسله .

تعرفت النساء المغنيات على سيث فى الحال وأدهشتهن غيبة الخوف من نفوسهن حين رأين ما يقف بجوارها . طاف بفكرهن

أن الطفلة الشيطانة كانت ماهرة . وجميلة . فقد اتخذت شكل امرأة حامل ، عارية تبتسم فى شمس العصر . كانت تقفُ على ساقين طويلتين مستقيمتين ، سوداء بلون الرعد ولامعة . كانت تعريشات من الشعر تلتف حول رأسها كله . وابتسامتها تغشى الأبصار .

أخذت سيث تشعر بأن عينيها تتقدان نارا وتنظر الى أعلى ربما لتحتفظ بهما صافيتين . السماء زرقاء وصافية . ولا لمسة موت واحدة فى الأوراق الخضراء المحددة . وعندما تخفض بصرها لتنظر مرة أخرى إلى الوجوه المحبة أمامها تراه . يقود بغله ، يتباطأ ، قبعتة السوداء ذات الحواف العريضة تغطى وجهه لكنها لاتخفى غرضه . إنه يدخل فناءها وقد أتى من أجل أفضل شىء لديها . تغرس طيور طنانة مناقير إبرية من خلال غطاء رسها مباشرة فى شعرها وتصفق بأجنحتها . وإذا فكرت فى أى شىء فإنه لا . لا لا . لا لا لا . تهرب . ملقاط الثلج ليس فى يدها ؛ إنها يدها .

« محبوبة » تبتسم ، وهى واقفة وحدها بالشرفة . لكن يدها الآن خاوية . سيث تهرب منها ، تعدو ، وهى تشعر بالخواء فى اليد التى كانت سيث تمسك بها . هى الآن تدور بعينيها على وجوه الناس هناك بالخارج ، تنضم إليهم تاركة « محبوبة » خلفها . وحدها . مرة أخرى . ثم دنفر ، تعدو هى أيضا . بعيدا عنها إلى كومة الناس هناك ، يضنعون تلا . تلا من السود ، يتهاوى ومن فوقهم جميعا ، يبرز من مكانه وبيده سوط ، الرجل الذى لاجلد له ، ينظر. إنه ينظر إليها .

أقدام حافية وعصارة البابونج .

خلعت نعلى ؛ خلعت قبعتى .

أقدام حافية ونسغ البابونج .

أعد إلى نعلى ؛ أعد لى قبعتى .

أضع رأسى على جوال بطاطس ،

يتسلل الشيطان من خلف ظهرى .

للقاطرة البخارية نحيب موحش ؛

أحِّب هذه المرأة حتى تعمى تماما .

تعمى تماما ، تعمى تماما ..

فتاة سويت هوم سوف تفقدك عقلك .

كان مجيئه هو الطريق العكسى لذهابه. كوخ التبريد أولا ، المخزن ، ثم المطبخ قبل أن يتعامل مع الأسرّة . هيربوى ، الذى

بات ضعيفا وتساقط فراؤه فى رقع ، نائم بجوار المضخة ، وهكذا يعرف بول د أن « محبوبة » قد ذهبت حقا . اختفت ، كما يقول البعض ، انفجرت أمام أعينهم تماما . ايللا ليست متأكدة . تقول : « ربما ، ربما لا. يمكن أن تكون مختبئة بين الأشجار تنتظر فرصة أخرى .» لكن عندما يرى بول د الكلب ، بعد ثمانية عشر عاما بالتحديد ، فإنه يثق أن البيت رقم ١٢٤ قد أصبح خاليا منها . لكنه يفتح باب كوخ التبريد نصف فتحة وهو يتوقع أن يسمعها . « المسنى . المسنى . فى الجزء الداخلى ونادنى باسمى . »

الحشية هناك تغطيها جرائد قديمة وقد قرضت الفئران أطرافها . علبة دهن الخنزير . أجولة البطاطس أيضا ، لكنها فارغة الآن ، ترقد على الأرضية الترابية مكومة . فى ضوء النهار لايمكنه أن يتخيل أى شيء فى الظلام وضوء القمر يتسرب خلال الشقوق . ولا الرغبة التى أغرقته هناك واضطرته إلى أن يكافح صاعدا ، صاعدا إلى داخل تلك الفتاة كأنها الهواء الصافى على صفحة البحر. لم يكن التزاوج معها حتى لهوا . كان أشبه بحافز أبله إلى البقاء حيا . فى كل مرة كانت تجيء فيها ، وترفع تنورتها ، يغمره جوع إلى الحياة ولم يكن يستطيع أن يتحكم فيه أكثر مما يستطيع التحكم فى رئتيه . وبعد ذلك ، حين يصل إلى الشط ويجرع الهواء وسط نفوره وعاره الشخصى ، كان يشعر بالامتنان لأن أحدا رافقه إلى مكان ماعميق عمق المحيط كان ينتمى إليه ذات يوم .

إن تمحيص ضوء النهار يذيب الذاكرة ويحيلها إلى ذرات تراب تطفو فى الهواء . يغلق بول د الباب . ينظر الى البيت ، ولدهشته

يجده لا يلتفت إليه. ١٢٤ ليس أكثر من بيت أبلاه الجو بحاجة إلى ترميم، بعد أن أفرغ من شحنته.

قال ستامب بيد: «كانت هناك أصوات حول ذلك المكان كله. الآن، هادىء. لقد مررت به بضع مرات ولا أستطيع أن أسمع شيئا. تطهر، فيما أظن، لأن مستر بودوين يقول إنه سيبيعه حالما يستطيع.»

«هل ذلك هو اسم الرجل الذى حَاولتْ طعنه؟ ذلك الرجل؟»

«نعم. أخته تقول إنه ملىء بالمتاعب. أخبرت جانى إنها ستتخلص منه.»

سأله بول: «وهو ؟»

«تقول جانى إنه ضد هذا لكنه لن يمنعه.»

«ومن فى ظنهم يريد بيتا هناك؟ أى واحد لديه المال لايريد أن يعيش هناك.»

أجاب ستامب: «هذا يفوق تصورى سئعمل تعويذة له، فيما أظن، قبل أن يتخلص منه.»

«ألا يخطط لتقديمها للمحاكم؟»

«لايبدو ذلك. تقول جانى إن كل مايريده هو أن يعرف من كانت المرأة الزنجية العارية التى تقف بالشرفة. كان ينظر إليها بشدة حتى أنه لم يلاحظ ماكانت سيث تدبره. كل مارآه هو بعض الملونات يتقاتلن. ظن أن سيث تتعقب واحدة منهن، كما تقول جانى.»

« هل قالت له جانى شيئا مختلفا ؟ »

« لا . تقول إنها مسرورة لأن سيدها لم يمت . تقول إنه لولا أن ايللا ضربتها ضربة عنيفة، لفعلتها . أفزعها إلى حد الموت أن تقتل تلك المرأة سيدها . هى ودنفر تبحثان عن عمل . »

« ومن هى تلك المرأة العارية كما قالت له جانى ؟ »

« أخبرته أنها لم تر أية امرأة . »

« هل تظن أنهن رأينها ؟ »

« نعم ، رأين شيئا . أثق بايللا ، على أية حال ، وهى تقول أنها نظرت فى عينيها . كانت تقف بجوار سيث مباشرة . لكن من الطريقة التى يفونها بها ، فهى لا تبدو مثل الفتاة التى رأيتها هناك . فالفتاة التى رأيتها كانت نحيلة . وهذه ضخمة . تقول إنهما كانتا ممسكتين بيد إحداهما الأخرى وكانت سيث تبدو مثل فتاة صغيرة بجانبها . »

« فتاة صغيرة بملقاط ثلج . إلى أى حد اقتربت منه ؟ »

« يقولون وصلت إليه تماما . قبل أن تقبض دنفر عليها وتصوب ايللا لكمة إلى فكها . »

« لابد أن يعرف أن سيث كانت تتعقبه . لابد أن يعرف . »

« ربما . لا أدرى . فلو أنه ظن هذا ، فأحسب أنه قرر ألا يفعل. هكذا هو ، أيضا . إنه شخص لم يخذلنا أبدا . ثابت مثل صخرة . أقول لك شيئا ، لو أنها وصلت إليه ، لكان أسوأ شىء فى العالم بالنسبة لنا . تعرف ، أليس كذلك ، أنه كان أول من حفظ سيث من

حبل المشنقة فى المقام الأول . »

« نعم . اللعنة. هذه المرأة مخبولة . مخبولة . »

« نعم ، حسنا ، ألسنا جميعا ؟ »

ضحكا عندئذ . ضحكة خافتة صدئة فى أول الأمر ثم أكثر ، وأكثر وأكثر إرتفاعا حتى أخرج ستامب منديل جيبه ومسح عينيه فى حين راح بول د يدعك عقب كفه فى عينيه هو . فلما لم يكن أيهما قد شاهد المنظر يتشكل أمامهما ، فإن جديته وإحراجه جعلاهما يهتزان من الضحك .

« هل لابد أن تقتل أحدا فى كل مرة يأتى فيها رجل أبيض إلى الباب ؟ »

« فرغم كل ماتعرفه ، يمكن أن يكون الرجل قادما لتقاضى الايجار . »

« أمر طيب أنهم لا يوزعون البريد فى ذلك الاتجاه.»

« لا يصل خطاب إلى أى أحد .»

« فيما عدا ساعى البريد . »

« ستكون رسالة قاسية جدا . »

« وآخر رسالة له . »

عندما نفد ضحكهما ، جذبا أنفاسا عميقة وهزا رأسيهما .

« وهل سيظل يسمح لدنفر بالمبيت فى بيته ؟ ها ! »

« أوه لا . هيى . كف عن دنفر ، يابول د . فهى قلبى ، وأنا

فخور بتلك الفتاة . كانت أول من يصارع أمه ويصرعها . قبل أن يعرف أحد بما يجرى هناك . »

« إذن فقد أنقذت حياته ، كما يمكن أن تقول . »

« يمكنك أن تقول هذا . يمكنك ،» قالها ستامب ، وهو يفكر فجأة فى القفزة ، الأرجحة الواسعة وانتزاع ذراعه وهو ينفذ الطفلة الصغيرة المجعدة الشعر من على قيد بوصات من شق جمجمتها . « أنا فخور بها . إنها ستصبح رائعة . رائعة . »

وكان صحيحا . رآها بول د فى صباح اليوم التالى عندما كان فى طريقه إلى العمل وكانت تغادر عملها . بدت أكثر شبها بهال عن ذى قبل ، وهى أنحف ، وثابتة النظرة .

كانت أول من ابتسم « صباح الخير ، يامستر د . »

« حسنا ، إنه صباح طيب الآن . » كانت ابتسامتها ، التى لم تعد الابتسامة الساخرة التى يذكرها ، تنطوى على الترحيب وتحمل آثارا قوية من فم سيث . لمس بول د قبعته : « كيف حالك ؟ »

« لاتعود الشكوى علينا بنفع . »

« هل أنت فى طريقك إلى البيت ؟ »

قالت لا . فقد سمعت عن وظيفة بعد الظهر فى مصنع القمصان. كانت تأمل أن يكون بإمكانها ، بفضل عملها الليلى عند آل بودوين وعمل آخر ، أن تدخر شيئا وأن تساعد أمها . عندما سألها إن كانوا يحسنون معاملتها هناك ، قالت أكثر من طيبة . فقد علمتها مس بودوين أشياء . سألها أية أشياء وضحكت وقالت

أشياء من الكتب . « تقول إننى قد أذهب إلى أوبرلين . فهى تقوم بتجارب علىّ . » ولم يقل ، « احذرى . احذرى . فليس فى العالم من هو أخطر من مدرس أبيض . » بدلا من ذلك أومأ وسألها السؤال الذى يريده .

« هل أمك بخير ؟ »

قالت دنفر : « لا . لا . لا ، ليست بخير على الإطلاق . »

« هل تظنين أننى يجب أن أزورها ؟ هل ترحب بى ؟ »

قالت دنفر :« لا أدرى . أظن أننى فقدت أمى يا بول د . »

ظل كلاهما صامتا للحظة ثم قال : « أه ، تلك الفتاة . تعرفين « محبوبة . » »

« نعم ؟ »

« هل تظنين أنك متأكدة بمافيه الكفاية أنها أختك ؟ »

نظرت دنفر إلى حذائها . « أحيانا . أحيانا أظن أنها كانت أكثر من ذلك . » عبثت ببلوزتها ، وهى تمسح بقعة ما . وفجأة صوبت عينيها إليه . « ولكن من يعلم ذلك أفضل منك ، يابول د ؟ أعنى ، من المؤكد أنك عرفتها . »

لعق شفتيه . حسنا ، إن كنت تريدين رأيى . »

قالت : « لا . لدى رأيى الخاص . »

قال : « لقد كبرت . »

قالت : « نعم ، ياسيدى . »

« حسنا . حسنا ، حظا سعيدا مع الوظيفة . »

« أشكرك . ولست مضطر إلى البقاء بعيدا ، يابول د . ولكن كن حريصا فى حديثك لأمى ، هل تسمعنى؟ »

قال : « لا تقلقى . » وتركها عندئذ أو بالأحرى تركته لآن شابا كان يعدو باتجاهها ، قائلا : « هاى ، مس دنفر . انتظرى . »

استدارت إليه ، ووجهها يبدو كما لو كان شخص ماقد رفع درجة التدفق من نافث الغاز .

تركها على مضض لأنه كان يريد مزيدا من الحديث ، أن يفهم القصص التى كان يسمعها : جاء رجل أبيض ليأخذ دنفر إلى العمل وجرحته سيث . عاد شبح الطفل شرا وأرسل سيث لتنال من الرجل الذى حفظها من الشنق . إحدى نقاط الاتفاق هى : أنهم رأوه أولا ثم لم يروه. عندما أسقطوا سيث إلى الأرض وملقاط الثلج من يدها، والتفتوا إلى البيت، كان قد اختفى . وفيما بعد ؛ زعم صبى صغير كيف أنه كان يبحث عن طعم خلف البيت رقم ١٢٤ ، بالقرب من الجدول ، ورأى امرأة عارية ، تجتاز الغابة ، ورأسها يغطيه سمك بدلا من الشعر .

وحقيقة الأمر أن بول د.لايبالى بكيف ذهب الشبح أو حتى لماذا . إنه مهتم بكيف رحل ولماذا . فعندما ينظر إلى نفسه من خلال عينى جارنر ، يرى شيئا واحدا . ومن خلال عينى سيكسو شيئا آخر . أحدهما يشعره بأنه صالح . وأحدهما يشعره بالخزى . مثل الوقت الذى عمل فيه على جانبى الحرب . حين هرب من بنك وسكك حديد نورث يونيت لينضم إلى الفرقة الملونة الرابعه والأربعين فى تنيسى ، ظن أنه أفلح ، لكى يكتشف أنه

وصل إلى فرقة ملونة أخرى تتشكل تحت قيادة قائد فى نيوجيرسى . بقى هناك أربعة أسابيع . انقسمت الفرقة قبل أن تبدأ حول مسألة ما إذا كان ينبغى أن يحصل الجنود على أسلحة أم لا . وجاء القرار بالنفى ، وكان على القائد الأبيض أن يحسب مايأمرهم بعمله بدلا من قتل بيض آخرين . بقى بعض العشرة آلاف ليقومون بأعمال التنظيف والجر والبناء ؛ وانجرف آخرون إلى فرقة أخرى ؛ وترك الأغلبية ليدبروا أمورهم بالمرارة بديلا عن الأجر . كان يحاول أن يقرر ما يفعله عندما لحق به عميل من بنك نورث بوينت وأعاده إلى ديلاوير ، حيث اشتغل بالسخرة لمدة عام . ثم تقاضت نورث يونيت ٣٠٠ دولار فى مقابل خدماته فى ألاباما . حيث عمل للمتمردين لفرز الموتى أولا ثم لصهر الحديد . عندما كان هو ومجموعته يمشطون ساحة القتال ، كانت مهمتهم أن يفرزوا الجرحى الاتحاديين ويجذبوهم بعيدا عن الموتى الاتحاديين . أمروهم بالحرص ، بالحرص الشديد . كان الملونون والبيض يتلمسون طريقهم ، ووجوههم ملفوفة حتى عيونهم ، خلال المراعى بمصابيح ، ينصتون فى الظلام لأنات الحياة وسط صمت الموتى اللا مبالى . معظمهم شبان ، وبعض الأطفال ، وأحس بالخزى قليلا لأنه شعر بالشفقة على من تخيلهم أبناء الحراس فى ألفريد ، جورجيا .

فى خمس محاولات لم يصادف نجاحا واحدا دائما . كان كل هرب له (من سويت هوم ، من براندواين ، من ألفريد ، جورجيا ، من ويلينجتون ، من نورث يونيت ، قد أحبط . لم يبق أبدا بغير القبض عليه ، لأنه كان وحيدا ، غير متنكر ، بجلد مرئى وشعر

لا ينسى ولا رجل أبيض يحميه . كان أطول هروب عندما فرّ مع المسجونين ، وأقام مع الشيروكيين ، وتبع نصيحتهم وعاش مختبئا مع المرأة النساجة فى ويلمينجتون ، ديلاوير : ثلاث سنوات . وفى كل عمليات الهرب لم يملك إلا الدهشة من جمال هذه الأرض التى لم تكن أرضه . اختبأ فى صدرها ، نبش ترابها بأصابعه بحثا عن طعام ، تشبث بشواطئها ليلعق الماء وحاول ألا يحبها. وفى الليالى التى كانت فيها السماء شيئا يخصه، مثقلة بوزن نجومها ، أرغم نفسه على عدم حبها . جباناتها وأنهارها الواطئة . أو مجرد بيت ـ موحش تحت شجرة توت ؛ ربما بغل مربوط والضوء يسقط على جلده بهذا الشكل . كان كل شىء يثيره وحاول جاهدا ألا يحبها .

بعد بضعة شهور قضاها فى ساحات المعارك فى ألاباما ، تم تحويله لمسبك فى سيلما مع ثلاثمائة من السود الأسرى أو المعارين أو المقبوض عليهم . هكذا كان حاله فى نهاية الحرب ، وكان ينبغى أن يكون رحيله عن ألاباما عندما أُعِلنَ حرا عملا سهلا . كان يجب أن يكون بوسعه أن يسير من مسبك سيلما رأسا إلى فيلادلفيا ، وهو يتبع الطرق الرئيسية ، أو قطارا إذا شاء ، أو رحلة فى قارب . لكن لم يكن الأمر كذلك . فعندما سار هو وجنديان ملونان (أسرا من الفرقة الرابعة والأربعين التى كان يبحث عنها) من سيلما إلى موبيل ، رأوا اثنا عشر ملونا ميتا على طول الأميال الثمانية عشر الأولى . اثنان منهما نساء وأربعة صبية صغار . كان يظن أنها ستكون بالتأكيد نزهة حياته . ترك الشماليون المسيطرون المتمردين فى حالة يتعذر السيطرة عليهم

فيها . وصلوا إلى ضواحى موبيل ، موبيل ، حيث كان السود يقيمون خطوطاً حديدية للاتحاد ، كانوا هم من نزعوها قبلا للمتمردين . كان أحد الجنديين بصحبته وهو نفرا اسمه كين. مع فرقة ماساشوستس الرابعة والخمسين . أخبر بول د.أنهم كانوا يتقاضون أجراً أقل من الجنود البيض . كانت نقطةحساسة بالنسبة له أنهم ، كمجموعة ، رفضوا عرض ماساشوستس أن تعوض الفرق فى الأجر . تأثر بول د.بفكرة أن يُدفع له نقود ليحارب إلى درجة أنه نظر الى النفر بدهشة وحسد .

صادر كين وصديقه ، الجاويش روسيتر ، قاربا صغيرا وترك ثلاثتهم القارب تتقاذفه مياه خليج موبيل . وهناك نادى النفر سفينة مدفعية تابعة للاتحاد ، سمحت لثلاثتهم بالصعود إلى سطحها . نزل كين وروسيتر عند ممفيس ليبحثا عن قائديهما . سمح قائد السفينة لبول د.بالبقاء على ظهرها على طول الطريق إلى هويلينج، غرب فرجينيا. وشق طريقة إلى نيوجيرسى.

ما أن وصل إلى موبيل ، حتى كان قد رأى أمواتا أكثر من الأحياء ، لكنه حين وصل إلى ترنتون حتى أعطته حشود الأحياء ، الذين لايصيدون ولايصادون ، قدرا من الحياة الحرة حلوة المذاق لم ينسها أبدا . وبينما كان يتحرك على طول طريق نشط ملىء ببيض لايحتاجون الى تفسير لوجوده ، كانت النظرات التى صوبت نحوه لها علاقة بملابسه المزرية وشعره الذى لايمكن الصفح عنه . ومع ذلك ، لم يطلق أحد إنذارا . ثم جاءت المعجزة . بينما كان يقف فى شارع أمام صف من البيوت المشيدة بالطوب الأحمر ، سمع رجلا أبيض يناديه (أقول! أنت!) ليساعده فى

إنزال صندوقين من حافلة . وبعد ذلك أعطاه الرجل الأبيض عملة معدنية . راح بول د.يسير وهو يحملها معه لمدة ساعات. غير متأكد مما يمكنها أن تشتريه (حلة؟ وجبة؟ حصانا ؟) وما إذا كان أحد ليبيعه شيئا . وأخيرا رأى بائعا يبيع الخضر من عربة . أشار بول د.إلى مجموعة من اللفت . ناولها البائع له ، وأخذ عملته الواحدة وأعطاه عدة عملات. تراجع للخلف مذهولا . نظر فيما حوله ، ولم ير أحدا يبدى أهتماما «بالخطأ» أو به ، وهكذا واصل السير ، وهو يمضغ اللفت بسعادة . بدا نفور غامض على بضع نساء فقط وهن يمررن . جعلته عملية شرائه الأولى التى كسب ثمنها يتوهج ، ولايهم إن كانت اللفتات ذابلة الى حد الجفاف . كان ذلك حين قرر أن الأكل والمشى والنوم فى أى مكان كان حياة طيبة إلى أقصى حد . وفعل ذلك سبع سنين حتى وجد نفسه فى جنوب أوهايو ، إلى حيث ذهبت امرأة عجوز وفتاة كان يعرفهما .

والآن كان مجيئه فى الاتجاه العكسى لذهابه . يقف أول الأمر فى الخلف ،قرب كوخ التبريد ، مذهولا من عربدة زهور آخر الصيف حيث ينبغى أن تنمو الخضروات. الوضع الشاذ للعلب الصفيح محشورة مع سيقان الأشياء المتعفنة ، والزهور ذابلة كأنها بثور . جدائل اللبلاب الميتة حول أعمدة الفاصوليا ومقابض الأبواب . صور جرائد باهتة مسمرة إلى المرحاض الخارجي وعلى الأشجار . حبل أقصر من أن يصلح لشيء سوى الوثب بالحبل يرقد مطروحا بالقرب من حوض الغسيل ؛ وجرات وجرات من حشرات ميتة . كأنه بيت طفلة ، بيت طفلة طويلة جدا .

يسير إلى الباب الأمامى ويفتحه. البيت هادىء تماما. وفى

المكان الذى غمرته فيه ذات مرة حزمة من ضوء أحمر حزين، يحبسه حيث يقف، لاشىء. لاشيئية كئيبة ناقصة. أكثر شبها بالغياب، لكنه غياب كان عليه أن يخوضه بنفس التصميم الذى كان لديه حين وثق بسيث وخاض خلال الضوء النابض. يلقى نظرة سريعة على الدرج الأبيض بلون البرق. الحاجز كله ملفوف بشرائط وعقد، وباقات زهور. يخطو بول د إلى الداخل. يحرك النسيم الخارجى الذى يجلبه معه الشرائط. يتسلق درجات السلم المضيئة بحرص، لابعجلة وإن لم يضع وقتا. يدخل غرفة سيث. هى ليست هناك والسرير يبدو صغيرا بشكل يدعوه إلى التساؤل كيف كانا يرقدان هناك. ليس عليه ملاءات، ولأن نوافذ السقف لاتفتح فالغرفة خانقة.. تتناثر على الأرضية ملابس زاهية الألوان. الثوب الذى كانت «محبوبة» ترتديه عندما رآها لأول مرة معلق من وتد بالحائط. فى السلة بالركن يرقد زوج من مزالج الانزلاق على الجليد. يدير عينيه مرة أخرى إلى السرير ويظل ينظر إليه. يبدو له مكانا هو ليس فيه. وبمجهود يجعله يتصبب عرقا يفرض صورة لنفسه وهو يرقد هناك، وعندما يراها، ترفع معنوياته. يذهب الى حجرة النوم الأخرى. حجرة دنفر مرتبة بقدر ما تكون الغرفة الأخرى مهوشة. وماتزال سيث لا أثر لها. ربما عادت الى العمل، وتحسنت فى الأيام التى مضت منذ التقى بدنفر. يعود إلى هبوط الدرج، تاركا صورة نفسه مثبتة فى مكانها على السرير الضيق. يجلس إلى مائدة المطبخ هناك شىء مفتقد من البيت رقم ١٢٤. شىء أكبر من الناس الذين يعيشون هناك. شىء أكثر من «محبوبة» أو الضوء الأحمر. لايستطيع أن يحدده، لكنه يبدو

للحظة أنه فيما وراء معرفته هناك حملقة من شيء خارجي يعانق حين يتهم .

إلى يمينه ، حيث باب الغرفة الاحتياطية موارب ، يسمع دندنة . أحدهم يدندن لحنا . لحنا ناعما وعذبا كأنه أغنية مهد . ثم بضع كلمات . تبدو مثل «تواثب عاليا ياجونى ، تواثب وثبات واسعة يا جونى . ويا ويليام اللطيف انحن إلى أسفل .» يفكر ، بالطبع. هى هناك .. وهى هناك بالفعل . ترقد تحت لحاف ألوانه مبهجة . وشعرها ، الذى يشبه الجذور الداكنة الرقيقة لنباتات طيبة ، ينتشر وينحنى على الوسادة . وعيناها المثبتتان على النافذة بلا تعبير حتى أنه لم يعد واثقا أنها سوف تعرف من يكون . هناك ضوء شديد للغاية فى هذه الغرفة. تبدو الأشياء مباعة .

إنها تغنى : « ارتفع أيها العشب البرى عاليا ، على كتفى صوف ضأن ، ويطير الحوذان والبرسيم . كانت تغنى وهى تداعب بأصابعها خصلة طويلة من شعرها .

يصفى بول د حنجرته ليقاطعها : « سيث ؟ »

تدير رأسها : « بول د . »

« أوه ، سيث . »

«لقد صنعت الحبر ، يابول د . لم يكن بإمكانه أن يفعله إذا لم أصنع الحبر . »

« أى حبر ؟ من ؟ »

« هل حلقت ذقنك ؟ »

« نعم. تبدو سيئة ؟ »

« لا . أنت تبدو بحال طيب . »

« يالفوضى الشيطان . ماهذا الذى أسمعه من أنك لاتغادرين السرير ؟ »

تبتسم ، تترك ابتسامتها تشحب وتدير عينيها الى النافذة .

يقول لها : « أنا بحاجة إلى الحديث معك . »

لا تجيب .

« رأيت دنفر. هل أخبرتك ؟ »

« إنها تأتى بالنهار . دنفر . ماتزال معى ، دنفر طفلتى . »

« لابد أن تنهضى من هنا ، يافتاة . » عصبى هو . يذكره هذا بشىء .

« إننى متعبة ، يابول د . لابد أن أستريح قليلا . »

الآن يعرف مايذكره هذا به ويصيح بها : «لاتموتى بين يدى! هذا سرير بيبى سجز! هل هذا ماتخططين له ؟» اشتد غضبه إلى درجة أنه يستطيع أن يقتلها . يمنع نفسه ، وهو يذكر تحذير دنفر ، ويهمس : « ما الذى تخططين له ، يا سيث ؟ »

« أوه ، ليست لدىّ أية خطط . لاخطط على الإطلاق . »

يقول : « اسمعى . ستكون دنفر هنا بالنهار . وسأكون أنا هنا فى الليل . سوف أعتنى بك . هل تسمعين ؟ بدءا من الآن . وأولا ،

إن رائحتك ليست على ما يرام . ابقى هنا. لا تتحركى دعينى اسخن بعض الماء.» يتوقف . «هل هذا على ما يرام ، يا سيث ، إذا سخنت بعض الماء ؟»

تسأله : «وتعد أقدامى . »

يقتَرب أكثر : «أدلك قدميك . »

تغمض سيث عينيها وتضم شفتيها بشدة . إنها تفكر : لا . هذا المكان الصغير بجوار النافذة هو ما أريده . والراحة. ليس هناك ما يدلك الآن ولا سبب لتدليكه . لم يعد هناك ما يغتسل ، علىّ فرض أنه حتى يعرف كيف يقوم بذلك . هل يفعل ذلك فى قطاعات ؟ أولا وجهها ، ثم يديها ، فخذيها ، قدميها ، ظهرها ؟ منتهيا بثدييها المرهقين ؟ وإذا كان سيغسلها جزءاً جزءاً ، فهل تتماسك الأجزاء ؟ تفتح عينيها ، وهى تعرف خطورة أن تنظر إليه . تنظر إليه . الجلد بلون نواة الخوخ ، الثنية بين عينيه المنتظرتين الجاهزتين ، وتراه . ذلك الشىء فيه ، البركة التى جعلته ذلك النوع من الرجال الذى يمكنه أن يدخل فى بيت وتجعل النساء يبكين . لأن بإمكانهن أن يفعلن هذا معه ، فى حضوره . يبكين ويخبرنه بأشياء لايقلنها إلا لإحداهن الأخرى : أن الوقت لم يتوقف فى مكانه ؛ أنها نادت ، لكن هوارد وبجلر واصلا سيرهما على طول شريط السكة الحديدية ولم يمكنهما أن يسمعاها ، أن ايمى كانت فزعة من البقاء معها لأن قدميها كانتا قبيحتين وظهرها كان منظره سيئا ؛ أن أمها قد جرحت مشاعرها وأنها لم تستطع أن تعثر على قبعتها فى أى مكان و«بول د ؟»

«ماذا ، ياطفلتى ؟»

«لقد تركتنى.»

«أوه، يافتاة. لاتبكى.»

«كانت أفضل شيء لدىّ.»

يجلس بول د فى الكرسى الهزاز ويفحص اللحاف وقد رقع بألوان كرنفالية. يداه رخوتان بين ركبتيه. هناك الكثير من الأشياء التى يجب الشعور بها تجاه هذه المرأة. تؤلمه رأسه. يتذكر فجأة سيكسو وهو يحاول أن يصف ماشعر به تجاه امرأة الثلاثين ميلا. «إنها صديقة عقلى. تلملمنى، يارجل. الأجزاء التى هى أنا، تلملمها وتعيدها إلىّ بترتيب جيد. إنه شعور طيب، تعرف، حين يكون لك امرأة هى صديقة لعقلك.»

هو يحدق فى اللحاف لكنه يفكر فى ظهرها المصنوع من الحديد المطاوع؛ الفم الشهى الذى ما يزال منتفخا من قبضة ايللا. العينان السوداوان الدنيئتان. الثوب المبلل يتصاعد منه البخار أمام النار. رقتها بشأن مجوهرات رقبته- بفروعها الثلاثة، كأنها حيات صغيرة ذات أجراس يقظة، منحنية بطول قدمين فى الهواء. كيف لم تذكرها أبدا أو تنظر إليها، حتى لايضطر إلى الشعور بالعار لأنه ألبس طوقا كأنه حيوان. هذه المرأة سيث فقط كانت قادرة على أن تبقى له رجولته بهذا الشكل. يريد أن يضع قصته الى جوار قصتها.

يقول: «سيث، أنت وأنا، إن لدينا من الأسس أكثر مما لدى أى شخص آخر. نحن بحاجة إلى نوع ما من الغد.»

يميل فوقها ويتناول يدها. وباليد الأخرى يلمس وجهها.

« أنت أفضل شىء لديك ، يا سيث . أنت أفضل شىء . » وأصابعه التى تحتفظ بيدها تمسك بأصابعها .

« أنا ؟ أنا ؟ »

هناك وحدة يمكن أن تؤرجح . الذراعان معقودتان ، الركبتان مرفوعتان ؛ هذه الحركة المستمرة المتواصلة ، بخلاف حركة السفينة ، تلطف من يقوم بالأرجحة وتحتويه . إنها شيء داخلي - ملتف بإحكام مثل الجلد . ثم هناك وحدة تطوف . لايمكن لأرجحة أن تثبتها . إنها حية ، في حد ذاتها . شيء جاف منتشر يجعل صوت أقدام المرء ذاتها تبدو أثناء سيرها كما لو كانت تأتي من مكان بعيد .

كان كل واحد يعرف الاسم الذي كانت تنادى به ، لكن لاأحد في أي مكان كان يعرف اسمها . وهي لا يمكن أن تضيع ، وهي منسية لم يقدم عنها بيان ، لأن لا أحد يبحث عنها ، وحتى لو كانوا ، فكيف ينادونها وهم لايعرفون اسمها ؟ وعلى الرغم من أنها تطالب بحق ؛ إلا أن احدا لا يطالب بها ، ففي المكان الذي يتفتح فيه العشب ، تتفجر الفتاة التي كانت تنتظر أن تجد الحب وتصرخ بالعار الى أجزائها المتفرقة ، لتجعل من السهل على الضحك الذي يمضغ أن يبتلعها كلها بعيدا .

لم تكن قصة تتوارثها الأجيال .

نسوها كأنها حلم ردئ . بعد أن لفقوا حكاياتهم ، وشكلوها وزينوها ، نسيها كل الذين رأوها بالشرفة فى ذلك اليوم بسرعة وعن عمد . استغرق هذا وقتا أطول بالنسبة لأولئك الذين تحدثوا معها ، عاشوا معها ، حبوها ، حتى ينسوها ، حتى أدركوا أنهم لم يكن بوسعهم أن يتذكروا شيئا واحدا مما قالته أو أن يعيدوه ، وبدأوا يصدقون أنها لم تقل شيئا على الإطلاق سوى ما كانوا هم أنفسهم يفكرون فيه . وهكذا نسوها هم أيضا ، فى النهاية . بدا التذكر شيئاً غير حكيم .. فهم لم يعرفوا أبدا أين ربضت ولماذا ، ولا لمن كان الوجه تحت الماء الذى كانت بحاجة إليه بهذا الشكل . حيث كان يمكن لذكرى ابتسامتها تحت ذقنها أن تكون ، وإن لم يحدث ذلك ، مزلاجا انغلق وطحلبا ربط ريعانه التفاحى الأخضر بالمعدن . ما الذى جعلها تفكر أن أظافرها كانت قادرة على فتح الأقفال التى نزل عليها المطر ؟

لم تكن قصة تتوارثها الأجيال .

ولذلك نسوها . مثل حلم بغيض أثناء نوم مزعج . ومن آن لآخر ، على أية حال ، يصمت حفيف تنورة عندما يستيقظون ، وتبدو مفاصل اليد التى تمس برفق وجنة أثناء النوم كما لوكانت تخص النائم . وأحيانا تتبدل صورة صديق أو قريب حميم نظرنا إليها طويلا ، ويتحرك هناك أحيانا شئ أكثر ألفة من الوجه

العزيز ذاته . ويمكنهم أن يتلامسوا إذا رغبوا ، لكنهم لايفعلون ، لأنهم يعرفون أن الأشياء لن تكون نفس الشىء أبدا إذا فعلوا .

ليست هذه قصة تتوارثها الأجيال .

وتحت بجوار الجدول خلف البيت رقم ١٢٤ تجىء آثار أقدامها وتروح ، تجىء وتروح. وهى مألوفة للغاية . ولو أن طفلا ، شخصا ناضجا ، وضع قدميه فيها ، لتطابقا. وإذا أخرجهما تختفيان ثانية كما لم يكن أحد قد سار هناك أبدا .

وعما قريب يزول كل أثر، ولاتنسى آثار الأقدام فقط ولكن الماء أيضا ومايوجد تحت هناك . والبقية الباقية هى الجو . لا أنفاس المنسيين الذين لم يقدم عنهم بيان ، بل الريح فى الافريز البارز فى السطح ، أو ثلوج الربيع وهى تذوب بسرعة. مجرد جو. ومن المؤكد لاصخب فى طلب قبلة .

« محبوبة ».

هذه الرواية فى الصحف والمجلات العالمية

■ «نثر عذب .. ملىء بالصور الحية ، المرسومة لتوها»

التايم

■ «عمل باهر ... ساحر ... غير عادى»

النيويورك تايمز

■ «كتاب مذهل .. إنجاز خالد»

كريستيان ساينس موينتور

■ «عمل له قوة خلقية وعقلية حقيقية ... مكتوب بجمال»

واشنطن بوست

■ «رواية ساحرة وقوية بصورة موجعة .. اقرأها لترتجف»

بينول

■ « أروع عمل لتونى موريسون ...
لم تكتب من قبل عملا مماثلا يجعلها تستحق تلك المكانة المتفردة ، ويجعلها تكشف عن موهبتها المدهشة بهذا القدر .
وهى موهبة تصدم الناس .»

شيكاغو صن ـ تايمز

■ « تحفة .. عمل مدهش ... لايمكن تخيل الأدب الأمريكى بدونه »

أفلتت سيث الجميلة ذات الكبرياء من العبودية ، لكن ميراثها يلاحقها بصورة مزعجة . إذ ينبغى لها أن تتعامل مع هذه الحياة المليئة بأشباح الماضى على كل مستوى ، من انفعالات الجسد إلى تحديات الروح التى تحطم القلوب . إن هذا العرض التاريخى لأحداث العبودية الذى يمس شغاف القلوب ، والذى يدور فى ريف أوهايو بعد الحرب الأهلية بعدة سنوات ، هو أعظم روايات تونى موريسون ، إنه إنجاز مذهل ، وهو أروع تجربة فى القراءة خلال هذا العقد .

جون ليونارد ، لوس انجليس تايمز

من مطبوعات
مركز الأهرام للترجمة والنشر

□ □ قصص

● عيد ميلاد جديد	ترجمة د . محمد عنانى
● ذئب فى قرص الشمس	محمد عبد المنعم
● وكر الوطاويط	احسان عبد القدوس
● فوق الحلال والحرام	احسان عبد القدوس
● كانت صعبة ومغرورة	احسان عبد القدوس
● العتب على النظر	د . يوسف ادريس
● قصص قصيرة	لطفى الخولى
● المجانين لا يركبون القطار	لطفى الخولى

□ □ أفكار وخواطر

● فى الوقت الضائع	توفيق الحكيم
● الحكيم بخيلا	كمال الملاخ
● رحلات ابن عطوطة	محمود السعدنى
● مسافر على الرصيف	محمود السعدنى

بعض ابداعات الأدب الأمريكى المعاصر ، تتسم بأنها فريدة ومتميزة فى محتواها وأدواتها . فهى تطرح قضايا وأفكارا تتصف بقدر هائل من الحيوية والجدلية ، وتستخدم فى ذلك أساليب غير مألوفة . وسلسلة « **من روائع الأدب الأمريكى المعاصر** » تكفل فهما عميقا للأوضاع فى ذلك البلد القارة ، الولايات المتحدة ، على نحو لاتتيحه أى قراءات مهما اتسعت عن أوضاعها الاجتماعية وحضارتها وسياساتها واقتصادها وعلومها وفنونها ، الخ .

ورواية « **محبوبة** » من هذه النوعية . فلم تكن صدفة أن احتلت صورة مؤلفتها ، **تونى موريسون** ، غلاف مجلة « نيوزويك » الأمريكية ، أسوة برؤساء الدول وكبار العلماء والمفكرين ، ذلك أن لها منزلتهم فى ميدان الأدب .

الناشر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام
التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر